فضل العلم

وصفات أهله وفضلهم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله أصل العلوم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده سبحانه علىٰ أن هيأ لنا أبواب الخيرات، ونسأله أن يثبتنا علىٰ ذلك إلىٰ أن نلقاه، وهو راض عنا غير مبدّلين ولا مغيرين ولا مفتونين، اللّٰهمَّ آمين.

وأشهد أن لا إلٰه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإنّ العلم وطلبه من أفضل القربات إلىٰ الله جل وعلا؛ بل عدّ جمع كثير من أهل العلم طلب العلم أفضل النوافل؛ يعني أنهم جعلوا طلب العلم أفضل النوافل التي يطلبها العبد، ولهٰذا فإن السّعي في نشر العلم النافع المقتبَس من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله ﷺ، ومما بينه أئمة الإسلام المؤتمنون علىٰ الدين في فهم الكتاب والسنة، إنّ السعي في ذلك من الجهاد في سبيل الله جل وعلا، ومما يراغم به الشيطان وأعداء الدّين، وهٰذا لاشك حاصل؛ لأن أهل العلم في كل زمان وفي كل مكان هم الذين يرثون الأنبياء، وإذا كانوا هم ورثة الأنبياء فإن ذلك يعني أنهم القائمون بأعباء الدين، فكلما ازداد العلم ازداد الخير، وإذا قل العلم كثرت الجهالة وكثر الشر.

ومن جهة أخرىٰ فإننا اليوم بحاجة كبيرة إلىٰ أعداد كبيرة من طلاب العلم ليفقِّهوا المسلمين في شرق الأرض وفي غربها، فالناس محتاجون اليوم إلىٰ من يبين لهم الحق ويبيّن لهم التوحيد الصحيح والعقيدة الخالصة ومعنىٰ اتباع السنة النبي ﷺ، ويبين لهم أحكام الشرع ويبينوا لهم ما به قوتهم في دينهم وما به اتباع منهج محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

وهذا نحتاج فيه إلىٰ أعداد كبيرة من طلّاب العلم سواء في داخل البلاد أم في خارجها؛ لأن الناس يحتاجون كثيرا إلىٰ طالب العلم ليعلمهم.

ومن القواعد المقررة في الفقه أنّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا كان المقصد بهذه المثابة من فضله وحكمه وأثره فإنّ الوسيلة لتحصيله وإقامته وبثه لها حكمه من جهة الوجوب الكفائي ومن جهة أيضا البذل فيه والسعي في نشره.

ولهٰذا المرء يؤجر علىٰ الوسيلة إذا كانت صحيحة شرعا، كما يؤجر علىٰ الغاية المتفقة مع الشرع، وقد قال الأصوليُّون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والوسيلة تبعٌ للمقصد، فإذا كان المقصد واجبا فوسيلته واجبة من حيث الحكم ومن حيث الأجر، وإذا كان المقصد مستحبا فوسيلته كذلك، وهكذا إذا كان المقصد محرما فوسيلته كذلك، إلا فيما استثني.

والعلم لمن قرأ القرآن وقرأ السنة وعلم هدي الأنبياء يجد أنه أهم المهمات، وأن به النجاة، قال الله جل وعلا: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر]. الذين آمنوا هم أهل العلم علىٰ حسب ما تعلموه من الإيمان، فجمع بين العلم والعمل وقدّم العلم علىٰ العمل.

وأهل العلم قرنهم الله جل وعلا بملائكته فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران]، فجعل الشهادة له بالوحدانية منه سبحانه -وكفىٰ بالله شهيدًا-، ثم بملائكته، وثم بأهل العلم، واقتران أهل العلم بصفوة خلق الله -وهم الملائكة- يدل علىٰ ارتفاع شأنهم وعلىٰ عظم فضل ما سعوا فيه وما اتصفوا به.

الأنبياء هم سادة العلماء، فكل نبيٍّ هو أعلم أهل زمانه بما أنزل الله جل وعلا إليه، والنبي ﷺ محمد بن عبد الله أرشده ربه جل جلاله وتقدست أسماؤه إلىٰ أن يطلب الازدياد من العلم فقال سبحانه لنبيه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، قال المفسرون: معنىٰ ﴿زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي قل يا ربي زدني منك علما، وقال آخرون: معناه يا رب زدني منك فهما.

قال سفيان ابن عيينة الإمام المعروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: لم يزل الله سبحانه جل وعلا يزيد نبيه من العلم بالإنزال الوحي حتىٰ توفاه الله جل جلاله. وهٰذا لأن الآية كما هو معلوم مكية في سورة طه، والنبي ﷺ لم يزل الله جل وعلا يوحي إليه بالعلم ويفهمه حتىٰ كان بما أرشد الأمة إليه من العلم مستجاب الدعوة في هٰذه السورة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

قال طائفة من أهل العلم: لم يأمر الله جل وعلا نبيه ﷺ أن يطلب الازدياد من شيء إلا من العلم فحسب؛ وذلك لأن العلم الازدياد منه ازديادٌ في الإيمان، ازدياد في تحقيق الشريعة، ازدياد في العبودية، ازدياد في العمل، ازدياد في الجهاد، ازدياد في أثر ذلك علىٰ خاصة الإنسان وعلىٰ عامة الناس، وأما عامة أهل الإيمان فإنهم درجات؛ يعني من بعد الأنبياء فإنهم درجات أعلاهم درجة وأرفعهم قدرا هم أهل العلم كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾[المجادلة:١١]؛ فجعل الجميع مرفوعين فخصّ أهل العلم بالرفعة درجات كما قاله طائفة من المفسرين.

وهذا يدلك علىٰ أنّ العبد الصالح إذا أراد القربىٰ من الله جل وعلا والطاعة له والاجتهاد والجهاد في سبيله، فإنّ أعظم الطرق إلىٰ ذلك العلم النافع؛ لأن بالعلم ازدياد الخير في نفس العبد وفي غيره، فالعلم فضله في هٰذه الشيعة عظيم، فضله يتعدىٰ أن يكون مقتصرا علىٰ عبادة من العبادات؛ بل فضل العالم علىٰ العابد -يعني علىٰ عابد المؤمنين- فضل عالم لأهل الإيمان علىٰ عابد المؤمنين كفضل النبي ﷺ علىٰ سائر الأمة، كما جاء في الأثر.

العلم يحتاج منَّا إلىٰ أن نَعْرِفَه وأن نتعرف فضله وأن نتعرّف منزلته حتىٰ نقبل عليه لأننا إذا علمنا شأن العلم وعلمنا فضله وعلمنا أثره فإن النفوس ترغب أكثر وأكثر في ذلك، فتحصيل العلم أعظم النوافل كما قلنا، والعلم منه واجب فرض علىٰ الجميع ومنه تطوّع؛ لكن بعد أداء الفرائض ليس ثم أفضل من العلم، كما قال ذلك جماعة من العلماء ورُجِّح علىٰ الجهاد في سبيل الله تعالىٰ -جهاد التطوع- لما له من عموم الأثر في الحاضر وفي المستقبل؛ بل هو في الحقيقة عُدة الجهاد وقوة النفس؛

لأن طالب العلم قوي الإرادة قوي النفس قوي الأثر لما يعلم من فضل العلم ومن رِضا الله جل وعلا عن عباده.

لهذا جاء في الحديث الصحيح: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**». العالم أو طالب العلم أو السائر في ذلك السبيل إذا سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن فضل العلم علىٰ صاحبه أن أي طريق تلتمس فيه العلم النافع الذي مردّه ومأخذه من النص –من الكتاب والسنة ومن فهم أهل العلم– فإنّ ذلك سبيل إلىٰ أن يسهل لك به طريق إلىٰ الجنة.

العلم سبب لمغفرة الذنوب وازدياد الحسنات؛ لأن طالب العلم وهو يتعلم حسناته تزداد، وإنّ الحسنات يُذهبن السيئات، كما ذكرنا لك أنّ طلب العلم من أعظم العبادات فضلا في نفسه وأجرا وثوابا، فيكون –إذن– من أعظم الحسنات التي تُكفَّر بها السيئات قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[هود]، وقال النبي ﷺ: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وهذا يدل علىٰ أنّ طالب العلم يزداد من الحسنات وتكفَّر بذلك سيئاته، إذا قرأ أو إذا كتب أو إذا حضر مجلس العلم أو إذا كرر وحفظ بالنية الصالحة فإنه مأجور وحسناته مكفِّرة لسيئاته ما اجتُنبت الكبائر.

بل إن العلم لأهله ولطلبة العلم سبيلٌ لقوة في دين الله جل وعلا، فالعالم أو طالب العلم يكون قويًّا في دينه لا يدركه الشيطان إلا ما شاء الله جل وعلا، طالب العلم قوي في إيمانه؛ لأنه علم الإيمان بحجته، قوي في عمله؛ لأنه يتعبد وهو يعلم كيف تعبد النبي محمد ﷺ، فهو حين يتعبد يتذكّر ما حُجته في عبادته فيرتبط قالبا وقالبا بسنة النبي ﷺ في صلاته تذكُّرا وفي عباداته وفي صلته وفي دعوته وفي جهاده وفي أمره بالمعروف ونهيه بالمنكر وفي علاقاته، كل ذلك عن علم وعن بصير، بخلاف من يعمل تلك الأشياء عن غير علم فإنه لا يرتبط بهدي النبي ﷺ ولا يتذكّر النبي ﷺ وهدي الصحابة في ذلك.

فطالب العلم موصولٌ بأئمة الدين، موصول بأئمة الإسلام أيضا بعد نبينا ﷺ وبعد الصحابة، فيعمل وهو يعلم أن هذه قال بها الإمام أحمد، قال بها الشافعي، قال بها سعيد بن جبير، قال بها الإمام مالك، قال بها ابن تيمية، وقال بها ابن حزم، قال بها فلان وفلان، فهو موصول بتذكّر هؤلاء العلماء الذين منّ الله جل وعلا عليهم بثناء الأمة عليهم، وهذا يعني الصّلة المستمرة بأهل العلم، والنبي ﷺ يقول: «**أنت مع من أحببت**».

العلم فضله عظيم في أن طالب العلم في تعلمه يؤجر لأنه صاحب نية صالحة، والنبي ﷺ يقول: «**إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لامرئ ما نوىٰ**» فكل عبد له ما نوىٰ، وإذا صحت نيّة طالب العلم في العلم فإنه فيما يأتي من العلم بنية صحيحة يؤجر علىٰ ما يعمل من تفاصيله، فكل عمل يعمله بنية صالحة عبادة مستقلة عظيمة يؤجر عليها، كيف إذا كان هذا العلم أعظم ما يُطلب وهو كتاب الله جل وعلا، فلهذا إذا حفظ القرآن بنية صحيحة أو طلب علم التفسير أو طلب الفقه في الدين فإن أجره حينئذ يضاعف ويضاعف والله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عمله.

صاحب العلم عمله الصالح يضاعَف له بحسب ما في قلبه من اليقين، الله جل وعلا يجزي عن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن الناس مختلفون في تضعيف أعمالهم، فمن العباد من يؤجر بالحسنة عشر حسنات، وهذا مِنّة من الله جل وعلا وكرم في جميع أهل الإيمان، «**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**»، كل مؤمن يأتي بحسنة يجعلها الله جل وعلا عشرة حسنات؛ لكن قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة**» قال أهل العلم: هذا التضعيف لأجل ما وقر في قلب العامل من العلم النافع الذي يتفاوت به الناس، والمقصود بالعلم النافع هنا هو سلامة التوحيد، سلامة القلب، سلامة العقيدة، سلامة الإخلاص، ونحو ذلك من اليقين والصلاح.

لهذا قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه قال: **ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ ويقين أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين**.

(**ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ**) يعني إخلاص لله جل وعلا وخوف منه ورغبة في لقائه، (**ويقين**) تيقّن وهو العلم الذي لا يدرك الإنسان معه شك ولا ريب أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين؛ لأن الله جل وعلا يضاعف العمل إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، لهذا يختلف ثواب عبادة طالب العلم وعبادة غيره؛ لأن هذا يتعبد وهو يعلم كيف يتعبد وهو يعلم حجته، وهو يعلم مرجعه فيما تعبد وهو صحيح القلب وهو صحيح النية في ذلك صحيح العمل، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

من فضل العلم أنّ العلم يفتح للعبد أبواب الخيرات، وذلك أنّه يتعلّم سَعَة أنواع العبادات، فيتعلم الفرائض من الشعائر والنوافل، ويتعلم كيف يبيع وكيف يشتري، ويعلم كيف يصل رحمه، ويتعلم كيف يوصي، ويتعلم كيف يوقف، ويتعلم كيف يعاشر أهله، ويتعلم كيف يربي ولده، ويتعلم كيف يصحح قلبه وكيف يزهد في الدنيا وكيف يقبل علىٰ الآخرة وكيف يعظّم ربه ويتعلم ويتعلم ويتعلم، وهذا العلم بأنواعه يفتح له ولابد أبواب الخير بحسب ما قُدِّر له، ويتعلم فضل الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، ويتعلم فضل تيسير الخير وإعانة المسلمين ومدّ يد العون لهم في أمر دينهم في أمر دنياهم، ويتعلم سلامة الصدر من الحسد والحقد والغل فيكون ذلك مؤثرا فيه، يتعلم الأمر بالمعروف فضله والنهي عن المنكر وفله ويسارع في ذلك وبحسب أصوله الشرعية وأحكامه المرعية، ويتعلم ويتعلم، فتكون أبواب الخير عنده دائما في باله لا يغفل عنها؛ لأنه يرددها ويذكرها ويراجعها فلا يغفل عن ذلك، فهو في يومه وفي ليلته في الحقيقة موصول بأنواع العبادات التي تتفتح له بنية صالحة إذا منَّ الله جل وعلا عليه في ذلك.

من فضل العلم أيضا أن العالم ومعلِّم الناس الخير وُصف بأنه مبارك بارك الله جل وعلا فيه وعليه، قال الله جل وعلا مخبرا عن قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم]، قال أهل العلم في التفسير: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ يعني جعلني معلِّما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر أينما كنت، ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا

دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ يعني مع تلك الصفة التي هي بركة العلم فإنه متعبد لله جل وعلا غير غافل عن عبادته لربه جل جلاله.

وهٰذا هو البركة العظيمة التي هي بقاء الخير وثباته ونماؤه وزكاؤه؛ لأن البركة معناها الثبات والبقاء، جعله مباركا؛ يعني معلما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مبلغا رسالة ربه، وهذا كله يُثمر البركة من الله جل وعلا علىٰ عبده، وهذه هي التي يريدها العبد ويطلبها أن يرضىٰ الله جل وعلا عنه فيجعله ثابتا باقيا علىٰ ما يحبّ الله جل وعلا ويرضىٰ.

من قرأ سِيَر العلماء وجد أنّ أهل العلم في كل زمان ومكان هم المنافحون عن دين الله جل وعلا، وأنهم الثابتون حين تتنازع الناس الأهواء، وأنهم المستقيمون علىٰ السنة حين تدلهم البدع وتعقد الفتن ألويتها، ولهذا جاء في كلام الإمام أحمد في خُطبة كتابه «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فَترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضلّ إلىٰ الهدىٰ، ويبصرونهم من العمىٰ، ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه.

ثم ذمّ المخالفين الذين كان العلم عندهم، علم بدعة وضلال، ووصفهم بأنّهم يعني بأن أهل العلم الصالحين بأنهم مخالفون لأهل البدع الذين عقدوا ألوية البدعة وهم مختلفون في الكتاب مخالفون في الكتاب. أو كما قال.

أهل العلم من قرأ التاريخ وجد أنهم الأصلب من أهل العبادة أو من أهل الاحتساب أو ما شابه ذلك؛ لأنهم عن بصر نافذ وقفوا، وببصر نافذ أيضا قاموا وعملوا، كما وُصف الصحابة رضوان الله عليهم بأنهم علىٰ علم وقفوا وأنهم ببصر نافذ كفّوا، فأهل العلم فيما يأتي من مدلهمات أو مما يأتي من شبه وفي كل زمان يكونون علىٰ علم يقفون وببصر نافذ وبصيرة يتفرّسون، ولهذا ضمّهم النبي ﷺ إلىٰ نفيه حين أمره الله جل وعلا في آخر سورة يوسف أن يقول: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف]، ولم يؤت الناس وتَضعف هذه الأمة إلا لما نزع أُناس إلىٰ الدين بجهل، كما فعل الخوارج، وكما فعل طائفة من أهل البدع الذين خالفوا السنة، نزعوا إلىٰ الخير ونزعة إلىٰ الصلاح؛ لكنهم نزعة إلىٰ ذلك علىٰ خلاف السنة وعلىٰ خلاف طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، فصاروا مع ما هم عليه، صاروا مذمومين علىٰ كل لسان.

فإذن أهل العلم في التاريخ هم الأفضل، وهم الأنبه، وهم الأعلم، وهم الأكثر أثرا في هذه الأمة، لما جاءت فتنة خلق القرآن وقال الإمام أحمد فيها ما قال، وقصة ذلك تعرفونها، سُئل بعض الأئمة من أعلم الناس قال: أحمد. وهذا منه -لا أدري هل هو إسحاق أو نحوه- هذا منه ليشير إلىٰ أن ثباته في ذلك الموقف كان نتيجة لعلمه الغزير بتوحيد الله جل وعلا وبسنة النبي ﷺ.

أهل العلم في كل زمن هم القدوة التي يَقتدي الناس بهم، فمتىٰ جاء الطعن فيهم صار الطعن راجعا بشكل أو بآخر إلىٰ الدين الذي يحملونه؛ لأن الناس لابد لهم من قدوة يقتدون بها ومرجع يرجعون إليه. فإذا طعن في حملة العلم وفي أهل العلم وفي من ينشر العلم قام ذلك قدحا في من قدح في دين الله جل وعلا وفي العلم.

ولهذا لا يقال: إن العالم يَسْلَم من الزّلة أو يسلم من الغلط أو سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، ليس كذلك؛ بل لابد له من ذنوب تُرجىٰ مغفرتها من الله جل وعلا؛ لكن الشأن أن لا يبلّغ في دين الله جل وعلا ما هو مخالف لدين الله جل وعلا أما أن يقع منه الذنب فيقع.

ولهذا قال العلماء في قواعدهم العالم لا يُتبع بزلته ولا يتَّبع في زلته، لا يتبع في زلته تأتي تعنف علىٰ ما زلّ فيه، وصار منه من غلط سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، وأيضا لا يتّبع في زلته كصنيع الجهلة يقولون: فعلها فلان، لماذا أنت حالق حيتك؟ قال: فلان من المشايخ حالق لحيته هذا عالم، العالم يتبع بزلته ولا يتّبع أيضا في زلته؛ لأن العالم لابد أن يقع من غلط، لابد أن يقع منه زلة، ولابد أن تقع منته هفوة ولابد يقع منه مخالفة، لماذا؟ ليبقىٰ الكمال في هذه الأمة في محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، منه يؤخذ هذا الدين، سنته هي التي تتبع، أما لو وجد عالم لا غلط فيه البتة لاشتبه –كما قال بعض أهل العلم– لاشتبه العلماء بالأنبياء، وهذا غير واقع.

فيبقىٰ الناس حينئذ، وهذه حكمة من الله جل وعلا، يبقىٰ الناس حينئذ معلَّقين بالعلماء ومتعلقين بالعلماء لكن الأصل أنهم معلقون بسنة النبي ﷺ وبهدي السلف الصالح.

العلماء لم ينالوا العلم عن شهوة، ولم ينالوا العلم بتمني النفس؛ ولكن نالوا العلم بجد وفير وببذل عريض، جمعوا ليلهم ونهارهم في العلم، حتىٰ استوىٰ لهم سوق، قال بعض الصالحين في السلوك وهو ينطبق علىٰ العلم قال: **من كانت بداياته مُحرقة كانت نهاياته مشرقة**. يعني أن بداية طالب العلم –هو أراده في السلوك– ولكن نجعله في العلم وهو صحيح، من كان بدايته في العلم قوية متينة محرقة يعني من قوتها، في نهاياته تكون حاله مشرقة؛ يعني ترق شمسه فيضيء لنفسه ويضيء للآخرين.

فصفة أهل العلم لمن قرأ التراجم وقرأ سِيرهم أنهم جَدُّوا في العلم من الصغر وطلبوا ذلك ورحلوا فيه، ومن لم يكن له رحلة فلن يكون رُحَلة بمعنىٰ أنه من لم يتعب في العلم ويطلب ذلك فلن يطلب الناس منه العلم.

ولهذا أوصي بقراءة سير أهل العلم فإنه لا مشجِّع علىٰ العلم مثل مطالعة سِير العلماء، وكيف تعلموا وكيف صبروا علىٰ العلم، وكيف صبروا علىٰ التحصيل، وكيف صبروا علىٰ الحفظ وكيف وكيف.

وقد سئل البخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ صاحب الصحيح محمد بن إسماعيل: ما دواء الحفظ في العلم؟ كان البخاري يحفظ مئات الآلاف من الأحاديث، فقيل له: ما دواء الحفظ؟ كان شائعا أن هناك أدوية للحفظ ظنوا أن البخاري يتعاطىٰ ذلك، كما كان بعضهم يتعاطىٰ بعض المأكولات أو بعض اللبان أو بعض إلىٰ آخره ليقوىٰ الحفظ.

فقال من تجربته: لم أجد للحفظ أنفع من نَهْمَة الرجل وكثر النظر. أمران:

نهمة الرجل: يعني نهمة طالب العلم، وهكذا كان طالب العلم النهمة والرغبة والحرص الشديد، بحيث يجتمع في العلم ليلك ونهارك وتفكيرك.

وإدمان النظر: أيضا كثرة المطالعة، لا تغفل علىٰ العلم؛ لأن العلم ضيف شريف عليك، إن أكرمته بقي عندك وإن تركته تركك ورحل، وهذا مجرب، فبقدر ما تقبل علىٰ العلم يقبل عليك، وبقدر ما تغفل عنه يغفل عنك ويذهب.

الحفظ أساس في العلم كان العلماء عليه، ولا تلتفت لمن يزهدك في الحفظ، لأن الحفظ يبقىٰ، وأما الفهم فهو يأتي ويذهب ولكن إذا ركز الحفظ جاء الفهم بعده فبقي الحفظ والفهم ما شاء الله.

من صفات أهل العلم أن أهل العلم لما حفظوا وتعلموا كانوا علىٰ طريق واضح وهو طريق من سلك في العلم والتعلم، العلم هناك مدارس كثيرة فيه؛ لكن لم ينجح فيها بالتجربة وبالنظر وبالميدان إلا من سلك فيها طريق الأولين؛ لأن الله جل وعلا قال لنبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[القيامة]. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ يعني أن يقرأ كما قرئ عليك، اتبع قرآنه علىٰ نحو ما قرئ عليك هذا معناه الحفظ، قال ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ليكون الفهم والبيان بعد الحفظ والاتّباع في ذلك.

وقال أيضا جل وعلا لنبيه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ﴾[طه:١١٤]؛ يعني اسمع، فإذا علمت كيف قرئ وكيف تُلي بعد ذلك اتَّبع هذا ولا تعجل، وهذا واضح في سير أهل العلم لأنهم لما سلكوا طريق الأولين نجحوا في ذلك.

لهذا لابد أن تسلك في العلم الطرق الموضحة لكم في مثل هذه الدورات التي تستفيد منها كثيرا في شرح المتون وفي بيان معاني كلام أهل العلم؛ لكن لا يُكتفىٰ بذلك، لابد أن تكون مع العلم ليلا ونهارا.

ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ قال: نظرتُ في ثبت خزانة المدرسة النّظامية -المدرسة النظامية مدرسة يعني شبه جامعة، في القرن الخامس والسادس الهجري واستمرت في العراق، وكان لها مكتبة بناها النظام الملك حد الولاة في ذلك الزمن- قال: نظرت في ثبتها فإذا فيه يعني ما يقارب ستة آلاف كتاب، فإذا فيه ستة ألاف كتاب. قال ولو قلت لي: كم قرأت في الصغر؟ لقلت علىٰ ما يزيد عن عشرين ألف مجلد.

ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كان يكتب في اليوم الواحد كراسة، ويبلغ ما يكتب في السنة إما نسخا أو تأليفا أكثر من مائة مجلد، في السنة الواحدة.

وحدّث عن نفسه فقال كنت من نهمي في العلم أني إذا دخلت بيت الخلاء جعلت ولدي يقرأ لي خارجا ليسمع فلا يفوته، وإذا زارني بعض الثقلاء اشتغلت أثناء وجوده عندي بتجهيز الورق وبري الأقلام للكتابة، همة عالية.

الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كان يبحث مرة في مسألة من المسائل، فأتته زوجته، يصح أن تقول زوجته والأصل فأتته زوجه -زوجه كما في القرآن وزوجته في السنة «**زوجة أبيكم في الدنيا**»- المقصود أتته زوجته وقد تعطرت وتطيبت فوقفت علىٰ رأسه قال فرفعت رأسي إليها ثم رجعت إلىٰ كتابي. إلىٰ آخر القصة. المقصود منه أنه لم يكن في قلبه في هذا الوقت إلا همّ العلم، همّ العلم وهمّ طلب العلم.

الحافظ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ توفي سنة عشر وثلاثمائة صاحب تفسير وصاحب التاريخ ونحو ذلك، قال لطلابه يوما: هل تنشطون لتاريخ العالم؛ يعني من خلق الله الدنيا إلىٰ وقتنا الحاضر،

قالوا: قدر كم؟ عرفوا أن المسالة كبير، قال قدر أربعين ألف صفحة يعني موسوعة الآن أو أكبر، قال: لا، هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم، فاختصر لهم التاريخ الموجود الآن في أحد عشر مجلدا. ثم لما فرغ منه. قال: لهم هل تنشطون لتفسير كتاب الله. قال: قدر كم؟ قال: قدر أربعين ألف ورقة نفس الكلمة، وكان قريب التسعين من العمر، أو في أول الثمانين. قالوا: هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم فاختصره لهم في التفسير الموجود الذي هو الأكبر التفاسير الآن. ولذلك يسمىٰ إمام المفسرين.

ابن جرير الطبري لم يتزوج، وكان كل يوم يكتب من تأليفه أربعين صفحة؛ أربعين ورقة، كل يوم يكتب من تأليفه أربعين ورقة، منشغل؟ ليس بالمنشغل إلا في العلم ولهذا نفع الله جل وعلا الأمة في وقته وفيما بعده به.

فنحن إلىٰ الآن عيال علىٰ ابن جرير فيما كتب وألّف.

ومن أخبار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في همته في طلب العلم ما يقوي طالب العلم في ذلك: أتاه رجل وسأله عن مسألة في الفرائض، وهو في أول الطلب كان في الشام، فاستنكف أن يقول: لا أعلم، والفرائض مما يتعلمه طلاب العلم عادة في أوائل ما يتعلمون، فقال: إن عليّ اليوم أَلِيَّة -يعني حلفا أن لا أتكلم في الفرائض- فإذا أتيتني في الغد أجيبك عن مسألة. قال: فدرست الفرائض في ذلك اليوم. والفرائض علم يقال عنه أنه علم أسبوع يعني من أراده في أسبوع أخذ جملة منه حسنة. قال: لما أتىٰ الغد أتاني..

لكن هذه الهمة همة قوية، رحل من رحل، وأتىٰ من أتىٰ ومن صفاتهم العظيمة في طلبهم للعلم أنّ العلم معهم كان ميدان خشية لا ميدان تفاخر، ولهذا نذكر بعض صفات طلاب العلم التي ينبغي لنا أن نتحلّىٰ بها قدر المستطاع، فإذا قصرنا استغفرنا ورجعنا إلىٰ الصواب.

من أهم صفات أهل العلم وطلاب العلم أن يخلصوا النية لله جل وعلا، وأن لا يطلبوا العلم لأجل أن يقال عالم أو أن يقال طالب علم، والنية في العلم أن يطلبه لله جل وعلا لكي يصحح عبادته وعمله مع الله جل وعلا، وله أن يزيد علىٰ ذلك إن آنس من نفسه رشدا أن نوي أن ينفع إخوانه المؤمنين وينشر دين الله جل وعلا، فهذه نية صالحة يؤجر عليها، فإذا نوىٰ رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، كانت نيته صالحة لأن الجهل في هذا المقام مذموم.

من صفاتهم أنهم يحرصون علىٰ تعلّم ما به يُخلصون لله جل وعلا، وهو توحيد الله سبحانه والعقيدة الصحيحة؛ لأن أعظم ما يُطلب الإيمان، لهذا قال جل وعلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر:٣] ﴿ءَامَنُواْ ﴾ هنا قال أهل العلم: بدأ بالعلم؛ لأن الإيمان هو العلم، وإذا كان الإيمان هو العلم فمعنىٰ ذلك أن أفضل العلم الإيمان، والإيمان هو الذي فسره العلم بالتوحيد وبالعقيدة الصحيحة.

وهكذا كان العلم من أهل النية وأن أتباع السلف الصالح يحّررون هذا المقام؛ لأنه لا يحسن أن لا تفهمه وأن تجيده وأن تجيد مسائل أخرىٰ هي دونه في القدر، فإذا جاء مشكل في التوحيد أو العقيدة لا تحسن الكلام عليها أو تعرف وجهه وهو حق الله جل وعلا ثم تعرف ما دون ذلك هذا فيه قصور.

ثم بعد ذلك يتعلمون ما يصح به دينه وهو تعلم العبادة والحلال والحرام، بمعنىٰ ذلك أن يكون عندهم تدرج بحسب فضل ذلك وما يريده الله جل وعلا من العبد.

أما أن يكون متوسعا في السيرة وهو لا يعلم توحيد الله جل وعلا ولا السنة ولا يعلم ما يتعبد ربه في صلاته وزكاته وصيامه وحجه والأمور المهمة في ذلك وهذا قصور منه.

من صفات أهل العلم أنهم متراحمون فيما بينهم، يسعىٰ بعضهم في شأن بعض؛ لأنهم علىٰ منهج واحد وعقيدة صحيحة فيما اتبعوا فيه السلف الصالح وكانوا في ذلك، وبعضهم يحب بعضا، ولهذا ذم من ذم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ذموا العلماء الذين يحسد بعضهم بعضا؛ لأن هذا خلاف مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن يسلم الصدر من الحقد والغل والحسد، وأن تفرح أن يقوم بدين الله جل وعلا من شاء الله من عباده، وأن تفرح أن تكون خليا من الأمر أو خليا من الواجب، وأن يقوم غيرك به، لهذا الصحابة تدافعوا الفتيا وتدافعوا الإمارة وتدافعوا المسؤوليات؛ لأنهم أرادوا السلامة، فإذا تعينت عليهم سعوا فيها واجتهدوا وسألوا الله جل وعلا الإعانة والتوفيق.

فإذن طلبة العلم متراحمون فيما بينهم، متحابون فيما بينهم، لا يحسد بعضهم بعضا، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم، فإذا غلط أو زل أو أخطأ فإنه يسعىٰ في نصيحته بالطريقة الشرعية التي تحبب له الخير ولا تجعل النفوس فيها نفرة، وهذا مما يساعد علىٰ بث الخير وتقليل الشر، ويساعد علىٰ أن يكون أهل العلم وطلبة العلم أن يكونوا شيئا واحدا؛ لأنه بذلك يقوىٰ الخير ويضمحل ويضعف الشر.

من صفات طلبة العلم وأهل العلم أنهم سليمون من كل اسم سوىٰ اسم الإسلام والسنة، ولهذا ذمّ جمع من العلماء العالم الذي ينتصر لشيخه مهما كان، أو ينتصر لمذهبه مهما كان، أو أن يكون منتصرا لحزب أو جماعة أو فئة؛ لأن هذا ليس من مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن تُعين الخلق وتعين أهل الدين علىٰ الإسلام الذي هو سنة النبي ﷺ أن تعينهم عليه وأن تحببه لهم وأن تغلق عنهم ضده، هذا مقتضىٰ العلم النافع.

وأما إذا كان العلم فيه نصرة لمذهب أو طائفة أو حزب أو جماعة أو نحو ذلك، فهذا خلاف المقصود من العلم وخلاف النية الصالحة، فهذا مذموم فيه.

ولهذا قال بعض أهل العلم في هذا المقام -وهو الشيخ بكر أبو زيد عافاه الله ومنّ عليه- قال في كتابه «حلية طالب العلم» أو نحوه قال: من صفات طلاب العلم أن تكون يا طالب العالم ولاّجا في الجماعات والأحزاب. وذلك أنها لابد أن تحرف منهج طالب العلم عن حقيقة العلم إلىٰ غيره، وأما إذا سلم من ذلك فإنه يرجىٰ له السلامة في المنهج الذي يقتفيه، ولهذا قال أهل جل وعلا لنبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾[يوسف:١٠٨]، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ التنبيه علىٰ الإخلاص. بخلاف من يدعو إلىٰ شيخه أو إلىٰ طريقته.

من صفات أهل العلم أنهم يحرصون علىٰ نفع الناس في دينهم وأيضا في دنياهم ما أمكنهم ذلك، وأنهم دعاة إلىٰ الخير آمرون المعروف ناهون عن المنكر، لأن مقتضىٰ العلم النافع الصحيح هو حمل هذه الرسالة ووراثة النبي محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، الأنبياء كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**لم يورثوا دينارا ولا دهما فإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحض وافر**» والنبي ﷺ في مهماته المختلفة ورثها عنه أهل العلم في مهمة الفتيا والإمامة وفي نفع الناس والعطف والرحمة والصلة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع أبواب الخير، أهل العلم هم أولىٰ بها من غيرهم، والناس في ذلك تبع لأهل العلم في ذلك؛ لأنهم يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله في هذه المسائل العظيمة.

إذن فالعلم يقضي بحقه علىٰ طالب العلم أن يكون داعية إلىٰ الخير، ليس معنىٰ داعية إلىٰ الخير أن يكون أمامه مكرفونات ويحاضر أو خطيب جمعة، لا، داعية إلىٰ الخير بحسب ما عنده من العلم في نفسه في أهل بيته وفيمن يكون من الجهال لديه أو يسافر إليهم أو نحو ذلك، يكون في نفسه أن يعلّم لكن علىٰ طالب علم وعنده علم ولا يحرص علىٰ نفع الناس، هذا فيه نظر وليس هذا من الصفات المحمودة؛ بل من الصفات المحمودة أن يكون ساعيا في الخير في أمر المسلمين في دينهم وفي دنياهم وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر ومن جميع ما فيه رفعة لدين الله جل وعلا.

من صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم سليمو اللسان والقلب من كل ما لا يرضي الله جل وعلا.

أما اللسان فلسانهم طيب، وصفة ألستهم أنها طيبة، طالب علم يغتاب! نمام! يقع في هذا وفي هذا! طالب علم تجد لسانه لا يراعي فيه الله جل وعلا! إذا خاصم فجر! خاطب بخطاب سيئ! هذا من ليس من صفة أهل العلم المحمودة وليس من مقتضىٰ العلم النافع، ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[الإسراء:٥٣]، هنا يأتي الصبر، هل يتوقع طالب العلم أو العالم أن لا يأتي أن لا يسمع شيئا يكرهه؟ لابد أن يسمع هذه الحياة، النبي ﷺ سمع ما يكره وأوذي، هل يريد أن يقال له دائما أنت كذا وكذا؟ ليس صحيحا لابد أن ينقسم الناس، ولابد أن يواجه ولابد أن يقول جاهل عليه أنت دينك هذا فيه كذا لابد أن يصبر، وأن يكون لسانه عفيفا، طيب اللسان، طيب الكلام، طيب القول، ولا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث.

إذن فطالب العلم من صفته أن يكون لسانه أحسن ما يكون، في ألفاظه، وفي تعاملاته وفي صبره، وقد كان جمع فإذا أوذوا عُرف ذلك في وجوههم؛ لكن لم يؤثر ذلك أن يكونوا يستطيلون علىٰ الناس في أعراضهم بألسنتهم، الناس لابد أن يكون مصيب، ومنهم مخطئ، ومنهم علىٰ صواب، ومنهم من ليس علىٰ الصواب، ولكن يصبر عليهم ويعلمون ويرشدون، ويكون اللسان طيبا عفيفا.

كذلك القلب، طالب العلم يجاهد نفسه أن يكون قلبه سليما، سليما من الغل والحقد والحسد علىٰ الماضين وعلىٰ الحاضرين، إلا ما كان من ذلك فيما أُذن به شرعا في بعض المسائل؛ لكن أن يكون في قلبه الأمور المنكرة وكبائر القلوب، نعوذ بالله من غش وغل المؤمنين.

من صفات طلاب العلم أيضا أن طالب العلم صاحب عمل صالح، وصاحب خوف من الله جل وعلا وخشية؛ لأن الحقيقة هو العلم هو الخشية إذا لم يثمر العلم خشية لله جل وعلا فهو علم فيه قصور

أو غير نافع أو لم يكتمل نفعه، لهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]؛ يعني أن أهل العلم هم أحق الناس بخشية الله جل وعلا لما يعلمون من صفة الله جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ولما يعلمون مما أعدّه الله جل وعلا للمؤمن وللعاصي وللمنافق وهكذا، أهل العلم ينظرون دائما في أعمالهم بنظرين:

نظر رحمة.

والنظر الثاني نظر خوف ووجل.

أما نظر الرحمة فهو نظرهم إلىٰ الخلق وإلىٰ أهل الإسلام بخاصة، ينظر إليهم ويرحمهم، يرحم العاصي حين عصىٰ؛ لأنه ما عصىٰ إلا بتسلّط العدو عليه وهو إبليس، ويرحم العبد الذي لم يفقه دين الله جل وعلا، ويرحم المحتاج من لم يعمل لدين الله، ويرحم من خالف الصواب ويرحم من خالف المنهج، ويرحم ويرحم لأجل أن يهديه إلىٰ منهج السلف الصالح وسنة النبي ﷺ.

ومن جهة أخرىٰ في قلبه الخشية والخوف من الله جل وعلا.

فيكون معه نظران:

النظر الأول: نظر خوف من الله ومن الحساب، ومما يقابل به ربه جل وعلا.

والنظر الآخر: الرحمة.

فيحمله الخوف علىٰ العمل وعلىٰ الجد، وتحمله الرحمة علىٰ ألا يكون غليظًا مع المؤمنين.

ومن صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم أهل صبر في طلب العلم والتحصيل فيه وأهل استمرار علىٰ ذلك، فالعلم لا يُطلب في يوم وليلة، وليس مدة طلب العلم سنة ودورة أو دورتين أو عشرة أو عشرين، العلم معك منذ أن تبدأ إلىٰ أن تموت، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. لأنه لا يشبع منه.

وقال أيضا: مع المحبرة إلىٰ المقبرة. يعني الواحد لابد أن يكون دائما معه كتاب ومعه ورق.

معه همة وصبر علىٰ لذلك لا يفارقه العلم والكتاب والحفظ والمدارسة هما كان؛ لأنه إن فارق ذلك فإنه يضعف علمه أو يفقده بحسب ذلك.

من صفات طلبة العلم أنهم ساعون في الخير بعيدون عن الشر حريصون علىٰ ما فيه خير أنفسهم وخير الناس بعيدون عما فيه شر أنفسهم وشر الناس، لهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة، الجماعة التي جاءت في الحديث أنّ النبي ﷺ لما ذكر الفرق «**كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**الجماعة**».

قيل للإمام أحمد: من الجماعة؟ قال: هم أهل الحديث. وفي رواية قال: هم أهل العلم. قال الترمذي في جامعه: هم أهل العلم.

فأهل العلم من أهم صفاهم أنهم ساعون في اجتماع الناس؛ الاجتماع علىٰ الدين الحق، والاجتماع علىٰ ولاة أمرهم وعدم إحداث الفتن كبيرها وصغيرها، وهذا صفة أئمة أهل السنة وأتباع السلف الصالح منذ الزمن الأول إلىٰ زمننا الحاضر إلىٰ يرث الأرض ومن عليها.

ولهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة بأهم هم الحريصون علىٰ الجماعة بنوعيها جماعة الدين وجماعة الأبدان.

ومن صفاتهم أيضا أنهم متعاونون علىٰ البر والتقوىٰ؛ لأن تحقيق الخير وتحقيق الدين لا يكون بعمل فرد ولا بعمل جهة، وإنما يكون بالتعاون كل في مجاله وكل في جهته وأهل العلم هم أحرىٰ الناس وطلبة العلم بأن يرعوا ذلك وأن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ وأن يحذروا علىٰ التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

وصفات طلبة العلم كثيرة متنوعة لعلكم تتابعون ذلك بقراءتها فيما كُتب في صفات أهل العلم.

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن منّ عليه بحمل العلم وجعله ثابتا علىٰ ذلك، ومنّ عليه بالصفات الحسنة لأهل العلم.

ونسأله جل وعلا أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يجعل عاقبتنا إلىٰ خير.

كما أسأله جل جلاله أن يوفق ولاة أمرنا إلىٰ ما فيه رضاه وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، وأن يوفق أهل العلم منا إلىٰ ما فيه عز الإسلام وقوة المسلمين ونشر العلم النافع وازدياد الخير واضمحلال الشر.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

نجيب علىٰ بعض الأسئلة.

سؤال (١): أول سؤاله فيه استدراك لكلمة ذكرتها قال: قلت ضمن كلامك: إن الأنبياء أعلم أهل زمانهم وهٰذا لا شك فيه، ولٰكن في عهد موسىٰ أليس الخضر عنده علم أكثر منه؟ فيقال: إن أعلم زمان موسىٰ الخضر، أم الخضر نفسه نبي؟.. إلخ

الجواب: لما ذكرتُ الكلمة جاء في الذهن الخضر، والخضر مع موسىٰ عليه السلام كان أعلم من موسىٰ في مسائل، وأما من جهة علم النبوة والعلم بالله جل وعلا وعلم الرسالة فموسىٰ عليه السلام كان أعلم؛ لٰكِن بالعلم العام الذي قاله موسىٰ كان يذكر للناس من كل شيء خبرًا، فسأله سائل فقال له: يا موسىٰ: من أعلم الناس؟ فقال: أنا.

وهٰذا تفضيل مطلق في كل نواحي العلم بما يدخل فيها بعض أمور الغيب.

فقال له الله جل وعلا: يا موسىٰ إيتِ عبدنا خضرا فإنه أعلم منك، حصلت القصة المعروفة، وموسىٰ عليه السلام لم يصبر مع الخضر ففارقه الكليم كليم قلب، ونبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «وددنا لو أن موسىٰ صبر» يعني لنرىٰ ما يعمل الخضر زيادة علىٰ ما ذكر.

فالمقصود أن الأنبياء من جهة النبوة ومن جهة الرسالة؛ الرسول هو أعلم أهل زمنه، أو أعلم من أرسل إليهم إذا لم يكن في زمنه نبي أو مرسل آخر.

قصة موسىٰ عليه السلام مع الخصر فيها فوائد كثيرة في طلب العلم، وفي الصبر علىٰ المعلم، وفي الأناة، وفي عدم المعارضة لأهل العلم، فيها فوائد كثيرة جدا في هٰذا الباب.

سؤال (٢): هل الأصح أو الأفضل لطالب أن يلازم شيخا واحدا يأخذ عنه كافة العلوم، خاصة في بداية الطلب، أم ينوع في الأخذ، وهل يصح ذلك عند عالم قد مات وبقيت آثاره بحيث يلزمها طالب العلم.

الجواب: العلم واسع، فيأخذ العلم عمن يحسنه، العلم واسع فنون منه علوم الآلة مختلفة، وعلوم الآلة علوم، ومنها العلوم الأصلية الرئيسة، هٰذه أيضا علوم وفنون.

فيأخذ العلم ممن يرىٰ أنه ينفعه في ذلك؛ لٰكِن كثرة الأشياخ قد تكون مشغلة عن الطلب وعن الملازمة، فيرىٰ ما هو الأنفع له، إذا وجد عالما قويا في العلوم يُشبع نعمته فيما يطلب، فيلازمه وفي ذلك الخير.

لٰكِن إذا كان عنده نهمة ويجد أن هٰذا العلم أو المعلم أو طالب العلم يكون جيِّدًا في الحديث لٰكِن ليس جيدا في الفقه.

يكون قويا في شرح العقيدة والتوحيد ولا يكون قويا في علم آخر، أو يدرس هٰذا ولا يدرس غيره، فإنه ينوع بحسب قوته؛ لٰكِن ينتبه لنفسه أن لا تكون كثرة المشايخ معطلة له أو باعثة له علىٰ الفتور؛ لأنه أحيانا أن يرهق طالب العلم نفسه بأكثر من نهمته وقدرته وما يحس من نفسه هٰذا يشغله، وربما يصيبه بالفتور في حين ما؛ لٰكِن إذا أخذ العلم شيئا فشيئا بحسب قدرته ونهمته فإنه يحصِّل علىٰ مرِّ الزمن.

سؤال (٣): تعلمون ما للعلم من أهمية في رفع الجهل عن الناس وعن المرأة بخصوصها، فما هي الوسائل المفيدة لرفع الجهل عن المرأة والزوجة خصوصًا؟

الجواب: المرأة مخاطبة بالعلم كما يخاطب الرجل، النساء شقائق الرجال، ومطلوب منها أن تتعلم، مطلوب منها أن تفقه في دين الله؛ لٰكِن النساء يختلفن كما يختلف أيضا الرجال، بحسب فراغها وشغلها أو بحسب استعدادها وقوتها وذكائها ونحو ذلك مما يكون معها.

فالعلم هي مخاطبة به، فالمرأة إذا أحست من نفسها رشدا، وأرادت أنها تُقبل علىٰ العلم فهناك ولله الحمد الآن كثير من النساء طالبات علم، يناقشن ويسألن، وبعضهن يؤلف ويكتب بقدر ما أعطاهن الله جل وعلا، وهٰذا أمر حسن؛ لأن من الصحابيات من كن فقيهات، عدد منهن أم الدرداء زوج أبي الدرداء كانت فقيهة عالمة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت المرجع للصحابة في السنة وفي مسائل من الفقه واستدركت علىٰ الصحابة مسائل كثيرة.

من النساء من كانت شيخة أعني بهذا الكلمة شيخة كما قال عدد من أهل العلم في إجازاتهم: حدثتنا الشيخة الصالحة فاطمة كان يقرأ عليها الكتاب طبعا من وراء حجاب لأجل لأن عندها إجازات عالية وهي ربما أصلحت الغلط لبعض طلاب العلم، وهكذا كانت النساء.

العناية بهن في العلم والدعوة من أهم المهمات، أن يقوم العلم والدعوة ونشر الخير علىٰ الرجال فقط هٰذا غير صحيح وليس من دين الله؛ بل المرأة مطلوب منها أن تسعىٰ في العلم، وأن الزوج يعينها علىٰ ذلك، يعينها أخوها يعينها قريبها، محرمها علىٰ ذلك، ويؤثر لها إذا كانت عندها استعدادات فطرية لهٰذا، يعينها علىٰ الخير، يعينها علىٰ ما تحصِّل به العلم.

وهٰذا مهم اليوم؛ لأن أكثر ما ترىٰ اليوم من هجوم ومن أنواع من الفساد والمنكرات أكثر من يواجهها وتوجه إلىٰ المرأة.

فإذا كانت الدعوة والخير في الرجال وضعُفت في النساء معنىٰ ذلك أنها سيضعف الخير شيئا فشيئا وستقوم البيوت علىٰ شفا جرف هار.

هٰذا لا ينبغي؛ بل لا يجوز أن يكون بحال.

ومن وسائل صده أن يسعىٰ النساء في طلب العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك كما كان الأوائل يحرصن علىٰ ذلك.

الإمام شيخ الإسلام محمد ن عبد الوهاب رحمه الله كانت له ابنتان سارة وفاطمة وكلتاهما طالبة علم متمكن، سارة بقيت في الدرعية، وفاطمة ذهبت إلىٰ جهة الإمارات، الآن كانت في القديمة تسمىٰ عمان أو ساحل عمان لقربها منه، ودرّست هناك ودرّست الأخرىٰ أيضا في الدرعية وبقيت لهن كتب أيضا موقوفة وحصلنا كتبا كثيرة.

وهٰذا كثير في تاريخ الإسلام النساء مهم أن يطلبن العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك لما في هٰذا من نشر للخير وتعليم للصغار وللكبار .

سؤال (٤): ما رأيكم في متن حديث لطالب هل هو «بلوغ المرام» أو «عمدة الأحكام»؟

الجواب: يبدأ بـ«عمدة الأحكام» لأنه أخصر وكله من «الصحيحين» مما اتفق عليه الشيخان أو جاء في أحدهما، وهو قليل حوالي ٥٠٠ حديث، أما «بلوغ المرام» فهو نحو ١٦٠٠ حديث كثير فيبدأ بـ«عمدة الأحكام» فإذا أنهاه ذهب إلىٰ «البلوغ».

سؤال (٥): بعض من ينتسب إلىٰ أهل السنة في هٰذا العصر يقول: إن جنس العمل ليس ركنا في الإيمان وإن كان جزءا منه؛ بل هو وجب فيه فقط بمعنىٰ أن الإنسان إذا اعتقد بقلبه وأقر بلسانه؛ ولكنه لم يعمل عملا قط، فإنه مؤمن إلا أنه ناقص الإيمان.. إلىٰ آخره.

الجواب: الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة وذكروه في معتقداتهم وفي كتب العقيدة لهم مخالفين بذلك أهل الإرجاء بطوائفهم المختلفة أن الإيمان قول وعمل، وأنه اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان.

وأن العمل داخل في الماهية، وإذا دخل في الماهية فهو ركن فيه بإجماع أهل السنة.

والعمل الذي هو ركن في الإيمان هو جنس العمل بالفرائض وترك المحرمات، العمل بالفرائض وترك المحرمات، هٰذا هو الركن؛ بمعنىٰ أنه يعمل بالفرض ويجتنب المحرم هٰذا داخل في حقيقة الإيمان، وليس كل عمل ركنًا في الإيمان.

وأيضا ليست كل الأعمال ركنا في الإيمان، هٰذا معتقد الخوارج، أنه أي عمل فرض لا يعمل به أو أي محرم يرتكبه فإنه يقدح في أصل إيمانه فيكفر بذلك؛ لكنه إذا جاء بعمل مما أمر الله جل وعلا به وانتهىٰ عن محرم مما حرمه الله جل وعلا ونهىٰ عنه، فإنه يدخل في عقد الإيمان، فيصح معه هٰذا الإيمان

الذي اجتمع فيه اعتقاد القلب وقول اللسان والعمل الذي هو العمل بالفرائض واجتناب المحرمات، هٰذا هو القدر المجمع عليه بين أهل السنة والجماعة.

أما من جعل العمل جزء من الإيمان وليس ركنا فيه، هٰذا لا يجوز جزء من الشيء داخل في ماهيته إلا وهو ركن، هٰذه المسألة اه بحث مبسوط في كتب العقائد كما هو معروف.

الآن أركان الإيمان ستة ما فيه أحد يقول: أنها ليست أركانا من الإيمان، ولٰكن ليس فيه حديث ولا في القرآن ولا في السنة ولا كلمة عن أحد من الصحابة يقول فيها: أركان الإيمان الستة، أو أركان الإيمان ستة، لا يوجد ركن في كلام النبي ﷺ أركان الإيمان أو هٰذا من أركان الإيمان.

لكن العلماء بالإجماع قالوا: هٰذه الستة هي أركان الإيمان، كما أن أركان الإسلام خمسة، مع أنه لم يأت في السنة أركان الإسلام خمسة هي كذا إنما فيه «بني الإسلام علىٰ خمس» أو أنه سئل ما الإسلام فقال: «أن تشهد.. ».

لهٰذا نقول: العلماء جعلوا الشيء ركنا إذا كان داخلا في الماهية لا يقوم إلا به من جهة النص أو من جهة الحقيقة.

فجعلوا أركان الإيمان ستة لماذا؟ لأن النبي ﷺ سئل: ما الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

وهٰذا الجواب جواب عن الماهية التي سئل عنها بـ:(ما)؛ ما الإيمان؟

إذن الإيمان الذي أجيب عن حقيقته وماهيته هٰذه الستة فهي أركان.

قال: ما الإسلام؟ قال كذا فهي أركان.

نقول الآن مثلا: أركان الصلاة هل فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا؟ ليس فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا.

أركان البيع، أركان النكاح، هل فيه دليل يقول: أركان النكاح؟ لا.

كلمة ركن هٰذه مصطلح جعلها العلماء في ما دل الدليل علىٰ أنه داخلٌ في الماهية.

والعمل كذلك دل الدليل علىٰ أنه داخل في الماهية في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾[البقرة:١٤٣]، والمقصود عملكم وهو الصلاة.

فلما عبر عن العمل بالإيمان دل علىٰ أنه داخل في حقيقته وماهيته، وأنه ركن.

النبي ﷺ جاءه وفد عبد القيس فسألوه، فقالوا له: ما تأمرنا؟ فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الصحيحين: «آمركم بالإيمان بالله وحده»، قالوا: وما الإيمان بالله وحده؟ قال: «أن تشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيموا الصلاة، وأن تؤدوا الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم».

قال أهل العلم: ذكر الخمس من المغنم لأنه عمل فيدل علىٰ أن العمل كان جوابا عن الماهية، فصار ركنا من أركان الإيمان.

هٰذا القدر متفق عليه بين أهل السنة فيما سطروه، ولا خلاف بينهم، في أن الإيمان قول وعمل ونية ويزيد وينقص، وأنه اعتقاد وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأنه ليس كل عمل ركنا من أركان

الإيمان؛ بل العمل من حيث هو هو الركن لٰكِن ليس كل فرد فرد من الأعمال الصالحة يدخل ركنا من أركان الإيمان، لأن هٰذا من معتقد الخوارج.

فخالف بذلك أهلُ السنة أهل البدع من المرجئة والخوارج.

الخوارج قالوا: كل عمل ركن، فمن ترك أي عمل كفر.

والمرجئة قالوا: ليس ثم عمل أصلا داخل في حقيقة الإيمان.

وهٰذا وهٰذا خلاف منهج أهل السنة، والحمد لله أن الأمر ظاهر بين من جهة الدليل، ومن جهة المقتضىٰ.

لٰكِن هنا تنبيه وهو أن إحداث مصطلحات في مسائل العقيدة وخاصة مسائل الإيمان لابد أن يفضي إلىٰ خلاف.

لماذا؟

لأن المصطلح له عدة أوجه في التفسير، يفسره من أحدث المصطلح أو من استعمله بتفسير، ويفسره الآخرون أيضا بتفسير.

فإذا صار النزاع وقع الخلاف في أصل المسألة.

وهٰذا مما يجب الحذر منه.

مسائل الاعتقاد والإيمان نتبع فيها ولا نبتدع، لا نحدث فيها شيئا، لا مصطلحا ولا لفظا؛ لأن أصل الخلاف والفرقة التي وقعت في الأمة في القرن الأول كانت بسبب هٰذه المصطلحات ومسائل الإيمان والأسماء والأحكام.

فإذا جاءنا من جاء بمصطلحات جديدة، فإنه وإن كان قد يفسِّرها بتفسير صحيح؛ لكنه يوقع الفرقة ويوقع الخلاف؛ لأنه لن يفهم منها ذلك.

لهٰذا أحض الجميع أن لا يُجتهد في مسائل الاعتقاد، مسائل العقيدة والمنهج منهج السلف الصالح بين واضح فيها مئات الكتب، فنتبع فيها ولا نحدث فيها شيئا.

وهٰذا الاتباع هو الذي يجب علينا، وهو سبيل أهل العلم في ذلك.

جعلنا الله جل وعلا وإياكم من المستمسكين بمنهج السلف الصالح، المقتفين أثر أئمة الإسلام في ذلك إنه سبحانه جواد كريم.

وفي الختام أرجو أن تكون هٰذه الدورة دورة نافعة كالدورات التي سبقت، وأن يوفق الله جل وعلا القائمين عليها لتنظيمها، وحسن ترتيبها، وتوفير ما يحتاجه طلاب العلم في هٰذا المسجد.

كما أسأل الله أن يوفق طلبة العلم الذين يُلقون فيها العلم، وأن يعيننا وإياهم علىٰ ما فيه الهدىٰ والسداد، وأن يوفقنا جميعا إلىٰ ما فيه رضاه، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

ثمرات العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، أحمده سبحانه وأثني عليه الخير كلَّه، فهو المتوحّد باستحقاق جميع أنواع المحامد، فالحمد له كثيرا كما أنعم كثيرا، وأسأله -سبحانه- أن يجعلني وإياكم ممن يحمده ويشكره كما يحب ويرضىٰ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل جلاله- لي ولكم أن يجعلنا ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

كما أسأله المولىٰ -جل جلاله- أن يجعلني وإياكم ومن نحب من عباده وأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأسأله أن يبارك لنا في أعمالنا وأعمارنا وأن يجعل قليل علمنا حجة لنا لا حجة علينا.

ثم إن العلم والحرص عليه من علامات محبة الله -جل وعلا- للعبد؛ قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» فدل الحديث بمنطوقه علىٰ أن من تفقّه في الدين وكان فقهه نافعا له أنه من علامات إرادة الله -جل وعلا- به الخير، ودلّ بمفهومه -مفهوم المخالفة- علىٰ أن من ترك العلم وسعىٰ عنه إلىٰ غيره فإنه ممن لم يرد الله به خيرا؛ لأنه ولا شك العلم يرفع العبد، كما قال -جل وعلا-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١]، فأهل الإيمان مرفوعون عن غيرهم، وأهل العلم من أهل الإيمان أعلىٰ من عموم أهل الإيمان بدرجات، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[الإسراء]، فللّه -جل وعلا- الحمد علىٰ أن وفّق من وفق منا إلىٰ الإقبال علىٰ العلم والحرص عليه، فنسأل المولىٰ -جل جلاله- أن يثبتنا علىٰ هٰذا السبيل وأن يجعلنا ممن يرد حوض النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- غير مغيرين ولا مبدّلين ولا محدِثين، إنه سبحانه جواد كريم.

موضوع هٰذه المحاضرة:

ثمرات العلم

ولاشك أن العلم له ثمرات، ودلّ علىٰ ذلك قول الله -جل وعلا-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ

وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾[المجادلة:١١]، فمن ثمراته المنصوص عليها في القرآن أن أهل العلم مرفوعون درجات.

ومن ثمراته المذكورة في القرآن ما جاء في سورة النساء في قوله -جل وعلا-: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾الآية، فدلّت الآية علىٰ أن الذي يعلم وعمل فإنّ هـٰذا خيرا له في دنياه وخيرا له في آخرته، وأنّه إن أورثه العلم الطاعة فإنّه مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وفي القرآن لم يأمر الله -جل وعلا- نبيه أن يسأل المزيد من شيء إلا من العلم؛ فقال -سبحانه- في سورة طه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾، وهـٰذا مما يدلك علىٰ جلالة قدر العلم أنّ الله -جل وعلا- خص به أنبياءه وخصّ به أولياءه، فإنّ العبد كلما كان أكثر علما وأورثه العلم ثمراتِه من العلم وغيره فإنه أقرب إلىٰ ربه -جل وعلا-، قد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾[فاطر:٢٨]؛ يعني إن أحق الناس خشية لله -جل وعلا- الذين يعلمون الرّب -جل وعلا- في ذاته وأسمائه وصفاته وما جاء في شريعة أنبيائه عَلَيْهِم الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

لاشك إذن أن للعلم ثمرات، وثمرات العلم لا تستقصيها مثل هـٰذه المحاضرة، ولابد لكل أحد منكم أن يسعىٰ إلىٰ العلم أولا؛ ثم أن يتفطّن لنفسه إن سعىٰ إلىٰ العلم هل حصّل ثمرات العلم؟ أو هل ناله من ثمرات العلم ما ناله العلماء من ذلك، أم لم ينل من ذلك شيئًا، أم كان متوسّطا؟ إلىٰ آخره.

لهـٰذا نقول: لاشك أن العلم الذي يعتني به الناس قسمان كما هو ظاهر في حياة الناس، العلم الذي يعني به الناس قسمان:

- علم يراد للدنيا.
- وعلم يراد للدِّين.

والدنيا يعطيها الله -جل وعلا- من يحب ومن لا يحب؛ ولكن الدين لا يعطيه الله -جل وعلا- إلا

من يحب، وهـٰذا كما جاء مأثورا فإنه من معنىٰ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» ومن معنىٰ قوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

العلم لما كان منقسما إلىٰ علم يراد بالدنيا وإلىٰ علم يراد بالدين، فإن العلماء نظروا في التفضيل بينهما.

كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما أردتُ طلب العلم نظرت فإذا العلم علمان:

- علم لصلاح الأبدان.
- وعلم لصلاح الأديان.

فنظرتُ فإذا العلم الذي لصلاح الأبدان لا يعدو الدنيا، وإذا العلم الذي هو لصلاح الأديان للدنيا والآخرة، فأقبلتُ علىٰ الفقه وتركت الطبّ.

وكان هو ممن نال طرفًا من علوم مختلفة من الطب والأدب والفراسة، إلىٰ آخره.

لهـٰذا إذا قلنا: (ثمرات العلم) فنعني بها العلم الذي هو أعظم فائدة وأجزل عائدة، وهو الذي يراد للدنيا والآخرة، الذي يُصلح الله -جل وعلا- به الدنيا ويصلح الله -جل وعلا- به الآخرة، دنيا العبد؛ طالب العلم في نفسه، وآخرة العبد طالب العلم في نفسه، وكذلك دنيا غيره والمجتمع، وكذلك آخرة الأمة جميعا، كما سيأتي في ثمرات طلب العلم.

لهـٰذا قال العلماء: العلم علمان:

- علم نافع.
- وعلم غير نافع.

أما العلم النافع فهو العلم بالله -جل وعلا-؛ يعني علم الدين، العلم الذي يراد للآخرة الذي يصلح الله -جل وعلا- به دنيا العبد ويصلح الله به آخرته، وهـٰذا العلم هو في الحقيقة النافع؛ لأنه نفع العبد في حياته كلِّها، وحياة العبد منقسمة إلىٰ حياة أولىٰ وإلىٰ حياة أخرىٰ.

فحقيقة العلم النّافع النفع المطلق الكامل؛ هو علم الشريعة علم الدين العلم بالله -جل وعلا- وبرسوله ﷺ وبما أنزل من حدود جل جلاله.

لهـٰذا لما تكلّم بعض السلف في الأنساب وسُئل: هل علم الأنساب من العلم النافع؟ قال: هو جهالته

لا تضر. يعني لا تضر العبد في دينه، ولا تضر العبد في دنياه وآخرته معا. فوجّه إلىٰ أن يعتني طالب العلم بالعلم الذي ينفعه في دينه وفي آخرته.

وهٰذا العلم النافع هو العلم الموروث عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، فقد صحّ عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما في الصحيح- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة نقيّة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فاستقىٰ الناس وشربوا وزرعوا، وكان منها طائفة إنما هي قيعان لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء، فذلك مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ ومثل من علِم وعلّم**» وهٰذا الحديث لاشك أنه يدلّ علىٰ أنّ العلم الذي خصّ الله -جل وعلا- به أنبياءه وخصّ أعلىٰ الأنبياء مقاما محمدا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- بأعلىٰ العلم هو العلم الذي ورّثه النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- لهٰذا صح عنه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أنه قال: «**العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما فإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحض وافر**»، لهٰذا العلم النافع هو الذي له الثمرات التي سيأتي الحديث عن بعضها.

فإذن العلم علمان: علم نافع وعلم غير نافع، والعلم النافع هو علم الدِّين وهو الذي تكلم عنه شمس الدين ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وناقل علمه وحافظ سيرته، حيث قال في «نونيته» في أبياته المشهورة لما تكلم عن الجهل والعلم قال:

والجهلُ داء قاتلٌ وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقانِ
نص من القرآن أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيانِ
علم بأوصاف الإله ونعته ... وكذلك الأسماء للديانِ
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان
والله ما قال امرُؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

إلىٰ آخر كلامه، فجعل العلم النافع الذي يضاد الجهل ويثمر الثمرات النافعة العظيمة في الدنيا والآخرة، جعله ثلاثة أقسام:

الأول (علم بأوصاف الإله ونعته أو وفعله)، وهٰذا يعني به التوحيد، ولاشك أن التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد العلم به هو أعظم أنواع العلوم؛ بل هو أفضل العلوم، لم؟ لأن العلم يتنوَّع بتنوع المعلوم، والتوحيد يبحث في أي شيء؟ يبحث في أسماء الله -جل وعلا- وفي صفاته وفيما يستحقه -جل وعلا- وفي حق الله -جل وعلا- علىٰ العبيد وما يتصل بذلك.

فإذن المعلوم بعلم التوحيد هو ما يتّصل بالرب -جل جلاله- وما يضاف إليه من نعوت الجلال وأسماء الجمال والجلال، فلهٰذا كان أفضل العلوم التوحيد.

قال العلماء: لأن فضل العلم بفضل المعلوم وشرف العلم بشرف المعلوم، ولهٰذا كان التوحيد أفضل العلوم وأشرفها.

وأيضا التوحيد هو أفضل العلوم النافعة؛ لأنه يُصلح اعتقاد العبد، ويُصلح باطنه، والنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- قال في بيان تفضيله وعظم قدره عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**إني لأعلمكم بالله وأخشاكم لله وأتقاكم لله**» فكلما زاد العبد علما بالله -جل جلاله- بما يستحقه وبما يضاف إليه -جل وعلا- كان لاشك أعلم فهٰذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن العلم بالله -جل جلاله- العلم بالتوحيد يُورث صلاح الباطن، يورث صلاح القلب، يورث صلاح العبد فيما بينه وبين الله جل جلاله.

ولهٰذا قال العلماء: إن عمل القلب متنوِّع، وقول القلب هو اعتقاده؛ اعتقاده في الله جل وعلا.

يعني العلم بالتوحيد وما يتّصل بالاعتقاد وهٰذا قول القلب، والإيمان قول وعمل، فلابد من قول القلب وعمل القلب -وقول القلب هو اعتقاد القلب وعمل القلب متنوع- ولابد من قول اللسان وعمل الجوارح في الإيمان.

لهٰذا يعظم العبد إخلاصا ونية إذا كان له الحظ الأكبر من هٰذا العلم النافع الذي هو توحيد الله -جل وعلا- والعقيدة الصحيحة.

لهٰذا ينبغي لك أن تلحظ المعنىٰ هٰذا في قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لامرئ ما نوىٰ**»، وفي رواية أخرىٰ «**وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» وقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» والنية محلها

القلب، فرجع الأمر إلىٰ أنّ أعظم أنواع العلم النافع هو علم التوحيد الذي به صلاح القلب، والذي إذا صلح القلب صلح الجسد كله.

فإذن العلم هـٰذا هو أعظم ما تتوجه له في طلبك للعلم؛ لأنّ العلم يأتي بعد، ولأن الصلاح يأتي بعد.

فإذا صحّ قلب العبد وصحت نيته وصح علمه بربه -جل جلاله- ومعرفته بالله -جل وعلا- فإنه ولا شك لابد أن يخشع ولابد أن ينيب إلىٰ ربه وإن حصل منه غفلة فلابد أنه يرجع سريعا ولا يكون معرضا عن الله جل وعلا.

العلم الثاني من العلوم النافعة بعد علم التّوحيد الذي يشمل توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات توحيد الربوبية هو: **علم الأمر والنهي**؛ وهو علم الحلال والحرام، علم ما يصح من عبادتك وما لا يصح؛ يعني علم الظاهر، وهـٰذا هو الذي يسمىٰ علم الفقه، وسُمِّي علم الفقه لظاهر قول الله -جل وعلا-: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة]، وما جاء في الأحاديث من ذكر الفقه؛ لكن في الحقيقة أنّ الفقه في القرآن هو الفهم، الفقه هو الفهم، فلهـٰذا صار الفقيه هو العالم الذي يفهم معنىٰ كلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ، وهـٰذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام:٢٥] يعني أن يفهموه.

فإذن تسمية علم الفقه الذي يبتدئ من الصلاة إلىٰ آخره، الصّلاة وما قبلها من الشروط الطهارة والمياه التي يتطهر بها وما يتصل بذلك، هـٰذا كله جعلوه كذلك؛ لأنه بعد الشهادتين وهما أعظم أركان الإسلام.

وإلّا ففي الحقيقة بعض العلماء قسم الفقه إلىٰ قسمين فقه أكبر وفقه أصغر، وجعل الفقه الأكبر هو التوحيد، وهـٰذا لأجل أن يحظىٰ التوحيد والفقه جميعا بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» (**يفقهه**) يعني الفقه الأكبر والأصغر؛ يعني التوحيد وعلم الحلال والحرام.

ابن القيم في هـٰذه الأبيات قال: (والأمر والنهي الذي هو دينه) الأمر والنهي يعني العلم بالحلال والحرام؛ يعني بالفقه، وهـٰذا ولاشك أنه من علمه فإنه سيصلي علىٰ وَفق الشريعة، سيتطهر علىٰ وفق الشريعة، سيصوم علىٰ وفق الشريعة، يحج علىٰ وفق الشريعة، يبيع ويشتري علىٰ وفق الشريعة؛ بل يعاشر أهله علىٰ وفق الشريعة، ففرق بين عالم وجاهل، وليس سواء عالم وجهول.

الفقه الأمر والنهي يلاحقك في كل مكان، حتىٰ في جلستك هٰذه يلاحقك الأمر والنهي والحلال والحرام والواجب والمندوب والمباح والمكروه إلىٰ آخره، فمن علم أحكام الشريعة تصرَّف في أحواله علىٰ وفق تلك الأحكام، فيكون مأجورا في كل حال لأنه يفعل ما يفعل متذكرا حكم الشريعة ويتصرف علىٰ وفق ذلك، وإذا أتىٰ بعض الذي يريد أن يَأتيه يأتيه وهو يعلم كذا وكذا وأن هٰذا يجوز في هٰذا الحال، وهٰذا لا يجوز في هٰذه الحال.

بخلاف من هو جاهل فإنه لا يعلم إلا قليلا فسيرتكب كثيرا من الأشياء وهو لا يعلم أنه خالف، يعصي ولا يعلم أنه عصىٰ، يخالف ولا يعلم أنه يخالف.

لهٰذا صار أعظم الناس علمًا بالحلال والحرام وبالفقه هم أشد الناس استغفارا لله -جل وعلا-؛ بل أعظم الناس علما هو المصطفىٰ ﷺ فإنه يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس الواحد مائة مرة كما صح عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

لهٰذا فائدة عِظَم العلم بالحلال والحرام أن يمشي العبد وأن يسير في أحواله كلها علىٰ وفق العلم، واحد يعاشر أهله يأتي يجلس مع أولاده يكلم زوجه، يكلم أباه، يكلم أمه، إذا كان غير عالم، أو غير طالب علم أو ما يعرف الأحكام الشرعية المتعلقة بكل هٰذا فسيعاملهم بمقتضىٰ الطبع أو بمقتضىٰ ما يهوىٰ أو مقتضىٰ ما ألف في بلده وفي مجتمعه أو ما يختاره ميزاجه ورأيه، وهٰذا لاشك أنه قد يكون ضلالا وقد يكون خروجا عن ما جاء في حكم الشّرع.

لهٰذا (الأمر والنهي الذي هو دينه) هٰذا أعظم العلوم النافعة بعد التوحيد، فمن كان عالما بالتوحيد عالما بالفقه، فإنه قد حظي علىٰ هذين النوعين من العلم النافع.

والعلم الثالث، قال ابن القيم فيه **(وجزاؤه يوم المعاد الثاني)** هٰذه أقسام العلوم الثلاثة (والعلم أقسام ثالث ما لها من رابع والحق ذو تبيان):

النوع الأول: التوحيد.

الثاني: الفقه.

الثالث: ما يحصل يوم القيامة؛ علم الجزاء؛ يعني ما يحصل يوم القيامة وما يكون فيها، وكيف يجازي الله العباد وما يجازي الله به العباد، وما يجازي الله به العباد، وكيف تكون الحسنات وكيف تكون

يحاسب الإنسان في قبره، وبما يحاسب، والعقوبات ومكفرات الذنوب إلىٰ آخر ذلك، هـٰذا لاشك من العلم العزيز الذي هو نور في صدور أهله.

ولهـٰذا تجد أن القرآن كثيرٌ من آياته في القيامة؛ بل أكثر ما جاء في القرآن التوحيد، ثم القيامة، ثم الأوامر والنواهي يعني الحلال والحرام والأحكام، لم؟ لأن الحقيقة استقبال العبد للأمر والنهي والحلال والحرام إنما يكون بعد حسن توحيده وصلاح قلبه وبعد خوفه من الله -جل وعلا- وعلمه بما يكون يوم المعاد الثاني؛ يوم القيامة.

فإذن العلم الذي هو الذي العلم النافع ويوصىٰ به، والذي ثمراته ستأتي إن شاء الله تعالىٰ، ومن ثمراته الذي هو هـٰذا العلم الذي ذكره ابن القيم: التوحيد، الفقه، ما يحصل يوم القيامة من بعد موتك إلىٰ أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

هـٰذا العلم النافع ما مصدره؟ من أين تتلقاه؟

لاشك أن العلم لابد أن يُتلقىٰ عن الله -جل وعلا- وعن رسوله ﷺ؛ ولهـٰذا قال ابن القيم بعدها: (والكل) يعني كل أقسام العلوم؛

والكـلُّ في القـرآن والسـنن التـي جـاءت عـن المبعـوث بالفرقـان

العلماء ما وظيفتهم؟ «**العلماء ورثة الأنبياء**» بنص الحديث، إذا كان العلم في الكتاب والسنة فما وظيفة العلماء من الصحابة -رضوان الله عليهم- إلىٰ وقتنا الحاضر وإلىٰ أن يرث الأرض ومن عليها؟ العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء مبلغون، الأنبياء مبشّرون ومنذرون، يبلغون رسالات الله كما قال سبحانه الذي يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله.

إذن العلماء وظيفتهم البلاغ، بيان الحق وعدم الكتمان، فلابد أن يكون للنبي ﷺ في كل زمان من أهل العلم من يصدعون بأحكام الله -جل وعلا- لبيان التوحيد وبيان ضده من الشرك وبيان حقوق الله -جل وعلا-، وبيان الحلال والحرام، وبيان ما يقرّب الناس إلىٰ الجنة ويبعِّدهم من النار.

هـٰذه مهمة الأنبياء والمرسلين وهي البلاغ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[الشورىٰ:٤٨]، فإذا كان كذلك، فإذن العالم يشرح للعامة يشرح للناس معاني كلام الله -جل وعلا- ومعاني رسوله، يبين الأحكام بما يعلم من دليل الأحكام من الكتاب والسنة، أو من إجماع أهل العلم أو بما اجتهد فيه المجتهدون.

فإذن العالم في الحقيقة في هٰذه الأمة ورث نبينا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ-، وهٰذه الأمة ليس فيها نبي بعد محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ-، كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مضىٰ نبي جاء نبي، الأنبياء في بني إسرائيل كثير جدا عددهم؛ لكن في هٰذه الأمة جعل الله -جل وعلا- العلماء يقومون مقام الأنبياء في البيان والإرشاد والجهاد وبيان الحق وبيان ضده حتىٰ يكون الناس علىٰ بصيرة، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك**» كما هو في الصحيح.

إذا تبين هٰذا فإذن العلم يؤخذ عن أهله، وأهل العلم هم الذين يبينون معاني الكتاب والسنة، رام طوائف من الخوارج وغيرهم، راموا أخذ العلم عن غير الصحابة بل عن أنفسهم فضلوا وأضلوا؛ بل قال فيهم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**سيكون قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، ولئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد**» وهٰذا يدلك علىٰ أن الشأن ليس في أخذ العلم؛ يعني في أخذ القرآن في أخذ السنة، وإنما الشأن في الطريقة التي يؤخذ بها معنىٰ القرآن ومعنىٰ السنة، ولهٰذا قال ابن القيم مبينا لك هٰذا المعنىٰ قال:

والجهـــــلُ داء قاتـــــلٌ وشـــــفاؤه	أمـــــران في التركيـــــب متفقـــــانِ
نـــص مـــن القـــرآن أو مـــن ســـنة	وطبيـــــب ذاك العـــــالم الرّبـــــاني

لابد من طريق، وإلا فالنبي ﷺ ذمّ من لم يأخذ العلم عن أهله كما ذمَّ الخوارج وكما ذم غيرَهم.

لهٰذا نقول العلم لاشك النافع الذي ينفع العبد في دنياه وفي آخرته وله من الثمرات ما سيأتي بيان بعضها هو العلم بهٰذه الأقسام وهٰذا طريقه، فإن العلم الذي يستقل به العبد فإنه قد يكون فيه من البلاء عليه ومن الغلط ما لا تؤمن معه العاقبة.

لهٰذا نقول: إنه إذا اتّضح ذلك وبان لك أن العلم أعظم ما تسعىٰ إليه، وأن من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وأن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- شبه الذي قبِل الهدىٰ والعلم الذي جاء به -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- بالأرض النقية الطيبة التي حفظت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير فنفعت الناس، قال: «**كذلك مثل من علم وعلّم**»، إذا علمت هٰذا وعلمت عظم هٰذا المثل، وأنّ أعظم من أخذ وقبِل هدىٰ

الله -جل وعلا- الذي بعثه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- هو من علم فعلّم، زادك هٰذا حرصا علىٰ العلم وأخذا له وشغفا به ومحافظة عليه وحرصا علىٰ طريق أهله، وهم العلماء الذين ورثوا محمدا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

إذا تبيّن هٰذا نقول: إنّ العلم له ثمرات عظيمة لمن أخذه بحق، وهٰذه الثّمرات -يعني الفوائد والنتائج- تراها مُثمرة للعبد في نفسه، وتراها مثمرة لمن أخذ العلم أيضا في غيره، وثمرات العلم لا تقتصر علىٰ العبد في نفسه؛ بل العلم يُثمر لمن حمله بحق يثمر في نفسه وفي غيره، كلٌّ بحسب ما قدر الله -جل وعلا- له، لاشك أنّ العلماء في أنواع ثمارهم لا يتساوون، وكذلك طلبة العلم لا يتساوون، وصحابة النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- الذين هم من العلماء لم يتساووا في أثر العلم علىٰ الناس جميعا، فمنهم من كان له أعظم الأثر، ومنهم من كان له الأثر العظيم؛ لكنه أقل من السابق وهكذا، وكلُّ أثرهم كان في العلم عظيم.

لهٰذا نقول: إنّ الثمرات هٰذه منها ما هو قاصر علىٰ العبد في نفسه، ومنها ما هو متعدٍّ، منها ما هو قليل، ومنها ما هو كثير.

العلم أعظم ما يُورِث في العبد خشية الله -جل وعلا-، ولاشك أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتبعّض، ويزيد وينقص، لهٰذا من أعظم ما يزيد به الإيمان العلم، والعلم يورِث الخشية، فرجع الأمر إلىٰ أنّ من ثمرات العلم علىٰ طالب العلم أن يكون ذا خشية من الله -جل وعلا-، وحقيقة الخشية التي قال فيها -جل جلاله- في وصف أهلها: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر:٢٨]؛ حقيقة هٰذه الخشية أنه خوفٌ لكن مع عدم اضطراب، الخوف يكون معه عدم اضطراب ويكون معه عدم سكينة، لهٰذا كان الخوف عامًّا، قال: خاف فلان من عدوه، وخاف من النار وخاف من الأسد وخاف من المرض، هٰذا الخوف يحدث العبد نوعا من الاضطراب؛ لكن إذا كان الخوف خوف خشية فإن هٰذا هو خوف الملائكة وخوف الأنبياء الذي هو خوف الخشية.

لهٰذا جعل الله -جل وعلا- العلماء خوفهم منه -جل جلاله- خوف خشية؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ لمّا كان الإيمان يتبعّض كذلك الخشية تتبعّض، لهٰذا العلم كلما زاد كلما قاد صاحبه إلىٰ الخشية، وإذا كان أضعف خشية فإنه يُذكر صاحبه بأن يعود إلىٰ خوف الله -جل وعلا-

وخشيته والإنابة إليه.

لهٰذا قال بعض أهل العلم: طلبنا العلم وليس لنا نية فجاءت النية بعد. لماذا؟ طلب العلم بدون نية، طلب العلم تبع مع زملائه تبع أصدقائه أو طاعة لوالديه أو لأي سبب من الأسباب، ما كان له نية صالحة فيه أو ما كان له نية في العلم بالله -جل وعلا- وتعظيم خشيته والإنابة إليه، ثم لما أخذ طرفا من العلوم قاده ذلك إلىٰ خشية الله جل وعلا.

لهٰذا أعظم ما يُثمر العلم في العبد أن يكون ذا خشية من الله -جل وعلا-، وأن يكون مُجِلًّا له سبحانه خائفا.

من ثمرات العلم أن يكون العبد مُخلصًا، العلم النافع الذي هو التوحيد يقود إلىٰ الإخلاص؛ لأنه يعلم، من علم التوحيد ورفع به الرّأس وحافظ عليه ولم يهجره إلىٰ غيره؛ بل تمسك به، دائما يلاحقه في إخلاصه، يلاحقه في نيّته، يلاحقه في تعظيم حق ربه -جل وعلا-، ويلاحقه في نبذ الشِّرك بأنواعه، من الشرك الأكبر والعياذ بالله والأصغر وهو كثير في زماننا هٰذا، وكذلك الشرك الخفي الذي هو في هٰذه الأمة أخفىٰ من دبيب النملة السّوداء علىٰ الصفاة السوداء في ظلمة الليل.

بعض الناس يقول: الحمد لله، نحن مخلصين ما عندنا ولله الحمد شرك. لا، التوحيد يدلك علىٰ الإخلاص في كل شيء، يلاحقك، كيف تُخلص في طلبك للعلم، كيف تُخلص في معاملتك لوالديك، كيف تُخلص في معاملتك لأهلك، كيف تخلص في علمك؛ لأن التعامل في الجميع مع من؟ مع رب العالمين جل جلاله.

فالإخلاص بأن يكون القصد وجه الله -جل وعلا- هٰذا شرط العمل: «**إنما الأعمال بالنيّات وإنما لامرئ ما نوىٰ**».

ولهٰذا جاء في بر الوالدين لما ذكر -جل وعلا- في سورة الإسراء الأمر ببر الوالدين ذكّر الله -جل وعلا- بالإخلاص كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[الإسراء]، قال العلماء: لابد للإنسان إذا راعىٰ والديه في حال الكبر لابد أن يكون عنده نوع ملل، لابد أن يكون عنده نوع فتور ورغبة أنه لا يفعل هٰذا الشيء، نوادر من

يكون صابرا محتسبا في كل حركة وفي كل قول وفي كل عمل، قال سبحانه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ هل تعملون هٰذا احتسابا وامتثالا ورغبة فيما عند الله -جل وعلا-، أو تعملونه كرها ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ إذا صلحت منكم القلوب باطنا والنية باطنا وصلحت منكم الأعمال ظاهرا ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ الذين يكثرون الرجوع إليه استغفارا مما قد يحصل من القصور ﴿غَفُورًا ﴾ يغفر الذنب مغفرة واسعة.

هٰذا تنبيه للإخلاص في معاملة ما، فكيف في معاملة للأهل، معاملة للأولاد، التعامل مع أهل الحقوق جميعا سواء كانوا كبارا أم صغارا.

إذن أعظم ما يثمر العلم النافع أنه يلاحق صاحبه بالإخلاص في كل عمل، لهٰذا ذكر العلماء: أن الإخلاص في أي عمل له قدر مشترك في كل الأعمال، وكل عمل له إخلاص ونية تخصه.

فالإخلاص في جميع الأعمال هو أن يكون القصد وجه الله -جل وعلا- لا الدنيا، هٰذا قدر مشترك في كل عمل.

والإخلاص في كل عمل؛ يعني في الأعمال يعني في كل عمل، عمل، هٰذا بحسب ذاك العمل.

فالإخلاص في طلب العلم ما هو؟ قال العلماء: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، ينوي أن يتعلم ليرفع الجهل عن نفسه فيعمل في عمل موافق للشريعة، وأن يعمل ليعلّم غيره ويبلِّغ شريعة الله جل وعلا.

الإخلاص في بر الوالدين له حال، الإخلاص في العمل له حال، إلىٰ آخره، الإخلاص في الجهاد له حال، الإخلاص في الدعوة له أيضا تعريف.

إذن هٰذا من عظيم ما تطلبه وتسجله من الفوائد عندك أن تتطلّب الإخلاص العام والإخلاص الخاص.

فأعظم ما يلاحقك به العلم ويثمر في قلبك الثمرات النافعة أنه يلاحقك في الإخلاص؛ أن تكون مخلصا لله -جل وعلا- في جميع أحوالك.

ولقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر المخلصين قال:

فلواحد كن واحدا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

يعني بكل جميع أعمالك لله الواحد الأحد.

من ثمرات العلم أن العلم يورث العمل الصالح، العلم النافع لابد لصاحبه أن يكون ذا عمل؛ يعني أن يعمل بما علم، أما الذي لا يعمل بما علم فهو داخل في قول الله -جل وعلا-: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[البقرة:٤٤]، فقال السلف رحمهم الله: العلم يورث العمل، ويهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، فصار للعلم مع العمل له شأنان:

الأول أن العلم يورث العمل، من علم علما نافع لابد أنه يخشىٰ الله ويتقيه ويحافظ علىٰ الفرائض ويجتنب المحرمات وأهل العلم في ذلك درجات.

وأيضا العلم يهتف بالعمل، العلم دائمًا يطلب من صاحبه أن يعمل، فإن أجابه، يعني إن وجد العلم من صاحبه العمل، وإلا ارتحل عنه.

ولذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾[النساء]، قال: من فوائد الآية أن الفعل والعمل لما أُمر به العبد وعلمه يورث الخيرية له ويورث الثبات، قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾، التثبيت بأيش؟ قال تثبيتا في الإيمان تثبيت للمعلومات، ولهٰذا نرىٰ من علمائنا الصالحين حفظهم الله -جل وعلا- نفع بهم، نرىٰ منهم العمل الكثير الصالح مما ثبت العلم في قلوبهم وفي صدورهم، فنفعوا الناس عقودا من السنين عشرات السنين وهم ينفعون الناس، وذلك من فضل الله -جل وعلا- عليهم ونعمته، ختم الله -جل وعلا- لهم بخير.

إذن لابد لك إذا أردت العلم أن يثمر العلم الذي تعلمه العمل، كيف يثمر العمل؟ يعني أعظم العمل صلاح القلب بأنواع أعمال القلوب؛ لأن أعمال القلوب شأنُها عظيم، أعمال القلوب ممثل الإخلاص لله -جل وعلا-، وممثل التوكل علىٰ الله -جل وعلا-، الإنابة إليه خشية الرب -جل وعلا- محبته، الخوف منه ﷻ الرّغب وحسن الظن به، أعمال القلوب من جهة عدم الكبر، التواضع لله -جل وعلا-، تحقير النفس في ذات الله -جل وعلا-، إلىٰ آخره، أعمال القلوب يجب أن تفتش عنها؛ لأنها واجبات وكثير من الناس يغفل عنها.

ثم العمل -أعمال الجوارح- منها إتيان الفرائض وترك المحرمات. والمسابقة في النوافل المسابقة في

النوافل من الصلاة والصيام والصدقات والعلم النفل والدعوة النفل إلىٰ آخره، هٰذا كله مما يثبِّت العلم ويجعل العبد مؤتمرا بالمعروف منتهيا عن المنكر.

لاشك الموضوع يطول تفصيله؛ لكن هٰذه إشارات لعلها تكون مفتاحًا لكم في مدارسة غيرها.

أيضا من ثمرات العلم وهو أعظم الثمرات: الصلاح، طالب العلم والعالم يُثمر علمه الذي يحمله أن يكون صالحا، ومن هو الصالح؟ أهل التفسير -علماء التفسير- فسّروا الصالح في الآيات التي وردت بأن:

الصالح من عباد الله هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده.

هٰذا هو الصالح، من قام بحقوق الله، وحقوق العباد فهو الصالح.

إذن الحقوق عظيمة، فالعلم يورث ويثمر في صاحبه أن يكون صالحًا؛ يعني قائما بحقوق الله بإتيانه الفائض والنوافل مسابقا في الخيرات بحسب ما قُدر له، وأن يكون قائما بحقوق العباد حقوق العباد؛ أعني جميع أنواع العباد من المسلمين ومن غيرهم، هٰذه الحقوق التي نصّ الله -جل وعلا- عليها في القرآن أو جاءت في السنة أو أجمع عليها أهل العلم لاشك أن القيام بها دين، والعلم إذا تعلم الإنسان القرآن وتعلم السنة ورأىٰ هٰذه الحقوق فلابد أن يمتثلها وإلا فإنه سيكون غير قائم بحقوق العلم.

ما هٰذه الحقوق؟ أعظم حق لله التوحيد، وقد ذكرنا لك طرفا مما يتّصل بهٰذا؛ يعني الصالح من عباد الله الذي علم فأصلحه الله -جل وعلا- لا تجده زاهدًا في التوحيد، ليش؟ لأن التوحيد بالخصوص والعقيدة بالخصوص تُنسىٰ، وتأتي الشّواغل عنها فيقع العبد في ضدها وهو لا يعلم، وقارن في ذلك بين ما عليه الناس الآن في أمر التّوحيد وأمر حساسية الألفاظ وما يتّصل بالشرك، وما كانوا عليه في هٰذه البلاد من خمسين سنة، كيف كانت الحساسية وكيف كان الشعور، الآن بعض الصغار وبعض النساء يفعلون أشياء وين التوحيد إذن؟ وين ثمراته؟ كيف صار صالحا قائما بحقوق الله وهو ما رفع بذلك الرّأس وتحمس له وعلِمه وعلَّمه وبلغه.

إذن الصلاح يورث لاشك القيام بحقوق الله -جل وعلا-، وكلما زاد العبد معرفة حق الله زاد حرصا علىٰ التوحيد ومفرداته جميعا، وزاد خوفا من الشرك وأنواعه.

لهٰذا قال إبراهيم الخليل -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- الذي هو أعلم أهل زمانه بالله -جل وعلا- سائلا

ربه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[إبراهيم]، قال إبراهيم التيمي -كما تعلمون في تفسير الآية- لما تلا الآية قال: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ كان إبراهيم الخليل -عليه السلام- ما أمن البلاء بعبادة الأصنام، فسأل ربه أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام قال من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ إذن نحن لا نأمن.

وإذا أمنت؛ من أمن الله علىٰ نفسه طرفة عين أتاه الله علىٰ غرة، فالله -جل وعلا- يستدرج العباد.

ثم القسم الثاني القيام بحقوق العباد.

حقوق الله -جل وعلا- في الحلال والحرام، ما أحله وما حرمه، إتيان الفرائض والمحافظة عليها في أوقاتها، وتحريم المحرمات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في كل زمان بحسبه، هٰذه لاشك كلها فرائض ومن ثمرات العلم كما سيأتي بسط بعضها.

حقوق العباد، هٰذه من ثمرات الصلاح، لهٰذا تجد طالب العلم الحق يخشىٰ من حقوق العباد، لم؟ لأنه يعلم أن حق الله -جل وعلا- مبني علىٰ المسامحة، وحقوق العباد مبنية علىٰ المشاحّة، والله -جل وعلا- أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين يغفر سبحانه ولا يبالي؛ لكن العباد يوم القيامة ما فيهم إلا المشاحة، لهٰذا يخشىٰ العبد من التفريط بحقوق العباد.

وحقوق العباد متنوعة كثيرة، وقد ذكرناها مفصلة في محاضرة في بيان الحقوق.

من ثمرات العلم أنّ العلم يورث في طالب العلم الاقتداء بأهله، ولقد كان السّلف يظنون بطالب العلم خيرا إذا كان يصاحب الأشياخ، ويظنون به شرا إذا كان يصاحب الأحداث، كما جاء في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن صحبة الأشياخ والكبار تحمل علىٰ أن يقتدي بهم، وأن يرىٰ العلم ويرىٰ فهم العلم ومعاني التنزيل ومعاني السنة وكيف يتعامل مع الأشياخ يراها أمامه، وإذا كان لا يصاحب من أخذ العلم قبله وعقد مع العلم قلبه سنين عددا، إذا كان لا يصاحبه وإنما يصاحب الأحداث فإنه لابد أن يكون عنده نقص وربما شر، كما جاء في قول من سلف:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

العلم يتوارثه العلماء هديا وسمتا ودلاّ، ويتفاوتون فيما بينهم في التزام ما دل عليه العلم ولاشك؛ لكن العلم والعمل محفوظ بأهل العلم وأهل الحديث والسنة بلا شك، ويتفاوتون فيه، فطالب العلم يثمر

العلم فيه أنه يحب العلم ويحب أهله ويقتدي بهم.

والعلم وأهل العلم لهم منهاج يتوارثونه، ربما لا يكون ذلك موجودا في كل كتاب، أو في كل شرح أو بيان؛ لكن أهل العلم يقتدي الخالف منهم بالسالف؛ أعني أهل العلم بالسنة المتحقّقين بهدي السلف؛ يعني علماء الضلالة والبدع لا يدخلون في ذلك.

لهٰذا فطالب العلم يُثمر له العلم أن ينهج نهج العلماء، وأن يقتدي بهم وأن ينظر سيرتهم.

ومن علامات العلم النافع أن يسير المرء سيرة أهل العلم، ومن علامات أن العلم لم يثمر الثمرات النافعة في صاحبه أنه يهجر أهل العلم أو أنه ينال منهم -والعياذ بالله- أو أنه يستهزئ بهم أو أنه يحتقرهم ويظن أن الخير ليس عندهم وإنما عند غيرهم، والله -جل وعلا- بيّن أن العلماء هم المرفوعون درجات.

من ثمرات العلم علىٰ أهله أنّ العلم النافع يورث صاحبه التؤدة وعدم العجلات إلا في الخير، ولما قيل لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض أموره التي استعجل فيها من أمور العبادات وقيل له: إنّ العجلة مذمومة قال: ليس كل عجلة مذمومة، فالعجلة إلىٰ الله -أي إلىٰ العبادة- محمودة؛ وإلا لو كانت مذمومة لم يقل موسىٰ لربه جل جلاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[طه].

إذا كان الواحد يستعجل في الذهاب في الذهاب إلىٰ المسجد، لا يأتي واحد يقول له: لا تستعجل.

يستعجل في خير كما قال الشافعي:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكون

جاء أمر من الخير تخشىٰ أن يفوت.

فيك نشاط لقيام الليل، ما يأتي دائما.

فيك نشاط لحفظ القرآن، ما يأتي دائما.

فيك نشاط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يأتي دائما.

فيك نشاط للدعوة، لا يأتي دائما.

فالعجلة في الخير يعني الاستعجال فيما يحب الله -جل وعلا- ويرضىٰ من الأقوال والأعمال لاشك أن هٰذا محمود؛ لكن العلم يورث صاحبه التؤدة والحلم والأناة في شأنه كله.

والتؤدة والأناة والحلم من الخصال المحمودة التي تفيد المرء في علمه وتعلمه، وكذلك في تعامله مع الناس.

ومن ثمرات العلم أيضا أن العلم يورث صاحبه التّواضع، فلا تجد عالما متكبّرا؛ نعني بالكبر أنه يردّ الحق فيغمط الناس، لا يقبل الحق ويحتقر الناس ويقع في الناس، هٰذه ليست من صفات أهل العلم، وكلما زاد العيد في العلم رسوخا صار العلم في حقه نافعا كلما تواضع لله -جل وعلا-، قد صح عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- أنه قال: «**إن الله أوحي إلي أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد ولا يبغي أحد علىٰ أحد**» لا تجد طالب العلم متحقق بالعلم يفتخر -يعني افتخار الجاهلية- يفتخر بنسبه ويحقر الناس في أنسابهم، ولا تجد طالب العلم متحقق بالعلم يرىٰ نفسه أعظم من الآخرين؛ بل كلما كان العلم أنفع في حقه كلما ظن أن طلبة العلم الآخرين أنهم أنفع للعباد وأنهم أخشىٰ لله -جل وعلا- ويحتقر نفسه ويتواضع لله -جل وعلا-؛ لأنه يعلم من نفسه ما يعلم، ويتعاون معهم علىٰ الخير والهدىٰ، ويبذل ما يستطيع.

الحسد يكون بين طلبة العلم ويكون بين العلماء، قد حصل في الزمن الأول، كما أنه باقٍ يحصل في كل زمان؛ لكن لاشك أن العلم يوجب علىٰ العبد أن يكون متواضعا، ويوجب علىٰ العبد أن لا يكون حاسدا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، صار فلان أحفظ مني أو صار أعلم أو صار أنفع للعباد أو صار، الواحد يفرح أن يقوم قائم بحق الله -جل وعلا- وحق العباد، وأن يؤدي هٰذه المهمة وأن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وأن يدعو إلىٰ الله -جل وعلا-، أن كان فلانا أذكر من فلان أو أذكىٰ من فلان أو أحفظ أو أعلم يقع فيه أو يتتبع غلطاته أو تجد أنه يلمز فلانا أو أن مؤلفات هٰذا أكثر أو لأن مؤلف فلان نفع، تجد أنه يطعن فيه أو نحو ذلك، لاشك أن العلم يجعل صاحبه لا يتحاسد مع إخوانه، ولا يحقر أخاه، قد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»، أسأل الله -جل وعلا- أن يجنبني وإياكم وأن يجنب إخواننا ذلك.

ومن ثمرات العلم أيضا أنّ العلم النّافع الذي ذكرناه يورث أصحابه وحملته الخُلق الجميل والنعت الفاضل في أقوالهم وفي أعمالهم، ولهٰذا أحقُّ الناس بالأخلاق الفاضلة هم العلماء؛ لأنهم ورثة محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- والنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- قال فيه ربنا جل جلاله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

﴿٤﴾[القلم]، فأهل العلم كما يرثون العلم يرثون الخُلق الفاضل ويرثون الكلام الجميل والعفو عمن أساء، ويرثون كل خصلة خير.

لهٰذا العلم يُثمر في صاحبه أن يكون عفّ اللسان وأن لا يكون بذيء اللسان، أما من كان سبَّابًا شتاما يقع في هٰذا ويقع في هٰذا ونحو ذلك، هٰذا في الحقيقة لم يتحقّق بالعلم فلم يثمر فيه العلم ثمرة نافعة، العلم يورث الخلق الحميد في تعامل الإنسان في بيته، يورث الخلق الحميد في تعامل الإنسان مع من يخطئ عليه، ومع من يتعدىٰ عليه، فكيف بما يفعله الإنسان مع غيره ابتداءً، لاشك أنّ العالم هو أحق الناس وطالب العلم هو أحق الناس بالأخلاق الفاضلة؛ بأن يبذل الندىٰ، ويعفو عن من أساء وأن يكون لسانه طيبا، وفعله طيبا، وأن يتحلىٰ بخلق النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ما استطاع.

كما ذكرتُ لك في البداية أن ثمرات العلم تأخذها من حياة العلماء بعدما تنظر فيما دلّ عليه الدليل وهدي السلف، لاشك أنها كثيرة متعددة ومتنوعة؛ لكن لعله فيما ذُكر إشارة إلىٰ ما طُوي.

وأسأل الله -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم ممن علم فعمل وعلّم وأن يجعل علمنا حجة لنا، وأن يقينا شرور أنفسنا، ونسأله -جل وعلا- بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يوفقني وإياكم إلىٰ ما يحب ويرضىٰ، وأن يختم لنا بالخاتمة الحسنة.

اللّٰهمَّ وفقنا إلىٰ ما فيه رضاك، وجنبنا ما فيه سخطك يا أكرم الأكرمين.

نسألك اللّٰهمَّ أن توفّق ولاة أمورنا إلىٰ ما فيه الصلاح، وأن تهيئ لهم البطانة الصالحة التي تدلهم علىٰ الخير وتحثهم عليه.

اللّٰهمَّ أعن علماءنا علىٰ كل خير وأجزهم خير الجزاء علىٰ ما قدموا وبذلوا إنك جواد كريم تجزي وتُعظم الجزاء وتعظم الأجر والثواب اللهم أعظم أجورهم وثبت أقوالهم وأعمالهم، وانفعنا بعلومهم يا أكرم الأكرمين.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

الأسئلة يعني بعض الإخوة يقول: إن الأسئلة إذا صارت كثيرة لا يمكن الجواب عنها جميعا، وهٰذا

صحيح؛ لكننا نستفيد من كثرة الأسئلة في موضوعات ومحاضرات؛ لأنّ المحاضرات كثيرة، ومن الأسئلة تخرج موضوعات وتخرج حاجات الإخوة وطلبة العلم والشباب؛ فيُستفاد من السؤال أحيانا في عناصر محاضرة جديدة، يُستفاد من الأسئلة في معالجة موضوع، في بيان في خطبة، لهٰذا الأسئلة تنفع وإن لم يُلقَ منها إلا القليل، جزاكم الله خيرا.

سؤال (٠١): فضيلة الشيخ -حفظك الله ورعاك- ما رأيك فيمن يتعلم العلم من أجل الدين والدنيا؛ ولكن هل يكون الأساسي هو نيل الشهادة العلمية والوظيفة، ولكم جزيل الشكر؟

الجواب: الحمد لله.

العلم لاشك أنه عبادة، العبادة لابد لها من الإخلاص فيها، فإذا طلب العلم للدنيا فقط درس في الكلية وهمه فقط أن يتخرج ويتوظّف -والمقصود بالعلم العلم الشرعي- فهٰذا نيته فاسدة، فيخشىٰ أن يكون داخلا بعموم قوله -جل وعلا- في سورة هود: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وقد أدخل في معنىٰ الآية السلف أشياء مما هي دون العمل؛ دون إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهي مبيّنة في «**كتاب التوحيد**» **مع شرحه في ذكر الأربع الصور الداخلة فيه**.

فالذي يعمل العمل الصالح يعني العمل العبادي يريد به الدنيا هٰذا لاشك أنه علىٰ خطر عظيم، وعمله نوع من أنواع الشرك؛ لأن العمل عبادة؛ العمل الصالح —العلم، الصلاة، الدعوة- كل هٰذه عبادة يريدها للدنيا هٰذه لاشك أنه من الشرك بالله -جل وعلا- نسأل الله العافية والسلامة.

لكن السؤال هنا من أراد طلب العلم الشرعي في الكليات مثلا أو أخذ الشهادة العالية من الماجستير والدكتوراه كيف يصحح نيته، كيف يجعل عمله هٰذا لله، فمنذ أن يدخل الكلية من الصباح إلىٰ أن يخرج وهو في عبادة لأن نيته صالحة، كيف يحصل ذلك؟ يحصل بما ذكرنا لك، بأن يخلص القصد بأن يكون قصده من طلب العلم في هٰذه الكلية أن يكون قصده أن يرفع الجهل عن نفسه، قصده أن يتعلم علما ينفي به الجهالة في الدين عن نفسه، يتعلم علم العقيدة الفقه الحلال و الحرام الحديث، شرحه، وبيان التفسير، حفظ القرآن، من نظر إلىٰ هٰذه الأمور فجعل دخوله هٰذه الكلية وتحضيره لرسالة الماجستير ودكتوراه أنه تعينه علىٰ رفع الجهالة عن نفسه فهٰذا نيته صالحة، فيكون بعد ذلك ما يحصّله من الدنيا

تكون تبعا لذلك لا قصدا، تكون تبعا بعد ما ينويه من النية الصالحة. هٰذا لا بأس به.

وذكر السلف في ذلك -كما ذكرت لكم- قال: طلبنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله. كما قال ابن المبارك وغيره، يعني (طلبنا العلم لغير الله) يعني في أول الطلب ما كان عندنا نية خالصة لله؛ لكن علمنا لما تعلمنا أنه يجب الإخلاص ويجب أن يكون العلم لله (فأبىٰ أن تكون النية) أبىٰ العلم (أن تكون النية إلا لله).

فهٰذا لاشك أن الموضوعات المهمة التي يجب علىٰ طلاب العلم أن يعتنوا بها.

أما العلم غير الشرعي مثل أنه يطلب يعلم الطب أو علم من العلوم المختلفة أو يتخصص في الرياضيات أو في الفيزياء أو في الكيمياء أو في الهندسة أو في الكمبيوتر أو في نوع من العلوم التي تراد للدنيا، فإن هٰذه العلوم لاشك أن قيام طائفة من المؤمنين بها من فروض الكفايات، لابد أن تقوم طائفة بها؛ لأنها إذا قام بها طائفة من المؤمنين قويت الأمة وقوي أهل الإسلام واكتفوا عن غيرهم وإلىٰ غير ذلك من التعليلات المعروفة.

لذلك قال العلماء: تعلم هٰذه الأمور أيضا يدخل في فروض الكفايات إذا كانت الحاجة إليها من الضروريات. والحاجة إليها الآن للأمّة من الضروريات كما هو واضح.

فكيف تكون النية؟

أن ينوي في طلبه لهٰذه العلوم أن تعتز الأمّة وتقوىٰ وأن ينفع المسلمين في بلادهم وفي غيرها بعلمه. فهٰذا إذا نوىٰ هٰذه النية الصالحة؛ لأن هٰذه نية فروض الكفايات الصناعية فإنه يكون علىٰ خير ويؤجر إن شاء الله تعالىٰ، ولكن لو طلب بها الدنيا المحضة -يعني العلوم التي تراد للدنيا- فبعض العلماء يقول: إنه لا يأثم بذلك؛ لأنها في الأصل تراد للدنيا.

سؤال (٠٢): فضيلة الشيخ منذ زمن وأنا أطلب العلم؛ ولكن لا أرىٰ له أثر عليّ وعلىٰ أهلي إلا قليلا فما سبب ذلك وما هو علاجه؟

الجواب: كون العبد -طالب العلم- يحس بتقصيره هٰذا من ثمرات العلم، يحس بأنّ العلم لم يثمر فيه وأنه لابد له أن يجاهد نفسه، هٰذا من ثمرات العلم النافع؛ لأنّ الناس يفتح لهم فيه، وليس كل أحد يُفتح له في جميع العلوم، وليس أحد يفتح له في علم معين بنفسه، وليس كل أحد أيضا يفتح له العمل.

وقد جاء رجل إلىٰ الإمام مالك -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- وقال له: يا إمامنا نرىٰ منك كل أمر جميل؛ لكنك لا تجاهد في سبيل الله. فقال: إنّ من عباد الله من فتح له باب الصلاة، وإنّ من عباد الله من فتح له باب الصيام، وإن من عباد الله من فتح له باب الحج، وإن من عباد الله من فتح له باب الجهاد، وإن من عباد الله من فتح له باب العلم والتعليم، وأنا ممن فتح لي هٰذا الباب ورضيت بما فتح الله لي.

يعني أنه يصعب أن يقيِّم الإنسان نفسه بأنه يثمر العلم فيه في كل ميدان، هٰذا صعب، ربما كان من تحميل ما لا يطاق، صعب أن يكون في كل ميدان طالب العلم موجودا، يعني أن يكون طالب علم ويعلّم ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر في كل وقت، ويدعو إلىٰ الله في كل وقت، ويقوم بحقوق والديه وحقوق أولاده في كل وقت، ويقوم بحقوق العامة في كل وقت؛ يعني كثرتها صعب أن يقوم بها واحد من أهل العلم.

نعم قد يهيئ الله -جل وعلا- من عباده من يقوم بهذه جميعا، وهٰذه مقامات الأئمة وهؤلاء نوادر في الأمة -مقامات المجددين- وهؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يقيم نفسه بهم.

إذن هٰذا الذي يقول: ما رأيت العلم أثمر فيّ، أليس المجاهدة في نفسك، ولا تحتقر نفسك ولا تقل: العلم لم ينفعني أو أنا لم انتفع بالعلم فسأترك العلم، لا، العلم لابد أن يؤثر بإتيان الفرائض وترك المحرمات وتعليم العلم وبالكلمة الطيبة وتؤثر مهما كان التأثير قليلا؛ لكن لابد أن يكون ذلك مؤثرا؛ يعني العلم، أما إذا كان العلم لم يثمر، بمعنىٰ صاحبه يرتكب المحرمات ويغشىٰ الكبائر والعياذ بالله ويفرط بالفرائض أو يترك حقوق العباد أو يعتدي علىٰ العباد في أموالهم أو في أعراضهم أو في ذواتهم ونحو ذلك، فهٰذا يجب عليه التوبة إلىٰ الله -جل وعلا- والإنابة عليه، والعلم يكون وبالا عليه، نسأل الله -جل وعلا- العافية والسلامة.

سؤال (٠٣): فضيلة الشيخ ماذا يقصد أهل الأصول بقولهم: والعامي يقلِّد أهل العلم. هل معناه أن العامي يجب عليه أن يقلد أحد العلماء في كل فتواه أم ماذا، أرجو بيان ذلك؟

الجواب: التقليد معناه قَبول قول الغير من غير حجة، وهو جائز باتفاق أهل العلم في مواضع، ومنها في حال العامي الذي جاء فيه السؤال، فإن العامي لا يعلم الأدلة ولا يعلم الأحكام، فيجب عليه أن يسأل

كما قال -جل وعلا-: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، فإذا كان لا يعلم حكم الله -جل وعلا- فإنه يجب عليه السّؤال.

والعامي ليس وصفا واحدا؛ بل العامية تتجزأ فقد يكون طالب العلم عامّيا في مسائل؛ لا يعلم الحكم في مسائل، فيجب عليه أن يسأل أهل العلم فيها، وأن يعمل بما أفتوه في ذلك.

العامّي إذا سأل فإنه يسأل من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم، يبحث في بلده أو يسأل عن الأعلم الأفقه أو هو بمعرفته يقول: هٰذا العالم أنا أثق بعلمه ودينه فيسأله فيعمل بما قال.

ولا يلزم العالم يعني لا يجب عليه أن يذكر الدليل للعامي، وعلىٰ هٰذا جرىٰ فتوىٰ الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم يفتون بلا ذكر الأدلة، وهكذا أيضا أثر عن أئمة الإسلام كمالك في المدونة والشافعي في المسائل والإمام أحمد في المسائل المروية عنه، فإنهم يفتون بلا ذكر الدليل، وهٰذا ظاهر في أنه وجب السؤال ولم يوجب الله -جل وعلا- علىٰ أهل العلم بيان الدليل للمستفتي.

والقسم الثاني ممن يقلد: العالم أو طالب العلم؛ يعني يقبل قول العالم من غير حجة إذا احتاج إليه وضاق الوقت عن معرفة الصواب في المسألة، ووثق بالعالم في علمه ودينه فإنه يجوز له تقليده أيضا بالاتفاق مع ضيق الوقت، الآن أصلي أو ما أصلي إيش أعمل؟ سأل أحد طلبة العلم أو عالم قال له: صلّ، يجوز له في حال ضيق الوقت أن يقلد وإن كان عالما أو طالب علم، العالم يقلد من هو أعلم منه، وهٰذا كثير عند علماء الإسلام، فقلد الشافعي مالكا في مسائل ثم رجع عنها، وقلد الإمام أحمد الشافعي في مسائل ورجع عنها، إلىٰ آخره كما هو معلوم، فإذا ضاق الوقت واحتجت إلىٰ العمل فلا تترك ذلك إلىٰ الهوىٰ؛ هوىٰ النفس أو إلىٰ ما تهواه أو ترجحه نفسك من غير قول عالم.

وهٰذا يشمل الرجوع إلىٰ ما يحفظه الإنسان من المتون الفقهية، مثلا حفظ الزاد أو حفظ أو يعلم أن الشيخ الفلاني له فتوىٰ في المسألة بكذا، ثم احتاج إليها إما مسألة في البيوع أو مسألة في المعاشرة الزوجية أو في الحقوق أو في الصلاة، يعلم الفتوىٰ ولكن ما يدري أوش المأخذ، أو يذكر قول الماتن في المسألة فله أن يعمل به مع ضيق الوقت لثقته بقول العالم؛ يعني ضيق وقته عن أن يبحث عن الصواب في

---

[1] سورة: النحل الآية (٤٣)، الأنبياء الآية (٧).

المسألة، ونحو ذلك.

مسألة تقليد العامي، تجزؤ الاجتهاد، وتجزؤ أيضا العامية، وأنها وصف يتفاضل فيه الناس هٰذا موجود ولبسطه يحتاج إلىٰ وقت طويل.

سؤال (٠٤): هل طالب العلم يفتي الناس بما يعتقده هو أو بما يفتىٰ به في هٰذه البلاد؟

الجواب: هٰذه مسألة عظيمة ومهمة في أن طالب العلم قد يترجح له في نفسه، يظهر له أن بعض الأقوال أرجح من بعض، وأن قول العالم الفلاني أصح لأجل الدليل الذي عنده، ويقتنع لهٰذا الرأي يعني بهٰذه الفتوىٰ دون غيرها وبهٰذا القول دون غيره. هٰذا يحصل كثيرا.

إن وجد هٰذا فإن العلماء ذكروا أن من حصل له هٰذا فإن له أن يعمل به في نفسه، وذلك لقول ابن عباس لسعيد قال: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع. فإذا عمل في نفسه بما يعلمه من العلم إذا كان متحققا منه ومتثبتا منه.

وأما إفتاؤه غيره، فالصحابة في الأصل يتدافعون الفتوىٰ، الفتوىٰ ما يجوز لطالب العلم أن يتسابق إليها وأنه يفرح بمن يستفتيه؛ لأن الفتوىٰ توقيع عن الله -جل وعلا-؛ يعني إخبار عن حكم الله -جل وعلا- وإذا كان العبد في غناة عن أن يفتي، والمفتون موجودون في البلد فيحيل المستفتين إلىٰ أهل الفتوىٰ، هٰذا أبرأ لذمته وأطيب لعلمه وعمله.

والإفتاء إن اضطر إليه لحاجة فليس له أن يفتي بما يخالف ما عليه الفتوىٰ؛ يعني فتوىٰ أهل العلم الراسخين في بلده، البلد التي يعيش فيها؛ لأن العمل عمل الناس علىٰ نسقٍ واحد هٰذا مطلوب لأجل أن لا يضطرب عمل الناس في الشريعة، فيستهزئ الناس أو يستهجنون الشرع بأنواعه، مثل ما هو حاصل الآن يجتهد بعض الناس إما في بعض السنن في الصلاة أو نحو ذلك، العامة ما يعرفون تنوع الأشياء، يشككون في الأصل، إما يشكون في المفتىٰ هٰذا طالب العلم، أو يشكون في علمه، أو يشكون في الديانة يقولون: فيها سعة، اعمل بما تشاء والأمر سهل.

هٰذا لاشك له مفاسد كثيرة، لهٰذا نهىٰ علماء هٰذه البلاد وأئمة الدعوة -رحمهم الله تعالىٰ- نهوا أن يفتي أحد بما ليس عليه الفتوىٰ، لكن من ترجَّحت له مسألة فلا بأس له أن يعمل بما ترجَّح له في نفسه؛ لكن إفتاء الغير فإنما يكون لما عليه الفتوىٰ.

سؤال (٠٥): فضيلة الشيخ أنا شاب في المرحلة الجامعية، وأريد طلب العلم، فكيف أجمع بين الدراسة النظامية في الجامعة وبين طلب العلم في المساجد؟

الجواب: الحمد لله.

طلب العلم في المساجد هو معين لطلب العلم في الكليات، وكذلك طلب العلم في الكليات الشرعية معين لطلب العلم في المساجد، فهٰذا لا يناقض هٰذا ولا يعارضه، إذا وجد أنه يتعارض لأجل كثرة الدروس التي يحضرها فإنه يخفف من الدروس لا تنفعه، ويحصّل ما ينفعه ودرسنا في الجامعة ودرسنا فيها أيضا في العلوم الشرعية بأنواعها وخالطنا من درس ودرّس.

الذين أخذوا تدريس الكليات يعني التعليم بجد والتعلم من الطلاب والمدرسين الذين أخذوه بجد انتفعوا كثيرا؛ لكن الإشكال أن يأتي الطالب ما يذاكر إلا وقت الاختبار، لا شك العلوم الشرعية كبيرة مجلدات وفنون مختلفة ما يمكن تمشي بهٰذه الطريقة، ولو أنه يذاكر مذاكرة طلب للعلم ويحفظ ما يلقيه الأستاذ في يومه ويرجع للشروح ويبحث ويسأل من يلتقي به من أهل العلم في المساجد، فإن هٰذا لاشك أنه مكسب عظيم والعلم يزيد العلم علما ولا يتناقض العلم مع العلم.

من حيث الواقع بعض الدروس في المساجد وبعض الدروس في الكليات فيها نقص؛ لكن النقص تتممه بما تحصّله من علماء آخرين أو من أساتذة آخرين، الذي يطلب الكمال في كل شيء ما يحصِّل؛ لكن أنت احرص علىٰ ما ينفعك إذا وجدت بابا فيه خير فَلِجْهُ فإنه خير لك في عاقبة أمرك إن شاء الله.

فأنا أوصي الجميع بأنهم يحرصون علىٰ الدروس في الكليات وأن يراجعوا ويبحثوا المسائل التي درّسها المشايخ لهم، وأن يحرصوا أيضا علىٰ الدروس في المساجد؛ لأن هٰذه فيها نفع من جهة وتلك فيها نفع من جهة أخرىٰ، والكل يُكمل بعضه بعضا وفق الله الجميع لما فيه رضاه.

سؤال (٠٦): فضيلة الشيخ ما رأيكم بمن يفسر قول الرسول ﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» أي معرفة أفضل الأعمال في الوقت وأكثرها في أجرًا فيبادر لفعلها وتقديمها علىٰ غيرها من الأعمال الصالحة [..] فضلا في ذلك الوقت؟

الجواب: هٰذا صحيح، تفسير صحيح للحديث، وهو بعض ما يدل عليه الحديث، فمعرفة وعلم طالب العلم بما يترجح من الأعمال الصالحة، هٰذا من العلم النافع؛ يعني مثلا يعلم أن هٰذا العمل

أفضل وأكثر أجرا من هـٰذا العمل، هـٰذا يحتاج إلىٰ علم وفقه، فإذا علم لاشك أنه سيغشىٰ ما هو أفضل له.

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما جاءه الحافظ أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف لما جاء إلىٰ بغداد كان يتذاكر معه الحديث ويعارضه الحديث من بعد صلاة العشاء إلىٰ الفجر؛ لأنه جاء في أيام معدودة وهو من حفّاظ الحديث ومذاكرة الحديث وحفظه ومعرفة الضعيف ومن غيره والمعلول والموضوع إلىٰ آخره، هـٰذا نفعها متعد للأمة وهـٰذا وقت الحافظ أبو زرعة قليل في بغداد.

فقال الإمام أحمد: استعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة.

فلم يقم تلك الليالي ولم يصل النوافل ورده المعتاد، وإنما كان مع أبي زرعة يذاكره الحديث، هـٰذا لاشك يحتاج إلىٰ علم، فهـٰذا من الفقه في الدين «**ومن يرد الله به خيرا يفقّهه في الدِّين**».

فإذا بلغ طالب العلم في العلم مبلغا أنه يعلم الراجح من المرجوح أو الفاضل من المفضول في العبادات المتزاحمة في وقت واحد، ويرجح الراجح أو يفضل الفاضل علىٰ المفضول ويأتيه، لاشك أن هـٰذا مما يؤتيه الله -جل وعلا- بعض عباده.

الواحد في أموره في ليله ونهاره يأتيه مثل هـٰذا كثيرا؛ يعني مثلا يقرأ القرآن الفجر أو يستغفر، أيهما أفضل؟ الآن تجد كثيرا من الناس شاع عندهم أن قراءة القرآن والفجر دائما أنها أفضل من الاستغفار، وكثير من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وأئمة الدعوة يفضلون الاستغفار في هـٰذا علىٰ غيره؛ لأنه هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ النبي -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- بين الأذان والإقامة ما كان يقرأ القرآن، ولأجل أن يدخلوا في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران]، وفي عموم قوله -جل وعلا-: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[الذاريات] قال الحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- في تفسير هـٰذه الآية: قلّ نومهم وهجيعهم خوفا من ربهم، فلما أصبحوا استغفروا خوفا من أنّ عملهم لم يقبل.

۞۞۞۞

المنهجية في طلب العلم

(التأصيل في طلب العلم)

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ اهدنا في من هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا في من توليت.

اللّٰهمَّ إنّا نسألك صلاحا في قلوبنا وصلاحا في أعمالنا وصلاحا في أقوالنا.

اللّٰهمَّ وفقنا لما تحب وترضىٰ، واجعلنا في مسيرنا متبعين لنبيك ﷺ.

هٰذا اليوم أو هٰذه الليلة نذكر مقدمة مهمة نافعة -إن شاء الله تعالىٰ- في طريق طلب العلم، والدّاعي لها أنّنا نرىٰ إقبالا من الشّبيبة -بارك الله فيهم- ومحبة لطلب العلم؛ لكنّ كثيرا منهم لا يعرفون طريق الطّلب؛ كيف يطلب العلم؟ بعضهم يُمضي أوقاتا طوالا ربما سنوات؛ يُمضيها ولا يحصّل من العلم ما حصله غيره ممن أنفذ سنوات مثل السّنوات التي أنفذها ذاك، والسبب هو أنه لم ينهج في طلبه للعلم النهج الصحيح، النهج الذي يحصل معه مبتغيه -أعني طالب العلم- يحصّل طرفا مما كتب الله جل وعلا له، طرفا ينفعه، طرفا ثابتا مؤصلا يمكنه أن ينقله إلىٰ غيره نقلا واضحا لا شك معه ولا ارتياب.

كثير من الشباب يقرؤون قراءات متنوعة، تارة في الحديث، وتارة في التفسير، وتارة في الفقه، يسمعون ويحضرون مجالس أهل العلم؛ ولكنّهم إذا رجعوا إلىٰ أنفسهم فيمن حضر سنة أو حضر سنتين، إذا رجع لنفسه رأىٰ أنه لم يحصّل شيئا كثيرا، لم يفهم المادة التي أُلقيت عليه، أو لم يؤسِّس عنده -حضورُه- علما مؤصلا يمكن معه أن ينطلق ويقيس علىٰ منواله وينهج نهجه.

والسبب انعدام المنهجية الصّحيحة في طلب العلم؛ لأنّ طالب العلم لابد أن يسلك في طلبه منهجا واضحا محدّدا، إذا لم يسلكه تخلّف عن الطريق، ولذلك نرىٰ أنّ كثيرين ملّوا من طلب العلم، سنين أمضوها ثم ملّوا وتركوا، تمضي عليهم سنون أخر فيرجعون عوامًا أو قرّاءً لا يعدون ذلك.

ونريد من طالب العلم المقبل أن يتحلّىٰ بخصلتين:

الأولىٰ: أن يكون سائرًا علىٰ منهج الطلب الذي سار عليه من قبلنا من أهل العلم، وصاروا علماء بعد مسيرهم ذلك السَّير.

والثاني: أن يوطِّن نفسه علىٰ أن يكون باذلا للعلم وقتَه، وأنْ لا يملّ مهما كان.

روىٰ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»: أنّ أحد طلبة الحديث رام طلبه ورغب فيه وحضر عند الأشياخ وجلس مجالسهم، ثم لما مرّ عليه الزّمن رأىٰ أنّه لم يستفد شيئا ولم يُحصّل كبير علم، فقال: إنّني لا يناسبني هٰذا العلم. وترك العلم لظنّه أنّ عنده في فهمه ركودة، أو أنّه لا يصلح لطلب العلم.

قال: فلما كان ذات يوم -أي بعد أن ترك بمدة- مرّ علىٰ صخرة يقطر عليها ماءٌ قطرة تلو قطرة، وقد أثَّر ذلك الماء في تلك الصخرة فحفر فيها حفرة، فتوقف معتبرا ومتأملا ومتدبرا، فقال: هٰذا الماء علىٰ لطافته أثّر في هٰذه الصَّخرة علىٰ قساوتها، فليس عقلي وقلبي بأقسىٰ من الصَّخر وليس العلم بألطف من الماء. فعزم علىٰ الرجوع إلىٰ طلب العلم فرجع ونبغ وصار ممن يشار إليهم فيه.

هٰذا يُفيدك أنّه يحتاج طالب العلم إلىٰ العزيمة وأنْ لا يملّ، لا يقول: أنا درستُ ودرست فما استفدت. ليرجع إلىٰ السبب، ليس السبب في طبعه، في أكثر الشباب أو أكثر المقبلين علىٰ طلب العلم، ليس السبب هو أنّهم لا يفهمون، كثير منهم يفهم، ولكن السبب في عدم تحصيله للعلم أنّه لم يسلك طريقه، ولم يأخذه علىٰ المنهاج الذي به تخرّج من سبقنا من أهل العلم، هٰذا الطريق سهل ميسور، وهو أسهل من الطريقة التي يسلُكُها الأكثرون اليوم.

إذا تبيّن هٰذا يحضُر هنا السؤال المهم وهو يُرَدَّد كثيرا؛ يردِّده كثير من الشباب ويسألون عنه ألا وهو:

ما هي المنهجية الصحيحة في طلب العلم؟

كيف يسير طالب العلم في هٰذا الطريق علىٰ وفق المنهجية التي إذا وفّق الله جلّ وعلا العبد معها صار طالب علم ووفق إلىٰ دراسته؟

وهو سؤال مهم للغاية، وحضور مجالس العلم مفيدٌ فوائد جمّة، ومن أعظمها أن يتخرّج طالب العلم منها -من تلك الحِلق- أن يتخرَّج فاهمًا لما أُلقي عليه ويستطيع به -أي بما فهم- أن يُفهم غيره.

أولا يحتاج طالب العلم إلىٰ أن يكون عنده أخلاق ضرورية وصفات ملازمة له في مسيره لطلب العلم:

أوَّلها وأعظمها: أن يكون مخلصًا لربّه جلّ وعلا في طلبه للعلم؛ لأنّ طلب العلم عبادة كما ثبت في الحديث الصحيح[1] «**والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**»، الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، فهٰذه العبادة لابد لقبولها ولتوفيق الله جلّ وعلا لصاحبها أن يكون مخلصا فيها لله جلّ وعلا، يعني لا يطلب العلم لنيل مرتبة دنيوية، لا يطلب العلم الشرعي؛ علم الكتاب والسنة لنيل جاه أو سُمعة، أو ليصبح معلما، أو ليصبح محاضرا أو ليشار إليه بالبنان، أو ليكون ملقيًا لدروس ونحو ذلك؛ لا؛ بل يكون قصده التَّعبُّد لله بهٰذا وأن يتخلص من الجهالة فيعبد الله جلّ وعلا علىٰ بصيرة.

إذن الإخلاص في طلب العلم أن يكون المراد وجه الله جلّ وعلا لا عرضًا من الدنيا -بأنواع تلك الأعراض-، ويكون ناويًا أن يرفع الجهالة عن نفسه.

---

(١) «جامع الترمذي»، حديث رقم(٢٦٨٢)، «سنن ابن ماجه»، حديث رقم (٢٢٣)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

سُئل الإمام أحمد قيل له: كيف الإخلاص في العلم؟ قال: **الإخلاصُ فيه أن ينوي رفع الجهالة عن نفسه.** لأنّه لا يستوي عالم وجهول، قال جلّ وعلا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر:٩]، وقال جلّ وعلا في آية المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة:١١].

فإذن الله جلّ وعلا فضّل أهل العلم علىٰ غيرهم، والذي يطلب العلم ليعبد الله علىٰ بصيرة، ليُخلِّص نفسه هو من الجهالة، وليكون في حياته موافقًا لما شرع الله جلّ وعلا، هٰذا قد أخلص، قد أخلص؛ لأنّه قصد وجه الله جلّ وعلا، قصد أن ينجو من أن يكون متَّبعًا لهواه جاهلا مقلدا.

الإخلاص أول تلك الشرائط وأول تلك الآداب والصِّفات.

والصفات والآداب كثيرة صنّفت فيها كتب ومؤلفات بعضها صغير وبعضها كبير، لكن نذكر منها ما يهمُّ في هٰذا المقام.

ثانيها: أن يكون رفيقًا مترفِّقًا في طلب العلم؛ لأنّ النبي ﷺ أخبرنا بخبر عام فقال: «**إنّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كلّه**»(١) يحبُّ الرفق في الأمر كلّه، وهٰذا ظهور في العموم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ الرِّفق ما كان في شيء إلا زانه**»(٢) ويدخل في ذلك العلم وطلب العلم. كيف يكون الترفق؟ يكون بأنْ لا تروم العلم جملة، كما قال لكَ ابن شهاب الزهري الإمام التابعي المعروف قال: **من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنّما العلم يُطلب علىٰ مرّ الأيام واللّيالي.**

وقد أفصح عن هٰذا المعنىٰ الشاعر حيث قال:

اليوم علم وغدا مثله ... من نخب العلم التي تُلتقط
يحصّل المرء بها حكمة ... وإنّما السَّيل اجتماع النقط

الرفق مطلوب، كيف يكون الرفق؟ بأن لا تروم العلمَ جملة.

بمعنىٰ: واحد يريد أن يروم علم **التفسير** يذهب يقرأ «تفسير ابن جرير»، «تفسير ابن جرير» فيه كلّ التفسير، هٰذا رام العلم جملة، ما يحصّل، يبدأ وينتهي من «تفسير ابن جرير»، وإذا سألته لم يعلق بذهنه من التفسير إلا القليل، يتذّكر أنه قرأ كذا وقرأ كذا؛ ولكنه لا يُفصح لك عن تفسير آية علىٰ الوجه المطلوب.

إذن كيف يكون؟ لا بد من التدرّج، والتدرج سنّة لابد منها.

(١) «صحيح مسلم»، حديث رقم (٢١٦٥).

(٢) «صحيح مسلم»، حديث رقم (٢٥٩٤).

كذلك رجل يريد أن يطلب علم **الحديث** يذهب إلىٰ «نيل الأوطار» يبدأ به، أو «فتح الباري» يقول: أنا خلاص انتهيت من مجلد من «فتح الباري»، هٰذا الرجل اعلم أنه لن يحصِّل العلم علىٰ ما كان عليه أهل العلم، فيكون قارئا مثقفا عنده معلومات متناثرة؛ لكن ليس هو العلم الذي قد أُصِّل والذي بعده سيكون عالما إنْ وفقه الله جلّ وعلا.

كذلك في **الفقه** ماذا قرأت في الفقه؟ يقول: أنا أقرأ في المغني، أنا أقرأ في «المجموع»، هٰذا يصدق عليه أنه لم يأخذ بالترفّق؛ رام العلم جملة، «المغني» و«المجموع» والكتب الكبار هٰذه إنّما يعي مسائلها الكبار من أهل العلم؛ لكن طالب العلم المبتدئ لا يقرأها قراءة من أولها إلىٰ آخرها، لا شك أنّه قد يحتاج إلىٰ بحث مسألة بخصوصها يرجع فيها إلىٰ المطوّلات؛ لكن لا يقرأها سردا يمرّ عليها.

أيضا لا يهتم طالب العلم -وهٰذا من **فروع الترفُّق**- لا يهتم بالتفصيلات فإنه إذا كان في طلبه للعلم اهتم بدقيق المسائل واهتم بالتفصيلات فإنه ينسىٰ ولن يحصّل علما؛ لأنّه لم يؤصَّل ولم يبن القاعدة التي معها تُفهم تلك التفصيلات، بعضنا يذهب إلىٰ دروسٍ مفصّلة جدا، يمكث أصحابها في كتاب سنين عددا طويلة ما انتهوا منه، أو في الباب الواحد يجلسون أشهر ونحو ذلك، ويظنّ أنّ هٰذا يحصِّل معه علما، لا، هٰذه الطريقة ليست بطريقة منهجية؛ لأنّه لم يترفق صاحبها فيها، ولقد قال جلّ وعلا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩﴾[آل عمران]، ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ فسّرها أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمه الله واسعة في «صحيحه»(١) قال: **الرباني هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره**. هٰذا الرّباني في العلم والتدريس هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

يَشْرُف المدرس وطالب العلم إذا درّس أن يذكر كل ما يعلم في المسألة، أن يذكر بعد تحضير واسع كل ما وصل إليه تحضيره؛ لكن هٰذا شرفٌ له؛ ولكنّه ليس بنافع لمن يعلِّمُ؛ لأنه هو يستعرض ما علم، والعالم إنما يُعطي ما يحتاج إليه السّامع، لا يعطي ما هو فوق مقدرة فهم السَّامع، يُعطي ما يحتاج إليه السامع.

إذن فلابد من الترفق، كيف يكون الترفق؟ سيأتي جوابه في بيان المنهج الصَّحيح في التدرّج في طلب العلم.

الخصلة الثالثة: أن يكون مواصلا في طلب العلم، يجعل للعلم أعزّ أوقاته وأحلاها، لا يجعل للعلم الأوقات الميّتة، الأوقات التي كلّ فيها ذهنه وضعف فيها فهمه يجعلها للعلم، يجعلها للدرس، هٰذا قد خالف وما نَصح نفسه.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

إذن العلم تعطيه من وقتك أعزّ الأوقات التي فيها صفاء الذهن وقوة الذهن والفراغ.

وهٰذا إنما يكون بضميمة أمر آخر ألا وهو أن يكون طالب العلم شغفا بالعلم ليلا ونهارا، يصبح مع العلم، ذهنه مشغول بالعلم، يُمسي كذلك، همّه العلم، إذا أراد أن ينام بجنبه كتاب ربما يحتاج فيه إلىٰ مسألة.

ولهٰذا يقول بعضهم: إذا رأيتَ كُتب طالب العلم مرتّبة فأعلم أنه هاجِرٌ لها، إذا رأيتها مرتبة فاعلم أنه هاجرٌ لها، إذا أتيت علىٰ غفلة ودخلت مكتبة فلان من الناس ورأيتَ كتبه مرتبة، كلّ واحد في مكانه، معنىٰ ذلك أنه ما يطالع، الأرض ما عليها كتاب، ولا بجنبه كتاب، وإذا كان عنده طاولة ليس عليها كتاب، هٰذا معناه أنّه يأخذ الوقت الذي يفعله بعض المثقّفين أصحاب المشاغل يقول: وقت قراءة، طالب العلم ما عنده وقت يسمىٰ وقت قراءة؛ لأنّ وقته كله في طلب العلم، يصبح ويمسي ذهنه مشغول بمسائل العلم، في فترة شبابه؛ الفترة الرّئيسة في عمره التي فيها يُحَصِّل يكون شغفًا، هنا تتوزع الأوقات:

الأوقات الجليلة التي يقوىٰ فيها ذهنه يختار لها العلوم التي تحتاج إلىٰ كدّ ذهن مثل الفقه والأصول ونحو ذلك.

الأوقات المتوسِّطة يختار لها العلوم التي لا تحتاج إلىٰ كدّ ذهن مثل التفسير الحديث المصطلح ونحو ذلك.

الأوقات التي يضعف فيها فهمه يختار فيها قراءة كتب الآداب، كتب الرِّجال، تراجم الرجال، التاريخ ونحو ذلك، الثقافة العامة.

إذن هو منشغل دائما، أينما كان منشغل مع طلب العلم، دائما يفكر فيه، لا يسليه عن طلب العلم نزهة ولا صحبة.

ولهٰذا نرىٰ أنه من أكبر ما يُعاب علىٰ بعض من يظنّ أنّه طالب علم أنّه يمضي الساعات الطوال في مجالس في قيل وقال وأحاديث لا تمتّ إلىٰ العلم بصلة، هٰذا لا يكون طالب علم، وإنما يكون شيئا آخر بحسب ما أشغل به نفسه، أما طالب العلم فمشغول سَلواه وهواه ورغبته في طلب العلم، المجلس الذي فيه كلام عن مسائل العلم وبيان ما أنزل الله جلّ وعلا في كتابه أو قاله رسول الله ﷺ هٰذا مكان انشراح الصدر، ومكان سعة الصدر، أو مكان تعليم، أو مكان بيان للعلم الذي أنزله الله جلّ وعلا، هٰذا هو سعة الصدر ومكان راحته.

إذن فطالب العلم ينبغي بل يجب علىٰ أن يكون من خصاله الملازمة له أن يكون ملازمًا للعلم، لا يعطي العلم بعض الوقت إنما يعطيه كل الوقت أو جل الوقت، في فترة شبابه الفترة التي فيها تحصيل العلم.

ولهٰذا يقول بعض من تقدَّم: أعط العلم كلّك يعطيك بعضه. لأنّ العلم غزير مسائله كثيرة شتىٰ، ولهٰذا كان بعض أئمة الحديث حُدِّث بحديث وهو علىٰ فراش الموت، فقال لكاتبه: أكتبه -هو علىٰ فراش الموت- علم حصّله في هٰذه اللّحظة، هٰذا يدلك علىٰ إخلاصه وعلىٰ متابعته وقلبه شغف بذلك الشيء.

والإمام أحمد لما كان في مرضه الأخير كان ربما أنَّ؛ أصابه بعض الوجع فأنَّ أنين -يُخرج الأنين- فأتىٰ بعض تلامذته فروىٰ له بالإسناد أنّ محمد بن سيرين قول أنس بن مالك رضي الله عنه كان يكره الأنين. قال: فما سُمع أحمد آنّا حتىٰ مات.

هٰذه النفسية لطالب العلم وللعالم هي التي بها يجعل الله جلّ وعلا طالب العلم عالما في مستقبل أمره إن شاء الله تعالىٰ نافعا، يكون همه مع العلم ليلا ونهارا، يستفيد ما يحتقر فائدة يأتي بها الصغير أو الكبير، بعضهم يأتيه من هو أصغر منه بفائدة فيستكبر عليها أو لا يصغي لها كلَّ سمعه، وهٰذا لأجل أنّه عظَّم نفسه علىٰ العلم، فإذا عظم نفسه علىٰ العلم فإنّه لا يكون من المحصّلين للعلم، بل إنّ العلم يكون مع الصغير ويفوت الكبير، بعض العلم يفهمه من هو أصغر ويفوت الأكبر فإذا وضحه له استفاد.

وهٰذا يذكر أهل العلم له المثل الواضح ألا وهو قصة سليمان مع الهدهد، فإنّ الهدد مع وضاعته قدْرا وذاتا ومع رفعة سليمان قدْرا وذاتا ومنزلة عند الله وعند الخلق قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[النمل]، فعلمها الهدهد وجهلها سليمان عليه السلام، فهٰذا استفاد منه أهل العلم أن لا تتكبر علىٰ من أتاك بفائدة صغر أم كبر، يأتيك بفائدة يستشكل استشكالاً أرعه سمعك لأنه يفتح لك بابا بذلك.

هٰذه الخصال الثلاث مهمة جدًّا لطالب العلم، وهناك غيرها كما ذكرت لك تطلبها من الكتب التي أُلفت في هٰذا الباب.

الآن نأتي للسّؤال المهم:

كيف يكون الترفُّق؟ كيف يكون التدرج في طلب العلم؟ أو ما هو المنهج في طلب العلم؟

الجواب: أنّ العلوم متنوعة مختلفة، العلوم الشرعية متنوعة ومختلفة:

- فمنها علوم أصلية.
- ومنها علوم مساعدة يسميها بعضهم علوم الآلة، ويسميها آخرون علوما صناعية.

فالعلوم الأصلية: هي علم الكتاب والسنة؛ يعني علم التفسير، علم الحديث، علم الفقه، ثم علم التَّوحيد نخرجه من الكتاب والسنة لأجل عظيم منزلته؛ لأنّ كل هٰذه العلوم متفرعة ومفهومة من الكتاب والسنة.

إذن عندنا العلوم الأصلية لطالب العلم: **التفسير، والتوحيد، والحديث، والفقه.**

والعلوم المساعدة: هي أصول التفسير أو ما يسمونه بعلوم القرآن، أصول الحديث أو ما يسمىٰ بمصطلح

الحديث، أصول الفقه، النحو وعلوم اللغة.

ثم هناك تقسيم آخر:

- العلم منه أصول.
- ومنه مُلح.

الأصول: مثل هٰذه العلوم سابقة الذكر كلها التي ذكرت، الأصلية والمساعدة.

والملح: كالأخبار والتراجم والغرائب والقصص والتاريخ ونحو ذلك.

أولًا: علم التفسير:

علم التفسير تتدرَّج فيه بأن تبدأ بتفسير مختصر جدا، تطّلع فيه علىٰ معاني كلام الله جلّ وعلا، وخاصة إذا كنت حافظا للقرآن فإنه يكون من أنفع الأشياء لك أن تمر علىٰ تفسير مختصر.

كان العلماء يعتنون بـ«تفسير الجلالين» في الأعصر المتأخرة، وهو نافع مفيد؛ لكن تحترز في قراءته علىٰ ما فيه من التأويلات، وقد صنّفه الجلالان: جلال الدِّين المحلِّي وجلال الدين السّيوطي.

تمرّ فيه من أوَّله تأخذ المفصل حيث إنّك تسمعه كثيرا في الصلاة تفهم المعاني باختصار وهو كله مجلدان صغار، فإذا مررت علىٰ خمسين صفحة أخذت المفصل كاملا فهمت المعاني التي تسمعها في الصلاة، فيكون معك علم واضح.

كيف تعرف أنك فهمت التفسير حتىٰ تنتقل إلىٰ غيره؟

هنا الجواب: أن تستطيع أن تفسر السّورة علىٰ نفسك، مثلا تقرأ سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فقرأت تفسيرها في «الجلالين»، وفهمته. كيف تعلم أنك فهمته؟ تُغلق التفسير وتبدأ تفسر علىٰ نفسك، فإذا استطعت أن تفسّر بصواب وبدون تلكّؤ وبوضوح في فهم الآيات عند نفسك، فإنّك تكون قد درجت؛ فهمت تفسيرها ويمكن أن تنتقل بعدها إلىٰ غيرها.

وهٰذه طريقة يأتي تفصيلها في غير التفسير.

هٰذا أولًا تبدأ بتفسير «الجلالين»، بعد ذلك تنتقل إلىٰ ما هو أعلىٰ منه مثل «تفسير الشيخ ابن سعدي»، أو مثل «تفسير البغوي»، أو «ابن كثير» أو مختصراته إذا كان هناك مختصرات سالمة من المعارضات فتَرجع إليها، تمر عليها مرورا تعرف معه المعاني.

تكون المعلومات التي فيها التي هي أطول من «الجلالين» قد أتت ذهنك بعد فهمك لما أورده الجلالان، -واضح-، فإذا أتت المعلومات الأكثر تكون المعلومات الأقل واضحة، لأنّك استطعت أن تفسِّر، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فسّرتها علىٰ نفسك، بعد ذلك إذا قرأت «ابن كثير»، إذا قرأت «البغوي» ونحو ذلك من الكتب التي هي أكبر قليلا، بعد ذلك ستحس من نفسك أنك أدركت أكثر وهكذا، مع مرور

الزمن تحس أنك قد نميّت فهمك لكلام الله جلّ وعلا.

التوحيد:

التوحيد قسمان:

القسم الأول: العقيدة العامّة.

القسم الثاني: توحيد العبادة.

يعني علم التوحيد الذي ستدرسه إن شاء الله، ليس تقسيم للتوحيد المطلوب؛ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، هٰذا تقسيم للتوحيد من حيث هو علم.

العقيدة العامة: أُلفت فيها كتب منها: «لمعة الاعتقاد»، ومنها «الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها «الحموية»؛ «الحموية» ذكر بعض المسائل، ومنها «العقيدة الطحاوية»، وغير ذلك مما ذُكرت فيه مباحث الاعتقاد كاملة؛ يعني يذكرون مباحث الاعتقاد كلها، كل مباحث الاعتقاد مثل: الإيمان بالله، أسمائه وصفاته وربوبيته وما يتعلق بذلك، والإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب، بالرسل، باليوم الآخر، أحوال القيامة، أحوال القبر، البعث، ما يحصل في عرصات القيامة، الجنة والنار، القدَر وما يتعلق به، ثم يذكرون تفاصيل الاعتقاد، مباحث أخر مثل الكلام في الأولياء وكراماتهم، مثل الكلام في الصحابة رضوان الله عليهم، مثل الكلام في الإمامة وحقوقها، مثل الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل الكلام في الأخلاق ونحوها كما ذكر شيخ الإسلام في آخر «الواسطية»، هٰذه تسمىٰ عقيدة عامّة لأهل السنة والجماعة.

هٰذه تأخذها بالترتيب، تبدأ بكتاب مختصر تقرأه علىٰ شيخ.

التفسير لا يحتاج أن تقرأه علىٰ شيخ، إذا أشكل عليك شيء فسل فيه أو عنه.

أما التوحيد فلابد من قراءته، تأخذ مختصرا مثل «لمعة الاعتقاد» إن حفظتها فحسن وهو المراد، وإن لم يتيسر فكررها حتىٰ تفهم مباحثها.

من الأغلاط التي تواجه طلاّب العلم أنهم يأخذون كتابا ما استعرضوا مسائله ولا مباحثه؛ يعني يحضر يعرف الموضع الذي يحضر فيه عند المعلم، وهٰذا غلط؛ بل الواجب أنْ تعرف المباحث التي تكلَّم عنها الكتاب.

«لمعة الاعتقاد» تمر عليها من أوله إلىٰ آخره، تعرف ترتيبه والمسائل التي تعرض لها ونحو ذلك، ثم بعد ذلك تقرأه علىٰ معلم أو علىٰ شيخ.

كتاب في أوائل الكتب «لمعة الاعتقاد»، مسائله واضحة مختصرة، إذا شرح لك وقرَّرَ عليه تقريرات كتبتها، بعد ذلك اضبطه، فإذا ضبطت هٰذا الشرح وعرفت من نفسك وأنست أنك أحكمته، أو أحكمت

أكثره تنتقل بعده إلىٰ «الواسطية».

تأخذ أيضا «الواسطية» علىٰ معلم. ثم كيف تعلم من نفسك أنّك فهمت الباب؟

بعض الناس يقرأ فإذا أتىٰ يعبر عما قرأ إما أن يعبر بعبارة غير شرعية غير علمية، وإما أنْ يعبر خطأ؛ يكون فاهما أصلا خطأ من جراء قراءته، لِم؟ لأنّه لم يختبر نفسه، فأنت إذا قرأت الفصل من «الواسطية» مع شرحه، تبدأ تدرسه علىٰ نفسك؛ تعبر عنه، تقول مثلا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الواسطية» في أولها مثلا: (فَهٰذا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ [الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ]: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ)، تبدأ تشرح الفرقة الناجية من هم؟ أهل السنة والجماعة من هم؟ حتىٰ تعرف من نفسك أنك أدركت معاني هٰذا الكلام، إذا أتىٰ في أثنائه درست الكلام عن الصفات مثلا صفة العلو لله جلّ وعلا الاستواء علىٰ العرش تذكر ما تعرض له الشارح من المسائل، ما تأخذها سماعا أو قراءة، تقول أنا قرأت «الواسطية»، هٰذا لا تُحصِّل معه العلم بل لابد أن تدرس.

وهٰذا الذي يسميه أهل العلم: **معارضة العلم ومدارسة العلم، ومذاكرة العلم**، له ثلاثة أسماء معارضة، مذاكرة، مدارسة، ويستعمل أهل الحديث له لفظ (المذاكرة) يقول: ذاكرته بكذا، كما مرّ في بعض أخبار الإمام أحمد أنه صلىٰ العشاء هو وأبو زرعة الرازي؛ عبيد الله بن عبد الكريم الإمام المعروف، صليا العشاء سويا ثم دخلا إلىٰ المنزل فما فُوجِئا إلاّ بآذان الفجر مكثا الليلة يتذاكران، كيف يتذاكران؟ هٰذا يذكر إسناد وذاك يذكر المتن، هٰذا يذكر المتن ما تكلم عليه إذا كان عليه فقه أو نحو ذلك، يتذاكران العلم هٰذا فيه تثبيت له، أما أنْ تحضر عند الشيخ والمعلم وتسمع وتذهب، وعهدك بالدرس آخر ما سمعته، هٰذا لا يحصّل علما، تسمع وتستفيد ومأجور إن شاء الله لكن لا تنمّي العلم ولا تؤسسه عند نفسك.

فإذن إذا سمعت، قرأت الشرح، فهمت معنىٰ الكلام، علامة فهمك عند إغلاق الكتاب أنْ تبدأ تشرح وتوضح المسائل، إذا كنت فاهما مائة في المائة ستوضح كل المسائل لن يكون في ذهنك اشتباه، إذا كان فهمك ناقصا أو مضطربا أو مشوشا، ستلاحظ أنك أثناء الشرح لهٰذه الكتب الأساسية التي هي أصول، ستلاحظ أنك اضطربت، تتكلم ما تعرف كيف تعبِّر؛ اختلطت عليك المسألة، مع أنّك كنت حين أمررته، ظننت أنك فاهما له؛ ولكن عند الاختبار يُكرم المرء أو يهان، فتنظر إلىٰ نفسك فتعرف أنك فاهم أو لست بفاهم، فإذا ما استطعت أن تشرح هٰذا المقطع أو تلك الجملة فمعنىٰ ذلك أنّك تحتاج إلىٰ إعادتها، فلا تنتقل إلىٰ ما بعدها إلا بعد إحكامها.

سابقا طلاب العلم يحضرون عند الشيخ مثلا يدرّسهم، في الليل مدارسة لما درسوه، كل واحد يغلق الكتاب ويشرح لصاحبه، والآخر يشرح له، ومن الحسن في طلب العلم أن تتخذ لك صاحبا

واحدا، لا تكثر، صاحب واحد لا تكثر، فهٰذا الصاحب تراجع أنت وإياه العلم؛ تشرح له ويشرح لك تبين له خطأ فهمه ويبين لك خطأ فهمك، وتتساعدان في هٰذا.

إذا انتهيت من «الواسطية» تأتي الدرجة الثالثة، بعد فهم الواسطية تماما تأتي الدرجة الثالثة؛ تنتقل إلىٰ «الحموية»، أو إن شئت تنتقل إلىٰ «شرح الطحاوية»، ما فيه حرج.

تستطيع بعد فهم «الواسطية» تماما -إذا فهمت «الواسطية» تماما- تستطيع أن تأتي لكتب شيخ الإسلام تمرّ عليها تفهمها بإذن الله تعالىٰ.

لكن من العجب أن يأتي بعضٌ منّا ويفتح «الفتاوىٰ» ويقرأ فيها، وهو ما أحكم أصول علم الاعتقاد، جاء به نوم تعبان كليل ما عنده إلا عشرة دقائق أو ربع ساعة، قال: خلِّي نقرأ في «الفتاوىٰ». يفتح ويقرأ، ثم بعد ذلك يصبح يجادل في بعض المسائل وهو ما فهمها أصلا، وهٰذا كثير وواجهناه، كثير يأتي يقول قال شيخ الإسلام كذا، وإذا راجعت وجدت أنّ شيخ الإسلام ما قاله.

لأجل أنه أعطاه وقتا مقتطعا ليس بجيد.

الثاني لأجل أنّه ما عنده أصول تلك المسألة؛ يعني أصول تلك المسألة ليست ثابتة عنده، فيكون فهمه لكلام العلماء ليس بقوي.

الأعظم من ذلك أنْ لا يكون أحكم «الواسطية» أو «الحموية» أو «لمعة الاعتقاد»، أحكمها فهمًا، ويذهب إلىٰ كتب السلف كـ«السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد، أو «الإيمان» لابن منده، أو كـ«التوحيد» لابن خزيمة، أو كـ«التوحيد» لابن منده، ومثل ذلك من الكتب الكبار التي ليست المسائل فيها مؤصَّلة كما أُصلت في كتب المتأخرين.

لكن إذا أصّلت المسائل ثم ذهبت إلىٰ تلك الكتب فسوف يكون استدلالك بكلام السلف علىٰ أتم وجه، فستفهمه علىٰ أتم فهم إن شاء الله تعالىٰ؛ لأنّ الكلمة من كلام السلف سوف تكون في بالك منوطة بالمسألة التي كانت عندك أصولها في تمام الوضوح، ترتبط الكلمة واضحة عندك معناها، مرادهم بها، محترزاتها، ما تحوىٰ.

من أمثلة ذلك مثلا الكلمة التي هي في أول «لمعة الاعتقاد»، حيث قال صاحب «اللمعة» في أولها في الإيمان بالأسماء والصفات: بـ(لا كَيْفَ ولا مَعْنَىٰ)؛ هٰذه يأتيها طالب العلم (ولا مَعْنَىٰ)، هٰذه إذا ما فهمها علىٰ حقيقتها فإنه إذا أتىٰ إلىٰ كتب السلف لم يفهم بعض الكلمات التي جاءت عنهم، ولهٰذا يأتي بعض أشاعرة العصر ومبتدعة العصر ويأخدون بعض كلام الإمام أحمد أو بعض كلام من تقدم علىٰ أنه تأويل لبعض النصوص لأجل أنهم لم يفهموا حقيقة المعنىٰ، لٰكن إذا فهمت معنىٰ قوله: (لا كَيْفَ ولا مَعْنَىٰ) وأن المعنىٰ المراد في قول «صاحب اللمعة»: (ولا مَعْنَىٰ) هو المعنىٰ الذي حرف النص إليه

المبتدعة، فمت كثير من كلام من تقدم.. وهكذا مسائل الإيمان، مسائل القدر، لا يمكن أن تفهم كل كلام السلف ما لم تكن العقيدة واضحة عندك كما أوضحها المتأخرون من أئمة أهل السنة والجماعة، فلا يكون عندك اشتباه. كذلك كتب السنة المختلفة يعني مثل كتاب «السنة» لأبي داود آخر كتابه «السنن»، «التوحيد» للبخاري ونحو ذلك، إذا ما فهمت الأصول فإن تلك المسائل قد لا تكون واضحة عندك ولا تؤصل عند العلم.

القسم الثاني: (١) وهٰذا لا شك أنه خروج بكتب أهل العلم عما ينبغي له، وأن قول الشيخ: (الثالث الدعوة إليه) لا يعني أن تدخل المسائل المعاصرة المحدثة في أساليب الدعوة إلىٰ غير ذلك أن تدخل في تقرير كلام أهل العلم؛ لأن المستمع متلقي عنك ما أجمع عليه أهل العلم، لا يتلقىٰ عنك آراءك، فالمدرس ينتبه إلىٰ التبعة العظيمة في هٰذا أنه يتلقىٰ عنه، إذا كان المدرس شابا مبتدئا في طلب العلم وفي الشرح لابد أن يذكر له ما يعلمه مجمع عليه، ولا يذكر المسائل التي هي آراء، فإن الدروس العلمية ليست مجالات للتربية الشبابية، أن تكون علما خالصا يؤخذ عن المعلم.

إذن فتنتبه أن تأخذ هٰذه الكتب عمن تحقَّقها، وأنصح ثم أنصح أن تحرصوا ثم تحرصوا علىٰ علمائنا الكبار؛ لأنّ عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم، فإن لم يكن عندك من الوقت ما يناسب أوقاتهم ونحو ذلك فلا بأس أن تلحق بغيرهم من طلبة العلم ممن هم من أساتذتنا ولكن بشروطه المعتبرة.

الثالث: الحديث:

أول ما يبدأ طالب العلم بحفظ «الأربعين النووية» وربما لو سألت أكثر الحاضرين هل حفظوا «الأربعين النووية»؟ يقول: لا، ما حفظوها وانتقلوا إلىٰ دراسة الكتب الكبار مثل «نيل الأوطار» أو «سبل السلام» أو «فتح الباري»، و«الأربعون النووية» هي القاعدة.

أُرجعكم إلىٰ شيء؛ إلىٰ الكتب التي ترجم فيها مؤلفوها لأهل العلم؛ كتب التراجم، انظر واقرأ ما تجد أنّهم ذكروا في ترجمة عالم أنّه قرأ كتابا كبيرًا، مثلا ما تجد أنّه تُرجم للعالم الفلاني الجليل بأنّه قرأ «فتح الباري»، أو قرأ «المجموع» ونحو ذلك، ما تجده؛ لكن تجد في تراجمهم أنه يقول: حفظ مثلا «الأربعين النووية»، حفظ «المُلحة» في النحو، حفظ «العمدة» في الفقه، حفظ «عمدة الأحكام». يذكرون مثل المختصرات لمَ؟ لأمرين:

الأول: ليدلك أنّ طريق العلم هو هٰذا لا غير.

الثاني: ليُبين مكانة هٰذا العالم وأنّ علمه مرسخ مؤصل؛ لأنه ابتدأ بتلك المتون فأحكمها ودرسها علىٰ

(١) الظاهر يوجد قطع في الدرس الصوتي.

الأشياخ.

ما تجد أنّ فلانا قرأ «فتح الباري»، قرأ «نيل الأوطار»، ما تجد، ما فيه، ولا يُثني علىٰ العالم بذلك؛ لأنّ هٰذه الكتب تُعرف مسائلها التفصيلية إذا أحكمت الأصول، إذا كان ثَم وقت عالم خص طالب علم جيد بأنه جعله يمر عليه كتاب من الكتب المطوَّلة، هٰذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لٰكِن ليست قاعدة.

إذن في الحديث:

أولا تبدأ بحفظ «الأربعين النووية» حفظا لا غير، لابد تحفظها مثل الفاتحة، تحفظها وتمرُّها دائما، تحفظها، كل أسبوع لك ختمة فيها تختمها، حتىٰ تكون واضحة عندك بعد ذلك تقرأ شرحًا لها، وحبذا لو يكون علىٰ شيخ أيضا، وإنْ لم يكن فتقرأ شرحًا وتضبطه وتسأل فيما أشكل عليك أحد العلماء.

كيف يكون؟ بعد حفظ جميع «الأربعين النووية» تبدأ في كلّ حديث تقرأ «شرح النووي» عليه، النووي مختصر، أكبر من النووي «شرح ابن دقيق العيد»، ثم يليه شروح كثيرة، ولكن أكبرُها «شرح ابن رجب الحنبلي» الحافظ المعروف.

تقرأ شرح النووي فإذا قرأته علىٰ حديث «**إنّما الأعْمَالُ بالنّيات**»[1] تُغلق الشرح، تبدأ تشرح الحديث، هٰذا ينفعُك كثيرا إذا أردت أن تعظ في مسجد، لك أن تبتدئ من أيّ حديث من الأربعين النووية وأنت ضابط للشرح ثم تشرح فيما ضبطت، كافٍ ونافع للغاية، احتيج إليك لخطبة جمعة تأتي مسجد فيه عدد من طلبة العلم كل واحد يقول للثاني: لا ما أخطب أنا يخطب الثاني. طالب العلم لابد عدته معه في كل مكان، أقل العدة أن يكون معك آيات مع إحكام تفسيرها؛ سورة العصر وتفسيرها، سورة الإخلاص وتفسيرها، وغيره أو «الأربعين النووية» مع إحكام شرحها، فلابدّ قاعدة لك تنطلق منها، وستكون بإذن الله رائيا ومشاهدا لعظم النفع بحفظ «الأربعين النووية» مع إحكام شرحها؛ لأنها ضمت من المسائل الشيء الكثير.

بعد ذلك تنتقل من «الأربعين النووية» إلىٰ «عمدة الأحكام» في الحديث، بعد ذلك إلىٰ «بلوغ المرام»، إذا الواحد حسّ من نفسه نشاط يقول: أنا أبدأ بـ«البلوغ» حفظا، لا بأس، وإن لم يكن فـ«عمدة الأحكام» وبعد «البلوغ» يكفي؛ خلاص بركة ونعمة، لا مانع أن تقرأ في كتب السنة؛ «صحيح البخاري» «صحيح مسلم» وفي غيرها، لكن لا تقرأ فيها وأنت ما ضبطت تلك الأصول؛ لأنّه تأتيك أحاديث ما تعرف معناها أحاديث ربما يكون المعنىٰ فيه شيء من التعارض، المسائل الفقهية المستنبطة منها ربما تعز عليك ونحو ذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (٠١)، «صحيح مسلم» حديث رقم (١٩٠٧).

♦ [رابعا]: **الفقه**:

الفقه تبتدئ بـ«عمدة الفقه» لابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن لم يكن في هٰذه البلاد يبتدئ بأي متن من المتون الفقهية في أي مذهب؛ لكن مذهب الحنابلة هو أقل المذاهب مخالفة، أو أقل المذاهب مسائل مرجوحة، فإنّ المسائل المرجوحة مثلا في متن «زاد المستقنع» قليلة، وأكثره راجحٌ.

المقصود تأخذ متنا مثل «عمدة الفقه»، تأخذه وتضبط مسائل كل باب، مثلا تمرّ علىٰ باب المياه، باب المياه تمرّ عليه مرة سريعة فتعرف تقسيمه في الباب، ووش بدأ؟ وش انتهىٰ؟ ما مسائله؟ ثم بعد ذلك تبدأ تقرأ فيه علىٰ معلم، هٰذا لابد منه، إذا لم يتيسر تقرأه علىٰ نفسك، أو تقول: والله إنّي رجل تقدمت بي الأمور، يشار إليّ بالبنان، مدرس كذا، صعب أني أحضر، بعضهم يقول: صعب أنّي أحضر علىٰ شيخ أو نحو ذلك، لا، تقرأ وتسأل عما أشكل عليك.

كيف يُقرأ الفقه؟ هٰذا سؤال مهم، كيف يُقرأ الفقه؟ -تعذروننا الكلمة منهجية قد تكون مملة في بعض الأحيان- نرجع للسؤال: كيف يقرأ الفقه؟ كثيرون يقرؤون الفقه دون أن يعلموا كيف يقرأ الفقه، الفقه ليس كالتوحيد، فالتوحيد تصور مسائله سهل؛ مسائل الصفات فيها إثبات فيها تأويل، تأولوا العلو إلىٰ كذا؛ إلىٰ علو القدر علو القهر، تأولوا الاستواء إلىٰ كذا، واضح؛ تصورها واضح، لكن الفقه تصوره ليس بالواضح، فهم صور المسائل لئلا تشتبه بمسائل أُخر ليس بواضح، فيحتاج منك درس الفقه إلىٰ أناة أولا.

تتعامل مع هٰذا المختصر بالسؤال والجواب، كيف؟ تقول مثلا: المياه ثلاثة أقسام. تأتي تخاطب الشَّرح أو تسأل السؤال غير مخاطِب تقول: كم أقسام المياه؟ أقسام المياه ثلاثة، الأول: هو الطهور، ما تعريفه؟ يأتي، تلاحظ أنك في هٰذه الأسئلة إذا مرنت يكون الجواب بعد سؤاله، ما تعريفه؟ يقول لك: هو الماء الباقي علىٰ أصل خلقته مثلا. أو كما يقول غيره هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، إذن سألت وهو أجاب، تعاملت مع كتاب الفقه كأنه معلم، تسأل أنت وهو يجيب، إذا أتىٰ احتراز أو شرط تسأل بالأسئلة المناسبة تقول مثلا، إذا قال الماء الباقي علىٰ أصل خلقته تسأل تقول: مطلقا؟ وهو يجيبك يذكر لك الحالات هل خالطه ممازج أم غير ممازج ...إلخ، تبدأ أنت تسأل وتقسّم، تسأل وتقسّم، تسأل وتقسّم.

والعلم في الفقه إنما هو بشيئين هما:

أولا: بالتصور.

ثانيا: بالتقاسيم، أنفع شيء لك في الفقه التقسيم، تقول هٰذه تنقسم إلىٰ كذا وكذا.

الأشياء العارضة علىٰ الماء الباقية علىٰ أصل خلقته قسمين: ممازجة وغير ممازجة، طيب، مَثِّل للممازجة كذا وكذا، هو يمثل لك الشارح يعني نفس الماتن ابن قدامة في «العمدة» يمثل لك هو بَسْ

أنت اسأل وتجد التمثيل أمامك، تجده ممثلا.

انتهيت من أول قسم الماء الطهور.

لا تهتم في درس الفقه بالراجح، بالدليل، لا؛ لا تهتم بهٰذه، ما يراد منك أن تكون مفتيا، الذي يهتم بالراجح وبالدليل هو المفتي، إنما أنت الآن متعلم يُراد من درسك الفقه أن تتصور المسائل الفقهية وتفهم تعبير أهل العلم في الفقه، مثلا: «مختصر الزاد»، «الزاد» تعرفونه الصغير يحوي ثلاثين ألف مسألة كيف كل واحدة نعرفها بدليلها وراجح ومرجوح منها، نكون ما أمضينا وما فهمنا الزاد ولذلك الآن قليل من «شرح الزاد» من العلماء؛ لأن الطريقة التي يستعملها العلماء السابقون في الشرح والتي نفعت الطلاب وأخرجتهم أهل علم ليست هي الموجودة الآن، تفصيلات وتعليلات، تفصيلات وتعليلات، ويطول الكلام في مسألة واحدة ولا يراد من طالب العلم أن يتصور في المسألة كل ما قيل عنها، إنّما تتصور شيء؛ المسألة وحكمها بناء علىٰ هٰذا المذهب.

إذا انتهيت من القسم الأول من أقسام المياه، تغلق الكتاب وبنفس الطريقة تأتي تعيد، تعيد هٰذا القسم وتشرحه، تلاحظ إذا كان فهمك مشرِّقا تلحظه من نفسك، وإذا كان فهمك مغربا فتلحظه من نفسك وشتان بين مشرق ومغرب.

سارت مشرقة وسرتُ مغربا شتان بين مشرّق ومغرّب

تُعيد؛ إذا حَسِّيت أنك ما فهمت تعيد، تسأل أهل العلم ونحو ذلك.

المعلم الذي يعلمك في المسائل التي يعلم أنّ الفتوىٰ بخلاف ما ذُكر في هٰذا المتن، المعلِّم الرباني يذكرك بها، يقول: هٰذا والفتوىٰ علىٰ خلافه، القول الرّاجح هو كذا، ليس القول الراجح في كلّ مسألة بما يترجح للمعلم، لا، لكن القول الرّاجح بما عليه المفتون، الذين يفتون من أهل العلم الكبار، يربطك بين كتاب الفقه وبين الفتوىٰ، يجعل فيه الصّلة بينك وبين هٰذا وهٰذا، كان أهل العلم عندنا في تدريس «الزاد» يذكرون الأشياء التالية –كانوا يهتمون بالزاد، العمدة هٰذه إنما لأجل ضعف الهمم نذكرها إنما الأصل البداية بالزاد– يذكرون.

- أولا صورة المسألة.
- حكمها، حكمها يعني بناء علىٰ ما ذكره صاحب الكتاب.
- هل لشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم أو أحد من أئمة الدعوة، هل لهم اختيار مخالف؛ لأنهم نخلوا المذهب، فالمسائل المرجوحة بينوها.

نقول مثلا في المياه ثلاثة أقسام يقول لك المعلم: واختار الشيخ تقي الدين –يعني شيخ الإسلام أنّ المياه قسمان–، فقط؛ ما تحتاج تفصيل في كل مسألة ولا تعليق، المسألة التي فيها قول لشيخ الإسلام في

الفقه أو لأحد أئمة هٰذه الدعوة الذين حققوا ودققوا يذكرها.

المعلم يحتاج إلىٰ معرفة ما عليه الفتوىٰ فيقول لك: يفتي الشيخ الفلاني مثلا يفتي سماحة الشيخ عبد العزيز حفظه الله وأمتع به بكذا في المسألة يربطك، هٰذا الذي تحتاجه، أما نأتي عند مسألة نقول: هٰذه دليلها كذا واستدلوا لها بكذا، وهٰذا الدليل أخرجه فلان وفلان وفيه الراوي الفلاني فيه علة ولا يصح الاستدلال، والقول مرجوح والصواب قول الشعبي وإسحاق والشافعي. هٰذا في المسائل ما يحتاج لكن طالب العلم الذي يعرف هٰذه المسائل ويتحملها يقرأها في الكتب المطولة ليس كل كتاب قرأت منه أو حضرت آتي وأعطيك المعلومات، فمعناه أنّي أستعرض ما قرأت هٰذه ليست طريقة أهل العلم.

إنما طريقة أهل العلم أن يعطيك ما ينفعك، هكذا في سائر الأبواب في الفقه، كل باب تمرُّ عليه علىٰ هٰذه الطريقة، إذا ضبطت المسائل بتصورات، تأتي أنت مع مرور الزمن تكون القاعدة قد بنيت، المسألة هٰذه مرجوحة راجحة دليلها القول المخالف تنبني معك مع الزّمن، يأتي كل ركن في مكانه الصحيح، تنبني؛ يبدأ البنيان معك يرتفع ويرتفع؛ تتصور المسائل.

في البداية يكون عشرة في المائة فاهمها؛ فاهم أدلتها، تصورت المسائل، بعد سنة تلاحظ أنها خمسة عشر في المائة، بعد سنتين عشرين وهكذا مع الزمن.

أما الطريقة الموجودة اليوم يأتي طالب العلم عنده في مسألة تفصيل ساعة، تسأله في مسائل أخرىٰ في الفقه ما عنده علم بها هٰذا خلل في طلب العلم، شمولية و بعد ذلك تبدأ تُنمي تنمي حتىٰ يكبر.

علىٰ نفس الطريقة تسير في العلوم المساعدة، انتهينا من العلوم الأصلية تسير في العلوم المساعدة علىٰ نفس الطريقة تبدأ بالمختصرات ثم تترقىٰ شيئا فشيئا.

وذكرت لك أن من العلوم **التاريخ** يدخل فيه سيرة النبي ﷺ، و«سيرة ابن هشام» فيها كفاية في ذلك، كذلك يدخل فيه أنواع التاريخ هٰذه علوم التي هي المُلح تقرأ ما شئت من ذلك.

العلوم المساعدة لابد من العناية بها؛ أصول التفسير أصول الفقه، أصول الحديث الذي هو المصطلح.

والنحو ولا علم بدون نحو يقول الشاعر الذي هو ابن الوردي:

جمّل المنطقَ بالنحو فمن ... يحرم الإعراب بالنطق اختبل

طالب العلم تجد كلامه مكسّر، هٰذا يصلُح؟ ما يصلح، كيف أنا أأْتَمِنَه علىٰ فهم معاني الكتاب والسنة وهو لا يفهم النحو؟ ليس مؤتمنا في الواقع، لأنّه سيكون مقلد ينقل لكن يأتيني في مسائل يجتهد فيها وعبارته أصلا عربيته ليست بجيدة ما يفهم اللسان العربي، هٰذا لا شك أنّه خلل، لابد من العناية بالنحو، **والنحو عمدته الإعراب**، تقرأ علىٰ شيخ ثم تُعرب ما شئت، أي شيء يقابلك أعربه، تقرأ خبر في الجريدة

أعربه، سورة تقرأها من القرآن أعربها، حديث أعربه، هٰذا يخلصك، يبين النحو عندك طلاسم وإلا بدأت تشارك فيه.

الآن من كبار العلماء كان يأتي يسأل في الإعراب، لابد من مجالس أهل العلم الذي يدرس فيه النحو والعلوم الأخرىٰ لابد يسأل، ما إعراب قوله تعالىٰ كذا؟ ما إعراب الجملة الفلانية؟ ينشطون مع الإعراب، إذا ترقىٰ وحفظوا الألفية فيأتي بالإعراب وبالدليل، مثلا يقول: محمد قادم، محمد ما إعرابها؟ قال: مبتدأ. –دروس النحو هٰذه مَا هِي موجودة الآن راحت، والله المستعان– يقول المعلم: قلتَ مبتدأ ما الدليل يقول قال ابن مالك في «الخلاصة»:

مبتدأ زيد وعاذر خبر   إنْ قلت زيد عاذر مِن اعتذر

ذكر لك الدليل من البيت، مثلا لو قلت: الآية ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾[النحل:٦٠]، هنا يقول: ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول، –صحيح؟– لابد له في صلته من عائد يعود له، أين العائد؟ يقول: الطالب العائد محذوف. يسأل المعلم ما الدليل؟

يقول: قول ابن مالك:

....   والحذف عندهم كثير منجلي

في عائد متصل إن انتصب   بفعل أو وصف كمن يرجو يهب

قال الدليل، هٰذا يربط لك بالنحو تماما، لكن هٰذه الطريقة ليست موجودة الآن.

المقصود من هٰذا نختم الدرس بالوصية بالجد في طلب العلم، وأن تحرصوا علىٰ المنهجية، والأمة اليوم بحاجة إلىٰ علماء، إلىٰ طلاب علم، لأنه أين الموجهون؟ يوجهون الناس بالآراء بالأفكار بالثقافات بالمفاهيم؟ لا؛ إنما يوجه بالعلم؛ العلم الراسخ، يقول، يستحضر دليله، يفهم أصول المسألة وكلام أهل العلم عليها، حتىٰ يسير الناس علىٰ بينة، ونحن بحاجة إلىٰ طلاب علم اليوم، والطلاب الراغبون في العلم كثيرون؛ لكن طلاب العلم قليلون، من هم طلاب العلم؟ هم الذين يسيرون علىٰ وفق الطريقة الصحيحة التي سار عليها من كان قبلنا من أهل العلم، وهي هٰذه الطريقة التي ذكرتُ لك.

وإن أنت طبقتها فستكون منتفعا بإذن الله أكبر الانتفاع تحس في نفسك في سنَة أنك تغيرت تغير واضح، وأحسست من نفسك أنك طالب علم بدأت تفهم، وإن أهملت وحضرت ورحت وجئت وما أصلت، فإنك ستحرم بقدر ما أخللت بذاك.

أسأل الله أن ينور قلبي وقلوبكم بالهدىٰ والاستقامة، وأن يجعلنا من طلبة العلم الذين يخشونه، وأنْ يجعلنا للناس أئمة هدىٰ يرشدون من ضل إلىٰ الهدىٰ ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، وأسأله لكل واحد حاضر معنا أن يكتب الله جلّ وعلا له خير خاتمة في حياته، وأن ييسر لنا الخير أينما كنا، وأن لا يكلنا

لأنفسنا طرفة عين، وأن يأخذ بأيدينا إلىٰ كلّ قول أو عمل يحبه ويرضاه إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

و﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات]، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

فهرس

المقدمة ٢
أسباب عدم تحصيل العلم رغم المحاولة ٢
خصلتين علىٰ طالب العلم أن يتحلىٰ بهما ٢
قصة رواها الخطيب البغدادي ٢
ما هي المنهجية الصحيحة في طلب العلم؟ ٣
خصال لطالب العلم ٣
الأولىٰ الإخلاص ٣
الثانية: الرفق في طلب العلم ٤
الرفق في طلب التفسير ٤
الرفق في طلب الحديث ٥
فرع في الرفق ٥
الثالثة مواصلة طلب العلم ٥
كيف يكون الترفق في طلب العلم؟ ٧
تقسيم العلوم إلىٰ أصلية ومساعدة ٧
تقسيم آخر للعلوم ٨
كيفية دراسة علم التفسير ٨
كيف تعرف أنك فهمت التفسير حتىٰ تنتقل إلىٰ غيره؟ ٨
كيفية دراسة علم التوحيد ٩
كيفية دراسة علم الحديث ١٢
كيفية دراسة علم الفقه ١٤
الخاتمة (وصية بالجد في طلب العلم) ١٧
فهرس ١٩

الفرق بين العقد والملح

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فأسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يجعلني وإياك ممّن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر، فإنّ هٰذه -كما قال إمام الدعوة- عنوان السعادة.

وأسأله -جلّ وعلا - لي ولك الثبات علىٰ الحق والهدىٰ وأنْ لا يزيغ قلوبنا بعد إذْ هدانا وأنْ يلهمنا ويوفقنا إلىٰ الحق، ويمنّ علينا باتباعه والالتزام به، وأنْ يوفقنا إلىٰ هَدي محمد ﷺ في جميع الأحوال في حالتي الفقر والغنىٰ وفي حالتي الرِّضا والغضب.

وأسأله -سبحانه- أنْ يصلنا بحبله وأنْ لا يقطع ذلك بذنوبنا.

ثم إنّ هٰذه الدّروس لأجل عدم حضور من كان العادة يحضر في درس «كشف الشبهات»، نقدِّم لهٰذه الدروس بمقدمة في العلم وطلبه كالعادة، لعلها أنْ تكون نافعةً إنْ شاء الله.

من المعلوم أنّ العلم قسمان كما يقول طائفة من أهل العلم منهم الشّاطبي في أول «الموافقات»: **العلم قسمان: عُقَدٌ، ومُلَح.**

والعقد: تعقد القلب مع العلم.

والملح: لابد منها للمسير في طلب العلم.

واستمرار المرء بِعُقَد العلم -يعني: بقوي العلم وأصوله ومنهجيته- دون مُلَحِهِ قد يجعل المرء يكسل أو يمل؛ لأنّ النفس حُمضة تحتاج إلىٰ أنْ تُصقل وتُزال بشيء من الملح، ولهٰذا روىٰ ابن عبد البر وروىٰ غيره أنّ ابن شهاب الزهري -الإمام المعروف- كان إذا أعطىٰ الدرس في الحديث وانتهىٰ قال: هاتوا من ملحكم، هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أخباركم. فيأخذوا: هٰذا يقص وهٰذا يقص، ويروي هٰذا ويروي ذاك، فتأنس النفس بما ذُكر ويكون لها نشاطًا فيما تستقبل.

العلم عُقَدُه هي الأصل، هي الغاية، ومُلَحُهُ وسيلة لهٰذه الغاية، وسيلة لتقوية الذهن ولتوسيع المعارف؛ فعُقد العلم أيضًا قسمان: **علوم أصلية وعلوم صناعية.**

أما العلوم **الأصلية**: فهي التفسير والحديث والفقه والتوحيد -العقيدة-.. ونحو ذلك.

والعلوم **الصناعية**: هي علوم الآلة، سمِّيت صناعية لأنها كانت اصطلاحية؛ جاءت بعد الأصول مثل مصطلح الحديث وأصول الفقه وأصول التفسير والنحو وعلوم العربية بعامة، وأشباه ذلك.

هٰذه عُقَدُ العلم؛ يعني أنّ هٰذه العلوم الأصلية والصناعية لابد منها لطالب العلم لاستكمال تفقهه في العلم.

وهناك علوم أُخر يحتاجها لتكميل بناء العلم، وهي التي سماها طائفة بمُلح العلم من مثل قراءة

التاريخ والأخبار والأدب والأشعار وتراجم أهل العلم والمناظرات وما أشبه ذلك، فهٰذه مُلح، الإطلاع عليها مفيد؛ لكن من جهلها فلا يضره الجهل بها في العلم، لهٰذا تجد من العلماء الكبار من قد لا يعرف بعض التراجم المفصلة أو تواريخ الوفيات لأهل العلم أو نحو ذلك، ولا يَضُرُّه هٰذا؛ لأن هٰذا ليس من العلم الأصلي الذي به يكون المرء طالب علم أو عالمًا؛ ولكن هٰذا من الملح.

الفرق بين العقد والملح أنّ العُقد لابد لها من رجال يُعَلّمون كيف تُفتح أو كيف تحل هٰذه العقد؛ لأنها عقدة تحتاج إلىٰ حل، والعقدة مجتمع الشيء لتقويته وتحتاج إلىٰ فكِّها حتىٰ تعرف مسار الشيء إلىٰ من يساعدك في هٰذا، والمساعد هم الرجال؛ هم أهل العلم، وهٰذا عن طريقين:

طريق المشافهة يعني الدروس.

أو عن طريق قراءة الكتب، وفتح المغلق منها عن طريق العلماء، ولهٰذا قال من قال من السلف: **كان العلم في صدور الرجال** -يعني قبل أنْ يدوّن الحديث، قبل أن يدوّن التفسير، قبل أنْ يدوّن الفقه، كان العلم في صدور الرجال- **ثم صار في بطون الكتب، وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال**.

العلم انتقل من الصدور إلىٰ الكتب، هٰذا صحيح؛ ولكن المفاتيح بقيت بأيدي الرجال؛ يعني بأيدي أهل العلم، الكتب قوة قريبة لك تراجع، تفتح، تنظر، تبحث، لكن مفتاح فهم كلام أهل العلم لابد أنْ يكون معك عن طريق أهل العلم؛ لأنّ كلام أهل العلم له اصطلاحه، له أصوله، إلىٰ آخره، فلابدّ من أخذه عن مُعَلّم.

إذن. فصارت العقد هٰذه أصول العلم التي ذكرنا بنوعيها لابد فيها من مُعلم، وإنْ كان المرء أخذ عن طريق الكتب فلابد أنْ يأخذها عن طريق معلم أو يسأل فيما يُشكل منها، ولكن لابدّ من معلم يفتح لك وتستفيد منه في ذلك، مثل ما ذكرت لك المقولة: **كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلىٰ بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال**.

أمّا العلوم الأُخر أو المُلح؛ ملح العلم فهٰذه لا تحتاج فيها إلىٰ عالم، تقرؤها ما شئت؛ لأنها علوم غير مقصودة لذاتها إلاّ فيما إذا كان المرء يريد التخصص، يريد أنْ يكون متخصِّصا في الأدب، في الشعر، في الأخبار، في التاريخ، فهنا يحتاج إلىٰ أنْ يكون أَخْذَه عن معلم؛ لأنّه يصبح في حقه من العلم المقصود لذاته لا المقصود قصد الوسائل.

تكامل شخصيَّة طالب العلم في العلم لابد أنْ يكون فيها هٰذا وهٰذا، ولكن أيُّهما يغلب الآخر؟

هل يغلب عليه اهتمامه بالمُلح؛ بالتراجم بالأخبار بالقصص بالحكايات، بنتف العلم، بالكتيبات التي تنشر بالفتاوىٰ إلىٰ آخره؟

أم أنّه يهتم بالعُقَد بأصول العلوم بالعلوم الأصلية والعلوم المساعدة (الصناعية)، ويكون ذاك مكملًا؟

يظهر مما ذكرنا أنّ الصواب في هٰذا أنّ الوسائل هٰذه -يعني الملح- لابد أنْ تؤخذ بِقَدَرِها؛ تؤخذ بقَدْرِها وبقدَرها الملائم لما يكون معه تنشيط النفس في العلم، فإنْ كان طالب العلم يعيش بالعلم القوي -العقد- بلا ملح نفسه ستضعفُ بعد فترة ولا يستأنس بالعلم؛ لأن المُلح هٰذه كالملح في الطعام، تجعل

المرء يُقبل علىٰ الشيء ويزيد منه؛ لأنّ فيها أنسا ومعها انشراح النفس فيما يقرأ؛ لأنها توافق الرغبة مثل قراءة التواريخ والتراجم والأشعار والأخبار وما شاكل ذلك.

الذي يحصل ونراه في طائفة من الإخوان الشباب أنّهم يُغَلِّبون المُلح علىٰ العلم التَّأصيلي، ولهٰذا تجد أن بعضهم عنده معلومات واسعة مختلفة؛ لكن ليست مؤصلة، فهٰذه تكون بسبب غلبة الملح عليه، يعرف تراجم العلماء وأخبارهم وهٰذا كذا وهٰذا كذا وحصل منه كذا وفلان وفلان تناظرا وصار بينهما نُفرة، وهٰذا حكم، في أخبار طويلة وأشعار وقصص وحكايات، لكن أين هو من العلم في نفسه؟ إذا كان قد أصّل نفسه في العلم وصارت هٰذه مساعدة له فيكون قد سار سيرًا صحيحا، ولكن إذا غلبت عليه الملح وترك العقد ترك الأصول ترك العلم، فهٰذا يكون مهزوزاً ويكون عنده الملح مقصودة لذاتها، هٰذا خلاف سنة أهل العلم، سنة أهل العلم أنْ يكون هٰذا القسم تنشيطيًّا، أن يكون هٰذا القسم ترويحيًّا يُنَشِّط المرء بدل أنْ يقضي وقته الذي يرتاح فيه في كيت وكيت، يُقضِّيه مع العلم لكن بشيء تنشط معه النفس وتأنس فيه الروح.

كذلك السّعي في أخذ العلم وحفظ المتون والقراءة الجادة بدون مُلح هٰذه تسبب شيئًا من الهز والاهتزاز في نفسية طالب العلم؛ لأنّه لابد أنْ يكون عنده هٰذا وهٰذا، وإذا أخذ نفسه بالقوة دون الملح فإنه يكسل بعد فترة، هٰذا مجرَّب، وكل طالب للعلم لنفسه مع العلم إقبال وتوسُّط وإدبار، وهٰذا لابد منه، فإقبالها أنْ يكون نشيطا يجتهد في الحفظ يجتهد في المراجعة يجتهد في البحث بقوة وإقبال، ثم يرىٰ من نفسه أنه في فترة أخرىٰ يريد يتنزه، يتنزه بمعنىٰ يخرج يريد أنّه يتصل ما يريد يطلب العلم ما يريد يقرأ إلىٰ آخره، هٰذا بسبب عدم توازنه فيما سار فيه، والذي ينبغي لمن أراد العلم وأراد طلبه أنْ يكون متوازنا فيه وأنْ يرعىٰ حقوق النفس والنفس لها حقوق، وإنّ لنفسك عليك حقًّا، وإنّ لأهلك عليك حقا، وإنّ لربك عليك حقّا فأعطي كلّ ذي حقٍّ حقه.

المهم لطالب العلم أنْ لا ينقطع عن العلم ومن أسباب عدم الانقطاع أنْ يكون متوازنا فيما يطلب، أن يكون عنده عناية بالملح التي تُنشِّط نفسه يأنس بأخبار وحكايات وطُرَف وهٰذه تطربه وهٰذه يستغرب منها وهٰذا موقف، وهٰذه تقوِّيه أيضا في الكلام وفي سعة الإدراك والإطلاع علىٰ ما عند الناس وعند أهل العلم.

لذلك مثلا تجد ابن عبد البر مع مصنفاته العظيمة وهو إمام من الأئمة المشهورين مع مصنفاته العظيمة في شروح الحديث كـ«التمهيد» الذي قال فيه لنفسه:

سمير فؤادي مُذ ثلاثين حِجةً وصيقل ذهني والمفرِّج عن همي

يقصد «التمهيد» هو المفرِّج من همه، إذا نظر فيه تفرجت همومه لما يجد فيه من الأنس والانشراح، تجد أنه صنف «التمهيد» وصنف «الاستذكار» وصنف «الكافي في الفقه المالكي»، وصنّف «الجامع» المعروف، وصنّف من جهة أخرىٰ كتاب «بهجة المجالس» في الأخبار والأشعار... إلخ، شبيه «بعيون الأخبار» و«البيان والتبيين»، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه وأشباه هٰذه الكتب، «بهجة المجالس» كتاب

يُكمّل هٰذا، لماذا؟

هل معنىٰ هٰذا أنّ العالم الكبير يذهب إلىٰ مثل هٰذا النوع من العلوم لأجل أنّ الوقت عنده لا قيمة له؟

لا، ولكن لأجل توازن نفسه مع العلم، ولا يريد أنْ يخرج من العلم إلا إلىٰ العلم، فإما أنْ يخرج منه إلىٰ لهوٍ كما يلهو الناس أو إلىٰ فرجةٍ أو إلىٰ حديثٍ أو إلىٰ ما شاكل ذلك، أو إلىٰ علمٍ فيه أنس نفسه ويحصل معه المقصود ولا يخرج به عن الكتب وعن العلم، فتجدُ أنّ طائفة من العلماء اعتنوا بهٰذا وعندهم عناية بالملح.

فإذن، عُقد العلم وأصوله مهمة وهي الأصل وهي التي تقضي معها الأوقات، ولابد لك أيضا من رعاية للملح وحفظ الأخبار والأشعار والأمثال وقصص ذلك وقراءة في شيء من كتب الأدب وقراءة في كتب التأريخ والتراجم إلىٰ آخره، فهٰذه تقوّي منك الملكة في العلم ويكون معك أيضا نشاط في العلم بسبب ما ذكر.

فإذن نخلص من هٰذا إلىٰ ضرورة التَّوازن، والتوازن ليس معناه التساوي، لا، يُغَلَّب؛ يعطي كل ذي حقٍّ حقه، فتعطي أصول العلم حقَّها تعطي وسائل العلم حقها وتعطي الملح أيضا حقها، وهٰذا أنت تحكم به علىٰ نفسك.

إذن طالب العلم يكون له في العلم إقبال وتوسط وإدبار، وهٰذا كما قال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**إنّ لكل شيء شِرَّة، وإنّ لكلّ شرّة فَتْرَة، فمن كانت فَترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح، ومن كانت فترته إلىٰ بدعة فقد خاب وخسر**»، يعني أنّه ما من شيء إلا له قوة إقبال شرّة وقوةً وعنفوان وشدة، وله فترة ضعف بعد ذلك، فمن كان ضعفه بعد ذلك إلىٰ سنة يعني اقتصاد في المرء وسنة ومتابعة فهٰذا أفلح وأنجح، يعني لم تكن فترته إلىٰ غير الهدىٰ إلىٰ معصية، ومن كانت فترته إلىٰ معصية فهٰذا خاب وخسر، وهٰذا يجعل طالب العلم ينتبه لنفسيته لا يخسر نفسه لأجل أنه ما أعطاها حقها، وهٰذا وجدناه من بعض الإخوان وطلبة العلم فإنّهم طلبوا العلم قليلا ثم بعد ذلك كَسُلوا، السبب عدم التوازن، الرغبة كانت في الأول قوية لكن أتعب نفسه أتعب نفسه بغير توازن وظن أنه يمكن أنْ يأتيه كلّ شيء جملة مع قوة نفسه، لا، النفس تحتاج إلىٰ تدرج، ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]، الرباني: هو الذي يعلم الناس صغار العلم قبل كباره. وهٰذا يحتاج إلىٰ تدرج حتىٰ المرء مع نفسه يحتاج إلىٰ أنْ لا يأتيها جميعا ففي طلب العلم لا تأتي العلم مع كراهيته أو مع التوسط في قبوله، إذا كان لك إقبال فيه فكما قال الشاعر:

إذا هبَّتْ رياحُك فاغتنمها ... فإنَّ لكلّ عاصفة سكونُ

إذا وجدت في نفسك نشاطا في العلم أقبل واحفظ، وأكثر من الاطلاع والبحث ثم إذا خفّت نفسك مع العلم فدعك في أمور لا تخرجك عن العلم ولكن تظل معه.

هٰذه الجملة أيضا لها تفصيلات من جهة أنواع ما يسلكه المرء من المُلح وما ينبغي وما لا ينبغي، وطلب العلم الجاد وأنه هو الأصل وهو الذي ينبغي للمرء أنْ يحمل نفسه عليه وأنْ يَجدَّ فيه وأنْ

يتخلص من الشواغل التي تصرفه عنه.

المسألة الثانية في طلب العلم: الاهتمام بالبحث

وطالب العلم من أسباب حبِّه للعلم وإقباله عليه أنْ يكون متلقِّيًا تارة وباحثا تارة أخرىٰ، إذا عاش دائما علىٰ التلقي دون أنْ يبحث، دون أنْ يطالع، يفتِّش، يحرر المسائل، يحقق في حديث، في مسألة فقهية، في تفسير آية، يذهب ينظر الصحيح، إذا لم يكن مدقِّقا أو باحثا فإنّ نفسه ربما أسِنَت وربما ضعفت، البحث من أسباب قوة النفس والرغبة في العلم.

ولهٰذا نقول: لابد لكل طالب علم أنْ يكون معه هٰذا وهٰذا، يكون معه الإقبال، الحفظ وحضور الدروس والمطالعة، ومعه أيضا قسم آخر، البحث، والبحث ليس معناه أنه إذا بحث شيئا نشره، بحث شيئا من العلم يعني لأجل أنْ يطبعه ويظهر اسمه علىٰ ديباجة الكتب، ليس هٰذا المقصود، بحثه ليقوي نفسه وما من أحدٍ من أهل العلم إلاّ وله بحوث في فترة طلب العلم والشباب لابد له فيها نظر.

وقد نبه علىٰ هٰذا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل كتابه «المجموع شرح المهذب»، فإنّ في أوائله جملة جيدة من آداب العلم وحملة العلم وما ينبغي في ذلك.

البحث هٰذا الذي تكلموا عنه ليس معناه تخطئة الناس أو تخطئة أهل العلم؛ لأن الباحث ولو جمع لك كلاما طويلاً من الكتب فإنه يظل باحثا، ونظر العالم المحقق يختلف؛ لأنّ هٰذا يكون إيراده بحسب ما اطلع، لكن الذي لم يطلع عليه كيف يعرفه، القواعد العامة كيف يعرفها؟ الأصول التي تحكم مثل هٰذه المسائل؟ فتجد أنّ منهم من يبحث بحوثا وربما بعض تلك البحوث طُبع ولكنه خرج بصورة لا يرضىٰ عنها المحققون من أهل العلم لـمَ؟ لأنه اقتصر فيه علىٰ الجمع؛ جمع كلام أهل العلم في المسائل، وليس العلم بالنقل فقط، ولكنه نقل واستنباط وفهم وتحليل، فهٰذا مع هٰذا، كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**رب ناقل فقه غير فقيه، ورب ناقل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»، فالناقل قد يكون غير فقيه أصلا، وقد يكون عنده شيء من الفقه ولكن ثم من هو أفقه منه لا يوافقه علىٰ ما فقِهَ من هٰذا العلم.

فإذن إذا بحثت وصار عندك رغبة في البحث والتحرير وتدقيق المسائل في التفسير أو في التوحيد أو في الحديث أو في الفقه، فلا تظننّ أنّ هٰذا هو نهاية المطاف، وأنّ ما وصلت إليه في بحثك هو الراجح، وهٰذه هي المشكلة عند كثير من أساتذة الجامعات أنهم إذا حرروا المسألة ببحثهم فيها ظنوا أنّ هٰذا هو النهاية فرجحوا، والراجح في نفس الأمر أو الصحيح عند المحققين من أهل العلم خلافه.

فلهٰذا تجد أنّ في أقوال بعضهم شيئا من الغرابة، بل تجد في أقوال بعضهم شيئا من الغرابة لخروجهم عن أقوال المحققين من أهل العلم، لأنه بحث والكتب موجود فيها كلّ شيء، لو أردت أنْ تجمع ما شئت من الأقوال في أي قول ذُهب إليه لوجدت أنّ البحث يمكن معه أنْ تجمع ما شئت.

وهناك **قصة طريفة** وإنْ كانت غريبة لكن تدلك علىٰ ما في طيّ هٰذا الكلام، كان هناك أحد الباحثين في رسالة للدكتوراه وأورد مذهب المعتزلة في مسألة خلق القرآن وسفّهه ونقل نقولا يسيرة في الموضوع، فالمناقش له وكان أشعريا المناقش للرسالة –هٰذا في الأزهر– قال له: إنك أوردت هذين النقلين أو

الثلاثة عن شيخ الإسلام وغيره في ردّ هٰذا القول؛ لكن ما تقول في حجج القوم هم احتجوا بكذا، وأورد الدليل الأول واحتجوا بكذا وأورد الدليل الثاني، واحتجوا بكذا ثالث رابع خامس عشرة عشرين إلىٰ نحو الثلاثين من الأدلة التي يستدل بها أهل الاعتزال علىٰ خلق القرآن. قال: فما ترد عليها؟ الطالب ما عنده ملكة في هٰذا الأمر فسكت، فكان هناك حضور وأساتذة والطالب طبعا يمثل أنه من أصحاب العقيدة السلفية جاء من هٰذه البلاد فأُحرجَ، قال: رُدَّ علىٰ هٰذا كيف تقول: أنّ خلق القرآن قول ضعيف وأنّ هٰذا قول كذا رُدّ علىٰ هٰذه الأدلة فلما لم يحرِّ جوابا، قال له المناقش: إذن إذا لم تستطع الإجابة عن هٰذه الإيرادات وهٰذه الاستدلالات فاسمع جواب أئمة الأشاعرة عليها، فأجابوا عن الأول بكذا -ردٌّ في محله-، والثاني كذا والثالث كذا، إلىٰ آخره.

نعلم أنّ الأشاعرة نفع الله -جلّ وعلا- بهم في ردّ حجج أهل الاعتزال، فكانوا من أعظم الرِّماح في عنق المعتزلة فنّدوا شبههم وفنّدوا استدلالاتهم واحدة تلو واحدة.

المقصود من هٰذا أنّ هٰذا المناقش أورد هٰذه الأدلة جميعًا، كلها موجودة فأنت ممكن تورد ما شئت من الأقوال موجودة في الكتب، لكن الكلام في فقهها وكيف تصوّب الصواب وترد الخطأ.

فإذن من ليس عنده ملكة قويّة في العلم فالبحث عنده لا يؤهله أنْ ينشر بحثه ولا أنْ يجيزه عند نفسه، ولو كان مكث فيه كذا وكذا وجمع من النقول في المسألة إلىٰ آخره؛ لأنّه ثمَّ أشياء تفوته.

مثل هٰذا الطالب أورد عليه.. هٰذه نقول كثيرة رُدْ عليها، ما استطاع أنْ يرد؛ فهكذا الذي يقرأ في الكتب قد يجد أقوالا هي ضد المذهب الصحيح أو ضد القول الصحيح ما يستطيع أنْ يحللها ولا أن يرد عليها لضعفه.

فإذن البحث وسيلة لتقوية ملكة طالب العلم في العلم، وليس البحث غايته في أنْ ينشر طالب العلم بحثه وأنْ يطبعه للناس وأنْ يُنشر، إلَّا إذا أجازه عدد من أهل العلم ولا غرابة، فالإمام مسلم صاحب «الصحيح»؛ مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري من أنفسهم رَحِمَهُ اللَّهُ لما صنّف كتابه «الصحيح»، عرضه علىٰ مشايخ بلده فوافقوه واعترضوا عليه في بعض الأحاديث، وما مكّنه العُمُر أنْ يتم كتابه علىٰ نحو ما أراد؛ بل وافته المنية كما هو معلوم قبل أنْ يحرر الكتاب كما يريد -هو محرَّرٌ في نفسه- لكن كما يريد.

ولهٰذا وقع بالإجازة في مواضع بدون قراءة وهو الكتاب الوحيد من كتب أهل الحديث الذي فيه مواضع لم ينقلها أحد من أهل العلم ألبتة بالسماع عن مصنِّفه، قِطع رواها الراوي عن مسلم وهو ابن سفيان المعروف رواها بالإجازة قِطع كبيرة منه؛ ثلاث قطع متفرقة إنما رواها بالإجازة بلا سماع ما قرأها علىٰ مسلم ولا هو أيضا عرضها عليه وإنما أجازها له لأنه ما اكتمل.

المقصود من هٰذا أنّ الإمام مسلم عرضه علىٰ مشايخ عصره، فأقروا له وسلموا، فنشر فلابد من العرض، والعرض ليس معناه أنْ تعرض للبركة أو أنْ تعرض لتأخذ القبول، لا، تعرض فإذا قيل لك: لا يصلح، فقل: هٰذا ما أردتُ. إذا قيل لك: هٰذا وهٰذا وهٰذا غيّره وألغه، فتقول: هٰذا ما أردتُ. يعني أن

تستفيد، وهٰذا الذي ينبغي في مسألة البحوث.

لكن الأصل أنّ طالب العلم يبحث لا للنشر يبحث لنفسه.

فنفسية البحث هٰذه مهمة؛ لأنّها تقوي طالب العلم، ولابد أنْ يكون عندك دفتر تحقق فيه مسألة في التفسير، تجمع أقوال المفسرين والصحيح فيها تشوف كلام السلف وما يدور حول ذلك، مسألة فقهية، فتوىٰ، سمعت فتوىٰ غريبة من أهل العلم تريد أنْ تنظر إلىٰ اختلاف أهل العلم فيها، فتبحث في ذلك حتىٰ يستقيم العود في طلب العلم.

المسألة الثالثة والأخيرة نختم بها هٰذه الكلمات:

أنّ طلب العلم يحتاج إلى نفسية خاصَّة

يعني أنْ يكون طالب العلم دائمًا يتجدد مع نفسه في حبِّه للعلم، وهٰذا لا يكون إلاّ بشيء، وهو كثرة الاتصال بأهل العلم وسماع كلامهم، والحرص علىٰ لقائهم وعدم تهجين أقوالهم؛ لأنّ الذي يعترض علىٰ أهل العلم يُحرم وهٰذا كثير وشاهدنا منه أشياء.

فطالب العلم ينبغي له لاستكمال جوانب نفسه أنْ يكون كثير الاتصال بأهل العلم؛ لأنّ رؤية طالب العلم ونظره في الأشياء وتحليله للعلوم وتعامله مع العلم وتعامله مع الكتب وتعامله مع أهل العلم وأقوال أهل العلم ويعرضُ عليه مسائل ويسمع أراءه ويرىٰ تصرفاته، هٰذه تفيد طالب العلم في كثرة إدمانه عليه وإقباله عليه، وفي ملازمة الصلة بأهل العلم.

البعيد عن أهل العلم إذا انقطع، إذا انقطع عن نفسه، لكن الذي له صلة بأهل العلم إذا انقطع سألوا عنه وين راح؟! وش تغير في الأمر؟! ولماذا تركتَ؟! والذي حصل؟ فتكون صلته بهم مدعاة للمواصلة في طلب العلم، لكن لا يكون في اتصاله بهم ينظر نظر المعترض؛ لأنه إذا كان ينظر نظر المعترض معناه أنه لن يستفيد منهم ولن يَقبل، بل لابد أنْ ينظر ويصحب علىٰ الاستفادة لا المجادلة وكن حريصًا عن أنْ تسمع في مجالس أهل العلم أكثر؛ بل أكثر وأكثر من أنْ تتكلم، تسمع وتسمع وتُجمّع، تجمع في ذهنك تجمع أخبار وتجمع الفتاوىٰ وتجمع الأراء وتجمع التحليلات والأقوال، وما شابه ذلك حتىٰ يكون لك بذلك إنْ شاء الله فرصة لأخذ العلم كما ينبغي.

نكتفي بهٰذا القدر، ونجيب علىٰ بعض الأسئلة في هٰذا.

[الأسئلة]

سؤال (٠١): يقول بعض العلماء: لا تأخذ القرآن من مُصحفي ولا العلم من صَحَفي. فما هو ضابط العلم هٰذا؟ وهل القراءة في كتب الفقه والتفسير والتوحيد الميسرة من ذلك «حاشية كتاب التوحيد» و«القول المفيد»، و«الشرح الممتع» و«تفسير ابن سعدي»، «وابن كثير» و«زاد المعاد»، ونحوها من الكتب الميسرة وما هي التي لا بد لها من شيخ ومعلم..؟

الجواب: (لا تأخذ القرآن من مُصحَفي) يعني ممن حفظ القرآن وقرأه من المُصحف؛ ما قرأه علىٰ شيخ، لا تأخذ منه القرآن؛ لأنّه يكون ولابد يفوته بعض الأشياء؛ إما في الضَّبط أو في آداب التلاوة أو في التجويد أو في الوقف أو نحو ذلك مما يتميَّز به القارئ من غيره.

سابقا قبل أنْ يكون هناك شكل للمصحف يعني شكل تام بالحركات في وقت مقولة هٰذه الكلمة كانت المصاحف بلا شكل بنَقْطٍ ولكن لم تكن مشكولة فكان يحصل فيها خلل وتصحيف حتىٰ نسب لبعض الكبار من المشهورين تصحيفات في ذلك، مثل ما يروىٰ عن ابن أبي شيبة عثمان ومثل ما يروىٰ عن غيره من تصحيفات في التلاوة.

بل قد ذكرَ لي بعض الثقات أنّ أحد الأساتذة في الجامعة من الجامعات غير الشرعية كان يدرس مادة ثقافة أو شيء من هٰذا فأتىٰ وهو يقرأ بسرعة، يملي عليهم أو عنده أوراقه التي يطالع منها، قال: وقال تعالىٰ: وإذ نتفنا الحبل فوقهم. نقل لي الثقة هٰذا وكان حاضرا، يقول: فقلنا له: يا شيخ الآية في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[الأعراف:١٧١]، ما استسلم هو للحق، قال: لا، لا، فيها قراءات: (وإذ نتفنا الحبل فوقهم) فيها قراءات!! هٰذا من الاستهانة بالعلم... طيب تعلم هٰذا أو تخلصا؟ إنْ كان تخلصا هٰذا والعياذ بالله تتخلص أنت من التبعة، وتنسب شيء لـ... يعني عدم احترام للعلم... إلخ.

المقصود هٰذا من جهة الصَحَفي من جهة أنه يقرأ وهو ما يعرف.

مرة أيضا واحد في مكتبة أنا سمعته، لا؛ بل سمعه غيري وهو الذي حدثني بها، يقول: يسأل وهو جاء من غير هٰذه البلاد وهو ما يعرف القرآن وعنده ولد عليه سورة الظاهر يحفظها قال السورة... السورة... هو عنده منهجه يبدأ من سورة الهَمْزة... إلخ، وهي سورة الهُمَزَة... يبدأ من سورة الهَمْزَة... إلخ!!

فمثل هٰذا هو الذي قيل في هٰذه الكلمة لا تأخذ القرآن من مُصحفي؛ لأنه يدرس بالباطل وبالغلط، ولا العلم من صَحَفي، وهي أصح من صُحُفي لأنّ النسبة للجمع لابد من إعادتها للمفرد، القاعدة في النسبة في النحو عند البصريين أنّ النسبة تكون للمفرد، مثلا ستنسب للدول لا تقول: دُوَلي وإنما تنسب إليه بالمفرد دَوْلَة، ترجع الجمع إلىٰ مفرده ثم تنسب إليه فتكون النسبة دَوْلي، ستنسب للصُّحف لابد أنْ ترجعها إلىٰ مفردها صَحيفة فتنسب إليها صَحَفي.في المدينة مَدني، وهٰذه هي القاعدة إلاّ في ما شذّ لأجل وقوع الالتباس، مثل النسبة للمدائن -المدائن المعروفة- بالمدائني، وأشباه ذلك لأجل أنه لو أرجعت إلىٰ أصلها مدينة ونسب إليها مدني لوقع الالتباس بين المدني نسبة إلىٰ المدائن والمدني الذي هو نسبة

إلىٰ المدينة، في بحث معروف في النحو.

المقصود أنّ صحتها صَحَفي بفتحتين وليس صُحُفيًا، مثل ما هو شائع في الأخبار وفي بعض الجرائد إلىٰ آخره.

(لا تأخذ العلم من صَحَفي)، يعني ممن قرأ في الكتب دون أشياخ لأنه سيرجح من عند نفسه سيرجح بناءً علىٰ ما قرأه، والعلم لا يؤخذ هكذا، العلم منه شيء للترجيح ومنه شيء للبحث، الأقوال كثيرة وتنوُّع الأقوال وما أورده أهل العلم في شروحهم، هٰذا طويل لكن منه شيء للإطلاع منه شيء لمعرفة ما قيل في المسألة، للنَّظر، لعله يكون له شواهد له قوة... إلخ.

فمن كان علمه من الصُّحُف فإنه لا يكون علىٰ الجادة السوية، بل لابد أنْ تجد عنده شواذ وعنده أغلاط يخالف بها أهل العلم.

ولهٰذا عابوا علىٰ ابن حزم –مثلا– عابوا عليه في مسائل الحج، أشياء وهِم فيها وانتقدها ابن القيم في «زاد المعاد» وعقد لها فصلا طويلا، أغاليط ابن حزم في الحج لأنه ما حجّ أصلا، ولا تلقىٰ كتاب الحج عن أحد من أهل العلم.

وكذلك ابن القطان الفاسي العالم المشهور صاحب كتاب «بيان الوهم والإيهام» انتقده الذهبي وغيره بأنه لم يأخذ علم الرجال ولا علم الحديث عن المشايخ عن العلماء، لهٰذا وقع في أوهام وفي أشياء تفرد بها كثيرة.

ولهٰذا سلسلة العلم إذا اتصلت يكون الاجتهاد واقع في أصوله ما يكون بعيدا، والذين خرجوا بأقوال شاذة في الأمة، أو أقوال غريبة خالفوا بها قول المحققين من أهل العلم أو الجمهور، لابد أنْ يكون فيهم هٰذا المَنْزَع أنهم فاتهم الأخذ عن الأشياخ في ذلك، وهناك أمثلة في التاريخ كثيرة.

المرء يحرص علىٰ أنْ يستفيد من أهل العلم لأجل أنْ يكون طلبه للعلم علىٰ أصوله، أما من أخذ من الصحف دون الأشياخ فإنّ هٰذا يكون عنده نقص.

إذا حصل أنه أخذ عن الأشياخ في أصول العلوم ثم توسع بالقراءة في الكتب فلا عيب، هٰذا سنة كثير من أهل العلم بل الأكثر من أهل العلم أنهم لا يظَلون أعمارهم يقرؤون علىٰ المشايخ، بل جملة من عمره يقرأ فإذا حصّل الأصول وشهد له بذلك واستشار شيخه ممكن أنه بعد ذلك يترك القراءة للمشايخ ويأخذ يقرأ لوجود الأصول عنده الأصول في التوحيد والأصول في التفسير الأصول في الحديث وفي الفقه... إلخ؛ يعني الأشياء التي يربط بها العلم.

وكما ذكرتُ لك في أوَّل الكلام: **كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلىٰ بطون الكتب، ولكن بقيت مفاتيحه بأيدي الرجال.**

سؤال (٠٢): لو تكلمت أحسن الله إليك عن المراجعة والمذاكرة بين طلبة العلم؟

الجواب: هٰذا مهم لا شك أنْ يكون لطالب العلم صديق في مثل همته يكون بينه وبينه مراجعة في العلم يحفظ ويُسمِّع عليه ويتراجعان، وإذا ضبط مسألة أو شرح حديث تناقشا فيه أو ضبطا باب فقه

تناقشا فيه، هٰذا يورد إشكال وهٰذا يورد وهٰذا يشرح شيء منه وهٰذا يشرح شيء منه، كما كان العلماء السالفون يتذاكرون العلم المحفوظ والمفهوم.

ولما قدم أبو زرعة الرازي عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف الإمام قرين أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، لما قدم بغداد في مدة مُكْثه في بغداد لم يصلِّ الإمام أحمد نافلة كان يقتصر علىٰ الفرائض فقيل له في ذلك، فقال: استعضنا عن النوافل بمذاكرة أبي زرعة. فمذاكرة العلم تقوي العلم وتثبته، ويكون معها قوة في الإدراك والفهم والحفظ، إلىٰ آخر ذلك.

لكن بشرط أنْ يكون الذي تذاكر معه في نفس مستواك كي يفهم مثل ما تفهم وتشترك أنت وإياه في حفظ ما تحفظون متدرِّجًا، كذلك في الحضور علىٰ العلماء.

أسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد؛ وصلّ اللهم وسلّم علىٰ نبينا محمد.

عوائق طلب العلم

(جملة من العوائق التي تُعيق عن طلب العلم)

أو

(المخدّرات التي تجعل كثيرين يسيئون ظنا بالعلم وهذا السبيل)

أو

(الحجب التي تحجب عن رؤية طلب العلم الصحيح)

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده وأوافه، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن صلُحت لهم الأقوال والأعمال والقلوب، وساروا في ذلك علىٰ ما يحب ويرضىٰ، كما نسأله أن يوفقنا إلىٰ عمل صالح وإلىٰ قول صالح يكون لنا حين نلقىٰ ربنا جل جلاله.

ثم إننا نفتتح هذا الفصل بعد انقطاع طويل ابتداءً لهٰذه الدروس التي نرجو الله جل وعلا أن تكون نافعة لملقيها ولسامعها وللمبلِّغ بها.

كما جرت به العادة فإنّ افتتاح الدروس في كل فصل يكون فيه كلمة تتعلق بالعلم والحض عليه، والحذر من العوائق التي تعوق في مسير طالب العلم.

ولاشك أن كل طالب علم أنِس بهذا السبيل وسلَك هذا الطريق، فإنه يرىٰ أن العلم هو أهم المهمات؛ لأن العلم هو العلم بالله جل وعلا، والعلم بالله جل وعلا هو أعظم ما يستفيده المرء في هٰذه الحياة، فبقدر علمه بربه جل جلاله ومعرفته بخالقه وإلهه ومعبوده يكون قُربه من مولاه؛ لأن أقرب الناس إلىٰ الله جل وعلا هم أعلم الناس بهم ﷻ، لهذا قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأخشاكم لله وأتقاكم لله، فمن رغّب عن سنتي فليس مني**» أو كما جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

والأنبياء ارتفعت منازلهم لأجل علمهم بربهم جل وعلا وبشريعته وما يحب جل جلاله.

وهٰذا العلم يُدرك كل طالب علم أنه من أهم المهمات وأعظم المطالب، فالواجب علىٰ كل طالب علم أن يجعل أكثر حياته فيه، وأن يَقسم حياته ما بين تعلم أو تعليم أو أداء للنصح لعباد الله أو لمن له وِلاية عليه كلٌّ بحسب ما هو فيه، وهٰذا هو معنىٰ البركة التي تكون في أهل العلم، فإن أهل العلم مباركون، جَعل الله جل وعلا في أقوالهم وأعمالهم البركة كما قال جل علا: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم] قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ يعني أن عيسىٰ عليه السلام جعله الله مباركا بتعليم العلم أينما كان، فأينما كان يعلم ويرشد ويدعو إلىٰ ما يحب الله جل وعلا ويرضىٰ، وبقدر الازدياد من هٰذه الصفة يزداد المرء قربا من الله جل وعلا ويزداد بركة في أقواله وأعماله، والأنبياء لذلك جعل الله عليهم البركة ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾[الصافات:١١٣]، وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**قولوا: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد**» وآل محمد علىٰ أحد الأقوال هم المتبعون له من أهل التقوىٰ، فيدخل فيه كل مؤمن متّبع لسنة النبي ﷺ.

وهٰذا المطلب يدركه كل طلاب العلم الذين أنِسُوا للعلم وشرح الله جل وعلا صدورهم له.

ومعلوم أن العبادات النوافل مراتب، والعلم منه ما هو فرض ومنه ما هو نفل، والعلم الذي هو فرض قد يكون فرض عين وقد يكون فرضا علىٰ الكفاية، وإذا نظرنا اليوم فإننا نجد الناس لم يقم فيهم بالعلم

من يكفي، وخاصة العلم السلفي الصحيح الذي يعتمد فيه صاحبه علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلىٰ نهج السلف الصالح، فإن الذين يتبعون هذا السبيل اليوم أقل القليل، وهذا يؤكد علىٰ كل طالب العلم في هذا السبيل أن يحرص علىٰ نفسه وأن لا يضيّعها وأن يزداد من العلم بحسبه وأن يكون متقلبا ما بين التعلم أو التعليم، وما بين التأثير بالعلم أو التأثير بالدعوة في أي مكان كان، بحسب قدرته وبحسب ما أُعطي.

الأمم في التاريخ؛ بل أمة الإسلام في تاريخها مر بها فتن كثيرة ومرت بها إحن، ومرت بها بلايا، ومرت بها ابتلاءات عظيمة، فمرة يكون بأسها بينها شديد، ومرة يسلّط الله عليها عدوا من غيرها فينال منها ما يناله بحسب قدر الله جل وعلا، قد حصل في ذلك في زمن الإسلام وتاريخ الإسلام الشيء الكثير كما تعلمون، إذا نظرت إلىٰ القرن الأول وجدت فيه أشياء كثيرة ما حصل من القتال والفتن التي كانت بين الصحابة، ثم ما كان في عهد الأمويين من فتن كبيرة، ثم في عهد العباسيين.

حتىٰ أتت الفتنة الكبيرة من تسلّط الدولة العبيدية المسماة الفاطمية علىٰ كثير من بلاد الإسلام وساموا أهل السنة سوء العذاب، حتىٰ أنهم ربما أتوا العالم فأرادوه علىٰ قول شيء يختارونه فإذا أبىٰ مشطوه بالحديد مشطا، وقد قال الذهبي في موضع: وقد نُزِع عن فلان جلده حتىٰ يكون نكالا لغيره مما فعله أولئك.

وهكذا في الحروب الصليبية المعروفة فوقعت، وجاءت حروب التتار الكبيرة وحصل ما حصل في تاريخ الإسلام.

وهذا كله إذا نظرت إليه نظر تاريخ وجدت أنّ أهل العلم في تلك الحقب وتلك الأزمان لم يتخلوا فيها عن العلم والتعليم، ولم ينصرفوا عن العلم والتعليم إلىٰ أمور أخرىٰ؛ لأن العالم وطالب العلم يؤثر بحسب ما يستطيع، وينفع بحسب ما يستطيع؛ لكن النفع الباقي له ولغيره هو العلم؛ لأنه ينفع الله به أمما كثيرة.

وكثيرون ساءت ظنونهم بالعلم لأجل ما يبتلي الله به العباد من أمور كثيرة في أرض الله جل جلاله.

ولهذا ينبغي التنبيه علىٰ:

جملة من العوائق التي تُعيق عن طلب العلم

أو سمّها:

المخدّرات التي تجعل كثيرين يسيئون ظنا بالعلم وهذا السبيل

أو سمّها:

الحجب التي تحجب عن رؤية طلب العلم الصحيح

أولها: ضَعْف الهمة.

وهذه دائمة، فإن العلم يحتاج إلىٰ همة قوية، وأهل العلم هم أكثر الناس همّة فيما يحب الله جل وعلا ويرضىٰ، وبرؤية للمصالح والمفاسد المتعلقة بالشخص نفسه والمتعلقة بغيره أيضا.

لهذا نجد أن أكثر الناس همة هم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، وإذا نظرنا سير الأنبياء في القرآن وجدنا أن هممهم عظيمة في تبليغ رسالات الله وفي أداء الواجب الذي أوجبه الله جل وعلا عليهم من بيان حقه جل وعلا في عبادته وحده لا شريك له، وبيان حقه سبحانه في أسمائه وصفاته، في الردّ علىٰ أهل الباطل مقالتهم ومجادلتهم وفي بيان شريعة الله والتودد إلىٰ الخلق في بيان هذه الشريعة لعل النور يدخل إلىٰ النفوس.

وهٰذا ظاهر في سيرة جميع الأنبياء.

هذا نوح عليه السلام أي همة كان عليها وهو يعظ قومه ليلا ونهارا وصباحا ومساءا وهو يسر لهم ويعلن لهم تارة، ويدعوهم مدة كم؟ ألف سنة إلا خمسين عاما ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت].

وأيّ همة كان عليها إبراهيم عليه السلام وهو ينظر إلىٰ قومه وهم يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، ثم هو في ذلك صابر وحاجّهم بالعقل وحاجّهم بالدفع ودعا الأبعدين ودعا والده والأقربين، وكان في ذلك متنقلا مرة في مصر، مرة في مكة، ومرة هنا وهنا، هذا كله لنشر رسالة الله جل وعلا، هذه همة ولا شك ولا تستغرب لأن أهل العزم همهم عالية.

وإذا نظرت إلىٰ سير بقية الأنبياء فستجد ذلك ظاهرا، فمن قرأ بعض الكتب التي أُلفت في علو الهمة فإنه سيجد من ذلك الشيء الكثير.

فطالب العلم لا يصلح أن يكون ضعيف الهمة، خائر العزم، متواكلا؛ بل يجب عليه إذا أراد سلوك هذا السبيل أن يكون قوي الهمة، لا يقنع بالدون.

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم

وتَعْظُم في عين الصَّغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

قد يأتي أحد وينظر إلىٰ كتاب فيقول: كيف أقرأ أنا هذا الكتاب الكبير لأجل ضعف الهمة؛ لكن مع علو الهمة يفتح الله جل وعلا له.

وقد طلبت مرة من الأستاذ محمود محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الأديب المعروف ومحقق أجزاء كثيرة من «تفسير الطبري»، طلبت منه أن يرشدني إلىٰ كتاب في اللغة العربية لأقرأه، فقال لي: اقرأ «لسان العرب». فقلت: «لسان العرب» عشرين مجلد كيف أقرأه؟ فقال: إذن اذهب لصنعة أخرىٰ للتجارة أو للوظيفة لا تصلح للعلم، أيش عشرين مجلد -هذه عبارته- قرأناه علىٰ شيخنا مرتين -أظن أن شيخه يقصد به المرصفي- وفي الثالثة ما أكملناه.

وهكذا صنيع العلماء، الحافظ ابن حجر قرأ البخاري علىٰ شيخه في عشرة أيام كل «البخاري»، وقرأ

«صحيح مسلم» في ثلاثة أيام، وقرأ «سنن ابن ماجه» في يوم.

وهكذا صنيع أهل العلم في كثير من الأنحاء، شيخ الإسلام ابن تيمية ألّف عددا من كتبه ورسائله التي الآن تدرس وتشرح في جلسة، مثل ما فعل في الواسطية وفي الحموية في التدمرية وفي أشباه ذلك.

سبب ذلك قوة العلم، ثم علوّ الهمة، فأول مخدِّر وعائق وحجاب هو ضَعف الهمة، فإذا تحركت الهمم جاء الله جل وعلا بالفتوح من عنده سبحانه، وهذا نوع من المجاهدة لقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[العنكبوت].

وقد ذكر ابن الجوزي رَحَمَهُ اللَّهُ في كتابه «صيد الخاطر» أنه إذا جاءه جماعة من البطّالين ويَقصد بهم الذين يريدون الجلوس للكلام والقيل والقال والأخبار ونحو ذلك، قال: إذا جاءوا اشتغلتُ أثناء مجيئهم في بري الأقلام وقص الأوراق وتجهيزها للكتابة. وهٰذا لاشك أنه لا يكون إلا مع علوّ همةٍ في هذا السبيل، فالذي يريد أن يكون العلم في وقت دون وقت، وفي حال دون حال، هٰذا مع الزمن لا يحصّل لأنه مع الزمن تكثر الأمور.

وهذا هو العائق الثاني من العوائق والحجاب الثاني وهو أن يكون المرء أو طالب العلم مسوَّدا.

كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما علّقه البخاري في «صحيحه»: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا ويبدأ التَّسْوِيد؛ يعني أن يكون المرء سيدا يبدأ بتزويجه، فإذا تزوّج بدأ ذلك، لهذا قال البخاري رَحَمَهُ اللَّهُ فيها قال أبو عبد الله: وبعد أن تسودوا. يعني أن يطلب العلم وأن يتفقه قبل أن يكون ذا سيادة وأمر ونهي وسيادة وبعد أن يكون، والناس يتنوعون في ذلك قد تكون الولاية بالزواج والأولاد، وقد تكون الولاية بأن يكون مدرسا معلما، فيكون عنده الشيء الكثير من مما يبذله في تدريسه وفي تعليمه وفي الأنشطة التي تكون في المدارس، ونحو ذلك، وقد يكون في القضاء، وقد يكون في وظيفة، وقد يكون مديرا للعمل مما يحتاجه في دنياه، وقد يكون أكبر من ذلك.

فالسيادة لاشك أنها حجاب عن الاستمرار في العلم، ولهذا قال أبو عبد الله البخاري منبّها الطالب عن ذلك قال: وبعد أن تسودوا؛ ليحرك فيهم العزيمة علىٰ أن لا ينقطع عن العلم بشيء من ذلك.

قد كان بعض أهل العلم ينظر في المسائل مدة طويلة، وهي في نفسه يريد لها حلا، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد مات رسول الله ﷺ ودنا أنا سألناه عن أبواب من الربا. والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تمنوا أن لو سألوا عن كذا وكذا من أبواب العلم، سألوا عمر، أو سألوا عليا، في قصص معروفة.

وكذلك ما يحصل من أن طالب العلم قد يكون عنده مما يُشغله ما يفرِّط في سؤال أهل العلم عما يشكل، وفي مطالعة العلم قبل أن يذهب أهله، فإنه لا يدري متىٰ الناس يحتاجون إليه، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان صغيرا، وكان يسأل الصحابة ويتلقف العلم من هنا وهناك حتىٰ رجع الناس إليه، قال له صاحب له من الأنصار: أتظن يا عبد الله أن الناس يحتاجون إليه وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ بينهم. فهذا ابن عباس استمر وحصّل ونظر حتىٰ بعد أن تولىٰ الولايات، وقد ولاه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمرة الكوفة ومكث فيها زمانا، ثم رجع إلىٰ مكة وتولّىٰ أيضا ولاية أخرىٰ، وكذلك غيره؛ ولكن مسيرة العلم واحدة، وفي العمر – عمر الإنسان– قد يعوقه هذا العائق من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فإذا كان طالب العلم صاحب عزيمة، فإنه يجعل الأصل عنده استمراره في العلم، بأي نوع يختاره لكن لا يتقطع عن العلم، ثم غيره مما

يكلَّف به أو مما يعينه عن أمر دينه ودنياه من أنواع الأعمال لا تصده عن ذلك، وكذلك أهله وأسرته ونحو ذلك، يأخذ من كل شيء بقدر ويعطي كل ذي حق حقه.

من الحجب أيضا قول بعضهم: العلم يصرف عن الدعوة والناس اليوم يحتاجون إلىٰ الدعوة، وأما العلم فلا يحتاجون إليه.

وهذا مخدر كبير، أدرك كثيرين فأصابهم، وهو أنهم يقولون: العلم الدعوة أهم منه، تصاحب الشباب تذهب معهم، تخالط تذهب تعظ أو تشتغل في شيء؛ لكن العلم ليس مؤثرا، أو متىٰ ستؤثر بالعلم بعد سنين طويلة جدا، وهذا مخدر وحجاب كبير، وناشئ من غلط فهم العلم والعمل الأصل أن العلم يتجزأ وأن الدعوة أيضا متبعضة ومتجزئة، فالعلم لا يأتي جميعا، والدعوة أيضا لا تأتي جميعا.

فطالب العلم إذا علِم علَّم ودعا بحسب ما يُفتح له من هٰذا الباب، فيجعل ميدانه في العلم وفي التأثير بحسب ما يُعطىٰ، والانشغال عن العلم بالدعوة يورِث أن تكون الدعوة علىٰ جهل، وهذا هو الذي أصاب الكثير من الناس.

الناس في هذا أصبحوا ثلاث طوائف:

إما أن ينقطع للعلم ولا يؤثر شيئا.

وإما أن يتجه للدعوة وهو جاهل أو شبه الجاهل.

وهٰذا مذموم وهٰذا مذموم؛ لأن العلم الذي لا ينفع صاحبه ولا ينفع به غيره هذا غير نافع يعني للناس، وطالب العلم إذا علم قلّ أن يعلم ويحفظ هذا العلم في الأمة، فإذا صار معك العلم فإن الدعوة تكون بحسب ما أوتي العبد من العلم.

فالدعوة متبعضة والعلم هو أساس الدعوة لا يمكن أن يدعو العبد بدون علم، يدعو إلىٰ ما علم وأما ما لا يعلمه فإنه حينئذ يكون ممن قفا ما ليس له به علم، وقد قال جل جلاله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[يوسف:١٠٨]، والبصيرة هي العلم، أدعو إلىٰ الله علىٰ علم، فالعلم يتجزأ، إذن فالدعوة تتجزأ، إذا علم شيئا بدليله ووضح عنده فإنه يدعو إلىٰ ذلك يعلّمه بحسب ما ينفع.

وبعض الناس يظن أن الدعوة لا تكون إلا بالمواعظ، أو لا تكون إلا بالمحاضرات، أو بالذهاب إلىٰ القرىٰ، أو بإلقاء الكلمات ونحو ذلك، في الأمور العامة التي يتكلم الناس فيها، هذا غير صحيح؛ لأن الأنبياء هم أكمل الدعاة، وكلام الأنبياء إنما كان في حق الله جل وعلا وتوحيده وعبادته، فإذا علّم طالب العلم، فقد دعا؛ لأنه بتعليمه يدعو إلىٰ الله جل وعلا، يدعو نفسه ويدعو غيره أيضا؛ لكن الناس مقامات وكل يفتح له بحسبه.

قد سئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ انقطاعه للعلم وتركه أبواب أخر من أبواب الجهاد فقال: إن من الناس من فُتِح له أبواب الصلاة، منهم من فتح له فتح له باب الصدقة ومنهم من فتح له باب الحج والعمرة، ومنهم من فتح له باب الجهاد، ومنهم من فتح له باب العلم، وأنا فتح لي باب العلم ورضيت بما فتح الله لي.

وهذا بقي أثر الإمام مالك إلىٰ اليوم في ذلك لشدة حاجة الناس إلىٰ بقاء العلم النافع في هذا.

فإذن لا يسوغ الالتفات إلىٰ هذا الخاطر أو الحجاب الذي هو من كيد الشيطان في أنه لا تنشغل بالعلم؛ لأن الدعوة، أهم وقد قالها من قبلنا أناس من قبلنا خمسة عشر هذا عشرين سنة ولما تقدمت بهم السن صاروا ضعيفين في العلم، فلا أحسنوا العلم ولا أحسنوا الدعوة بعد ذلك، العلم سلاح في يدك

تحاج به وتجاهد به تبلغه تدعو به، بحسب ما قسم الله جل وعلا للعبد.

الحجاب الرابع أو المخدّر الرابع قول كثيرين: العلم يقسّي القلب.

وهذه تسمع ويقولها بعض أشباه الجهال والعياذ بالله، وإذا كان العلم يقسي القلب فلا نعلم شيئا يلين القلب بعد العلم، العلم ما هو؟

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان

هٰذا العلم كما عرفه ابن القيم في «النونية»، العلم مصدره ودليله قال الله قال رسوله، القرآن كله بما فيه من العلم بالله والعلم برسوله والعلم بما وراء الغيب -الجنة والنار وما أعدّ الله- والعلم بالأحكام الشرعية والحلال والحرام، هذا كله الذي في القرآن سماه الله جل وعلا موعظة فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾[يونس]، وفضل الله ورحمته القرآن، والموعظة التي جاءت القرآن، والشفاء لما في الصدور الذي جاء والهدىٰ والرحمة هو القرآن، فالقرآن موعظة بكل ما فيه، فالعلم هو أكبر موعظة، العلم النافع لا يقسي القلب، العلم النافع يخشع معه القلب ويلين؛ لكن خشوع قلب العالم أو طالب العلم ليس كخشوع قلب العابد الجاهل، فإن ذاك قد يأتيه من الخواطر أو من الإيمانيات ما يجعله في الظاهر ألين قلبا؛ لكن ذلك في الحقيقة ألين قلبا وأخشع وأخضع، كما هو ظاهر من حال الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا أقوىٰ ومن بعدهم كانوا إذا تليت عليهم بعض الآيات أو إذا ذكرت عليهم بعض القصص والرقائق ربما خر بعضهم مغشيا عليه لأجل رقّة قلبه، ورقة القلب ولينه ليس هو الأمر المحمود؛ بل لابد أن تكون رقته ولينه علىٰ وفق ومقتضىٰ العلم النافع.

ولهذا قال جماعة من أهل العلم منهم ابن تيمية وغيره قالوا: إن من غُشِي عليه من السلف ووجود هذا فيهم لأجل قوة الوارد وضَعف القلب عن الاحتمال.

وهذا صحيح فإنه إذا صار الوارد قويا والقلب ليس فيه من قوة العلم ما يحجبه أو يكون قويا علىٰ هذا الوارد فإنه قد يسقط صاحبه، ولهذا قلب طالب العلم ليّن خاشع خاضع بحسب حاله وبحسب ما أعطاه الله؛ لكن أيضا هو علىٰ بصيرة من الدين.

تُسرع البدع إلىٰ قلوبٍ والأهواء إلىٰ قلوبٍ فيها لين وليس عندها تحصين بالعلم النافع، قد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدة**» وهذا ظاهره المدح لهم وفيه ما يشير إلىٰ أنه تسرع فيهم الأهواء لأجل رقة تلك الأفئدة، فالفؤاد الرقيق أو العاطفي أو تقول المتحمس أو كثير الوجل والخوف قد يأتيه أهل الأهواء فيجرفونه، وأمّا العلم فإنه يعطي الخشية ويورث الخشية لكنها خشية العلماء وليست خشية العباد الجهلة.

ولهذا جاء في الأثر أو في الخبر: **عالم واحد أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد**. هذا وإن كان في إسناده مقال؛ لكن ربما يصح موقوفا، وظاهره معناه الصحة لأن العالم لا يستطيعه الشيطان لا من جهة الشبهات ولا من جهة الاستمرار علىٰ الشهوات، قد يغلبه في شهوة أو قد يغلبه في شبهة؛ لكنه يستبصر فيعود في بصيرة من جهة بيان الحق في الشبهة، ومن جهة سلامة القلب من الشهوة بالاستغفار والإنابة.

فإذن العلم يورث خشوع القلب ولا يورث قسوة القلب والعياذ بالله، ومصداق الله ذلك في قوله

تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨]، يعني أن أهل الخشية الحقيقة هم العلماء هذا جاء علىٰ سبيل الحصر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ يعني إنما يخشىٰ من عباد الله جل وعلا العلماء، كأن البقية ليسوا من أهل كمال في الخشية، وخشية العلماء تختلف بحسب حالهم، وبحسب ما هم عليه.

فإذن إذا كان طالب العلم وجد في قلبه شيئا من قسوة أو إقبال علىٰ ذنب أو تفريط في أمر الله فلا يُرجع لك إلىٰ العلم فيسيء الظن بالعلم، أو ينظر إليه غيره فيجده كذلك فيرجع ذلك إلىٰ العلم حاشا وكلا.

وإنما مرجع ذلك إلىٰ شهوة خفية وإلىٰ مرض في النفس، قد يكون مع العلم، هناك مرض في النفس مع العلم، إما مرض شهوة يلازمها، وإما مرض شك يكون معه، وإما مرض شهرة، وإما مرض جاه، وإما مرض تكبر وأشباه ذلك.

حتىٰ إنّ من أهل العلم من كان لا يرضىٰ أن يسمىٰ أن يخاطب إلا بالملك يعني في الزمن الأول، كما قيل ملك العلماء فلان، وملك النحاة فلان، كان لا يرضىٰ أن يسميه أحد بأبي فلان أو بالعالم أو العلامة حتىٰ يقال ملك النحاة، هذه شهوة خفية تكون في الإنسان، وهذا لا يكون مرد عدم الخشية إلىٰ العلم ولكن لأجل مرض في النفس، وهذا يعالج بحسب ما هو عليه.

أما العلم فإنه يورِث الخشية، وإذا لم يورث في طالب العلم الخشية والإنابة والرجوع إلىٰ الله والأنس به والاستغفار وملازمة التقوىٰ، فإنه يجب أن يحاسب نفسه علىٰ ذلك، وأن يجعل العلم الذي معه حجة له في الرجوع إلىٰ الصراط المستقيم.

ومن العوائق التي تذكر في هٰذا السبيل والمخدرات التي تخدّر عن طلب العلم وتثبط قول كثيرين: **إن العلماء هم أقل الناس أو أبعد الناس تأثيرا في الأحداث إذا وقعت وأنهم يرغبون الصَّمت والسلامة** ويتركون توجيه الأمة.

وهذا يدل بحسب كلامهم أن العلم يؤدي إلىٰ التثبيط وعدم الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قول كلمة الحق ونحو ذلك.

هٰذا من وساوس الشيطان، ومن إدخال أهل الأهواء لأجل أن لا يقتدي الناس بالعلماء، ولم يحدث هذا مرة؛ بل كلما حدثت فتنة منذ زمن السلف إلىٰ يومنا هٰذا وكلما حدث خلاف فإنه يعيب الجاهل علىٰ من صمت بصمته.

وما أحسن كلمة الخلفية عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حيث وصف الصحابة ومن سلف بقوله: إنهم علىٰ علم وقفوا وببصر نافذ كفّوا. بمعنىٰ أنهم حين يتكلمون يتكلّمون بعلم، وحين يكفون عن الكلام وعن المقال فإنهم يكفون ببصر نافذ بشرع الله جل وعلا.

وكان السلف في الفتن يكثرون الصمت ويُقِلّون الكلام، ولهٰذا كانت كلماتهم تحفظ فتنقل، وأما كلام الخلف فهو كثير، وفي الفتن يكون أكثر، وهٰذا من قلة العلم بمنهج السلف في ذلك.

كلمات الإمام أحمد مثلا كانت قليلة في فتنة خلق القرآن التي استمرّت نحوا من عشرين سنة أو أكثر من عشرين سنة؛ ولكنها حُفظت ونُقلت ولو كان في العشرين سنة التي استحكمت فيها هذه الفتنة كل يوم يقول كلاما ويصدر كلاما ويتناقلها الناس لأصبح ذلك في مجلدات، ولكن لم يكن هدي السلف ذلك.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسئل: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عليها؟ فقال: لا، يخبر بالسنة فإن

قبلت منه وإلا سكت. لأنّ الواجب البيان، أمّا إصلاح العباد هذا إلىٰ الله جل وعلا ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٧٢]، وقد أشار إلىٰ هذه المسألة الحافظ ابن رجب في رسالته المشهورة «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» وقال في ضمن كلامه: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة.

وإذا وزنا هذا بالميزان في وقت الفتن والأمور والمتقلبة فإننا نجده ظاهرا في أن الكلام القليل المؤصّل المستدل له هو الذي ينفع وأما غيره فإنه كثير لكن يُنسي بعضه بعضا، فإذا قال قائل: ما الذي قال فلان؟ نسي لأن الكلام كثير وهو تكلم عشر مرات عشرين مرة ثلاثين مرة ونحو ذلك.

ولهذا نقول: إن العلماء يؤثرون ويغيّرون في الأحداث والفتن؛ لكن التأثير والتغيير الشرعي، أنظر إلىٰ قول النبي ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فلسانه**» يعني فليغيره بلسانه «**فإن لم يستطع بقلبه**» يعني فليغيره بقلبه وذلك بكراهة هذا الأمر، وهٰذا صحيح في ميدان التأثير والتغيير، فإنه ليس العبرة بأن يكون هناك تغيير علىٰ وفق ما يريد صاحب الحق؛ لكن العبرة أن يقول كلمة حق تبقىٰ، وأن يؤثر بحسب ما يعلمه من كتاب والسنة وهدي السلف، وهذا يبقىٰ وسيتذكره الناس ولو بعد حين، وكم مرة في الفتن بقي الكلام -كلام العالم- هو المحفوظ الذي كان قليلًا الذي مرجعه الكتاب والسنة ونُسي غيره، وهذا هو الذي حفظ علىٰ مدار الزمان وعلىٰ مدار أيام الله جل وعلا.

المطلوب من أهل العلم ومن طلبة العلم أن يكونوا مؤثرين في الأحداث؛ لكن بما لا يُحدث فتنة، وبما لا يكون قولا علىٰ الله بلا علم؛ لأنه قد يبتلىٰ هو في نفسه من جرّاء ما يقول بكلام لم يتق الله فيه، بمعنىٰ لم يجعله مؤصلا راجعا في كل كلمة يحرص علىٰ أن تكون مختارة أو مما يعلم أنها حق في نفسها.

أهل العلم -كما ذكرنا لكم من قبل- من السلف الصالح يؤثرون في الأحداث بمقتضىٰ العلم الذي معهم، ولا يتأثرون بها، فربما كان قليل كلامهم أبلغ، وربما كان إعراضهم أبلغ، وكلٌّ بحسبه وكل في مجاله.

لهذا طلبة العلم ينبغي لهم في خضم الأحداث أو تغيرت أن يبتعدوا عن الاجتهادات الفردية، إذا كانوا سيتكلمون أو يقولون، فإنهم لا يتّجه هو إلىٰ شيء فيعلنه في الأمة، فيعلنه في الناس، وما أكثر اليوم وسائل الإعلام خاصة الإنترنت بأسهل سبيل؛ بل ينبغي له أن يتقي الله وأن يتأخر شيئا فشيئا بحيث يستشير ويرجع ويكون معه حجته فيما يقول.

ومن العوائق أيضا في سبيل العلم قول القائل: **إن العلم يحتاج إلىٰ عمر طويل، وإلىٰ تفرّغ، وإلىٰ زمن، وأنا لا يسعني القدرة علىٰ التفرغ، ولا علىٰ أن أكون كذلك.**

وهذا صحيح من جهة؛ من جهة أن العلم يحتاج إلىٰ أن يبقىٰ مع الإنسان؛ لكن لا تدري ما الذي يفتح الله جل وعلا لك، العالم أنفاسُه له، وطالب العلم في مشيه يكتب له فهو في عبادة عظيمة، وكم من إنسان لم يأنس في نفسه في العلم قوة ثم بعد ذلك طلب العلم وصبر عن ذلك حتىٰ برّز فيه، وكم منهم من كان في الدراسة وسطا أو دون الوسط وكان غيره من الذين يأخذون تقديرات عالية كانوا أفهم وأسبق منه وأحفظ؛ لكن بقي هٰذا طالب علم ينفع، وأولئك مشوا في الحياة فلم ينفعهم ذلك التميز.

والسبب في ذلك هو أنه يعلم أن طلب العلم أنه عبادة عظيمة محمودة، وإذا عرفوا المطلوب حقر ما بذل فيه، بقدر الاستمرار تكون العاقبة، لا تستخسر وقتا تمضيه في جلسة علمية ولا تستخسر وقتا تمضيه

في قراءة كتاب وسماع شرح كتاب في شريط أو نحوه لأن هذا يورثك حبَّ العلم ويورثك حب أهله ويسهل عليك العلم شيئا فشيئا.

وقد ذكرت لكم قبل الليلة أن أحد أهل الحديث كما رواه الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع»، قال: كان شاب يطلب الحديث فعَسُر عليه، فبينما هو عند صخرة أو عند حجر، فإذا الماء يتقاطر عليها شيئا فشيئا قطرة قطرة وقد حفر فيها حفرة، فقال: هذه عبرة لك يا فلان، ليس قلبك بأقصىٰ من الحجر، وليس العلم بأخف من الماء، فرجع صار من أهل الحديث ومن رواته، وهذا صحيح.

ومن العوائق في ذلك -لعلنا نختم بها- أن يقول القائل: هل تظن أنك ستبلغ مبلغ الشيخ فلان، أو العالم فلان أو الداعية فلان أو فلان المشهور بالعلم، هؤلاء فعلوا، وهؤلاء كان لهم كذا.

فيضرب له أمثلة من المشاهير لكي يحجزه عن الوصول إلىٰ هذه المراتب العليا وهذا من وساوس الشيطان الكبيرة لأن العلم في ذاته محمود وفي مآلاته في الدنيا والآخرة محمود، وليس الغرض من طلب العلم أن يكون المرء إماما لكل الناس، أو أن يكون عالما يشار إليه؛ بل إذا قصد ذلك ونواه فنيته فاسدة؛ بل الغرض من العلم هو أن ي يكون ما بينك وبين الله جل وعلا عامرا، وأن تكون عالما بالله تعرف ربك جل وعلا وإذا قرأت في الكتاب أو في السنة عرفت حق الله وحق رسوله ﷺ وأنست بفهم الكتاب والسنة، وأعظم أنس وأعظم طمأنينة في هذه الدنيا هي طمأنينة الإيمان، وخاصة في حال قراءتك للقرآن أنت تعلم ما تقرأ، وسماعك للسنة وأنت تعلم ما تسمع، وأنت تصلي وتعلم الصلاة وما تقول فيها وأحكامها، وترىٰ حركة الناس وتعلم أحكام ذلك هذه من أعظم الطمأنينة التي يرجع إليها العبد.

فلهذا إياك والمخدِّر الذي يأتي به الشيطان ويثبط عن العلم بأنه لن تكون العالم فلان، ليس الأمر كذلك.

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا هل كانوا علىٰ مرتبة واحدة ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[البقرة:٢٥٣] هل كانوا جميعا من أولي العزم؟ لا، أولي العزم منهم خمسة، وهل الخمسة هؤلاء علىٰ مرتبة واحدة؟ ليس الأمر كذلك.

فإذن الوَهَم في أن يقول قائل في طلب العلم لن أطلب حتىٰ أكون كاملا مدركا، كيف طلبت العلم لا أعرف أخرج المسائل الفقهية، ولا أخرج الحديث ولا أعرف كيف ألقي كلمة سليمة ونحو ذلك، لا يشترط ليس العلم المقصود منه ذلك، العلم نيته الصالحة كما ذكرت لكم مرارا أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، فإذا تعلمت وترفع الجهل عن نفسك وتكون عالما بالله فإنه يرجىٰ أن يكون لك أثر فضل العلم والعلماء وهو أنهم مرفوعون؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وبقدر ما تؤتىٰ من العلم يرفعك الله جل وعلا درجات، ثم المرء يوم القيامة مع من أحب، وتقام ويوم القيامة ألوية، فمع من يكون الإنسان؟ يكون مع أشبه الناس به، وإذا كنت نفسه معلقة بفلان وفلان فإنه يرجىٰ أن يكون معهم؛ لأن العلم وُصلة وسبيل في ذلك، قال جل وعلا في الظالمين: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات]، قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ من هم الأزواج؟ هم النّظراء والأمثال والأشباه، فيحشر الظالم مع مثيله، القاتل مع القاتل، والمشرك الذي يعبد الوثن مع الوثن، والذي يعبد الصنم مع

الصنم، والذي يعبد النبي مع الذي يعبد النبي، فالذي يحشر: يحشر الظالم مع شبيهه ونظيره ومثيله، قال بعض أهل العلم، وكذلك أهل الإيمان الأمثال مع بعضهم بعضا؛ لأنه يكون أطمن لقلوبهم وأبلغ في ذلك.

بهذا نقول في فاتحة هذه الدروس: يجب علينا جميعا المتحدث والمحدَّث أن نحرص على العلم النافع، وأن لا يشغلنا عنه شاغل لأنه هو الباقي، وأما عوارض الدنيا تزول، والمرء بقدر مسيره فيه يعطيه الله جل وعلا، ويحاسب نفسه، وبقدر محاسبته لنفسه يعطيه الله جل وعلا من فضله.

نسأل الله جل وعلا أن يقينا وإياكم العثار، وأن يجعلنا من أهل الآثار إنه سبحانه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): إذا أخطأ عالم من علماء أهل السنة أو طالب علم في بعض مسائل علمية، ما الضوابط الشرعية التي يعمل بها طالب العلم في التعامل معهم؟

الجواب: أولا المسائل الشرعية نوعان:

مسائل ظاهرة بينة في أن الدليل دلَّ عليها بظهور.

والنوع الثاني مسائل اجتهادية متعلقة بالنوازل وبما يكون.

أما الكلام في الأولي وما يختلف الناس فيه في المسائل التي فيها دليل ظاهر بين فالخطأ ظاهر والصواب ظاهر لأجل ظهور الدليل في ذلك.

وأما المسائل الاجتهادية وهي التي تكون فيها النوازل أو يكون فيها الدليل فيها غير ظاهر مما يحصل فيه الخلاف عمن طريق الاجتهاد، فهذه قد اختلف السلف وما عاب بعضهم بعضا.

ولهذا نقول: إن طالب العلم يجب عليه أن يتحرى الحق، وأن لا يستعجل إذا اشتبه عليه الأمر، ثم ينظر إلى تحقيق المصالح الكبرى ودرء المفاسد، والناس طلبة العلم قد يتقاربون في فهم الأدلة وفي فهم المسائل؛ لكن قد يختلفون في أمرين:

أما الأول في تحقيق المناط، وما من مسألة شرعية نازلة إلا والنظر فيها يكون من جهتين -كما قال الشاطبي- في «الموافقات»:

الأولى من جهة محل الدليل يعني من جهة الدليل في نفسه وما دل عليه.

والثانية في تحقيق المناط، وهو إدراك المسألة بإلحاقها وجعلها تحت دليل، فإذا كان الدليل موجودا ولكنه لم يدرك تحقيق المناط فيها وقع الاختلاف، وأكثر ما يقع الاختلاف في النوازل وفي الأمور الاجتهادية هو في تحقيق المناط، هل هذه تلحق بهذا أو تلحق بهذا، وهنا يتفاوت أهل العلم والنظر في ذلك، فإذا وقع هذا الأمر فإن المسألة، إذا كان ليس فيها دليل ظاهر بين فإنه لا مشاحة في أن يختلف الناس أو يختلف طلبة العلم أو يختلف العلماء، الأمر فيه سعة وينصح بعضهم بعضا ويناصح بعضهم بعضا حتى يصيروا إلى أمر؛ لكن ينبغي أن لا يتكلم الواحد والواحد في هذه المسائل الاجتهادية والنوازل؛ بل تكون هذه من اختصاص الهيئات واختصاص مجموعة من أهل العلم يجتمعون ويبحثونها ويسدد بعضهم بعضا فيها؛ لأن من سنة السلف كفعل عمر أنه إذا جاء فيه مسألة جمع لها أهل بدر، وهو الخليفة الراشد، وهكذا كان كثير من أهل العلم يستشير ولا يستقل بالأمور في الأمة.

فإذا وقع اختلاف في المسائل الاجتهادية، قد يكون فيه سعة؛ لأن هذا نص وقصده خيرا إن شاء الله في بابه، وهذا نظر من جهة وقصده خير إن شاء في بابه؛ لكن ما ينبني عليه عمل، وينبني عليه مصير الأمة، فإنه يجب أن يكون لعلماء الأمة الكبار يجتمعون ويصدرون عن رأي واحد في ذلك، وأن لا يكون هذا لأفراد طلبة العلم لأنها إذا حدثت الفتن والنزاعات والأقوال لما يترتب عليه عمل، فإن هذا يكون مدعاة لحدوث أشياء.

فإذا كانت مسائل علمية ولو كان يتعلق بالاعتقاد وموقف الحدث الفلاني قد يختلف الناس، هؤلاء ينظرون من جهة، وهؤلاء ينظرون من جهة، وكل مجتهد في الخير إن شاء الله، فإذا وقع هذا فلا ينبغي أن يضلل بعضهم بعضا إذا لم يخالف الدليل أو كان وجهته في تحقيق المناط قريبة ليست بعيدة، ولا ينبغي أن يضلل بعضهم بعضا وأن يبغي بعضهم علىٰ بعض؛ لأنه من أعظم ما يكون من نتيجة الفتن أن يبغي بعض الأمة علىٰ بعض، وخاصة طلبة العلم وأهل العلم، كونهم يختلفون في مسألة، يروح هذا يسب هذا وهذا يسب الآخر ويذم بعضهم بعضا، وكل يجرم الآخر ويحمل قوله علىٰ فساد في النية وعلىٰ فساد في القصد وعلىٰ فساد، دون رؤية بحقيقة الأمر، وما توخاه هذا وما توخاه ذاك، وما جعله في تحقيق مناط الحكم هنا وهنا إن هذا يوقع في البغي.

وكما ذكر شارح الطحاوية ومر معنا في أواخر «شرح الطحاوية» أنه ما وقعت الاختلافات في الأمة ولا وقع بأس الأمة بعضها علىٰ بعض إلا من سببين عظيمين:

الأول: التأويل.

والثاني: البغي.

يتأول ثم بعد ذلك يبغي بعضهم علىٰ بعض.

لقي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عالما من علماء الحنفية أو نحو ذلك، عالما من العلماء، فناظره في مسألة فلم يتفقا، فلما تقابلا -وقد ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة الشافعي في أول المجلد العاشر- فلما تقابلا أخذ الشافعي مبتدرا يد أخيه وقال: له ألا نكون إخوانا وإن اختلفنا في مسألة، ما الذي يضر، إذا لم يكن مخالفة لدليل ظاهر بيّن، إنما في تحقيق المناط اختلفوا تمثيل، اختلفوا في رؤية المصالح، ألا يكون إخوانا طلبة العلم لابد أن يكونوا كلهم علىٰ شكل واحد وقول واحد، هذا قد لا يتيسر.

فهنا إذا اختلف أهل العلم يعذر بعضهم بعضا إذا كانت المسألة في المسائل الاجتهادية، وفيما لا يترتب عليه عمل للناس ويترتب عليه فتنة ونحو ذلك، وهذا أيضا قاله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إسحاق أخونا وإن كان يخالفنا في مسائل.

ولهذا ينبغي أن يتعلّم طالب العلم ويوطّن نفسه أن يتلقىٰ من غيره ردّا عليه، أو أن يتلقىٰ من طالب العلم الآخر نقدا له وتخطئة وربما شدة عليه.

محمد بن الحسن كتب رد علىٰ «سير الأوزاعي»، ومالك رد علىٰ ابن أبي ذئب وابن أبي ذئب رد علىٰ مالك، وهكذا العلماء، وقصد الجميع الحق؛ لكن لا يؤول ذلك إلىٰ أن يبغي بعضهم علىٰ بعض؛ لأنه إذا وقع ذلك فقد أصابهم الشيطان، إذا وقعوا في التأويل، فهذا قصده كذا، هذا يريد كذا، هذا يعمل لأجل كذا ونحو ذلك من التأويلات الباطلة، إذا دخل التأويل ثم بغىٰ بعضهم علىٰ بعض وقت الفتن

الأعظم وهي تنافر القلوب وعدم الثقة.

ولهذا ينبغي أن يُحرص علىٰ الدليل، وأنه بعد النظر في الأدلة يحقق المناط الذي تناط المسألة به ثم بعد ذلك تلحق بالدليل وبالقواعد الشرعية والأصول المناسبة لها.

سؤال (٢): ظهرت ظاهرة في أوساط طلبة العلم وهي أن العلم وخصوصا علم التوحيد والعقيدة لا يؤخذ إلا من أهل هذا البلد؛ بل وأهل نجد خصوصا، وإذا ظهر أحد العلماء من غير هذا البلد، وكان مبرزا في علوم كثيرة بدؤوا برميه بالتهم وما هو منه براء وما توجيهكم والله يحفظكم.

الجواب: أولا العلم ليس له بلد، العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة، من أخذ العلم علىٰ منهج السلف في التوحيد والاعتقاد وتفقه في الكتاب والسنة في ذلك، فهو أهل أن يؤخذ عنه، وليس من شرطه أن يصيب في كل مسألة، فإذا أخذ عنه وغلط في مسألة فإنه يسدد، وكم أفاد الطالب شيخه فيما غاب عنه.

وقد ذكر أن العلامة الشيخ محمد أمين الشنقيطي صاحب «تفسير أضواء البيان»، أول ما قدم كان لا يعرف مذهب السلف، تكلم بكلمة بخلاف مذهب السلف فأرشده أحد العلماء إلىٰ أنه لابد أن يطّلع علىٰ كتب السلف وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته.

فقرأها قال في أسبوع واحد مر عليها جميعا.

وحدثني الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قال: أنه بعد أسبوع قال: ما في هذه الكتب حق.

وهذا أصبح يدافع علىٰ مذهب السلف ويدافع عليها ويؤصلها بتأصيلات قوية متينة.

فالقول أن العلم السلفي الصحيح التوحيد والعقيدة أن هذا يؤخذ من بلد ليس كذلك؛ بل الدعوة السلفية يجب أن نجعلها للمسلمين جميعا، وأن لا نجعلها لفئة مخصوصة؛ لأن الدعوة السلفية هي دين الله جل وعلا، فإذا كان كذلك لا نحصرها في فئة، نحصرها في بلد، وإنما نوسعها بحسب الإمكان، بقدر الإمكان نوسعها، قد يكون التوسيع في بلد، وقد يكون حتىٰ في الإنسان نفسه؛ في العالم، يقول: والله أنت قلت كذا وكذا توافق الأدلة وجزاك الله خيرا إلىٰ آخره، وفيه مسألة كذا هذه الدليل فيها كذا، وفيه مسألة كذا الحق فيها كذا.

ومن نظر إلىٰ رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلىٰ المخالفين، وجد أن فيها إرشاد، إلا المعاندين منهم.

فإذن هنا توسيع الدائرة والإرشاد أولىٰ من الحكم كما ذكر السائل، فإنهم يرمونهم ويتنقصونهم، هذا لا يسوغ بل يرشد حتىٰ يكون شهابا يرمىٰ به أعداء العقيدة والتوحيد، لا أن يقال فيه كذا، ويتبرأ منه؛ لأن الإنسان ضعيف، فلا يكن طالب العلم ومن عنده بصر في مسائل العقيدة لا يكن عونا للشيطان علىٰ العالم أو طالب العلم؛ بل يرشده ويسدده باللين لأن قصده هو الحق.

هذه مسألة مهمة بينة.

لاشك أن علماء هذه البلاد وخاصة علماء في نجد صار لهم من الاختصاص في تدريس التوحيد والعقيدة وكثرة تداول الكتب المؤلفة في ذلك وكثرة قراءة كتب السلف ما صار لهم مزيد اختصاص وفهم لتفاصيل المسائل في هذا.

لهذا يرجع إليهم في هذين العلمين؛ لأنهم أهل اختصاص فيه لكثرة ما قرؤوا وتدارسوا فيما بينهم من هذه المسائل.

سؤال (٣): هل يشترط للحكم علىٰ رجل معين بالخروج: الخروج علىٰ ولي الأمر. أم يشترط: أن يكفر صاحب الكبيرة؟

الجواب: المسألة هذه تحتاج إلىٰ صياغة من جديد وهي: هل يشترط للحكم علىٰ رجل معين بأنه علىٰ مذهب الخوارج -مو بالخروج- علىٰ مذهب الخوارج بخروجه علىٰ ولي الأمر أم يشترط أن يكفر صاحب الكبيرة؟

المقصود أن من هو علىٰ مذهب الخوارج من اعتقد اعتقاد معتقد الخوارج ومعتقد الخوارج فيهم خروج علىٰ ولي الأمر إذا ارتكب كبيرة.

لماذا يخرجون عليه؟ لأنهم يعتقدون أنه كفر بارتكابه الكبيرة، فهذه صفة؛ ولكن لا يقال إن فلان إذا قال أنه لا بأس بالخروج علىٰ ولي الأمر يقال إنه من الخوارج، ولكن يقال: إنه يرىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر أو يرىٰ السيف، أو وافق الخوارج في هذه المسألة أو شابه الخوارج في هذه الصفة.

والأصل في ذلك كله قول النبي ﷺ لأبي ذر «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» فدل علىٰ أن الصفات تتبعض رجل يكون سلفيا وربما كان فيه خصلة جاهلية، ويكون فقيها ويكون فيه صفة من صفات الخوارج أو خصلة من خصالهم، وهذا بحسب الحال.

فالوصف بأنه خارجي، هذا لابد أن يكون معتقدا معتقد الخوارج؛ لكن يقال: هذا يرىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر هذا لا يقتضي أن يكون من الخوارج؛ لأن المعتزلة يرون الخروج علىٰ ولي الأمر وبعض المذاهب أيضا ترىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر لمصلحة كما يزعمون.

والأدلة المتظاهرة من الكتاب والسنة توجب طاعة ولاة الأمور وعدم الخروج عن طاعتهم ما داموا مسلمين.

سؤال (٤): هل هناك قواعد تأصيلية لتوعية الناس عن الكلام في أعراض العلماء وعدم عصمتهم من الخطأ؟

الجواب: المسألة هذه ربما تكونون علىٰ علم بها، لكن بدر لي إلىٰ أن أنبه علىٰ مسألة وهي:

أن بعض الناس يقول في العامي إذا خالف قوله قول العالم يقول العالم غير معصوم، أول ما يبدأ بمخالفته بقول العالم، إذا قيل له الشيخ فلان يقول كذا، أو العالم الفلاني أو شيخ الإسلام يقول كذا هذا غير معصوم مباشرة، وهذه حيلة شيطانية لكي لا يذهب إلىٰ البحث في الحق نفسه، وإنما يصادر القول الآخر ويغلطه لأنه أصلا غير معصوم فأصلا وقع في خطأ قبل أن يبحث، وهذه حيلة شيطانية، والواجب أنه ينظر ويسمع ما يقول العالم بدليله، وإذا لم يتضح له كلام العالم فإنه يسمع مرة أخرىٰ، أو يذهب ويسأله ويبحثه ويبحث معه حتىٰ تظهر له المسألة في ذلك لعله أن يوافقه في هذا.

العلماء أعراضهم حرام؛ لأنهم أعلىٰ الأمة مقاما؛ يعني بعد نبيها ﷺ، والعلماء ورثة الأنبياء؛ لأنهم هم يحفظ الكتاب والسنة ودين الله جل وعلا، إذا كانت لحوم المؤمنين جميعا وأعراضهم حرام فيعظم الوزر بعظمة أو بازدياد رفعة من وُقع في عرضه؛ لأجل شدة ترتّب الأثر علىٰ ذلك.

مثلا شخص من الناس وقع في عرضه لكن الوقيعة فيه حرام «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا**»، «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله**»، إذا كان في عامة الناس حرام يعظم بالمفسدة المترتبة علىٰ هٰذا القدح، والناس مقامات فإذا كان هناك مفسدة أكبر فإنه تكون هنا

الوقيعة أكبر؛ يعني الجرم أكبر أو الإثم أكبر.

مثلا ابن مع والده في بيته، اثنين ابن وابن يأتون ويقدحون في والدهم، هذا أعظم مما لو تناول عرض الأخ، اثنين من الإخوان في أخيهم، هذا عظيم وهذا أعظم، أعظم اثنين مثلا يغتابون خادما عندهم هنا حرام أيضا إذا كان مسلما؛ ولكن الأثر يزداد بازدياد المكانة.

العلماء أرفع الناس مكانة، ولهذا القدح فيهم يخلي الناس لا يثقون بنقلة الشريعة وحفاظها وهو الآن حاصل وقبل الآن نسأل الله العصمة من الضلال.

سؤال (٥): هذا شبيه بالسؤال: كثر طعن الناس في هذه الأحداث في المشايخ السلفيين إلىٰ آخره، التعليق علىٰ الأنباء؟

الجواب: يريدون العلماء يعلقون علىٰ الأنباء، صحيح ولذلك يقترح أن يكون للعلماء ووش يسمونه عندكم سياسيا؟ ناطق رسمي، كل يوم يأتي يعلّق: هذا كلام، عشان يرتاح الناس، ليس هو المنهج، المنهج العالم إذا تكلم مرة أخذ كلامه، يرجع فيه للأصول، ما هو كل مرة لازم يتكلم، تكلم مرة خلاص انتهىٰ، يُبين، وليس لابد أن يكون علىٰ نحو ما إذا بينه بعض أهل العلم وأقره الآخرون انتهىٰ أيضا ذلك، لا يلزم أن كل واحد يتكلم بنفسه فإذا تكلم بعضهم وقام بواجب بعض، الحمد لله المسألة ظاهرة.

نكتفي بهذا القدر احفظ الأسئلة الباقية وإن شاء الله نلتقي السبت القادم بإذن الله تعالىٰ.

۞۞۞۞

أسْبَابُ الثَّبَات عَلَى طلب العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين.

أما بعد..

فهٰذه بداية للدُّروس التي سبق أن بدأناها في العام الماضي، وأسأل الله جلّ وعلا أن ينفعنا بما مضىٰ وأن ينفعنا بما سيأتي وأن يثبته في قلوبنا، وأن يمنّ علينا بالعمل بما علمنا، وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين، وأسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ العظيمة الجليلة أن يمنّ علينا بالبصيرة في كلّ ما نأتي وما نذر، وأن يجنّبنا سلوك غير سبيل سلف هٰذه الأمة في كل أحوالنا، إنّه جواد كريم.

وبمناسبة هٰذه البداية نُذكّر بشأن العلم وما ينبغي أن يستحضره طالب العلم وهو يعاني العلم ويعاني حمله ويسير في طريقه؛ لأنّ العلم ليس بالطَّريق الهيّن، وكما قد قيل: العلم طريقه طويل، قد قال بعض السلف: (**اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللَّحد**)، وقد قيل للإمام أحمد وقد ظهر الشَّيبُ فيه، قيل له: إلىٰ متىٰ وأنت مع المحبرة؟ -يعني كانت معه أدوات العلم؛ ورق ومحبرة-، فقال كلمة مشهورة: **مع المحبرة إلىٰ المقبرة**. يعني أنّه مواصل في هٰذا لا ينقطع.

وسبب الانقطاع فيمن انقطع عن العلم يرجع إلىٰ أسباب، فمن تلك الأسباب:

١- أنّه لم يَعِ حقيقة معنىٰ العلم ولماذا يطلب العلم.

٢- والثّاني أنّه ربَّما كانت النية في أصلها ضعيفة؛ لأنّه بقوة النية في طلب العلم يكون الاستمرار والحِرص عليه.

٣- والثَّالث من أسباب الانقطاع أن يكون المرء متعجِّلا، يريد أن يكون طالب علم، أو أن يكون عالمًا محصِّلا عارفًا بأكثر المسائل في سنوات قليلة، هٰذا لا يَحْصُل أبدًا؛ بل العلم طريقه طويل.

٤- وقد يكون السَّبب راجعا إلىٰ ضعف بصيرته في شأن العلم، ويظنّ أنَّ العلم نفعه قليل، وأنّ غيره من الطُّرق التي ربما يغشاها بعض المستقيمين أو الذين ظاهرهم الالتزام أنها أسرع في تحصيل المقصود وأنها هي التي بها يحصل المرء علىٰ ما يتمنَّىٰ من رجوع الخلق إلىٰ ربهم جلّ وعلا.

وهٰذا من أسباب الانقطاع عن العلم أنه يقول: ماذا فعل العلماء؟ ماذا حصّلنا من العلم؟ ولكن هناك طرق أخرىٰ كذا وكذا، هٰذه بها يكون المرء أكثر تأثيرًا ويكون محقًّا للحق ومبطلا للباطل، فتنصرف نفسه

عن العلم.

والحقيقة أنّه فاته أنّ العلم كالماء الذي يثبت في الأرض فينفع الله جلّ وعلا به من يأتي بعد، كما مثّل ذلك النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث الصحيح الذي قال فيه: «**مَثَلُ ما بعثني الله به من العلم كمثل غيث أصاب أرضا**» فالعلم الشرعي غيث، وهٰذا الغيث؛ غيث نافع.

ومن فوائد الفروق اللغوية في التفسير أنّ أكثر ما يستعمل **الغيث** في الكتاب والسنة فيما ينفع من الماء والمطر، وأمّا **المطر** فأكثر ما يستعمل فيما يضر مما ينزل من السماء، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾[الشعراء]، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يوسف]، فالنّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مثّل لنا العلم بالغيث، وهٰذا فيه مع تتمة الحديث بأنّه أصاب أنواعا من الأرض فكانت منها أرض قبلت العلم فارتوىٰ الناس منه وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وفيه أيضا تسميته بالغيث، والغيث يُغيث الأبدان ويغيث القلوب، وهكذا العلم فإنه بهٰذه المثابة.

٥- من أسباب الانقطاع عن العلم التي لمسناها في الشباب في السِّنين الماضية ودائما تتجدد: أنهم لا تكون صلتهم بالعلم وأهل العلم مستمرَّة، بل عهدهم بالعلم وأهل العلم في الدُّروس فقط، وما عدا ذلك فهم يصاحبون الناس من أصنافٍ شتىٰ، فلا تكون النفس دائما متحرِّكة بالعلم، بل تكون تتحرك بالعلم في وقت قليل؛ في وقت الدرس، وما بعد ذلك فأكثر الحديث الذي يتحدث به ليس في العلم، هٰذا يجعله غير متعلِّق بالعلم، والعلم يحتاج إلىٰ أن يتعلَّق به طالبه دائما؛ نفسُه معه في كلِّ حال، وقد كان بعضُ أهل العلم ينصرف عن ملذّات الدُّنيا لأجل العلم؛ الملذّات المباحة من مال أومن زوجة أو من نظر مباح وأُنس ونحو ذلك لأجل انشغاله بالعلم، وقد قال بعض الشعراء في ذلك من العلماء حيث أتته جارية ولم يلتفت إليها وقد كانت حسنة الخَلْق والخُلق فقال فيها أبيات لما أتته وذكر زينتها إلىٰ آخره فقال:

فقلت ذريني واتركيني فإنّني ... شُغِلتُ بتحصيل العلوم وكشفها
ولي في طِلاب العلم والفضل ... غِنىٰ عن غناء الغانيات وعَرْفِها

يعني أنّه مشغول بشيء أعظم غلب علىٰ نفسه، وهٰذا متىٰ يكون؟ إذا كان المرء دائما مع العلم؛ قراءة، في صحبة من يتكلمون في العلم، في تبليغ العلم، في الكلام في العلم، في رؤية العلماء، في الحديث معهم، في سماع كلامهم تجد النفس تنشغل به، ويكون العلم طبعا له، أولا يكون تطبع يأتي بشيء من الكلفة، ثم يكون طبعا له حتىٰ إذا تحدث حدّث بالعلم، إذا أرشد أرشد بالعلم، إذا بيّن بين بالعلم، فيكون في ذلك الأنس له، ولا شك أنّ هٰذا يحتاج إلىٰ جهاد وقد قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت].

فالجهل هو ضد العلم، والجهل داء -كما قال ابن القيم- داء قاتل يقتل صاحبه من حيث لا يشعر، فيقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «نونيته»:

والجهل داء قاتل وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
علم من القرآن أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني

يقول: (الجهل داء قاتل). لا شك قاتل لرؤية العبد لِما يجب عليه في دينه، كذلك داء قاتل للعبد في أنه يجعله ليس من الأحياء، فالعالمون أحياء وغيرُهم أموات، وسبب موتهم هو الجهل؛ لأنّ الجهل مميت مثل ما قال هنا قاتل، فكل من جهل فقد قُتل وقد مات، والجهل ليس بمرتبة واحدة بل الجهل أنواع كثيرة فكل من جهل شيئا فقد أصيبت مقاتله من الجهة التي جهل فيها، قال:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ....

ما شفاء الجهل؟ قال:

.... وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
علم من القرآن أو من سنة ....

هٰذان الأمران: علم من القرآن أو من السنّة. من الذي يبيّن نصوص القرآن والسنة وينزِّلها منازلها ويجعلها في معانيها الصَّحيحة؟ قال:

.... وطبيب ذاك العالم الرباني

ليس أي عالم؛ لكنّه عالم رباني يخشىٰ الله ويتّقيه فيما يقول وفيما يأتي وفيما يذر، فنصوص الكتاب والسنة نعم هي شفاء الجهل، وكثير من الناس ينفي الجهل عن نفسه بالحرص علىٰ الكتاب والسنة لكنه لم يَستضِيئ بكلام أهل العلم وبنور أهل العلم، لم يستضيء بذلك، ولما لم يستضئ بذلك أُصيبت مقاتله؛ لأنه قال: (وطبيب ذاك العالم الرباني)، هٰذا التعبير بـ(طبيب ذاك العالم الرباني) يفهمك بأن العلم دواء، فإذا أتىٰ رجل فأخذ من الدواء ما لا يصلح له يهلك أولا يهلك؟ يهلك.

قد هلكت الخوارج لأنهم أخذوا نصوص الكتاب ونصوص السنة؛ ولكن نزلوها في غير منازلها، فأخذوا من نصوص الكتاب ما استدلوا به علىٰ أنّ فاعل الكبيرة كافر قال: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾[النساء:٩٣]، قالوا: هٰذا يدل علىٰ أنه كافر.

أخذت المرجئة بعض النصوص نصوص الكتاب ونزلوها في غير منازلها «**من قال: لا إلٰه إلا الله دخل الجنة**»، «**من كان آخر كلامه: لا إلٰه إلا الله دخل الجنة**» ونحو ذلك من النصوص، فنفت العمل

وأبقت القول والاعتقاد وأرجؤوا ذلك فأصيبت مقاتلهم، لماذا؟

لأنهم لم يكن طبيبهم في فهم النصوص صحابة رسول الله ﷺ ولا علماء زمانهم، أخذوا من أنفسهم ولم يتابعوا أهل العلم المتحقِّقين به، فأصيبت مقاتلهم.

وهكذا في كل زمن الحرص علىٰ العلم مطلوب؛ لكن لا يمكن أن تكون حريصا علىٰ العلم ومصيبًا في ذلك إلاّ أنْ تستضيء بفهم أهل العلم؛ لأنَّ العلم في هٰذه الأمة موروث ليس علما مستأنفا مبتدأً، في كل زمن يبتدئ الناس منه ويستأنفون علما جديدًا لم يكن معروفا في من قبلهم، بل علمنا في هٰذه الأمة علمنا موروث، ولهٰذا قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**العلماء ورثة الأنبياء، فإنّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» لهٰذا! تنتبه إلىٰ هٰذا الأصل العظيم ألا وهو الحرص علىٰ العلم حق؛ ولكن ينبغي أن يكون طبيبك في ذلك الحرص -في تلقي النصوص- طبيبك العالم الرباني، فإن لم يكن ربَّانيا كان عالما ذا هوىٰ؛ له مقاصد له أغراض أيضا أصابك شيء من عدم فهم نصوص الكتاب والسنة، وأصابك شيء من الجهل بقدر ما فاتك من ذلك.

والعلم أنواع، الجهل خطير وداء قاتل، ولابد أن تسعىٰ في شفاء نفسك منه عن طريق أهل العلم بفهمهم نصوص الكتاب والسنة، والعلم أنواع كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والعلم أنواع ثلاث ما لها ... من رابع والحقُّ ذو تبيان

علم بأوصاف الإله ونعته ... وكذلك الأسماء للديَّان

هٰذا العلم الأول: الأسماء والنعوت والصفات؛ يعني التوحيد جميعه: توحيد العبادة وتوحيد الربوبية كله من ثمرات المعرفة والعلم بأسماء الله وصفاته.

ففي اسم الله الأعظم (الله) الذي مرجع الأسماء الحسنىٰ جميعا إليه فيه أنه هو المستحقُّ للعبادة وحده دون ما سواه.

ففي اسمه الرّب أنه هو ذو الربوبية.

في نعوت الجمال أنّه هو المستحق للعبادة.

وفي نعوت الجلال أنّه هو المستحق للإجلال والتعظيم وإفراده بالربوبية وهكذا...فقال:

علمٌ بأوصاف الإله ونعته ... وكذلك الأسماء للديان

هٰذا ثلث العلم بالتوحيد، ولهٰذا سورة الإخلاص صارت ثلث القرآن؛ لأنّ القرآن فيه العلم كله، وثلث العلم التوحيد فصارت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها فيها التوحيد كله؛ توحيد الربوبية

والألوهية والأسماء والصفات.

قال بعدها:

والأمـــر النهـــي الـــذي هـــو دينـــه ....

هٰذا النوع الثاني من العلم: الأمر والنهي الذي هو معرفة الحلال والحرام:

- المأمور به ويشمل الواجب والمستحب.
- والمنهي عنه ويشمل المحرم والمكروه.

والأمـــر والنهـــي الـــذي هـــو دينـــه ....

هٰذا النوع الثاني الذي هو علم في الفقه؛ الحلال والحرام (علم الأحكام).

والثالث منها هو علم الجزاء يوم القيامة، قال:

.... وجـــزاؤه يـــوم المعـــاد الثـــاني

الذي يدخل في ذلك علم السلوك، ما يصحِّح به المرء قلبه، ما يصحِّح به سلوكه، مقامات الإيمان، ومقامات الزُّهد، والعبادة، ومعرفة جزاء كل عمل يوم القيامة وما يحصل يوم القيامة من أنواع الجزاءات للمؤمنين وللكافرين، للمقصرين وللمطيعين؛ لأنواع الناس.

إذن فلتعلم هنا أنّ هٰذه الثلاث هي العلم. فتسعىٰ:

- إلىٰ العلم بالتَّوحيد، هٰذا ثلث العلم.
- إلىٰ العلم بالحلال والحرام، هٰذا الثُّلث الثاني من العلم.
- إلىٰ العلم بما تزكي به نفسك، قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[الشمس].

كيف تحصل علىٰ هٰذا العلم؟ بتدبر نصوص الكتاب والسنة بما يكون يوم القيامة، وحال الناس يوم القيامة، والنُّصوص التي جاءت بما يكون به الثواب يوم القيامة؛ نصوص الزهد، نصوص الثواب، الأذكار، ما يتعلَّق بذلك، كلها من فروع هٰذا.

فإذن عندنا هٰذه أقسام العلم ثلاثة، إذا كنت حريصا علىٰ هٰذا العلم فلتكن حريصا علىٰ هٰذه العلوم الثلاثة، ثم لتَنْفِي عن نفسك ما استطعت من أسباب الجهل، وقد عرفت أسباب الجهل، ثم احرص تمام الحرص علىٰ أن لا تنقطع عن الطريق، وتذكر قول ابن شهاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث نصح المتعجلين فقال: **من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنما يطلب العلم علىٰ مرِّ الأيام والليالي**. قليلًا قليلا، لو ما

نكسب كلّ يومين إلا مسألة؛ يعني مسألة نضبطها وتكون ثابتة بدليلها ووضوحها فبعد سنة سنحصل قريبا من مائة وثمانين مسألة، وبعد سنتين ثلاثمائة وستين مسألة واضحة، بعد عشر سنين ألف وستمائة مسألة، أحسب بعد ثلاثين سنة يكون الواحد عالم راسخ في العلم، تكون المسائل واضحة مبسوطة عنده بوضوح وفهم غير ملتبسة، هٰذا إذا كان في كل يومين مسألة، فكيف يكون لو كان في كل يوم مسألة، لو كان في كل يوم مسألتين، خذ ما تحصَّل من العلم، ولكن يحتاج منك إلىٰ مواصلة.

المطر إذا أصاب أرضًا وكان مطرا شديدًا يمشي أو يظل راكدًا في الأرض؟ يمشي بل يذهب إلىٰ الأودية والشعاب؛ لأنّه قوي، لكن هل الأرض التي نزل عليها أول مرّة نزولا شديدا يكون انتفاعها مثل الأرض التي استقر عليها الماء؟ ليس كذلك، هٰذا مثال للتقريب.

المطر الذي يأتي قليلا قليلا؛ أسبوعا أسبوعين تجد مثلا نصف متر في الأرض كلها رويانة، لٰكِن بعد ذلك لو يزيد أسبوع ثاني...، هٰذا وصف بليغ فيما يناسب العلم، إذا ارتويت من العلم بعد ذلك الشيء القليل الذي يأتي تحس أنه ينفع الناس، وتذكره بوضوح.

فمثلا تجد بعض طلاب العلم قد يتكلم بالكلمات؛ لكن ما تقنع منها النفوس وهو طالب علم لماذا؟ لأنها لم تنتج عن رسوخ وفهم لما يتكلَّم فيه، تلحظ في الكلام فيه شيء من الاضطراب، فيه شيء من عدم الوضوح، ما استطاع أن يوصل لك الكلام بوضوح تام، لماذا؟ لأنّه غير راسخ في هٰذا المقال الذي قاله.

وهكذا طالب علم أو عالم يكون عنده تسعين في المائة من العلم الذي معه واضح وعشرة في المائة غير واضح، تجد أنه يلتبس عليه فلا يستطيع تأدية هٰذا الذي التبس عليه -مشكل عنده-، فإذا كان العلم راسخًا واضحًا قد طُلب علىٰ مهل فإنه يثبت في القلب، وبعد ذلك يمكنك أن تنفع النَّاس به، فلا يَغيبنّ عنك هٰذه الحقيقة وهي أنّ العلم يُطلب شيئا فشيئا.

أمَّا التَّذوق فهٰذا ليس أهله من العلم في قليل ولا كثير، **ما معنىٰ التذوق؟**

التذوق هو ما رأيناه كثيرا يحضر عند فلان من المعلِّمين أو من المشايخ الكبار شهرًا وبعد ذلك راح للثاني، راح للثالث، فما استفاد لأنه متذوِّق، فتجد الإخوان يُقبلون سنة شهر شهرين ثم يُحبطون، هٰذا العلم غير متَّصل، هٰذا ما يستفيد سنين ثم ينقطع في الغالب ينقطع ثم يصبح كغيره من الناس، أما الذي يصبر ويصابر علىٰ مرّ الزَّمان فإنّه هٰذا يحصِّل بحسب ما كتب الله له.

٦- **وممَّا هو من أسباب ثبات العلم** وعدم الانقطاع عنه أن تكون مخلص القصد فيه لابد من

الإخلاص في العلم؛ لأن العلم قد أُمر به في القرآن وأمر به النبي ﷺ ، وإذا كان مأمورًا به فإنه عبادة؛ لأنّ العبادة هي **ما أُمر به من غير إطِّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**، فإذا كان مأمورًا به فهو عبادة، فإذا كان عبادة يلزم فيها الإخلاص.

كيف يكون اِلإخلاص في العلم؟ ما النِّية في العلم؟ سُئل الإمام أحمد عن ذلك –مشكلة- كيف يكون مخلصًا في العلم؟ كيف يكون مخلصًا في عمله؟ كيف يكون مخلصًا في صلاته؟ في صيامه ...إلخ؟ كل عبادة يُخلص فيها إذا كان قد أراد بها الله جلّ وعلا، العلم مع إرادته الله وعدم إرادته الرياء والسمعة ولا المكابرة ولا المجاهرة في الناس بالكلام ولا التَّقدم والتَّصدُّر، أن يريد بالعلم نفي الجهل ورفع الجهل عن نفسه.

قيل للإمام أحمد: كيف النية في العلم؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه.

لماذا؟ لأنّ الجهل؛ جهله بالله جلّ وعلا، جهله بما يستحقُّه جلّ وعلا، جهله بصفاته وأسمائه، جهله بأمره ونهيه، جهله باليوم الآخر وما فيه من تفصيلات وجزاء كل واحد علىٰ ما يعمل، هٰذا لا شك ما يرضىٰ به ذوي النفوس الحية.

فإذا طلب العلم يريد به الدنيا فهو من أهل الدنيا، فإذا طلب العلم لله يريد الأجر والثواب ويريد نفي الجهل عن نفسه؛ فإنه يكون مخلصا.

لاحظ هٰذه النية إذا أتت إليك واستقرّت فهي مباركة؛ لأنك دائما تحسُّ أنك جاهل، ما فيه أحد ينقضي من العلم حتىٰ من عُمّر مائة عام أو أكثر وهو في العلم ما انقضىٰ، العلم واسع لا يستطيع أحد أن يحيط به جميعًا من الناس، وهو واسع يعني من غير الأنبياء، وسَعته هٰذه تحتاج إلىٰ أن تكون دائمًا معه، بالنِّيَّة أن تنوي رفع الجهل عن نفسك وستلحظ أنّ بها أشياء ما عرفتها، فإذا كانت النية الصالحة موجودة ستستمر علىٰ العلم، لكن إذا كانت النية غير صالحة والله تعبت خلاص عرفت كذا وكذا، لا العلم طويل.

العلم بالقرآن، العلم بالتفسير، لا ينتهي، فإذا تأمَّلت أنّ ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ صنف كتابه التفسير مختصرا، وقد قال لهم: هل تنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: قدر كم؟ قال: قدر ثلاثين ألف ورقة. قالوا: هٰذا ممَّا تمضي فيه الأعمار. فقال: الله المستعان ماتت الهمم. فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة؛ يعني قدر العشر وهو الموجود اليوم في ثلاثين جزءا، فأين الباقي؟ موجود في غيره من التفاسير أشياء لم يذكرها ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما هو قرّب علمه بالتفسير واختصره، هٰذا القدر من العلم بالقرآن، هٰذا القدر الهائل إذا وصلنا

إلىٰ آخر التفسير نسينا شيئا من أوّله، هٰذا موجود مررنا علىٰ تفسير سور القرآن ثم من الآيات ما نسينا تفسيرها؛ هٰذا طبع الإنسان.

فإذا كان المرء معه دائما نية رفع الجهل عن نفسه لا ينقطع عن العلم، دائما يحس أنه ضعيف جاهل، يأتيه الصغير فيعلمه شيئا لم يعلمه من قبل، وهو أصغر منه، يقول: والله اطلعت علىٰ هٰذه المسألة وفوق كل ذي علم عليم يفرح بها.

تجد أن صاحب النية الصحيحة إذا أرشده من هو أصغر منه أفرح ما يكون، لماذا؟ لأنّه حصّل علما يرفع به الجهالة عن نفسه، أما لم تكن نيته صحيحة فإنّك تجد عنده استكبار في العلم: لا، ليس كذلك. ما يفرح بالعلم، تأتيه بالعلم الواضح الصحيح ولا يفرح به؛ لأنّ نيته مدخولة.

النية الصالحة في العلم سبب عظيم من أسباب الثبات عليه والاستمرار عليه.

٧- **أيضا من أسباب الثبات: الصبر علىٰ المعلّم**، فإنّ المعلمين أو المشايخ ليسوا علىٰ درجة واحدة في التَّعامل مع الطلاب، يختلفون، كل واحد تجد عنده أشياء، فمنهم من قد لا يهتم بالسُّؤال ويفصل الجواب لكلّ أحد، إذا كان الطَّالب يستريح له المعلم فصّل له، إذا كان يرىٰ أنه ليس بأهل أو له فيه نظر ما فصّل له، يحتاج طالب العلم إلىٰ أن يصبر.

كذلك قد يكون في بعض المعلِّمين خصال تخصه، كل واحد من المتعلِّمين أو المعلمين -كلنا بشر- كل واحد فيه عيوب أو فيه نقص أو له طبائع خاصَّة به.

فإذا كان المرء -أعني طالب العلم- طلَبَ مَن يطلب عليه العلم من أهل الكمال، هٰذا لن يحصّل، تجده يأتي إلىٰ فلان وينتقده -من طلاب العلم-، والثاني ينتقده والثالث ينتقده، مَنْ الكامل عنده؟ لا أحد، وهٰذا يغلب علىٰ الذوّاقين الذين يتنقلون، حتىٰ أن بعضهم حضر عددا من الدروس المختلفة سأله أحد العلماء أو أحد المشايخ عما أخذ من العلم فقال: حضرت عند فلان فذكر كذا وكذا كلمة إما أخطأ فيها أو -المقصود شيء غريب- والثَّاني قال كذا، والثالث ما فصّل، والثَّالث غلط في حديث والرابع ذهب في مسألة و...أخذ يعد ويعد، فقال له: بئس الرّجل أنت أن جمعت...

٨- **من أسباب عدم المواصلة في العلم** أنْ يَطلب طالب العلم معلما فيه الكمال هٰذا لا يوجد إلاّ في المشايخ؛ في عِلِّيّة المشايخ يعني المشايخ الراسخين في العلم الكبار، وهؤلاء قد لا يمكنهم أن يعلموا كلّ الأمة، أن يعلموا كل من أراد طلب العلم، ولكن خُذ من المعلم ما أصاب فيه وهو الأكثر ما دام أنه معلم ووثق فيه الطلاب وعنده حسن أداء للعلم وتصور له، وصوابه أكثر من خطئه أو خطأه قليل يُعدُّ، فخذ

منه صوابه والخطأ راجعه فيه بصره حتىٰ يبصر.

من المهم في طلب العلم أن تكون متواضعًا مع المعلمين، وهٰذا سبب من أسباب مباركة الله جلّ وعلا لعِلمك؛ لأنّ التَّواضع للمعلم سببٌ للاستمرار، وعدم التَّواضع للمعلّم سبب للانقطاع، وهٰذا مأخوذٌ من قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر، موسىٰ عليه السَّلام ما صبر، والخضِر عنده علم عجيب؛ علمٌ من الله جلّ وعلا عجيب، فموسىٰ عليه السلام رأىٰ الأوَّل فاعترض مع أنّه عاهده أن لا يعترض، والمسألة الثَّانية –رآها– الغلام الذي قتله الخضر فاعترض موسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾[الكهف] ثم الجدار، فأخبره أنه لن يستطيع معه صَبْرًا ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾[الكهف]، ماذا قال –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–؟ قال: «**وددنا أنّ موسىٰ صبر**» لو صبر لأخذنا علم كثير لكنه لم يصبر فحُرم من علم الخضر.

وسبب الخلاف في الاستنكار هو الاختلاف في العلم، الخضر في هٰذه المسائل أعلم من موسىٰ، فاستنكر موسىٰ عليه السلام –وهو كليم الله جلّ وعلا ومن أولي العزم من الرّسل– كان عند غيره من العلم ما ليس عنده.

ما سبب الخلاف؟ سبب الاعتراض، اختلاف العلم، لهٰذا قد يكون عند بعض الطلاب اعتراض، عدم فهم، عدم قناعة؛ لكن السبب في عدم القناعة اختلاف العلم، ولهٰذا قال ابن الوزير محمد بن إبراهيم اليماني أو غيره في أبيات حسنة في بيان سبب اختلاف الناس؛ سبب اختلاف الآراء وأنّ سبب ذلك هو اختلاف العلوم، قال:

تسلّ عن الوفاق فربُّنا قد حكىٰ بين الملائكة الخِصاما

الخصام في إيش؟ قصة آدم وحديث اختصام الملأ الأعلىٰ وغير ذلك، كذلك الاختصام في شأن أهل النار وغير ذلك...

كذا الخضِر المكرّم والوجيه الـ ـمكلّم إذ ألمّ به لماما
تكدّر صفو جمعهما مرارا فعجّل صاحب السرّ الصرامـا

(والوجيه الكلم) يعني موسىٰ، (تكدّر صفو الجمع) بأي شيء؟ باعتراض موسىٰ عليه السلام موسىٰ اعترض فبيَّن له الخضر أن ليس له هٰذا؛ أنه ليس من أدب المتعلم مع المعلم أن يعترض عليه بشيء لا علم له به، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾[الكهف:٧٣]، إلىٰ أن قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾[الكهف].

قال هنا

تكـدّر صـفو جمعهـما مـرارًا فعجّـل صاحـب السـرّ الصَّرامـا
ففـارقه الكليـم كليـم قلـب وقـد ثنّـىٰ علـىٰ الخضـر الملامـا
وماسبب الخلاف سوىٰ اختلاف الـ ـعلوم هنـاك بعضـا أو تمامـا

(الكلم) موس، (ما سبب الخلاف؟) اختلاف العلوم، هٰذا الطالب مثلا يستنكر علىٰ المعلم يقول: لا ليس كذا -وهو نظر لها من جه- سبب الاختلاف هو اختلاف العلم؛ هٰذا علمه واسع وهٰذا علمه ضيق، فصاحب العلم الضيق اعترض علىٰ صاحب العلم الواسع، فصار بينهما ما قد يسبّب الانقطاع من الاستفادة ولذلك قال:

وماسبب الخلاف سوياختلاف ال ـعلوم هنـاك بعضـا أو تمامـا
فـكان مـن اللَّـوازم أن يكـون الإلـه مـخالفًـا فـيها الأنامـا
فـلا تجهـل لهـا قـدْرا وخـذها شـكورًا للـذي يحـيىٰ الأنامـا[1]

يعني (هٰذه في مسائل القدر) إلىٰ آخر أبياته.

المقصود من ذلك أنّ صبر المتعلِّم علىٰ المعلم وعدم كثرة الاعتراض هٰذا يجعله يستمرّ ويستفيد؛ لأنّ طالب العلم وهو يسمع إذا عوّد ذهنه أن يعترض، أنْ يستشكل لن يتابع الكلام؛ يفهم أوّله وآخره وتسلسل المعلم.

فأنت تستمع مثلا لأحد المشايخ وهو يتكلم، فكلما أورد كلمة أتيت باعتراض، إذا أورد لفظ حديث قلت في ذهنك: لا هٰذا ليس لفظ الحديث. الحديث له ألفاظ وروايات أنت حفظت واحدة فيمكن المعلم عنده ثلاث أربع روايات فانشغلت بالاعتراض، إذا انشغلت بالاعتراض حُرمت، ولكن إذا انشغلت بالفائدة، فما كان من الفوائد فيها الصواب استفدت، وما كان فيه غير الصَّواب خطأ ذهب وحده، أو شيء صححته بينك وبين نفسك أو راجعته فيه، هكذا يكون العلم، أما الاعتراضات النّفسية هٰذه التي تطلب الكمال أو نفسية الناقد الذي كلّما سمع شيئا من معلمه نقد ولو في نفسه، يحضِّر في نفسه أسئلة واعتراضات والمعلم يتكلم، هٰذا لا يستفيد، وهٰذا سبب من أسباب الانقطاع في العلم.

٩- **من أسباب الانقطاع**: وهٰذا أيضا لاحظناه أن يكون المرء يطلب شيئا كبيرا، فعنده همة في أول الطلب، هٰذه الهمة تكسِر الجبال، ماذا تريد؟ أنا أريد أحفظ الكتب الستة، أو يقول مثلا: «الواسطية» هٰذه

[1] اللفظ المذكور في الكتاب هو (العظاما)

مختصرة، أنا أريد أحفظ «التدمرية». أو يقول: لا أريد أحفظ «بلوغ المرام» هٰذا خفيف أريد أحفظ «منتقىٰ الأخبار» فيه ستة آلاف حديث أو نحو ذلك، لا أريد أحفظ «زاد المستقنع» هٰذا مختصر أريد أحفظ مثلا الإجماع والخلاف الذي في «المغني»، هٰذه الأشياء التي ذكرتها مرّ عليها بعض الشباب ممن هم علىٰ هٰذه الشاكلة، صحيح أول الأمر عنده هٰذه الهمة العظيمة ويشكر عليها؛ لكن هٰذه الهمة لا تستمر، وما عُرف عن أحد إلا نوادر أن تستمر معهم هٰذه الهمة.

فإذن من وسائل الانقطاع عن الطلب أن تحمِّل نفسك في فترة الهمَّة والقوَّة ما لا تحتمله في تلك الفَترة، ولكل عمل شِرّة كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح قال: «**إنّ لكل عمل شِرّة، وإنّ لكل شرَّة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح، ومن كانت فترته إلىٰ معصية فقد خاب وخسر**» لكل عمل شرة حتىٰ الإقبال علىٰ العلم له شِرّة –عنفوان- كأنّه سيقرأ مائة مجلد وسيحفظ ويعمل؛ ولكن لهٰذه الشِّرّة فترة لابدّ (**إنّ لكل عمل شرة**) الشرة العنفوان والقوّة (**ولكل شرة فترة**) حتىٰ في العبادات يجد من نفسه نشاط وإقبال، تجده صاحب إقبال علىٰ العبادة وكثرة طاعات وإقبال علىٰ التلاوة، ويجد أحيانا من نفسه الكسل.

إذن الفترة هٰذه لابد منها، لكن المهم لا تكن فترة إلىٰ نكوص، فإذا كان فترة وكل واحد منا علىٰ أدنىٰ ما ينبغي فالحمد لله، (**لكل عمل شرة**) ما الذي ينبغي؟ أنه إذا أقبلت ووجدت من نفسك الشرة خذ بما يطاق، لا تأخذ بشيء لا تحتمله في الفترة، يعني مثلا إذا وجدت إقبالا احفظ القرآن، احفظ مثلا من متون الأحاديث «الأربعين النووية» في شرة في فترة قوة احفظه، مثلا «بلوغ المرام»، «عمدة الأحكام» بحسب ما يتيسر لك، وجدت عندك قوة احفظ «كتاب التوحيد»، احفظ مثلا «الواسطية» ونحو ذلك.

هٰذه إذا حصَّلتها في فترات الشرة في فترات القوة فأنت علىٰ خير عظيم، والواقع أنَّ الذين وجدوا من أنفسهم الشِّرة هٰذه والقوة والعنفوان ما استطاعوا أن يكملوا هٰذه الكتب إلا نوادر، حتىٰ هٰذه الكتب التي عند بعض الناس أنها مختصرة ما استطاعوا أن يكملوها، لهٰذا عليكم من العمل ما تطيقون.

١٠- **من أسباب الانقطاع**: أنّك تطلب شيئا بعيدًا، تطلب أشياء العلماء إلىٰ الآن ما حصلوها إلا نوادر في الأمة حصلت ذلك، فإذا وجدت هٰذا من نفسك فلتكن قوتك فيما تطيق وما ينفعك، وإذا تحركت رياحك فاغتنمها كما قال الشاعر:

إذا هبَّـــت رياحـــك فاغتنمهـــا   إنّ لكـــلّ عاصـــفة سُـــكون

الحديث: «**إنّ لكل عمل شِرّة، وإنّ لكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح** –هنا

عدة ألفاظ في آخره- **ومن كانت فترته إلىٰ معصية** –أو قال: **إلىٰ بدعة**. (لفظان)-**فقد خاب وخسر**».

١١- من أسباب الانقطاع عن العلم: أنّ المرء لا يطالع ولا يبحث، مثلا من بعض طلبة العلم يأخذ بالوصية المعروفة بالتدرج في العلم وأن يمشي شيئا فشيئا؛ لكن لا يبحث ولا يطالع يعني في غير موضوعه، مثلا نقول لطالب العلم أولا تمشي مع «الواسطية» وشروح «كتاب التوحيد» والفقه في «الزاد» وشروحه إلىٰ آخره في العلوم؛ لكن لا يكون عنده مطالعات، فيجد أنّ هٰذه المتون فيها شيء من الثقل ما فيها إفراح للنفس؛ تنويع للنفس، والنفس تحتاج إلىٰ تنويع وتقليب، فإذا لم يكن عنده مطالعات مثلا في التراجم، مطالعات في التاريخ، مطالعات في الأخبار، في اللُّغة، ما كان عنده بحث كان إذا مرّت عليه مسألة، يبحث هٰذه المسألة يجمع الأقوال فيها هٰذه آية ما كلام المفسرين فيها، إذا ما كان عنده مطالعة متنوعة ولا بحث فتجد أنه يخمد بعد فترة.

فإذن يحتاج طالب العلم مع التَّدرُّج إلىٰ أن يكون له إلمام كيف يبحث؟ يبحث ويكتب ويطلع معلمه أو يطلع المشايخ علىٰ ما كتب، حتىٰ ينمون عنده هٰذه الموهبة، ولقد قال النووي في مقدمات «المجموع» أو في غيرها أنه من أسباب ثبات العلم وتحقيقه أن يكتب المرء ما بحثه وما حقَّقه، يبحث وينظر ويكتب، لا يكتب للتَّصنيف مثل ما هو موجود الآن، صغار مثلا ما حقَّقوا العلم تجد أنهم ألفوا كتبا ونشروها، بعض الرسائل الصغيرة التي رأيتها رسالة من أولها إلىٰ آخرها فيها حوالي خمسة وعشرين صفحة مثلا وفيها أظن حوالي ثمانية عشر خطأ نَحويا؛ فيها ثمانية عشر خطأ في اللغة، وهي خمس وعشرين صفحة، هٰذا مثل ما قال ابن حزم في رسالته –عظيمة- «التلخيص في وجوه التخليص»: **كيف يكون مأمونا علىٰ العلم من لا يحسن اللغة**. كيف يؤمن علىٰ العلم؟ كيف نأمنه علىٰ فهم الكتاب والسنة؟ وعلىٰ أن ما نقله لنا من كلام أهل العلم قد فهمه جيدا؟ إذا كان ما أحسن كتابة عشرين صفحة بدون أخطاء، فكيف يكون مأمونًا علىٰ كلام العلماء الذين ينقل عنهم؟

إذن فانتبه إلىٰ هٰذه أنّ القصد من الكتابة التي أقول لك هو البحث ليس هو النشر، لا، بل تبحث مسألة تجعلها في نفسك، فكم من مسألة كتبنا فيها وهي مطمورة، إذا رأيتها عَجَب؛ لكن في فترة ما كتبناها في فترة أوائل الطلب الواحد فرح بها جدًّا، فرح أنه كتب وحقق، لكن لو تنظرها الآن خلاص.

وقد حصل لي في فترة من الفترات أن جمعتُ الأصول اللُّغوية لعلوم الحديث، وكان أحد الذين كتبوا في المصطلح يتمنىٰ أن تجمع الأصول اللُّغوية لعلوم الحديث، مثلا حديث الصحيح ما معنىٰ الصحيح في اللغة؟ ولماذا اختار أهل الحديث هٰذا الاسم؟ الحسن لماذا؟ المضطرب، المدبج،

المنقطع، المقطوع، المرسل، المدلس، الضعيف لماذا اختاروها؟

من فترات -مثل ما يقال- الشباب أن جمعت هٰذا من كتب اللغة في بحث استمرّ مدّة طويلة هٰذه الأقوال، فأخذتها وقرأتها علىٰ الشَّيخ الأستاذ أديب العربية محمود شاكر المعروف تعرفونه كان في الرياض مكث فترة، قرأت فيها عليه بعض كتب اللُّغة، وأنا فرحت بهٰذا الذي كتبت وهو دقيق ينظر فيه ويعني فيه عجب، فقلت: يا شيخ أنا عندي كتابات في اللغة لعلك نعطيك فترة... فلما قرأ ما قرأ -هي ليس فيها أخطاء- قلت: يا شيخ إيش رأيك؟ قال: -ماشي، أنا كنت أبغاه يمدح هٰذا عمل جيد، قال: هٰذا عبث شباب. هي كلمة قاسية لفرحٍ، لكنها نافعة؛ جعلت المرء ينتبه؛ لكنها كانت خطوة في البناء اللغوي مثلا في طلب العلم، نعم، لكن نشرها لم يكن مناسبًا مثل ما قال: هٰذا عبث شباب، عبث شباب هٰذا صحيح، شاب فرح وجمع إلىٰ أن حصَّل علىٰ الشيء وكتبه.

فالمقصود البحث يُنمِّي عندك القوة العلمية ويجعلك مواصلًا في الإطلاع علىٰ الكتب وفي النظر، لكن لا تنشر ولا تستعجل، خلّها عندك؛ لأنه جزء من بنائك العلمي.

فإذن كيف تمنع الانقطاع لمن كان متدرجا في طلب العلم برعاية المتون؟ يكون بهٰذا الأمر وهو أنك تبحث وتكتب وتُري المعلِّمين ما كتبت حتىٰ يصحّحوا لك المسار، تكون كتاباتك نقية ومتَّزنة، ولكن لا تستعجل بشيء فإنما هي لغرضين:

لاستمرارك في العلم وعدم الانقطاع.

ثم لتكوين الملكة العلميَّة المناسبة.

هٰذه كلمات اقتضاها عدم مجيء أكثر الإخوة في هٰذا الدَّرس، ولعلَّ أن يكون فيها بعض النُّصح، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

همة السلف في طلب العلم

لفصيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلماء مرفوعين منزلة، وسهّل لطالب العلم طريقا إلىٰ الجنة كلما سلك طريقا إلىٰ العلم، فله الحمد كثيرا كما أنعم كثيرا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن صلحت له الأقوال والأعمال، صلُح له قول اللسان وقول القلب، واستقام له عمل القلب وعمل الجوارح، كما أسأله سبحانه أن يقينا العثار في القول والعمل، وأن يجعلنا مباركين معلّمين للخير مفتّحين أسبابه أينما كنّا، إنه سبحانه جواد كريم.

وهذه المحاضرة تأتي افتتاحا لهذه الدروس العلمية الصيفية التاسعة في جامع شيخ الإسلام ابن تيمية في حي سلطانة بمدينة الرياض، وهذه الدورات ولا شك انتفع بها عدد كبير من طلاب العلم ومن محصليه ومن المقبلين عليه، فإنها سبيل نجاة وسبيل هداية، كما أنها سبيل لرفع الأمّة من الواقع الذي تعيش فيه؛ لأن رفع الأمة مما تعيش فيه تحتاج إلىٰ أسباب كثيرة تبذل وتيسّر السبل لها، ومن ذلك أن يكثر طلبة العلم لشدة الحاجة اليوم إلىٰ ورثة الأنبياء، فإن هذه الأمة لم يكن فيها نبيٌّ بعد رسول الله ﷺ؛ بل خُتمت الرسالات والنبوات بمحمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن بقي ورثة محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهُم أهل العلم وحملة العلم وطلبة العلم، فإنهم أهل الوِراثة الحقيقة.

وصحّ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» لهذا كانت الحاجة ماسة إلىٰ التربية العلمية لكي تقوىٰ الأمة ويبقىٰ فيها العلم النافع المستقىٰ من الكتاب والسنة علىٰ نهج سلف الأمة، هذا العلم النافع قوّة وفيه إرغام للأعداء كما قال ابن الوردي في «لاميته»:

في ازديـاد العلـم إرغـام العِـدَا وجمـال العلـم إصـلاح العمـل

في ازدياد العلم وبث العلم ونشر أسبابه من الدورات العملية والمحاضرات والدروس وما شابه ذلك فيه دعوة إلىٰ الخير علىٰ بصيرة؛ لأن الدعوة إنما تكون بالعلم، فإذا صح العلم صحت الدعوة وكانت علىٰ بصيرة، قال جل وعلا: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف]، والبصيرة هي العلم النافع؛ لأنّ البصيرة للقلب هي ما يبصر به القلب الصواب في المعلومات والمدركات.

والصواب في المعلومات والمُدركات يكون بالبصيرة بالعلم النافع، بالعلم المتلقىٰ من مصدر التلقي المأمون الصحيح، وهو كتاب الله جل وعلا القرآن العظيم وسنة محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما تفرّع عنهما من علوم مختلفة.

لهذا تجد يا طالب العلم أنّ الله جل وعلا رفع شأن العلم والعلماء في القرآن الكريم، ورفع شأنهم

النبيُّ ﷺ، يقول الله جل وعلا لنبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه]، ويقول الله جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ﴾[المجادلة:١١]، فأهل العلم والذين أوتوا العلم مرفوعون درجات بوعد الله جل وعلا الصَّادق لهم.

وكذلك بين جل وعلا في القرآن العظيم أن الأنبياء حملوا العلم فبلّغوه كما أمرهم الله جل وعلا بذلك، وكل رسول أُمر الناس أن يطاع وإنما أتىٰ الرسل بالعلم من الله جل وعلا فيما أوحي إليه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَـٰعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[النساء:٦٤].

والعلم النافع أثنىٰ عليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا**» وهذا العلم النافع مُثِّل بالماء في هذا الحديث، ومُثِّل الوحي في القرآن بأكثر من آية بالماء، والوحي علم، والعلم وحي من جهة أنه يؤخذ من الوحي.

فعظم شأن العلم ينظر إليه بالنظر إلىٰ عظم شأن النبوة وعظم شأن الرسالة، فازدياد العلم هو بقاءٌ لأنوار الرسالة.

ومن فوائد قصة موسىٰ عليه السلام مع السّحرة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: **إن السحر والسحرة يكثرون إذا قلَّت أنوار العلم والنبوة، ويضمحلون إذا ازدادت أنوار العلم والنبوة**. وهذا صحيح، ظاهر من قصة موسىٰ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الشعراء] فكل ما أفكوه فالعلم والسنة يلقفه ويبتلعه ويأخذه ويصيح به من كل جانب.

العلم لابد فيه لتحصيله من أمور:

[النية الصَّالحة في طلب العلم]

أولها النية الصالحة؛ لأن طلب العلم عبادة، ومدارسة العلم غشية كما قال السلف، فطلب العلم عبادة وكما جاء في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع لطالب العلم رضًىٰ بما يصنع**» العلم هو طلب عبادة فيحتاج إلىٰ عزيمة وصبر -كما سيأتي- ويحتاج أولا إلىٰ تصحيح النية.

وطالب العلم قد يأتي للعلم ويأتي لمدارسته ويحضر بدون نية؛ لكن إذا طلب العلم جاءت النية؛ لأنه حينئذ يحاسب نفسه.

قال ابن المبارك وغيره من أئمة السلف: طلبنا العلم وليس لنا فيه نية، فجاءت النية بعد. لأن النية الصالحة في العلم ربما غفل عنها طالب العلم إما لصغره أو لأنه لم يستحضر هذا الأمر؛ لكن أول ما يتعلم بالعلم حديث «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» والأعمال جمع عمل، وهو العمل الذي يراد به وجه الله جل وعلا، ومن ذلك العلم وطلب العلم، فكل طلب للعلم هو بالنية، فمن أراد به وجه الله جل وعلا فهو بحسب نيته، ومن أراد به الدنيا وأن يزداد منها، أو أن يلتفت الناس إليه، أو أن يشيروا إليه أو أن يكون مِطوَلًا يتحدث ويحسن الكلم فإنه حينئذ فاسد النية.

قال السلف الصالح من أئمة أهل الحديث: النية في العلم أن تنوي به وجه الله جل وعلا.

قال الإمام أحمد: النية في العلم أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك.

وبه تلحظ أن رفع الجهل متوجه إليك، فإذا طلبت العلم فاعلم أنك تتعلم لترفع الجهل عن نفسك، الجهل بأي شيء؟ الجهل بأعظم ثلاثة أمور يسأل عنها العبد في قبره ألا وهي الجهل بالله والجهل بالدين والجهل بالرسول ﷺ، فإن المرء يسأل في قبره؛ بل إن المسلم والمسلمة يسأل الجميع في قبره عن ثلاث من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ولما كان العلم النافع متوجها إلىٰ رفع الجهل –جهل المرء أو المرأة– بهذه الثلاث، فيتعلم ما يستحقه الله جل وعلا من الربوبية والعبادة وحده دونما سواه ومن الأسماء وصفاته ونعوت الجمال والجلال والكمال، ويتعلم دين الإسلام بالأدلة، ويتعلم حق النبي ﷺ واسمه وسيرته وما دلت عليه ودلائل نبوته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، يتعلم ذلك ليكون مسلما رافعا الجهل عن نفسه في هذه المسائل العظام.

وإذا كان آنس من نفسه رشدا وقوة في العلم وحفظا، فإنه يضيف إلىٰ هذه النية أن ينفع المسلمين، ينوي وهو يتعلم أن ينفع المسلمين، وأحب عباد الله إلىٰ الله أنفعهم لعباده، فإذا نوىٰ بعلمه أن ينفع العباد، أن ينفع عباد الله في المسجد وفي بيته وأن ينفعهم في الإجابة في أسئلتهم أو في إرشادهم أو في تعليم الجاهل، تعليم الصلاة، تعليم التوحيد، تعليم الصلاة، تعليم شروط الصلاة، هكذا، أينما كانت الحاجة ويوطن علىٰ ذلك فهو علىٰ نية صالحة.

[الصبر علىٰ طلب العلم]

يحتاج طالب العلم إلىٰ أمر ثاني بعد النية ألا وهو أن يعلم أن طريق العلم ليس بالقصير، طريق العلم طويل جدا بل هو مع الإنسان منذ أن يبدأ في العلم إلىٰ أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا بوفاته.

وإذا كان كذلك فإنّ توطين النفس علىٰ الصبر مطلوب.

والصبر هنا من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن العلم عبادة، وكل عبادة تحتاج إلىٰ صبر.

والأمر الثاني: الصبر علىٰ الثبات علىٰ سلوك طلب العلم، فإن طالب العلم يحتاج إلىٰ صبر كثير، هل هو صبر في حضور الدروس فقط؟ لا، صبر في ملازمة المشايخ؟ لا، هل هو صبر في استماع العلم؟ لا، ليس هذا فقط؛ بل صبر علىٰ أن لا يشغله عن العلم ما هو دونه، وهذا أعظم ما وُجد أنه يعيق العلم، وهو أنه خاصة في الشباب –وأكثركم من الشباب– خاصة في هذا السن فإنه قد يشغلك عن العلم الأصحاب أو النُّزه، أو يشغلك عن العلم أمور كثيرة مما تلذ لها النفس، تأخذ من هذه حظا لكن بحيث لا تشغلك عن العلم.

ولقد قال بعض العلماء وهو ابن عطاء الله قال: **من كانت بداياته مُحرقة كانت نهاياته مشرقة**. من كانت بداياته محرقة قوية كانت نهاياته مشرقة.

ونحوه قول ابن المبارك أيضا قال: إذا مررت بجدار فرأيت مكتوبا عليه موعظة، فقف عندها لتتعظ؛ ولكن الفقه في الدين إنما يكون بالمشافهة والسماع.

وهذا يبين لك أن الإنسان في المواعظ خاصة الشباب قد يجدها مع صحبه في أي مكان يكون فيه، مما يرقق قلبه أو مما يقوي همته في الاستقامة ونحو ذلك.

لكن العلم يحتاج إلىٰ المشافهة والسماع، فقد يكون في ذلك انقطاع عما تلذ له النفس، لذلك ينبغي الصبر. وكما قال ذاك من كان بداياته محرقة في العلم، إذا كانت في شبابك كانت البدايات قوية محرقة أحرقت شبابك وأحرقت قوتك، وصخَّرت ما أعطاك الله من الشباب والقوة وقوة الذهن والنشاط، صخرته للعلم، كانت النهايات مشرقة؛ أشرقت عليك فقها وعلما واستقامة بإذن الله، وأشرقت علىٰ غيرك أيضا.

وأما من كانت في البدايات ضعيفا فإنه سيظل ضعيفا دون استفادة.

لهذا ينبغي أن توطّن نفسك علىٰ أن طريق العلم يحتاج إلىٰ صبر.

وخذ مثلا لذلك قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر كيف أنه لم يصبر فلم يستفد من الخضر إلا ثلاث مسائل فقط؛ لأنه لم يصبر وقد قال النبي ﷺ كما في الصحيح «**وددنا لو أن موسىٰ صبر**» يعني فتعلمنا وأخذنا وعلمنا ما عند عبد الله الخضر.

الصبر في العلم يحتاج منك إلىٰ قوة؛ قوة نفسية صارمة في أن تحفظ وأن تفهم وأن تستمع، وأن يكون العلم هو الشغل الشاغل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ربما أتتني المسألة في العلم وأنا مع أهلي -يعني في حالة أن يكون مع أهله-، وربما انقدح لي في العلم تحريرا أو كما قال وأنا مع أهلي، وهذا من باب أولىٰ أنه إذا كان مع غيرهم في حالٍ يكون فيه الأنس أقل أن يكون تعلقه بالعلم أكبر وأعظم.

ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الحافظ العلامة زين الدين عبد الرَّحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفىٰ سنة ٧٩٥هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان في العلم ليلَه ونهاره، ولذلك صنَّف هذه التصانيف الشائقة البديعة التي يحتاج إليها، أكثرها ليس فيه تكرير، ليس تكرار لمؤلفات من قبله.

ابن رجب كانت همته في العلم عالية جدًّا، حتىٰ إنه قرأ ما قرأ من العلم في شبابه علىٰ مشايخه وتأخّر زواجه، فلما تزوّج أتته امرأته متعطّرة ومتطيبة، ووقفت علىٰ رأسه وهو منكب علىٰ أوراقه وكتبه، فرفع رأسه إليها وقال: نظرت إليه وفإذا هي كذا وكذا وصفها من جهة استعدادها له وتزينها وتطيبها وتجملها، قال: ثم أطرقت برأسي علىٰ أوراقي وأكملت فغضبت امرأتي وذهبت؛ لأنه لم يلتفت إليها كثيرا الواجب أن يعطىٰ كل ذي حق حقه وإن لأهلك عليك حقا؛ ولكن أحيانا تزيد الهمة ويزيد الرغب فيصبر المرء في علمه عما هو بحاجة إليه، فيختار ما يقوىٰ به تعلق النفس وهو العلم والكتابة والبحث والتحرير.

بعض أهل العلم كان إذا نام لا ينام إلا بجانبه بعض الكتب والمراجع الأساسية لماذا؟ لأنه قد يحتاج، يفكر في مسألة تكون بجانبه.

[التدرّج في طلب العلم]

المسألة الثالثة أو الصفة الثالثة من صفات طالب العلم أو مما يحتاجه طالب العلم: أن يتعلم في

علمه أن الأمور لا تأتي شيئا واحدا، لا تأتي مرة واحدة، وإنما تأتي شيئا فشيئا فالعلم، لا يأتي جميعا، ومن أراد العلم جملة -كما قال ابن شهاب الزهري ذهب عنه جملة-، وإنما يطلب العلم علىٰ مر الأيام والليالي.

[الهمَّة العالية في طلب العلم]

السمة الرابعة وهي المقصودة بهذه المحاضرة أن تكون الهمة عالية.

والهمة وصف نفسي، وصف للنفس تُشغل صاحبها إلىٰ المعالي، من الناس من تضعف همته فيرىٰ العلم لا قيمة له، وكثير من الناس والشباب يعني أيش فائدة العلم؟

وكان بعض العلماء يحفظ «القاموس المحيط» الفيروز آبادي، القاموس ما معناه البحر، ولا يصلح أن يسمىٰ المعجم قاموسا؛ لأن المعجم الكتاب الذي يُفك فيه الإعجام؛ يعني ما جهلته وما استعجم عليك، أما القاموس فمعناه البحر إذا كان معجم يسمىٰ قاموسا فهو غلط، فهو ظن أن القاموس بمعنىٰ المعجم لكن القاموس بمعنىٰ البحر، فيروز آبادي سمّىٰ كتابه «القاموس المحيط والقابوس الوسيط لما تفرق من كلام العرب كما قيل» يعني منتشرا جمع فيه لغة العرب، كان بعض العلماء يحفظ القاموس، فسئل عنه بعض العلماء الآخرين لكنه كان عصرانيا يعني يحب العلوم العصرية، وإن كان من العلماء ويميل إليها، فقيل إن فلانا يحفظ القاموس فقال: ما شاء الله زادت في مصر نسخة من القاموس.

وهذا فيه توهين بشأن الحفظ، والحفظ هو أساس العلم، الحفظ هو أساس العلم الموروث عن النبي ﷺ، الله جل وعلا قال لنبيه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

الأول: الحفظ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الفرقان]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[الإسراء:١٠٦].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يعني يأتي البيان والفهم والإيضاح بعد الحفظ.

كذلك السنة، السنة النبي ﷺ أوصىٰ بحفظها فقال: «**نضر الله امرءًا**» وفي رواية «**نضر الله وجه امرئ**» نضر يعني جعل الله وجهه ناظرا نضرا في الدنيا والآخرة «**نضر الله امرئ سمع مقالتي فحفظها** -وفي رواية: **فوعاها**- **فأداها كما سمعها فرُب مبلغ أوعىٰ من سامع**» الصحابة ألم يحفظوا السنة؟ حفظوها، كانوا فقهاء؟ ليس كل الصحابة فقهاء؛ لكن حفظوا السنة فبلغوها، فأتىٰ من فهم السنة ووعاها وشرحها حفظا للدين في هذه الأمة.

أبو هريرة رضي الله عنه كان يراجع الحديث ليحفظه، فعلم النبي ﷺ مشقته في ذلك فقاله له «**يا أبا هر ابسط رداءك**» فبسطه، قال: «**ضم رداءك**» فضمه، قال: فما نسيت بعدها من العلم إذا سمعته شيئا.

أكثر من حفظ السنة من الصحابة أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان يصحب النبي ﷺ علىٰ ملء بطنه.

هذه الهمة، الشغف الذي في داخل الإنسان أساسه الحفظ؛ يعني يحرص علىٰ أن يحفظ؛ لأن الفهم عرض يطرأ ويزول، اِلْحَظ من تخرج منكم مثلا من الثانوي، من تخرج من السنة الأولىٰ من الجامعة، من تخرج من الجامعة كم بقي معه من المعلومات التي فهمها؟ القليل؛ لكن إذا حفظ تبقىٰ

المحفوظات، وإذا ذهبت إذا راجعها رجعت، ثم إذا راجع شرحها أتىٰ متىٰ أراد ذلك بتوفيق الله.

لهذا يحرص طالب العلم علىٰ أن تكون همته قوية كما كانت همة السلف في الحفظ.

الهمة الثانية المحتاج إليها: الهمة في ملازمة المشايخ والرحلة وطلب العلم، نرىٰ الآن في هذه الدورة ولله الحمد ممن رحلوا لطلب العلم، منهم من أتىٰ من الكويت ومن الإمارات ومن عمان ومن البحرين ومن غيرها، ومن بلاد المملكة أيضا جاءوا من عدد من البلاد، هذه الرحلة في طلب العلم هي نوع من الهمة التي كان السلف يحرصون عليها.

خذ مثلا ما علقه البخاري في «صحيحه» ووصله في كتابه في كتابه «الأدب المفرد»، وهو قوله: ورحل جابر بن عبد الله -وكان في المدينة- إلىٰ عبد الله بن أنيس -الصحابي وكان في الشام- من أجل حديث واحد.

وصله في «الأدب المفرد» في أن جابر بن عبد الله -الصحابي رضي الله عنهما يعني عنه وعن أبيه- رحل إلىٰ عبد الله بن أنيس قال: سمعت أن عبد الله بن أنيس لديه حديث لم أسمعه. فرحل من المدينة إلىٰ الشام شهرا، فلما دخل إلىٰ الشام سأل عن بيت عبد الله بن أنيس فدُل عليه، فلما طرق الباب خرج له الخادم فقال له: أين عبد الله بن أنيس. فقال من أنت؟ لا يعرفه ليس من أهل دمشق. فقال: أنا جابر بن عبد الله. الخادم قال: صاحب رسول الله ﷺ؟! قال: نعم. فذهب فأتاه عبد الله أنيس، فعانقه، ثم قال: أتيت إليك من المدينة سمعت أن عندك حديثا عن النبي ﷺ أردت أن أسمعه منك. قال وأي حديث ذاك. فقال: قوله -يعني النبي ﷺ-: «**يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا بهما**» فقال: نعم فقص عليه الحديث.

هذه الهمّة تأثر بها صغار الصحابة، عبد الله بن عباس كان هو وله صديق من الأنصار، عبد الله بن عباس شباب في وقت عمر بن الخطاب كان في أوائل العشرينات من العمر، كان له صاحب من الأنصار فكان عبد الله بن العباس يغشىٰ مجالس من الصحابة ويحرص علىٰ أن يستفيد منهم، فعاتبه صاحبه من الأنصار وقال: يا عبد الله أتظن أن الناس يحتاجون إلىٰ علمك أو يحتاجون إليك، وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ موجودون؟ فابن العباس لم تثنه هذه الكلمة عن الهمة وملازمة الكبار لأن الناس فعلا احتاجوا إليه بعد أن قل الصحابة، فكان يلازم باب أحد الصحابة -باب أحد الأنصار- حتىٰ تسفي عليه الريح التراب وهو عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ويصبر حتىٰ يخرج إليه أو يخرج الصحابي ويصحبه إلىٰ المسجد، يصحبه إلىٰ مكان فيسأله عن العلم.

وهمة السلف في ذلك فيها أخبار كبيرة، ومن طالع كتب السير والتراجم وجد من ذلك شيئا كثيرا.

ونذكر بعض الأخبار في هذا لتُبين شدة همة السلف في هذا الأمر.

قال الشعبي رحمه الله تعالىٰ عامر بن شراحيل الشعبي أحد أئمة التابعين، وهو يذكر بعض علومه يقول: لو شئتم أنشدتكم شهرا شعرا -يعني شهر كامل، لو شئتم أنشدكم شهرا شعرا- لا أعيد. يعني ما أكرر عليكم؛ لكن ما يناسب العالم تكون همته دائما الشعر، وإنما الشعر يستفاد منه بحسب الحاجة إليه.

أبو حاتم الرازي والد عبد الرَّحمٰن كتاب الجرح والتعديل -أبو حاتم الرازي محمد بن إدريس

الرازي- كان أحد أئمة الإسلام الجهابذة المعروفين وصاحب سنة وحجة، قص عن نفسه خبر طلبه للعلم وهو صغير قال: تركت الرّي لطلب العلم سنة ٢١٣هـ ورجعت إلىٰ الري ٢٢١هـ يعني كم مكث؟ مكث سبع سنين وأشهر، ذهبت أو خرجت من الري في طلب الحديث وذكر قصته، كيف أنه يخرج من بلد إلىٰ بلد ماشيا علىٰ الأقدام.

قال وهذا هو المهم لكم الآن: وقد أحصيت ما مشيت علىٰ قدمي في طلب العلم حتىٰ بلغت ألف فرسخ، فلما بغت ألف فرسخ تركت الإحصاء، ألف فرسخ أحصاها هو، ويخبر عن نفس في كتابه ألف فرسخ يعني يرويها عنه ابنه، ألف فرسخ كم؟ الفرسخ خمس كيلوات، ألف فرسخ في خمسة: خمسة آلاف كليمومتر مشاها علىٰ قدميه في طلب العلم، الآن سيارات ولا طلب علم، فيه طيارات والعلم ضعيف ما يُحرص، يأتي العالم ويجتهد، وربما يزور البلد قليل من يحرص علىٰ الأخذ عنه والسماع منه وحضور درسه.

والسلف وأئمة الإسلام كيف كانوا أئمة؟ بتوفيق الله جل وعلا لهم أولا وآخرا، ثم أعطاهم الله جل وعلا أسبابا فيها القوة وفيها الهمة.

وذكر عن نفسه أشياء من رحلته من بلد إلىٰ بلد لتحصيل ربما حديث واحد حتىٰ جمع العلم.

الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ رحل رحلات كثيرة، وكان منها للحج خمس مرات، وكان ثلاث منها من الخمس لقصد لقاء أهل العلم في الحج، قال: أنفقت في رحلة -ما عنده مال المال قليل- أنفقت في رحلة ثلاثين درهما، الدرهم محدود ثلاثين درهم يعني ثلاثة دنانير؛ لأن الدينار من عشر إلىٰ اثنا عشر درهم؛ يعني الدرهم فضة والدينا ذهب، قال: أنفقت مرة ثلاثين درهما يعني من كثرتها وهذا يدلك علىٰ شدة الصبر في المأكل وفيما يركب وربما ماشيا إلىٰ آخره.

الإمام أحمد لما انتهىٰ أمره إلىٰ القوة والوقوف بالسنة ونصرة السنة، لما جاءت فتنة خلق القرآن مُنع من التحديث قال له ولي الأمر: لا تحدث فالتزم، وصار يذهب إلىٰ المسجد ويرجع، ولا يلقي العلم.

قال بقيّ بن مخلد صاحب أكبر مسند من مسانيد الحديث لا يوجد، أكبر مسند من مسانيد الحديث مسند، مسند بقي بن مخلد، بقي بن مخلد أحد علماء الأندلس، رحل من الأندلس إلىٰ بغداد وذهب يسأل ما يدري عن فتنة خلق القرآن، ولا منع الإمام أحمد ابن حنبل، أين أحمد ابن حنبل؟ أين أبو عبد الله؟ أخبروه بأنه لا يحدّث.

قال فطرقت عليه الباب في بيته وطلبته فأتاني وقلت له: أنا طالب علم أتيت من المغرب. قال له الإمام أحمد: من أفريقية؟ قال: لا أبعد إذا أردنا أفريقية قطعنا لها البحر، أنا من الأندلس. قال: مرحبا بك. قال: ما تريد؟ قال: والله ما أتيت إلا لآخذ العلم عنك. فقال له الإمام أحمد: لعلك سمعت ما عليّ من أني لا أحدّث. قال: ولكني أريد الحديث وحدي أو أعطني من العلم. فقال له الإمام أحمد: بشرط. قال: اشترط ما بدا لك. قال: أن لا تجلس في حلقة من حلقات العلم والحديث.

حتىٰ لا يُعرف أنه يجلس في حلق العلم، ويأتي الإمام أحمد معناه الإمام أحمد أصبح يعلم في بيته.

فقال: لك ما اشترطت. قال: إذن ايتني كل يوم علىٰ هيئة سائل. -وطالب العلم سائل يسأل العلم-، ثم اطرق الباب، فإذا خرجت أعطيتك خبزا ومع الخبز حديثا أو أحاديث، فأخذ سنين يأتيه.

قال: فتلفعت بعمامة وصفها ولبست لباس السؤّال الفقراء، قال: كل يوم آتي وأطرق الباب علىٰ هيئة سائل وأقول لهم: الأجر رعاكم الله. قال بقي: وكانت صفة السؤّال في بغداد: الأجر رعاكم الله؛ يعني ابتغوا الأجر أو أطلبوا الأجر أو نحو ذلك.

يقول: فيأتي الإمام أحمد ويعطيني بعض الخبز ومعه حديث أو أحاديث.

قال: فأخذت كثيرا. قال: فلما مات الخليفة وجاء الذي بعده وكان صاحب سنة -يعني به المتوكل- صار الإمام أحمد يدرس في المسجد، قال: فكان يدنني ويخصني من بين الطلاب ويقول: هذا يصدق عليه أنه طالب علم، كيف يصبر هذه السنين الطويلة في هيئة سائل، وكل يوم يأتي، فيها هضم للنفس، يأتي بهذه الصفة لأجل أن يأخذ من الإمام أحمد علم حديث أو حديثين كل يوم، قال: هذا يصدق عليه أنه طالب علم.

هذه همة ليست بالسهلة وازدراء للنفس ليس بالسهل، ورحلة من الأندلس إلىٰ بغداد لأجل هذا الأمر، ليس بالسهل، وكلها تعطيك عظم هذه الهمة.

يقول: حتىٰ مرضت ففقدني أبو عبد الله، فسأل عني، فقالوا: إنه مريض فزارني في الخان، كان يسكن في الخان؛ يعني فندق، وأنا كنت مستقليا سمعت جلبة ثم دخل عليّ الداخل من أهل الخان أنت تعرف أبا عبد الله؟ أنت من أصحاب عبد الله؟ فقلت: نعم. فقال: لِم لَمَ تخبرنا من أول ما نزلت؟ أتىٰ أبو عبد الله أحمد أتىٰ لزيارتك، ففتح الباب، فدخل أحمد فقال له: فقدناك فزرناك، زادك الله ثوابا، أو قال: أرج الثواب من الله، يا بقيّ إن أيام الصحة لا سقم فيها، وإن أيام السقم لا صحة فيها، أعلاك الله إلىٰ العافية، ومسح عنك بيمينه الشافية. قال: والطلاب حوله يكتبون ما يقول. أعلاك الله إلىٰ العافية ومسح عنك بيمينه الشافية.

الوقفة هنا في القصة أخذتم عبرتها؛ لكن خذ كلمة الإمام أحمد: إن أيام الصحة لا سقم فيها، وإن أيام السقم لا صحة فيها.

يريد بذلك أنّ طالب العلم همّته تكون في أيام الصحة، فلما كانت أيام الصحة التي لا سقم فيها فعندك المجال والهمة قوية لطلب العلم؛ لأنه ربما أن يعرض لك عارض، وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ: «**وخذ من صحتك لمرضك**».

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أحد العلماء الإسلام المعروفين وصفه الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» بقوله: عبد الرَّحمٰن بن علي البكري -لأنه من ذرية أبي بكر الصديق- المعروف بابن الجوزي عالم العراق وواعظ الآفاق. وأخذ في سرد جملة من أخباره.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في صغره وفي كبره عنده الهمة والإلحاح في طلب العلم آخذا قول الإمام أحمد: أطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. ماذا يقول؟ يقول: كنت إذا أراد أن يزورني أحد اشتغلت أثناء

زيارته بتجهيز الأوراق للكتابة وبري الأقلام؛ يعني ما يضيع وقته معهم، يستأنس معهم بالكلام؛ لكن من جهة اليد والعمل يشتغل بما ينفعه لأن الوقت هذا ماشي والذهن معهم بالكلام؛ لكن العمل اليد يبري الأقلام ويجهز الأوراق.

وكان يقول عنه أحد تلامذته: إذا دخل الخلاء أوصىٰ ابنته أو نحو من ذلك: أن تقرأ عليه من الخارج؛ يعني تقرأ عليه إما كتاب كذا مما يناسب أن يسمعه.

من همته وصفاء نيته أنه ألف أكثر من خمسمائة كتاب بعضها في رسالة وبعضها كبير في مجلدات كبيرة.

الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ صاحب «فتح الباري» شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري صاحب التصانيف البديعة المعروفة، ماذا يقول عن نفسه؟ ذكر الكتب التي قرأها علىٰ مشايخه، فذكر أنه قرأ الموطأ علىٰ أحد مشايخه في جلسة واحدة، جلسة واحدة كم؟ خمس ست ساعات، وقرأ «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام علىٰ مشايخه وأجيز بذلك، وقرأ... وأخذ يذكر ما قرأه في أيام من الكتب علىٰ مشايخه وهو مدون في ترجمته في كتاب السخاوي «الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر».

هذه الهمة تحتاج منك إلىٰ تأمل، تحتاج إلىٰ سعة وقوة في أن تتعرف لماذا نبغ السلف؟ لماذا كثر فيهم العلماء؟ كان يحضر في المجلس الواحد ليستمع للحديث أكثر من عشرة آلاف، حتىٰ إنه ذُكر في بغداد مرة، أنه لما عطس الشيخ الذي يعلِّم أو الشيخ الذي يُقرئ، صار الناس يقولون: رحمك الله رحمك الله حتىٰ وصلت كلمة رحمك الله وهو في حديقة قصره قال: ما هذا؟ قال: يشمتون المحدث فلان؛ لأن الناس متواصلين ويستمعون الحديث وينقل بعضهم إلىٰ بعض.

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال -كما رواه البخاري في «صحيحه»: كان لي جار من الأنصار وكنا نسكن في بني أمية بن زيد حي في العوالي المدينة، كانت الأحياء بأسماء القبائل أو بأسماء الناس، قال: كنا نتناوب علىٰ النزول إلىٰ المدين أنزل يوما وينزل هو اليوم الذي يليه، فأخبره ما نزل من الوحي أو ما جاء من العلم، وإذا لم أنزل جاء فأخبرني.

إذا ما حصلت علىٰ العلم جميعا لا بأس أنك تجتهد مع أصحابك في أن يتناقل بعضكم العلم، كلموه بالتلفون يجلس ساعة أحوالك ورد اجعلها في العلم، اجعلها فيما ينفعك، ماذا سمعت، ماذا استفدت، حضرت اليوم عند من؟ ما هي الفوائد؟ وإذا حضرت عند معلم اكتب الفوائد، ومن زكاة هذه الفوائد أنك جلست مع أصحابك، والله حضرت عند فلان من العلماء أو من طلبة العلم أو المشايخ فاستفدت ذكر كذا وكذا فائدة إما فائدة في العقيدة أو في الفقه أو التفسير إلىٰ آخره أو العلوم المساعدة وهكذا.

إذن نحتاج إلىٰ عزيمة صادقة وأن نطالع كيف طلب السلف العلم، أئمة الحديث وصلوا إلىٰ هذا المستوىٰ بالنوم؟ وصلوا به بالارتخاء؟ وصلوا إليه بالاشتغال يمنة ويسرة؟ لا، لكن تعبوا وأصلحوا النية فآتاهم الله جل وعلا ثواب ما عملوا.

لهذا أوصي الجميع والوقت يضيق عن بسط الأمثلة، أوصي بأن تحرصوا علىٰ مجالسة العلماء الأحياء والأموات، جالسوا العلماء الأحياء والأموات، أما الأحياء فاستفيدوا منهم لفظا وسماعا، وأما الأموات فاقرؤوا كتبهم.

دخل جماعة إلىٰ عبد الله بن المبارك، والذهبي له رسالة في أخبار ابن المبارك اسمها «قضِّ نهارك مع ابن المبارك»، دخل عليه جماعة فخرج عليهم فكأنه لم يستأنس لهم، فقال له بعضهم كأن عندك من يؤنسك، كأنه يشير أنك جالس مع أهلك أو جالس مع عيالك، قال: إي والله عندي من هو أفضل منكم أنا مع سير صحابة رسول الله ﷺ ومع سير تابعيهم. يعني في العلم فإذا أنست بالعلم وأنست بأهله بعثت فيكم الهمة القوية.

ولهذا وصيتي لنفسي أولا ولكم أن تكثروا من مجالسة العلماء الأحياء والأموات، أما الأموات، فإنك ستحيي عند الهمة في أن تكون مثلهم، والسلف نبغوا وصاروا أئمة ونفعوا المسلمين، وبقي نفعهم إلىٰ الآن إلىٰ قيام الساعة، لم؟ صدق اللجأ إلىٰ الله جل وعلا وإصلاح النية وأن العلم طلبوه علىٰ أصوله فنفعوا.

سابقا قبل ٢٠ سنة و٣٠ سنة زملاؤنا وأصحابنا ورفقاؤنا كنا طلاب علم يعني كنا لا نفهم شيئا في وقت من الأوقات، عندي دفاتر أسجل فيها الفوائد قبل مدة أفتش في بعضها التي كتبتها أول ما جلست في حلق العلم أو استمعت إلىٰ العلم أو قرأت، فإذا فيها أشياء لا تساوي اليوم أن تكون فائدة؛ لكنها في أول الأمر كانت فائدة مهمة: إما في العقيدة أو في السنة أو في المصطلح أو في الفقه.

فالعلم يزداد بالهمة، ففي ذاك الزمان فوائد وحريصين، العلماء يتخرمون ويذهبون فيبقىٰ من يبقىٰ للأمة يبقىٰ للمسلمين من يحمل هذه الأمانة من يحمل الكتاب والسنة؟ من يحمل الفقه؟ من يحفظ للنبي ﷺ علمه في أمته؟ أنتم.

إذا ما حفظه أهل العلم وجدوا في ذلك من يحفظه؟ لاشك أنه سيذهب، ولذلك نخشىٰ من وقت يأتي فيه قول النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعا من صدور العلماء لكن بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا**» كيف قبض العلماء؟ يعني موتهم، ينقطع العلماء؛ إذن ينقطع طلبة العلم، فيتخذ الناس رؤوسا جهالا فيسألون فيفتون بغير العلم فيَضلون ويُضلون.

فهذه المسألة صعبة، صعبة جدا فكل واحد منكم يأنس من نفسه رشدا وقوة فأفضل شيء في سبيل الله اليوم هو العلم، أعظم أنواع العلم أعظم أنواع الجهاد الذي تحتاجه الأمة الجهاد العلمي، أن تتعلم وتحفظ وتفهم وتقوىٰ في هذا الجانب، إذا كان عندك قوة وملكة في هذا حتىٰ تنفع الأمة، الأمة بحاجة اليوم إلىٰ من؟ إلىٰ العلماء الربانيين الذي يقودون الأمة إلىٰ الخير ويشرحون سنة رسوله ﷺ.

في ختام هذه الكلمة أوصيكم بالاستفادة من هذه الدورة ومن جمع الدورات، وبالاستماع إلىٰ كلام أهل العلم سواء بالمشافهة والمجالسة وبثني الركب أو بالاستماع إلىٰ الأشرطة وما خلفوه من العلم فإنكم لا تدرون متىٰ سيحتاج الناس إليكم، لا تدرون متىٰ سيحتاج إليكم منكم من عمره خمسة عشر

عشرين بعد خمسين سنة الكثير والأكثر من طلبة العلم اليوم والعلماء سيذهلون ويبقىٰ الصغار بعد ثلاثين أربعين سنة سينفعون، لا تدرون، فاحفظوا علم النبي ﷺ في أمته، احفظوا فقه الإسلام في هذه الأمة.

ولا يكون علىٰ أيديكم ذهاب حمل العلم بل احرصوا وجدوا في ذلك نية صالحة وجهاد في سبيل الله.

ولذلك قال: جمع من أهل العلم أفض النوافل علىٰ الإطلاق طلب العلم، قالوا: الجهاد؟ قالوا: لا، طلب العلم أفضل من الجهاد. يعني جهاد النفل، لماذا؟ قال: لأن طالب العلم يتتفع منه الناس، نفْعه متعد، ينفع في حاضره وفي مستقبله، فطلب العلم نفعه متعد، ولذلك فضله كثير من أهل العلم علىٰ الجهاد.

وهذه المسألة تبحث في أول كتاب الجهاد من كتب الفقه ويقولون إن أفضل النوافل الجهاد والأكثر أفضل النوافل طلب العلم لمن كان عنده القدرة علىٰ ذلك.

أسأل الله الكريم أن يوفقكم إلىٰ ما فيه انشراح الصدر في سبيل العلم والتعلم، وأن يوقيّ منكم العقل منكم العقل والقلب والفهم وأن يصحح منكم النية وأن يجعلني وإياكم ممن استقام لسانه واستقام فعله واستقام قلبه علىٰ ما يحب ويرضىٰ.

كما اسأله سبحانه أن يجزي عنا مشايخنا ومن علَّمنا خيرا، وأن يجعلنا ممن حمل الرسالة وأدّىٰ العلم إلىٰ من بعدنا، كما أداه من قبلنا إلينا، إنه سبحانه جواد كريم.

اللّٰهمَّ وفق ولاة أمورنا لما تحب وترضىٰ، واجعلنا جميعا من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، نسألك اللّٰهمَّ رضاك، نسألك اللّٰهمَّ رضاك، نسألك اللّٰهمَّ رضاك.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ بينا محمد.

[الأسئلة]

المقدم: أحسن الله إليكم ورفع درجاتكم ونفعنا بعلمكم.

سؤال (١): فضيلة الشيخ: أنا لي رغبة في طلب العلم وإفادة غيري؛ ولكن مشكلتي أني إذا سمعت العلم أنساه ولا يبقىٰ في ذاكرتي منه شيء، وبماذا تنصحونني؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: الحمد لله وبعد:

الناس يتفاوتون في طلب العلم، ليس كل من طلب العلم صار حافظا لكل ما يسمع؛ لكن سيحفظ شيئا، والعلم يؤخذ شيئا فشيئا، فإذا كرر حفظ، وأنا أوصيه بأن يجتهد في حفظ القرآن؛ لأن الحفظ غريزة، وبالحفظ وتكرار الحفظ تزداد وتقوىٰ، ومن جرب وجد أن حفظ القرآن به يبدأ الطريق في انفتاح الحافظة، السائل إذا كان أنه لم يحفظ القرآن، فليجتهد في حفظ القرآن.

لذلك كان جمع من أهل العلم يعني في الزمن القديم لما كان طالب العلم يأتي للمسجد ويلازم المشايخ في كل اليوم، إذا أتىٰ يريد العلم وهو لم يحفظ القرآن قالوا: لا، احفظ القرآن أولا ثم إيتِ؛ لأن حفظ القرآن يفتق الحافظة.

لهذا من حفظ، جرب حفظ القرآن يجد مثلا أن أول عشرة أجزاء تجد يجلس في الثمن ساعة يحفظ فيه يحفظه، ثم يحتاج إلىٰ تكرار؛ لكن بعد ذلك في العشرين جزء الثانية يسهل يسهل حتىٰ ربما حفظ ثلاثة أثمان أربع نصف جزء في جلسة بين المغرب والعشاء أو بعد الفجر، وهذا واقع.

فإن الحافظة مع ممارستها واستعمالها تزيد، لذلك أوصيه بحفظ القرآن والاجتهاد في العلم فإن العلم يزداد بإذن اله تعالىٰ، والحفظ يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

سؤال (٢): كيف يكون الحال من به شوق في مجالسة العلماء؛ ولكن هو بعيد عن العلماء كما هو حالنا في أوربا؟

الجواب: الحمد لله اليوم وسائل سماع أهل العلم أصبحت ميسورة، الأشرطة موجودة، واليوم نقل علىٰ الانترنت، ووسائل السمعية والبصرية موجودة، فتحصيل العلم بسماع العلماء الحاضر منهم ومن توفاهم الله جل وعلا -رحمهم الله تعالىٰ جميعا ورفع درجاتهم في جناته- سهلة ميسورة، فإذا لم تكن بالقرب من أهل العلم لتشافههم فاحرص علىٰ أشرطتهم وعلىٰ سماع دروسهم وشروحهم.

سؤال (٣): بعض الشباب يعتمد علىٰ الأشرطة في تحصيلهم للعلم، حيث إن البعض منهم يتساهل في ملازمة الحلقات، بحجة أنه يوجد هذا الدرس مسجلا لشيخ من المشايخ، فما توجيهكم؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: المشافهة بحضور الدروس لها فوائد أخرىٰ غير فوائد سماع العلم، لاشك أن سماع العلم الأشرطة غاية الفائدة، وكثير النفع؛ لأنك تسمع من كلام أهل العلم الراسخين فيه في ذلك، لكن هناك أمور الأخرىٰ لا تحصل بسماع الشريط:

منها الجلوس مع طلبة العلم في الحلقة وفي المسجد؛ لأن هذا يحصل لطالب العلم به أمور نفسية

وعبادية كثيرة مهمة.

العلماء كانوا أول ما يروّون لطالب العلم أول ما يُرَوُّون لطالب العلم من الأحاديث حديث المسلسل بالأولية وهو حديث «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» الراحمون يرحمهم الرحمن، هذا الحديث أول ما يُسمعه الشيخ لطالبه إذا أراد أن يطلب العلم السابق هذا الحديث، ليبين أن مأخذ هذا العلم علىٰ الرحمة بالخلق، فإذا صار منعزلا يدرس في بيته ربما حصل له نوع استعلاء، ونوع عجب في نفسه، أو بعد عن مخالطة الناس، وكما تعلمون المخالطة والمصاحبة في الخير وملازمة الناس في اجتماعاتهم وعدم البعد عنهم هذا مقاصده شرعية كثيرة.

أيضا الاستفادة من هدي المعلم في لفظه ولحظه وتربيته وتأنيبه ومشيته وكيف يعالج الأمور وكيف تعرض له وكيف يجيب وكيف يتعامل مع من يغلظ عليه، مع من يسيء الأدب عليه، علىٰ من يزيد في إكرامه، هذه كلها آداب تستفاد من هدي العلماء بملازمتهم.

الثالث أيضا هناك أمور من العبادة والخشية، والعلماء إذا نظرت إليهم في هديهم وعباتهم وفكرهم وحرصهم علىٰ الخير تأثرت في أعظم مما تحتاج إليه وهو الاستقامة ولزوم عبادة الرب جل وعلا.

أما في السماع تستمع العلم لكن أمور النظر في هديه وفي صلاته ومبادرته للمسجد وحرصه علىٰ ختم القرآن وحفظه علىٰ قيامه في الليل هذه ما تستفيدها من الأشرطة إنما تستفيدها من الملازمة والسماع، كيف يعبّر، كيف يتأثر إذا عرض عليه شيء هذه إنما تعرض مع أو تأتي مع الحضور.

لهذا كان ابن الجوزي يقول: شيخنا فلان حضرنا عنده واستفدنا من بكائه أكثر مما استفدنا من علمه؛ يعني استفاد من علمه لكن استفاده من بكائه وورعه وخشيته أكثر.

فتؤثر في نفس الطالب طالب العلم تؤثر فيه شخصية المعلم، شخصية شيخه، سلوكه، كيف يتعامل، كيف يبكي من خشية الله، كيف يصلي، كثرة تلاوته للقرآن، خشوعه، كيف يتعامل في أهله ونحو ذلك، الأشرطة ما تحصل علىٰ ذلك، الأشرطة مهمة؛ لكن لابد من ملازمة العلماء حتىٰ لا تفقد جوانب من الخير أخرىٰ.

سؤال (٣): ما حكم خروج المرأة لتحصيل العلم في المدارس أو للتدريس، وكذلك الذهاب إلىٰ دار تحفيظ القرآن النسائية لحفظ القرآن؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: الأصل أن النساء شقائق الرجال، التكليف بالواجبات وفيما يراد منهن شرعا فهن شقائق الرجال، مثل الرجال فيما يطلب منهن من حيث الواجبات، إلا ما اختصت المرأة من أحكام.

وطلب العلم المرأة مخاطبة بأن تطلب العلم، وأن تحرص علىٰ ذلك؛ لكن بشروطه الشرعية المعتبرة:

ومنها في هذا المقام أن يكون بإذن وليها، وأن لا يكون معه بعض ما لا يُحمد من الأمور، وأن لا تفرط في بيت زوجها أو في أولادها ونحو ذلك، فإذا حصل اجتماع هذه الشروط وانتفاع الموانع فالمرأة سعيها في العلم له فضل كبير، واليوم المرأة نحتاج إليها في التعليم وفي الدعوة لكثرة الواردات والحاجة

إلىٰ النساء في ذلك المجال وفقهن الله.

لذلك أنا أوصي النساء في طلب العلم؛ أن يطلبوا العلم؛ لكن لا يكون طلب العلم النفل عندهن مقدما علىٰ أداء الواجبات؛ لأن بعض النساء قد تُهمل زوجها البتة، أو تهمل بيتها، تهمل أولادها أو نحو ذلك، فيحصل من هذا أمور غير محمودة فتتوازن في ذلك وتحصل المصالح وتدرأ المفاسد ولها أجرها بحسب نيتها إن شاء الله.

۞۞۞۞

بسم الله الرَّحمن الرحيم

الحمْدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ الله، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومن اهتدى بهداه.

أمَّا بعد.. فإنَّ الاهتمام بالعِلْمِ، والرَّغبَ فيه، والحرصَ عليه، والإقبالَ عليه؛ دليلُ صحَّةِ القلوبِ؛ لأنَّ القلْبَ إذا صحَا لنفسه، وعرَفَ ما ينفعُه فإنَّهُ سيحرِص على العلم؛ ذلك لأنَّ الله جلَّ جلاله مدح أهلَ العلم، ورفعَهُم على غيرهم درجاتٍ، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، فعدمُ استواءِ مَنْ يعلَمُ مَع مَنْ لا يعلم، هٰذا إنَّما يذكُرُه ويعِيهِ أهلُ الألباب؛ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وأمَّا الجاهِلُ فهو لا يعرِفُ أنَّهُ جاهِلٌ، ويقنَعُ بالجهالَةِ، ثُمَّ هُو لا يعلَمُ معنى العِلْمِ وأهمِّيةَ العلم، وأنَّ العلم هو الشَّرفُ الأعظمُ في هٰذه الحياة؛ ولهٰذا قال العلماءُ: مِنْ دلائلِ أهمِّيةِ العلم أنَّ الله جلَّ جلالُه ما أمر نبيَّه ﷺ أنْ يدعُوَ بالازديادِ مِنْ شيءٍ إلَّا مِنَ العلْمِ، فقال سبحانه لنبيِّهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه]، ولم يأمره بدعاء الازدياد مِن غير العلم، وكفى بذلك شرفًا.

العلمُ يشتركُ كثيرون في الاهتمامِ بِه، لكن لا يستوون في أخْذِه، ولا في طريقة أخذه، وهم طبقات:

فمنهم **المتعجِّل**: الذي يظنُّ أنَّ العلم يحصَّلُ في أسابيع، أو في أشهر، أو في سنين معدودة، وهٰذا بعيدٌ عنِ الصَّوابِ؛ لأنَّ العلمَ لا ينتهِي حتى يموتَ المرءُ ويبقى من العلم أشياءَ كثيرة لم يعلمْها، فإنَّ العلم واسعُ الأطراف، واسعُ الجنَبَات، واللهُ جلَّ وعلا هو ذو العلم الكامل، وأعطى البشرَ بمجموعهم بعض علْمِه، فهٰذا يفوتُ عليه شيءٌ من العلم، وذاك يفوت عليه شيء من العلم؛ ولكن بمجموعهم لو جُمع علْمُ ما فيها لكان شيئًا قليلًا جدًّا مِن علم الله، كما تضَعُ الإبرة في البحر، ثم تخرجُها لم تُنقِص مِنْ ماءِ البحْرِ شيئًا.

وإذا كان كذلك، فإنَّ رَوْمَ العلمِ لا يمكن أن يكون بإطلاقٍ؛ بل ينبغي لطالبِ العلْمِ أنْ يكونَ متدرِّجًا فيه؛ والتَّدرُّجُ سُنَّةٌ لابُدَّ منها، هي سنَّةُ النَّبيِّ ﷺ، وهي سُنَّةُ الصَّحابةِ، وهي سُنَّةُ أهلِ العِلْمِ بعدَهُم؛ فالنَّبيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما علَّمَ الصَّحابةَ العلْمَ جملةً واحدةً، وإنَّما علَّمهم في سِنين عددًا؛ في مكَّةَ علَّمهُم أصْلَ الأصول؛ الذي به سلامةُ القلبِ وصحَّتُه وسلامةُ العقلِ وصحَّتُه= ألا وهو توحيدُ الله جلَّ جلالُه، والبراءَةُ مِنْ كُلِّ ما سوى الرَّبِّ جلَّ وعلا، ثُمَّ بعْدَ ذلك أتَى العِلْمَ شيئًا فشيئًا لصحابَةِ رسولِ الله ﷺ، وكلٌّ أخَذَ مِنَ العلْمِ بقدْرِ ما يُسِّرَ له وقُدِّر له.

هكذا أهلُ العلم مِن بعد الصَّحابة لا تجدُ أنَّ أولئك خاضوا العلمَ خوضًا واحدًا، فمنهُم من برَّز في العربية، ومنهم من برّز في علم الأصول، ومنهُم من برّز في التَّفسير، ومنهم من برّز في الحديث، ومنهم من برّز في علوم الآلة

الأخرى كالمصطلح ونحوه، ومنهم من برّز في الفقه، وهكذا في علوم شتَّى.

وإذا كان كذلك، كانت وصيَّةُ ابن شهاب الزُّهري -التي لابدّ أنْ نحفظها- نِعْمَ الوصيَّة حيث قال: **مَنْ رامَ العلمَ جملةً ذهبَ عنه جملةً؛ إنَّما يُطلبُ العلْمُ على مرِّ الأيَّام واللَّيالي**. فالمتعجِّلون لا يحصِّلون العلمَ، فلابدَّ -إذن- مِن التَّدرُّج.

ثُم ثَم صنفٌ آخرَ أيضًا مِن الشَّباب أو من طلَّاب العلم وهم المتذوِّقون.

المتذوِّقون: أهلُ التَّذوُّقِ في أخْذِ العلْمِ؛ يأتِي ويطْلُبُ علمًا ما مدَّةً قليلةً، ثم يأتِي ويحكُمُ على هٰذا العلم، أو يحكُمُ على من يُعلِّمُ ذاكَ العلمَ، وأيضًا ينتقِلُ إلى آخَرَ، ثُمَّ يحكُمُ على ذلك العِلْمَ الآخر، وعلى من يُعلِّمُ ذلك العلمَ الآخرَ.

وهٰذا دليلُ نقصٍ في العلْمِ، ونقْصٍ في الإدراكِ والعقْلِ؛ لأنَّ العُلومَ لا يَحْكُمُ عليْهَا إلَّا مَنْ حواهَا مِن جميعِ جنباتِها، وأحاطَ من ورائِهَا. وهٰذا لا يتأتَّى لأكثرِ الشَّبابِ الذين يتذوَّقُون؛ تجدُ أنَّه في مدَّةٍ مِن الزَّمن -أشهر أو سنة- حضَرَ عند فلانٍ مِنْ أهلِ العلْمِ، أو مِنَ المعلِّمين مِن طلبة العلم، فحَكَم على نفسه أو على ذلك المعلم بأنَّه كذا وكذا، ثُمّ انتقلَ إلى غيره.

ثُمّ في الآخِرِ تجِدُ أنَّ هٰذا النَّوعَ ييأسُ ولا يحصِّلُ علمًا كثيرًا؛ ذلك لأنَّه تعجَّلَ، وكان متذوِّقًا في العلْمِ، والتَّذوُّقُ بمعنَى كثْرَة التنقُّلِ، والأخذُ مِن هٰذا بشيءٍ والأخذ مِن ذاك

بشيءٍ، هٰذا لا يكونُ المرءُ به عالِمًا، ولا طالِبَ علم، وإنَّما كما قال الأوَّلون: يكون أديبًا؛ لأنَّهم عرَّفُوا الأدَبَ بأنَّـه: **الأخذُ مِنْ كلِّ علْمٍ بطرَفٍ**. وهٰذا ممَّا لا ينبغِي أنْ يُسلك، يعنِي لا يصلُحُ أنْ يكونَ طالِبُ العلمِ الذي أراد صحَّةَ العلْمِ، متذوِّقًا.

إذن فرجَعَ السَّبيلُ إلى أن يكون مؤصِّلًا نفسَه، متدرِّجًا في العلم، والتَّأصيلُ -تأصيلُ العلمِ وتأصيلُ طلبِ العلْمِ- أمرُه عزيزٌ جِدًّا، وعليه أنْ يحفَظَ كما حفِظَ الأوَّلون.

انظر -إنْ كنْتَ معتبِرًا- كُتُبَ التَّراجِمِ حيْثُ ترجَمَ أولئك المصنِّفُون لأهلِ العلم؛ تجِدُ في ترجَمَةِ إمامٍ مِنَ الأئمَّةِ وحافِظٍ مِنَ الحفَّاظِ أنَّهم يذكُرُونَ في أوائل ترجمتِه أنَّه قرَأَ الكتابَ الفلانيَّ مِنَ الكُتبِ القصِيرةِ مِنَ المتون المختصرَةِ، وقرَأَ الكتابَ الفُلانيَّ، وحفِظَ كذا، وحفِظَ كذا.. لماذا يذكرون هٰذا ويجعلونه منقبةً لأولئك؟ لأنَّ حفْظَ تلك المتونِ، وقراءةَ تلك المختصراتِ هي طريقةُ العلمِ في الواقع، وهٰذه سنَّةُ العلماءِ، ومَن تركَها فقد تركَ سنَّةَ العلماءِ في العلم والتَّعليمِ، منْذُ تشعَّبَ العلمُ بعْدَ القرْنِ الرَّابعِ الهجْرِيِّ.

لهٰذا ينبَغِي لَكَ أنْ تكُونَ حريصًا على التَّأنِّي في طلَبِ العلْمِ، وأنْ تُحكِمَ مَا تسْمَعُ وما تقرَأُ شيئًا فشيئًا.

ومِن المهمَّاتِ أيضًا أن لا تُدخِل عقلَك إلَّا صورةً صحيحةً مِنَ العلْمِ، لا تهتمَّ بكثْرَةِ المعلوماتِ، بقدْرِ ما تهتمّ بأنْ لا يدخُلَ العقْلَ إلَّا صورةً صحيحةً للعلْمِ، إذا أردْتَ أنْ

تتناوَلَها تناولتَها تناوُلًا صحيحًا؛ تناولتَها بالاحتجاجِ أو بالذِّكْرِ أو بالاستفادَةِ.

أمَّا إذا كُنتَ تُدخِلُ في عقْلِكَ مسائِلَ كثيرَةً، وإذا أتى النِّقاشُ لحظْتَ مِنْ نفسِك أنَّ هٰذه المسألةَ فهِمتَها على غيرِ وجهِها، والثَّانيةَ فهمتَها على غيرِ وجهِها، لها قيدٌ لم تهتمَّ به، لها ضوابطُ ما اعتنيْتَ بها، فتكونُ الصُّورُ في الذِّهْنِ كثيرَةً، وتكونُ المسائِلُ كثيرَةً؛ لكن غيْرُ منضبِطَةٌ، وليْسَ ذلك بالعلْمِ.

إنَّما العلمُ أنْ تكونَ الصُّورةُ في الذِّهنِ للمسألَةِ العلميَّةِ منضبِطَةً؛ مِن جهَةِ الصُّورةِ -صورَةُ المسألةِ-، ومِنْ جهةِ الحُكْمِ، ومِنْ جهةِ الدَّليلِ، ومِن جهةِ وجْهِ الاستدلالِ، فهٰذه الأرْبَعُ اهتمَّ بها جدًّا:

الأولى: صُورةُ المسألَةِ.

الثَّانيةُ: حُكْمُ المسألةِ، في أيِّ علْمٍ: في الفِقْهِ أوِ الحدِيثِ أو المصطلَحِ أو الأصولِ أو النَّحوِ أو التَّفسيرِ...إلخ.

الثَّالثةُ: دليلُها، ما دليلُ هٰذا الذي قالَ كذا وكذا؟

الرَّابعَةُ: ما وجهُ الاستدلالِ؟ استدلَّ بدليلٍ، كيْفَ أعْمَلَ عقلَهُ في هٰذا الدَّليلِ فاستنبَطَ منْهُ الحُكْمَ؟

فإذَا عوَّدت ذِهنَك في هٰذه الأربع سِرْت مسيرًا جيِّدًا في فهْمِ العلم، والذي يُحيطُ بذلِكَ: الاهتمامُ باللُّغةِ العربيَّةِ، الاهتمامُ بألفاظِ أهْلِ العلْمِ؛ لأنَّ مَن لم يهتمَّ بألفاظِ أهْلِ العلْمِ وبلغةِ العلْمِ لم يُدْرِك مراداتِهم من كلامِهم.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد

طلب العلم

كلمة

لفضيلة الشَّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونية الأولىٰ

الشيخ لم يراجع التفريغ

أربع مسائل في العلم

(الصبر على العلم)

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللَّهمَّ نسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وقلبًا خاشعًا، ودعاءً مسموعًا، ربنا لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا لي ولكم أن يجعلنا ممن استعمله في طاعته، ويسر له سبيل الخير، ووفقه إليه، كما نسأله سبحانه أن يمن علينا برؤية الحق حقًّا، وأن يمن علينا أخرىٰ باتباعه، وأن يمن علينا برؤية الباطل باطلًا، وأن يمن علينا أخرىٰ باجتنابه، إنه سبحانه أكرم مسؤول.

وفي فاتحة دروس هٰذا الفصل نرجو إن شاء الله تعالىٰ أن يكون لدينا من الهمة في العلم والتعلم، وفي الطلب والحرص علىٰ ذلك ما يؤهلنا للاستمرار في هٰذا السبيل؛ لأن العلم ودواعيه يذهب بالغفلة عنه، وبرؤية غيره، ومن أقبل عليه، وعلم –حق العلم– ثمرة العلم، وفضل العلم، ورضىٰ الله جل وعلا عمن علم فعمل، وتواصىٰ بالحق، وتواصىٰ بالصبر، فإنه يتيسَّر عليه المطلوب، وتنبعث عنده الهمة.

ولهٰذا نرىٰ في قصص السالفين من الأنبياء والمرسلين ومن الصالحين فيها ما يبعث الهمة علىٰ القوة في الحق، والثبات عليه، والنظر في معطيات ما أنزل الله جل وعلا علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام.

فإذا نظرنا إلىٰ قصص الأنبياء والمرسلين جميعًا وجدنا من فوائدها للمتأمِّل والمعتبر، أنها تعطي العبد المؤمن أنواعًا من الثبات:

أولًا: الثبات علىٰ الحق، وإن كثر المخالفون.

الثاني: الثبات علىٰ سنة المرسلين وعلىٰ هُداهم، والنظر إلىٰ أولئك بأنهم السلسلة الماضية، وأنهم السادة الذين منّ الله جل وعلا عليهم بلزوم صراطه، فلا يستوحش حينئذٍ من قلة السالكين، ولا من قلة الموافقين له في هٰذا السبيل، بل ينظر إلىٰ أن قبله وقبله من أئمة الناس، من الأنبياء والمرسلين ومن تابعيهم وخاصة صحابة رسول الله ﷺ ما يهيئ له أن يسير علىٰ منوالهم، وأن ينتهج نهجهم، وأن يتخلق بأخلاقهم.

والثالث: أنه يستفيد من ذلك أن الأمور المحمودة لا يمكن أن تكون إلا بالصبر المتنوّع، الصبر علىٰ طاعة الله جل وعلا، والصبر علىٰ لزوم تقواه، ولهٰذا نرىٰ في قصة يوسف –عليه السلام– أنه قد تكرر ذكر الصبر، لما له من أثر عظيم في ذلك، وكذلك في قصص غيره من الأنبياء، ترىٰ أن الصبر له المنزلة العظمىٰ في الثبات علىٰ الحق والدين والطاعة، والثبات أيضًا علىٰ العلم والتفقه، ولزوم ذلك الطريق، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف].

ولهٰذا يجب علىٰ طالب العلم أن يعتبر بعد ذلك بسيرة من صبر من الصحابة رضوان الله عليهم ومن التابعين لهم بإحسان، ومن أئمة الإسلام، فمن صبر ظفر، [وهٰذا ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قبض رسول الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ولنتعلم منهم، فإنهم كثير. قال: العجب لك يا ابن عباس، أتُرىٰ أن الناس يحتاجون إليك، وفي الأرض من ترىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت علىٰ المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلا، فأتوسد ردائي علىٰ بابه،

تَسْفي الريح علىٰ وجهي، حتىٰ يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما لك؟ فأقول: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك. قال: فيقول: فهلا بعثت إلي حتىٰ آتيك. فأقول: أنا أحق أن آتيك. فكان ذلك الرجل بعد ذلك يراني، وقد ذهب أصحاب رسول الله ﷺ واحتاج إليَّ الناس، فيقول: كنت أعقل مني.]

وهكذا في فعل السلف، فقد صبروا، وتحملوا شدائد العلم والتحصيل، من رحلات عظيمة في أخذٍ لبعض الأحاديث، أو للقيا بعض أهل العلم.

وهٰذا نقتبص منه أنه لا علم إلا بصبر، وإذا كان الأمر كذلك فالصبر المطلوب هنا عبادة، وتركه ترك لعبادة محبوبة لله جل وعلا لأنه أول واجب علىٰ العبد هو العلم، والصبر مطلوب في كل عبادة من العبادات، وفي سورة العصر يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

والإيمان هنا فيه العلم كما هو معلوم والعمل بعده، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالصبر يعود علىٰ هٰذا كله.

لهٰذا نرىٰ اليوم ضعفًا عامًّا في الإقبال علىٰ العلم، وفي مداولة العلم ومدارسته، بين الأصحاب والأصدقاء والزملاء فيما بينهم، وهٰذا يضعف العلم، يضعف الملكة عند المرء نفسه، ويضعفها أيضًا في الصلة بإخوانه وزملائه.

لهٰذا نرىٰ السلف رضوان الله عليهم إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وكان تذاكر العلم أهم المهمات عندهم، لم يكونوا ليقضوا ﷺ أوقاتهم إذا التقوا إلا في مذاكرة العلم، حتىٰ إن المذاكرة إذا خشي أن تفوت ترك معها بعض النوافل والسنن، كما ترك الإمام أحمد قيام ليلة لما قدم أبو زُرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف، لما قدم قال: استعضنا عن القيام بمذاكرة أبي زرعة. وذلك لأن مصلحة المذاكرة متعدية علىٰ المسلمين، ويفوت وقتها بذهاب من يُذاكر معه العلم.

وهٰذا الذي ينبغي علىٰ طالب العلم:

أولًا: أن يُصبر علىٰ العلم في تلقيه، وفي لزوم العلماء، وسماع الدروس، وفي قراءة الكتب، واستخلاص الفوائد، وهٰذا يحتاج إلىٰ صبر ومصابرة.

والثاني: يصبر أيضًا إذا التقىٰ بأصدقائه ورفقائه وزملائه، يصبر عن اللهو، ويصبر عن مقتضيات الطبيعة، في إمضاء الأوقات بما لا ينفع في تذاكر العلم.

فإذا تذاكر طلاب العلم فيما بينهم العلم هٰذا له فوائد عظيمة:

أولها: تثبيت العلم.

وثانيها: قيام الصلة علىٰ المحبة الصحيحة في الله جل وعلا.

وثالثها: أن طالب العلم مع أخيه في تذاكر العلم ينزل عليهم من الله جل وعلا السكينة وتَحفُّهم الملائكة، وهٰذا من فضل الله جل وعلا العظيم علىٰ عباده.

إذا تبين ذلك فإني أوصي نفسي أولًا، ثم أوصي جميع من يسمع هٰذا الكلام، بالصبر علىٰ مقتضيات العلم والدرس، والصحبة في أن تكون في العلم والعمل لا في غيره، لأن الزمن يمضي والعمر قصير.

المسألة الثانية في مقدمة هٰذه الدروس في هٰذا الفصل

يكثر اليوم عند طلاب العلم تداول بعض الوسائل الحديثة في العلم، أو في الدعوة، أو نحو ذلك، مثل الأشرطة، أو الأسطوانات، ومثل ما هو موجود في البرامج المختلفة التي يُبحث فيها عن طريق الكمبيوتر، أو في شبكة الإنترنت، وما أشبه ذلك.

فهذه ينبغي أن يُنظر إليها بأناة ورويّة في حق طالب العلم، لأن الإيغال فيها قد لا يكون محمودًا في المستقبل، فيما يتعلق بصلة طالب العلم بالكتاب.

وهذه الأشرطة، أو هذه المنتجات من البرامج أو غيرها، أو ما هو موجود علىٰ شبكة الإنترنت، ونحو ذلك، ينبغي أن يؤخذ بقدر ما ينفع المسلم، وما ينفع طالب العلم، في العلم والبحث، وما ينفع غيره في الدعوة والإصلاح، لكن ليس ذلك هو الوسيلة الوحيدة، وليس هدفًا لطالب العلم.

فالأصل في العلم أن يكون عبر المشايخ، وعبر الكتب، وأن يكون بالمطالعة، والفرق بين هذه وهذه، أن هذه البرامج، وما هو موجود في أجهزة البحث المختلفة، هو أن هذه البرامج، وهذه الأدوات الحديثة، تعطيك ما تبحث عنه، أما النظر في الكتب، فلأجل بحث مسألة واحدة، تمر علىٰ مائة مسألة، وتستفيد خيرًا كثيرًا، وربما لبحث في تفسير آية مررت علىٰ تفسير عدة آيات، وربما في بحث عن حديث واحد، مررت علىٰ أحاديث كثيرة، استفدتها في العلم والعمل، وصليت علىٰ النبي ﷺ في أثناء ذلك المرات والمرات، فإذا ضاق الوقت، واتجه طالب العمل إلىٰ البحث، أو أراد أن يبحث بحثًا، أو أن يخطب خطبة، أو نحو ذلك، فليستفد من هذه الوسائل، لأنها مفيدة ونافعة كثيرًا، أما أن تكون هي الوسيلة الوحيدة ويترك الكتاب، وتترك القراءة، فهٰذا ليس بصحيح، وهو من وسائل ضعف العلم عند طالب العلم.

وقد جربنا أنه بمطالعة الكتب حتىٰ في البحث وأنت تبحث في كتاب، لو صبرت علىٰ ذلك، فإنك تأخذ فوائد كثيرة جدًّا، ما كنت تظن أنك ستستفيدها، لولا الله جل وعلا ثم هذه الطريقة.

والسلف -رضوان الله عليهم- كانوا أشد منا في ذلك، حيث إن الكتب التي يتداولونها لم تكن مفهرسة أصلًا، ولهٰذا كانوا يحتاجون في القراءة أن يمروا علىٰ أشياء كثيرة، وإنما يعرفون الحديث مثلًا عن طريق الجزء، يعني مثلًا إذا نظرت في الفهرس المصنف لمسند الإمام أحمد الذي عمله ابن عساكر وجدت أنه يشير إلىٰ أجزاء، يقول: في الجزء كذا، في الخامس عشر من مسند الشاميين، في الجزء العاشر من مسند المكيين، وهكذا، وهٰذا يعني في الأجزاء بحسب التجزئة الأولىٰ، وهٰذا كان في القرن السادس الهجري، فكيف الشأن في القرن الثاني، والقرن الثالث.

كان أكثر العلم ثبت بفضل الله جل وعلا أولًا، ثم بكثرة النظر، فإذا كرر طالب العلم النظر في العلم ثبت، فإنه يثبت عنده، وهٰذا يحتاج إلىٰ صبر، وله ارتباط بالمسألة الأولىٰ.

نقول: إن الوسائل الحديثة، تعاطيها طيب في العلم وينفع طالب العلم، لكن ليست هي المقصود، وليست هي الوسيلة الوحيدة، أو الوسيلة المثلىٰ، بل الوسيلة المثلىٰ في طلب العلم والنظر هي حضور الدروس، أو سماع الدروس، أو قراءة كتب أهل العلم، والبحث فيها، لأن هٰذا يعطي ملكة وقوة في أشياء كثيرة، حتىٰ في اللغة.

إذا قرأت فإن لغتك تستقيم، وتزداد معرفتك بمواضع الكتاب، وبطريقة المؤلفين فيه، أما البرامج المعاصرة، فإنها إذا بحثت بها وصلت بسرعة، لكن يفوتك أشياء كثيرة في هٰذا الباب.

المسألة الثالثة في هٰذه المقدمة:

اليوم نرىٰ أن المسائل التي يتكلم فيها طلاب العلم، أو يتداولونها فيما بينهم، كثير منها يُتداول بالتقليد، ولا ينظر فيها إلىٰ تحقيق المسائل -وخاصة في الأمور الخلافية- ومعلوم أن طالب العلم إذا أراد أن يعمل، فليبحث، أو يقلد من يثق بدينه وينجو إذا ضاق به الوقت.

أما إذا أراد أن يبحث عن الحق، وأراد أن يقضي، وينظر في الراجح والمرجوح، فإن هٰذا يحتاج منه إلىٰ صفتين عظيمتين، هما: الأولىٰ العلم، والثانية العدل.

والقاضي في المسائل العلمية، ربما كان أعظم من القاضي في مسائل الخصومات، لأن مسائل الخصومات يقضي فيها بين اثنين، هل الحق مع هٰذا، أو مع هٰذا؟

وأما في المسائل العلمية والدينية التي يقع فيها الاختلاف، فطالب العلم يجدها فرصة لبحث المسألة، ولا يخوض في شيء بدون أن ينظر.

فأحيانًا تقع مسائل، ويكثر فيها البحث، أو التردد، فنجد أن كثيرين يمرِّرون المسائل بالتقليد، هٰذا ينقل عن فلان، وهٰذا ينقل عن فلان، وهٰذا غير محمود لطالب العلم المدقق، الذي يريد أن يتثبت من العلم، فعليه أن يجعل هذه مناسبات لبحث المسائل، والتحرِّي عنها، ولا يلزم أن يكون متسرعا بأن يحكم، فالحمد لله ربما كان النظر في مثل هذه المسائل، والحكم فيها قد وكِّل به غيره من الناس، ولٰكِن هو لأجل تحري الحق عليه أن يحكم بعلم وعدل، فينظر في المسألة بمقتضياتها من أصلها، وبعدل في ألا يتجرأ، فيقول: هٰذا غلط. بدون ما يعرف الحقيقة، لأنه سيحاسب علىٰ ذلك، يقول: هٰذا بطال. بدون ما يتأمل، أو يقلد فيها، وهو لا يعرف ما الوجهة أصلًا، ويكثر الأمر بدون بينة.

وهٰذا له أمثلة كثيرة في دنيا الناس اليوم، لأن الحديث اليوم صار مفتوحًا لكل أحد.

فالصحف فيها ما لا حصر له، وشبكة الإنترنت فيها ما لا حصر له والفضائيات فيها ما لا حصر له ، وفي الخطب والمحاضرات أيضًا أشياء لا حصر لها من هٰذا الباب، فطالب العلم يجب عليه أن يتحرىٰ الحق، وأن يستفيد من مثل إيراد هذه المسائل، في بحثها وتدقيقها، وألا يتوانىٰ في بحث هذه المسائل اتكالًا علىٰ بحث غيره فيها، لأن المقصود الفائدة.

المسألة الرابعة والأخيرة:

طلب العلم عبادة -كما ذكرنا- من أفضل وأجل العبادات.

وهٰذا يعني أن طالب العلم لا بد أن يحاسب نفسه، بين الحين والآخر في علمه الماضي وفي علمه المستقبل، لأنه أحيانًا يكون قد طلب العلم لهوىٰ أو لشهوة أو نحو ذلك، فتجد أنه يمضي وقتًا طويلًا في طلب علم هو يشتهيه، ولكن غيره من العلوم أولىٰ منه، وهو أحوج إليه، لكن هو يشتهي هٰذا.

فعلىٰ سبيل المثال، واحد يشتهي النظر في السيرة والبحث، يشتهي تخريج الأحاديث، يشتهي بحث بعض المسائل الفقهية، ويطول فيها جدًّا، ويفوت معه بحث أشياء أخرىٰ، هي أهم له وربما جهلها، وهي متعلقة بدينه، متعلقة بعمله، أو متعلقة بأمور مهمة، هو يعانيها، أو يقع فيها.

لهٰذا نقول: إن طالب العلم إذا سلك هٰذا السبيل، فعليه أن ينتبه من شهوة العلم، فشهوة العلم شهوة خفية، قد تصرف صاحبها عما ينبغي له.

وفرق بين عُقد العلم، ومُلَح العلم، فعقد العلم هذه لا بد منها، وملح العلم بحسب الوقت، تنظر في التراجم، تنظر فيما تشتهي من أمور، في تفاصيل في اللغة، أو في الأدب، أو نحو ذلك، فهٰذا لا بأس به.

لكن عُقد العلم هذه أن تنظر إلىٰ ما أنت محتاج إليه، ثم بعد ذلك تقبل عليه.

والعلم كما أن له شهوة، فإن له طغيانًا، لهٰذا قال وهب بن مُنَبِّه: «إن للعلم طغيانًا كطغيان المال» وهٰذا واقع، فإنه كما أن الإنسان إذا ازداد ماله، دخله الشيطان فطغىٰ وبغىٰ، فكذلك العلم الذي لا يصاحبه تقوىٰ من الله جل وعلا فإنه ربما كان معه الطغيان، وكان معه البغي، بل كثير من الخلافات التي وقعت في الأمة من الزمن الأول، لما صاحبها البغي والتعدي، وقعت الفرقة الشديدة، ووقعت الخلافات الشديدة، وصار بأس الأمة بينها، كما ذكر شارح الطحاوية في أواخرها، وكما ذكر نقلًا عن ابن تيمية في موضع من كتبه.

فالعلم له شهوة عارمة بطالب العلم، يعني قد يصيبه شهوة عارمة في نوع من العلم، أو في نوع من البحث، أو نحو ذلك، فيكون معه انصراف عما هو أولىٰ له، فينبغي له أن ينظر ويحاسب نفسه.

كذلك العلم ربما يرىٰ من نفسه الملكة وكذا فيجد أن عنده نوع اعتداد وقوة، بحيث يتسلط بهٰذا العلم علىٰ الآخرين، كما ذكرنا لكم أن العلم مبناه علىٰ الرحمة والتراحم، العلم هو ما ورّثه النبي ﷺ لهذه الأمة، والله جل وعلا قد وصف نبيه بأنه رحمه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

فالعلم الذي معه البغي، والذي ليس معه عدل، ولا تقوىٰ، فهذا وبال ليس علىٰ صاحبه فحسب، بل ربما علىٰ الآخرين، فلهٰذا نحذر من هذين الأمرين: الشهوة، والطغيان في العلم، فالشهوة مذمومة، والطغيان مذموم، ومن حرك و رأىٰ واقع الناس اليوم، وجد أنه يوجد فيه هٰذا وهٰذا.

نسأل الله جل وعلا السلامة والعافية، وأن يثبتنا علىٰ دينه، إنه سبحانه جواد كريم، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): كيف تكون مذاكرة العلم ومدارسته المذاكرة الصحيحة التي يستفيد منها الطالب؟

الجواب: هٰذا بحسب ما يراد مذاكرته، فإذا كانت المذاكرة في المحفوظ، فعليهم أن يتذاكروا فيما يحفظون، وإذا كانت المذاكرة فيما يفهم، فعليهم أن يتذاكروا في المفهوم، يعني فيما يفهمه هٰذا، ويفهمه هٰذا من المسائل المشكلة، فإذا كانت المذاكرة يراد منها مذاكرة كتاب الزكاة مثلًا، فلا بد من مراجعة الأحاديث فيه، فمذاكرته أن تتداول بعض الفوائد من الأحاديث المتعلقة بأمور الزكاة، فهٰذا يورد ما عنده، وهٰذا يورد ما عنده كذلك.

وإذا كانت المذاكرة مثلًا في الفقه، في فقه الزكاة، فيأتي هٰذا مثلًا يقول: ما شروط وجوب الزكاة؟ فيأتي هٰذا بشرط، وهٰذا بشرط، ويفسر هٰذا وهٰذا، ويمشون هكذا، الباب الأول، فالباب الثاني، إلىٰ آخره.

فالمذاكرة بحسبه، مذاكرة المحفوظ شيء، ومذاكرة المفهوم شيء آخر، وأكثر السلف كانت مذاكرتهم في المحفوظ، لأن حفظ العلم هو الأساس، وهو الذي سيُنقل، خشية من الغلط في ذلك، أما اليوم فينبغي أن يكون في هٰذا وذاك، يحفظون ويراجعون فيما بينهم المحفوظ، ويراجعون فيما بينهم العلم بأنواعه.

سؤال (٢): ماذا عن الكتاب الذي طبع مؤخرًا في دار الباز، وهو (جمع الجوامع، الجامع الكبير وزيادته للسيوطي)، خمسة عشر مجلدا؟

الجواب: هٰذا مطبوع سابقًا، والسيوطي له كتاب «الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«الجامع الصغير» محدود يعني صغير، وقد قسمه العلامة الألباني -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ قسمين: «صحيح الجامع» و«ضعيف الجامع». **وهما** قسمان مفيدان يقرِّبان، وإن كان الحكم علىٰ أن هٰذا صحيح، أو أن هٰذا ضعيف، لا يسلم في كل موطن، وعلىٰ طالب العلم أن يبحث ويدقق، ولكنها مفيد للغاية في هٰذا الباب، والجامع الكبير للسيوطي له شرطه، وكتب كثيرة نقل عنها، وقد قسمه إلىٰ قسمين:

١- قسم الأقوال.

٢- قسم الأفعال.

وهو كتاب كما هو معروف كبير جدًّا، طبع قسم الأقوال، وقسم الأفعال مستقل، في مجلدات كثيرة جدًّا، وصُوِّر عن المخطوطة أيضًا في مصر، أظنه في الهيئة العامة للكتاب، صورت إحدىٰ نسخ المخطوط، وكان خطها دقيقا جدًّا، فصورت في مجلدين، وهي أيضًا سهلة في البحث.

والأحسن منه «كنز العمال».

و«**كنز** العمال» رتب الجامع الكبير علىٰ الأبواب، وجعل ترتيبها مثاليا وطيبا، والأكثر هو الرجوع إلىٰ «كنز العمال»، أو إلىٰ المتن، يعني الأصل الذي هو «الجامع الكبير»، لكن الجامع الكبير قد لا تجمع الأحاديث في الباب الواحد، يعني مثلًا إذا بحثنا عن السلب في الجهاد، أو حرم المدينة، كيف تجدها؟ قد تجد حديثًا واحدًا في الباب، أو قد لا يأتي غيره، لكن في «كنز العمال» ترجع إلىٰ هٰذا الموضوع، فستجد الأحاديث، وستجد الآثار، عن الصحابة في هٰذا الباب.

سؤال (٣): نرجو منكم التكرم بكشف شبهات من قال: إن علماء هذه البلاد يشددون في الأحكام، ويأخذون من الأدلة أكثرها تشددًا، وذلك بعد أن طالعت بعضهم في بعض القنوات الفضائية، الذين

يتعرضون لإفتاء الناس بفتاوىٰ تخالف ما عليه هٰذا البلد، فأصبح هناك تذبذب في تلقي الفتاوىٰ، وتردد في استقبال فتاوىٰ علماء هٰذا البلد، حتىٰ قال بعضهم: إن علماء البلاد الأخرىٰ ليسوا أجهل من علماء هذه البلاد. أرجو من فضيلتكم كشف هذه الشبهة إلىٰ آخره؟

الجواب: هٰذا الخلاف موجود منذ خلق الله جل وعلا الدنيا، والخلاف في العلم ما بين مشدد فيه ومتساهل موجود من الزمن الأول، لكن إذا كان الأخذ بالأشد، أو الأخذ بالأسهل هو نتيجة هوىٰ، دون نظر في مقتضىٰ الأمر، فإن هٰذا وباله علىٰ من أفتىٰ، والعياذ بالله، ليست المسألة مسألة تشهي، لكن المسألة مسألة دليل، المسألة إعمال للقواعد الشرعية.

قد تجد أن بعض العلماء من السلف يشدد في مسألة، ويتساهل في مسألة أخرىٰ، لكن لا تجد من علماء السلف من يسهل في كل شيء، أو يشدد في كل شيء، لأن كلا منهم كان يتحرىٰ الحق بحسب ما وصل إليه، وبحسب ما يرىٰ من إعمال الأدلة والقواعد الشرعية، تجد أنه في مسائل يتشدد، وفي أخرىٰ يسهل.

إذا أخذنا مثلًا المذاهب الفقهية، تجد أن مذهب الحنابلة في العبادات فيه نوع ميل إلىٰ الاحتياط، وبراءه الذمة، إلىٰ آخره في الأحكام، فصار هٰذا المذهب فيه نوع تشديد مقارنة بمذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، أو المالكية، لكن في المعاملات تجد أن المسألة بالعكس، فمذهب الحنابلة أيسر وأسهل، والمذاهب الأخرىٰ أضيق.

فنخلص من هٰذا إلىٰ أن وجود من يشدد، أو من يسهل، قديم، لكن لا يكون هٰذا عن هوىٰ، ولا عن رغبة في التسهيل، فهٰذا ليس من صنيع أهل العلم، وإنما تجد عند العالم الواحد، في مسائل من العبادات والمعاملات ما يشدد فيها، وأخرىٰ يسهل فيها، وذلك بحسب ما ظهر له من الوجه الشرعي، وإعمال القواعد.

ولهٰذا نرىٰ الآن من يتهم العلماء، فيقول: إن علماء هذه البلاد يشددون في الأحكام. وهٰذا ليس بصحيح، بل هم يتكلمون في المسائل بمقتضىٰ الدليل ومقتضىٰ القواعد الشرعية، فيسهلون فيها، وهناك مسائل بمقتضىٰ الدليل والقواعد يشددون فيها، وليس لغرض التشديد لٰكِن هٰذا مقتضىٰ الحكم أن يكون علىٰ هٰذا النهج.

فمثلًا أنا سمعت مرة من سنين طويلة أحد المشايخ يقول لمُسْتَفْتٍ: المسألة فيها ثلاثة أقوال: فيها قول كذا، وقول كذا، وأيسرها هٰذا القول، وهٰذا هو الأنسب لك إن شاء الله.

ومثل هٰذا الجواب ليس مستقيمًا، لا علىٰ القواعد الشرعية، ولا علىٰ أصول الفتوىٰ، ولا علىٰ ما ينبغي للمفتي أن يعامل به المستفتي، وليست المسألة اختيارا.

ويمكن أن نرجع إلىٰ ما أنكره الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- علىٰ بعض مشايخ زمنه، لأنه كان المفتي في وقته يحفظ أربع كتب من مختصرات المذاهب الأربعة، وإذا أتاه المستفتي قال له: تريد الفتوىٰ علىٰ أي مذهب؟ قال: علىٰ مذهب الشافعي مثلا. فيقول له: في «متن الإقناع» يقول: كذا. أو في «متن المنهاج» يقول: كذا. أو في «التنبيه» كذا، إلىٰ آخره، فأنكر عليه هٰذا الصنيع.

فالمفتي ليس له أن يأتي دائمًا بأيسر الأقوال التي اختلف فيها العلماء، لأن اختلاف العلماء تارة يكون اختلافا قويا، وتارة يكون اختلافا ضعيفا، وهنا يجب علىٰ المفتي أن يفرق بين هٰذا وذاك، يجب أن يفرق بين الأخذ بالأسهل، وبين بالحزم، وبين المسألة قبل وقوعها، وبعد وقوعها.

فإذا وقعت المسألة وانتهت، وكان وقوعها ناتجا عن جهل صاحبها، أو عن أنه جرىٰ له هٰذا الشيء، وليس في المسألة وضوح من جهة الدليل الشرعي، فإنه يُسهّل له بعد وقوعها، لكن قبل وقوعها، فإنه ليس له أن يقول إلا ما ظهر دليله، وقاعدته الشرعية.

وهذه الصورة نص عليها العلماء من القرون الأولىٰ، لما ظهر الخلاف، لأن المسألة بعد وقعها يعني ينبغي للمفتي أن يتحرىٰ، لأنه ربما كان الذي وقع في الشيء بنىٰ علىٰ مذهبه، أو بنىٰ علىٰ شيء عنده، أو يكون غير عالم بالحكم، فإذا كان فيه مجال للتسهيل، بغير أخذ بشيء ضعيف في المسألة، فإنه أولىٰ من التشديد، أو من الأخذ بالحزم فيها.

أما قبل الوقوع، فليس له أن يسهّل، لأن الناس إذا سهلت عليهم بلا حجة، فإنه لا حد له، يتنازلون يتنازلون حتىٰ يؤول الأمر -والعياذ بالله- بهذه الأمة إلىٰ مثل ما حصل لليهود، حيث أحل الأحبار لهم الحرام، فاستحله الناس، وهٰذا لا ينبغي.

وعلماؤنا رحم الله الأموات منهم، وبارك في الأحياء يتحرون في ذلك، فتارة تكون الفتاوىٰ فيها شدة، وتارة يكون فيها تسهيل، ليست دائمًا فيها شدة، وليست دائمًا فيها تسهيل، بل بحسب المقتضي.

سؤال (٤): هل ذكر المفسرون سندا صحيحا لابن عباس رضي الله عنهما أو غيره عن صفة سفينة نوح عليه السلام علما أن بعضهم قالوا أنه عندنما اكتشف في تركيا سفينة علىٰ رأس جبل أنها سفينة نوح أن الوصف في الأثر مطابق لها ؟

الجواب: هذا لا يثبت فيه شيء - فيما أعلم - في وصف السفينة بدقة، والجبل الذي استقرَّت عليه واستوت عليه الذي هو الجودي ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[هود]، الجودي يقولون: إنه في جهة كردستان، جهة الأكراد بين العراق وبين تركيا هناك جبل قيل: إنها استقرت عليه، ويزعمون أن هناك أشياء من آثار السفينة لٰكِن ليست صحيحة، الجبل معروف اسمه الجودي إلىٰ الآن في تلك المنطقة.

سؤال (٥): ذكر الفقهاء أن من سبق الإمام بركنين أو سبقه الإمام أو أن من كبر قبل الإمام وسلم قبله أن صلاته باطلة.

الجواب: الفقهاء رحمهم الله يفرقون في هٰذه المسألة يعني فقهاء الحنابلة بين بطلان الركعة وبطلان الصلاة والأصل في ذلك المتابعة أن الإمام إنما جعل ليؤتم به، فمعنىٰ الإمامة والإئتمام أن يكون المأموم تابعا للإمام ومحل المأموم من أفعال الإمام أربعة أحوال: إما أن يكون سابقا له، وإما أن يكون موافقا له، وإما أن يكون تابعا له، وإما أن يكون متخلفا عنه.

هٰذه أربع أحوال، السبق فيه وعيد شديد، «أما يخشىٰ الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله صورته أو قال راسه راس حمار» هٰذا فيه التشديد العظيم عن المسابقة، والمسابقة إذا كانت بركن ولم

يتبع الإمام فيها فإنه علىٰ كلام الفقهاء فإنه تبطل الركعة وعليه أن يعيد هٰذه الركعة أو أن يعيد الركن هٰذا ويأتي به بعد الإمام .

أما إن كان تخلف عليه بركنين، الواقع ما حصلت المتابعة، يعني مثلا هٰذا راكع والإمام بعده، ما وقعت المتابعة ولا هنا ما وقعت المخالفة ولا وقع يعني الموافقة هنا صار اختلاف كبير هٰذا في ركن بعيد هٰذا راكع والإمام ساجد هٰذا في التشهد والمأموم يركع أو هٰذا المأموم بعد سمع الله لمن حمده والإمام سجود الثاني، ونحو ذلك، هٰذا تخلف عنه بركنين، فافتقد هنا المتابعة فافتقد هنا المتابعة.

بركن عندهم يعني وقعت مخالفة الفصل بينها بركن يسير لذلك قالوا تبطل الركعة لأنه ما حصلت منه المتابعة، أما إذا كان الفرق ركنين فإن الصلاة تبطل علىٰ حسب كلامهم.

لهٰذا نقول هٰذه الأحوال الأربعة: المسابقة حرام ولا تجوز وتبطل الصلاة أو الركعة.

الموافقة مكروه، وصفتها أن يكبر مع الإمام أن يركع مع الإمام أن يسحد مع الإمام.

الذي صح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في حديث الأعرج عن أبي هريرة وفي حديث غيره أنه قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، ولا تكبروا حتىٰ يكبر، وإذا ركع فاركعوا ولا تركعوا حتىٰ يركع، وإذا سجد فاسجدوا ولا تسجدوا حتىٰ يسجد» وصح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه قال: «لا تسبقوني بالتكبير ولا بالركوع ولا بالسجود ولا بالانصراف » يعني بالتسليم، رواه مسلم في صحيحه، هٰذا يدل علىٰ أن الموافقة أنها خلاف المأمور به لهٰذا نص العلماء علىٰ أنها مكروهة.

الحالة الثالثة المخالفة وهي علىٰ النحو الذي فصلت لك الفرق ما بين الركن والركنين في معنىٰ ذلك.

الحال الرابعة هي المأمور بها وهي المتابعة، بأن يكون فعل المأموم أفعاله في أركانه في الصلاة أن تكون بعد الإمام إذا ركع تبدأ تركع إذا سجد تبدأ تسجد ن إذا فرغ من التكبير تبدأ تكبر، وهكذا، هٰذا هو السنة والسنة فيها الخير والبركة لمتبعيها.

الصلاة أمرها عظيم فينبغي للعبد أن لا يعرض صلاته للخطر.

سؤال (٦): سمعتك مرة من المرات تكلمتم عن مسألة سكوت الإمام الذهبي علىٰ بعض الأحاديث في المستدرك لا يدل هذا علىٰ موافقته لحكم الحاكم رحمه الله وأن أول من أتىٰ بعبارة أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي هو المناوي في «فيض القدير»، فهل تذكرون أحدا من أهل العلم أشار لهذه المسألة فندها وبحثها بحثا موسعا؟

الجواب: لا أذكر أحدا في ذلك لٰكِن هي نتيجة استقراء وبحث خاص بي، وكان لي بحث مما دعا لهٰذا هو أني بحثت في سنين ماضية عن شروط «الصحيحين» ما هو شرط البخاري ، وما هو شرط مسلم، تعلمون أن هٰذه الكلمة يعني كثيرا ما تداول، شرط البخاري هو كذا وشرط مسلم هو كذا، وهٰذا علىٰ شرط البخاري وهٰذا علىٰ شرط مسلم أو علىٰ شرطهما، فما هو شرط البخاري وما هو شرط مسلم؟

هٰذا السؤال بعض العلماء ذكر جوابا عنه لكنه لا يفي ولا يشفي الغلة، الحقيقة.

مثلا يقولون: الحديث الصحيح شرطه أن لا يكون فيه مدلس قد روىٰ بالعنعنة، ونجد في

«الصحيحين» مدلسين قد رووا بالعنعنة.

أن لا يكون في إسناده مجهول، لأن المجهول ضعيف، نجد في «الصحيحين» فيه أسانيد رجال مجهولين.

أن لا يكون ممن رمي بالبدعة ، في «الصحيحين» من رمي بالبدعة .

الاتصال، أن يكون قد لقي من أخذ عنه ، هنا شرط البخاري اللقي وشرط مسلم المعاصرة كما هو معروف ، هٰذه أدت إلىٰ بحث هٰذه المسألة بحثتها بحثا بجمع ما ذكره العلماء في هٰذه المسألة في المسألة يعني جمعا سميته تسمية مسجوعة أظن «جلىٰ الكتب والآثار في شروط الصحيحين من أخبار» بحث فيه طول نحو من مائتين صفحة أو قريب منها، فكل جزئية من هٰذا الموضوع بحثت، يعني شرط البخاري في كل مسألة، قالوا شرط الحديث الصحيح هو ما نقله العدل الضابط عن مثله إلىٰ منتهاه ولم يكن شاذا ولا معللا. هنا هل هٰذا الكلام ينطبق علىٰ الصحيحين؟

أخذ كل شرط منها -شرط وجودي أو شرط عدمي- هل كل ما في «الصحيحين» يشترط أن لا يكون شاذا في كل لفظ، فيه مسألة بحثت في آخر البحث، قصدت بحث هٰذه المسألة مسألة الحاكم فيما استدركه علىٰ الشيخين، قال: هٰذا علىٰ شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، علىٰ شرط البخاري ولم يخرجه، فأدىٰ ذلك إلىٰ بحث وصنيع الحافظ الذهبي في مختصر المستدرك، فوصلت من خلال البحث إلىٰ أن الحافظ الذهبي له مختصرات كثيرة اختصر سنن البيهقي واختصر عدد من الكتب وكانت طريقته في المختصرات أنه تارة ينشط ويذكر علة الإسناد تارة ينشط يظهر له حكم الإسناد فيقول صحيح إسناده صحيح أو علىٰ شرط البخاري حتىٰ في غير «المستدرك» وتارة لا ينشط يسكت، فكوننا نقول إنه وافق الحاكم أم لم يوافقه هٰذه المسألة فيها نظر، لم يوافقه ظاهرة، إذا اعترض عليه، لٰكِن إذا سكت، والمعلوم أنه لا ينسب لساكت قول، ولهٰذا نقول: إن الذهبي لا يصح أن يقال فيما سكت عنه إنه وافق، يقال: سكت عنه، المناوي استعملها قليل، يعني في كلمات بعض الأحاديث قليلة جدا، بعد ذلك توسعوا فيها ووجد كل ما ذكر حديث لم يتعقبه الذهبي قالوا ووافقه الذهبي .

ثم بعد ذلك جعل الأمر إلىٰ أنه قيل صححه الحاكم ووافقه الذعبي وهو غلط منهما أو لم يصيبا، هٰذه مسألة تحتاج إلىٰ دقة من طالب العلم، المقصود منها أن قول: وافقه الذهبي فيما لم يعلق عليه هٰذا ليس بصحيح، والذهبي في مختصره للمستدرك له طريقتان فيما يسكت عنه:

تارة لا يكتب شيئا بأن يقول الحاكم مثلا علىٰ شرط البخاري ومسلم وهو يسكت لا يقول: علىٰ شرط البخاري يذكر فقط المتن، ويسكت.

وتارة يقول: علىٰ شرطهما، أو يقول: علىٰ شرط البخاري أو يقول: صحيح، فقط إذا قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

هٰذا كله ما يقال عنه إنه وافقه فيه يعني الموافق تحتاج إلىٰ بحث يعني هو اشترط علىٰ نفسه الموافقة، الحقيقة أنه لم يشترط علىٰ نفسه الموافقة.

سؤال (٧): في مسألة التأصيل العلمي في جانب علم الفقه، التي ذكرتموها في أحد الدروس،

السؤال: كيف نستخرج المسائل؟ هل نستخرجها من كتب المطولات، أم من المختصرات؟

الجواب: المسألة إذا مرت بك، فهي بحسب استعدادات طالب العلم، إذا كان طالب العلم يعرف المسألة، ويعرف كلام أصحاب المختصرات فيها، ويعرف المذهب، فعليه أن يذهب إلىٰ الكتب المطولة في المذهب، ثم بعد ذلك إذا نظر في الكتب المطولة في المذهب والتعليل، ينتقل إلىٰ كتب الحديث المطولة، مثل «نيل الأوطار»، و«فتح الباري»، أو «المحلىٰ»، أو ما أشبه ذلك.

أما إذا كان لم يطَّلع علىٰ المسألة أصلًا، فإن تصور المسألة من الكتب المختصرة أيسر، وأدعىٰ للفهم من تصورها في الكتب المطولة؛ لأن الكتب المطولة تشرح المسألة فيها في كلمتين، أو ثلاث، وتبقىٰ بقية الصفحات كلها في الاستطرادات والخلافات.

أما في الكتب المختصرة، فتجد أنه يؤصل المسألة، ويُصورها، ثم بعد ذلك يحكم عليها، ويترك التفصيل لغيره.

سؤال (٨): هل العمل شرط صحة للإيمان أم منه ما هو للصحة ومنه ما هو للكمال؟

الجواب: هٰذه مسألة كثر فيها البحث في الفترة الأخيرة، ومن خاض فيها منهم من خاض بعلم ومنهم من خاض بغير علم، والمسألة تحتاج إلىٰ بسط إن شاء الله لمرة من المرات نبسطها لكم في أحد الدروس بإذن الله.

سؤال (٩): أبلغ من العمر ما بعد الثلاثين عامًا، ولم أطلب العلم في الصغر بسبب أصحابي، يقولون لي: لا سبيل لك إلىٰ هٰذا. ما العمل في هٰذا الأمر؟

الجواب: كثير من العلماء طلبوا العلم في الكبر، منهم من طلب العلم في الثلاثين، ومنهم من طلب العلم في الأربعين، فالسن ليس دليلا.

فالله جل وعلا قال لنبيه في آخر سورة الشورىٰ ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا ﴾ [الشورىٰ:٥٢] والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- درىٰ الكتاب ودرىٰ الإيمان بعد الأربعين.

فهٰذا الطالب لا ييأس، لأن العلم عبادة، وليس المقصود أن تصبح شيخًا، أو أن تصبح معلمًا، بل تطلب العلم لترفع الجهل عن نفسك، ولكي تقي نفسك التعبُّد بجهل، أو التعامل مع نفسك، ومع من حولك بجهل، فإذا طلبت العلم، وتعاملت بحق وعلم، فإن ذلك يكون عبادة تؤجر عليها.

سؤال (١٠): هل يلزم في صيام النوافل مثل الست من شوال أو الأيام البيض أو الاثنين أو الخميس لتبييت النية من الليل أو أنه يجوز النية من النهار؟

الجواب: إذا كان ما تنوي صيامه نفلا فإنه لا بأس من إحداث النية من النهار في أي وقت قبل الزوال أو بعد الزوال علىٰ الصحيح، وأجرك علىٰ قدر ما بقي من يومك، بشرط أن لا تكون قد طعمت قبلا، والنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يدخل بيته ويقول لهم: «أعندكم طعام» فإن قالوا: لا، قال: «فإني إذن صائم» دل قوله: «إني إذن صائم» علىٰ أنه أحدث النية للصيام بعد جوابهم، لأنه قال: «إني إذن صائم» هٰذا دليل المسألة خلافا لمن ذهب لعدم جواز إحداث النية في النوافل من النهار، لٰكِن الأجر بقدر ما بقي من اليوم.

إذا تبين ذلك فصيام الست نفل فيصدق عليها قاعدة النفل، لأنه له أن يحدث النية من النهار، من اي وقت من النهار، لٰكِن العلماء قالوا: إن أجره في ذلك اليوم بقدر ما بقي، لأنه من النية يصبح صائما أما ما قبل ذلك فقد أمسك عن الطعام والشراب لا بنية التعبد فلذلك لا يؤجر عليه، أمسك بالطبع ما وجد أكلا انشغل، نام، لكنه إذا بدأ النية هنا بدأ التعبد، فيكون أجره فيما بقي، فيكون اليوم من ست شوال الذي صامه بنية من اثناء النهار صار ناقصا، فلا يكمل حينئذ صيام الدهر له.

أما إذا كان الصيام فرضا أو واجب من الواجبات صيام رمضان لابد من تبييت النية من الليل كما في حديث حفصة وغيرها وإن كان الصيام واجب قضاء أو واجب كفارة من الكفارات أو نحو ذلك أو نذر وما أشبه ذلك فيجب أن يبيت النية من الليل لأن الواجب لا يصلح فيه إحداث النية من النار.

سؤال (١١): متىٰ يكون التقليد مذمومًا، ومتىٰ يكون محمودًا ؟

الجواب: الأصل في التقليد لطالب العلم أنه مذموم، لكنه يذم إذا كان يقلد مع إمكانية أن ينظر في المسألة بدليلها، والتقليد هو قبول قول العالم من غير حجة، فإذا قبلته بدليله، فلست مقلدًا، لأنك تكون في هذه الحالة قد اتبعت الدليل، لأنك سمعت القول بدليله.

إذا أمكنك أن تعرف الدليل، ولم تحرص علىٰ معرفته -في طالب العلم ليس في العوام-، فإن هٰذا يذم بقدره، لأنك تكون قد قلدت.

وذكر ابن عبد البر أن العلماء أجمعوا علىٰ أن المقلد ليس بعالم.

والمقلد أيضا من يعرف أقوال المذهب، بدون ما يعرف أدلتها، يعرف التوحيد والأحكام، هٰذا شرك، وهٰذا توحيد، وهٰذا كذا، لكنه لا يعرف الأدلة، هو يعرف أن هذه بدعة، لكنه لا يعرف دليل بدعيَّتها، وهٰذا كله تقليد.

فالتقليد يُحمد إذا ضاق الوقت عليه، يعني ضاق الوقت عليه وهو يحتاج إلىٰ مسألة، كأن يكون -مثلًا- في الصلاة، واشتبهت عليه مسألة: هل يسجد للسهو، أو لا يسجد؟ فسأل من يثق بعلمه، فقال له: لا تسجد. فهٰذا محمود.

إذا اشتبهت المسألة وكانت المسألة لها علاقة بمصالح ومفاسد، ولا يتسع الوقت للنظر فيها، فقلدت غيرك في هذه المسألة، من باب براءة الذمة، فإن هٰذا محمود أيضا، وهناك أيضًا أحوال أُخَر تنظر في محالّها.

أسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لما فيه رضاه. نكتفي بهذا القدر بارك الله فيكم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

أدبُ طالب العلم
مع مشايخه ومعلِّميه

لفضيلة الشّيخ **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ**

حفظه الله تعالى

[الدرس السابع من دروس شرح الطحاوية]

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد..

فأسأل اللهَ جل وعلا أن يجعلني وإيَّاكم من المتقرِّبين إليه بما يحبُّ، ومن المخلصين له دينَهم، وأن يجعلنا من أهل الدُّعاء المسموع والقلب الخاشع، وأن لا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

وقد جرت العادة أنَّه في ابتداء هٰذه الدُّروس أن نقدِّم بمقدِّمة نافعة في آداب المتعلِّم في طلبه للعلم، ومع مشايخه، وفي صِلته بالكتب، وبالحفظ.. وأشباه ذلك ممَّا يحتاجه المتعلِّمون.

ولا شكَّ أنَّ الأدب العام لطالب العلم مهمٌّ كأهمِّية العلم؛ لأنَّ من لم يُدرك الأدب ولم يكن متأدِّبًا بآداب أهل العلم فيما يأتي وفيما يذر وفي منهجه وفي طريقته؛ فإنَّه يفوته الانتفاع بالعلم كثيرًا؛ لأنَّ هناك صلة قوية متينة ما بين الأدب والعلم؛ أدب طالب العلم وما بين العلم نفسِه.

وقد ذكروا أنه كان يُحصىٰ في مجلس الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يُحصىٰ فيه عدد من الألوف كلهم يسمعون كلامه وكان الذين يكتبون منهم قريبا من خمسمائة وأما الباقي فيستفيدون الأدب والهدي والعلم؛ يعني العلم العام.

وهٰذا ملاحظ فإنه ليس كل من يحضر متحقِّقا للعلم، متحقِّقا بطريقة تحصيله، ولكن لن يعدم خيرًا وفائدة، وقد قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**لا خير في الدُّنيا إلا لأحد رجلين متكلِّم عالم أو صامت واعٍ**) وهٰذا ظاهر بيِّن فيما تلاحظه فإنَّ الدنيا لا خير فيها إلا لعالم متكلِّم يفيد أو صامت كافٍّ عمّا لا يعنيه واعٍ للعلم النافع الذي يلقىٰ إليه، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ [النساء]، وقد صحَّ عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخرِ: فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ**»، وهٰذا كما قال أبو الدرداء (لا خير في الدُّنيا إلا لأحد رجلين صامت واعٍ أو عالم متكلم) أو كما قال.

لهٰذا عرضنا فيما سبق عددًا من الآداب في صدر هٰذه الدُّروس التي ينبغي لطالب العلم أن يتعاهدها وأن يتعلمها.

ونذكر في هٰذه الليلة: **أدب طالب العلم مع مشايخه ومعلميه.**

وقبل هٰذا نذكر بعض الكتب التي عُنيت بآداب طالب العلم بعامة ومع المشايخ بخاصَّة، فمن ذلك:

- كتاب ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ «الجامع».
- وكتاب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا «الجامع».
- ومن ذلك كتاب ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ «تذكرة السَّامع والمتعلم».
- ومن ذلك مقدِّمة «المجموع شرح المهذب» للنَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ.
- ومن ذلك أيضا ما تفرق في كتاب «سير أعلام النبلاء» من آداب كثيرة.
- ومنها ما جاء في مقدمة «سنن الدارمي» أيضا.

وفي عدد من الكتب التي ذكرت فيها آداب كثيرة لطالب العلم، وقد صُنّف في هٰذا الوقت المتأخِّر يعني في زماننا مؤلفات كثيرة ما بين من أجاد ومن توسط ومن كان ضعيفا.

والمقصود من ذلك أن يحصِّل طالب العلم مع العلم الأدب، ونعني بالأدب الهدي والسَّمت الذي يكون عليه، ولهٰذا كان من الأصول العامة التي ينبغي التواصي بها أن يكون طالب العلم ذا سمت حسن وذا هدي ودل، فقد قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كان أحد أشبه هديا وسمتا ودلًّا لرسول الله ﷺ من ابن مسعود. وقال بعض أصحاب ابن مسعود: ما كان أحد أشبه سمتا لابن مسعود من الربيع بن خُثيم. وهكذا في أمثلة كثيرة يكون المتعلِّم يأخذ مع العلم الهدي والسَّمت والأدب؛ لأنَّ هٰذه لا يحصِّلها المتعلم بالقراءة للكتب ولا يحصلها بالإطلاع ولا يحصلها بكثرة السماع المجرد عن الاختلاط، ولهٰذا كان كثيرٌ من طلاب العلم الذين لا يخالطون المشايخ ولا يقتربون منهم يفقدون كثيرًا من الهدي والسمت والمنهج لأجل عدم القُرب من أهل العلم والمشايخ.

فالأصل العام أن يكون طالب العلم حريصا علىٰ الهدي وعلىٰ السَّمت وعلىٰ العلم، وأن يكون متأدبا بآداب المشايخ، وكلَّما كان المرء أصحب للمشايخ وأقل صحبة لأقرانه كلَّما كان أقرب إلىٰ العلم؛ لأنه هناك صلة وثيقة ما بين إدراك العلم والمخالطة، فإذا خالط من هو أكبر منه من أهل العلم والمشايخ فإنَّه يكون هديه وفهمه وفكره قريبًا من هديهم وعلمهم وفكرهم وسمتهم ورؤيتهم للأشياء وكيف تعلَّموا وكيف أخذوا وكيف يتعاملون مع الكتب ومع الناس إلىٰ آخر ذلك، ممَّا لا يدركه من قرأ في الكتب وحدها.

ولهٰذا قال بعض المتقدِّمين كما ذكره العسكري في بعض كتبه وذكره غيره قال: من أعظم البليَّة تشيّخ الصَّحفيّ. يعني الذين أخذوا العلم عن الصحف ولم يخالطوا المشايخ فإن تصدرهم يحدث بلاء وإن

انتفع الناس بهم، لكن عدم مخالطتهم لأهل العلم وأخذهم الهدىٰ والدلّ والسمت من أهل العلم فإنه يُفقدهم ذلك شيئا كثيرا، لهٰذا في هٰذا الدرس الموجز كمقدمة لهٰذه الدروس نعرض لبعض آداب طالب العلم مع المتعلم ومع شيخه وذلك إكمالًا لجملة آداب عرضنا لها فيما مضىٰ في صدر هٰذه الدروس.

أول الأدب مع المشايخ والمعلمين:

أن يكون الطالب حَسَن الظن بشيخه في العلم الذي يتعلمه منه.

وهٰذا يعني أن ينتقي لنفسه من يحسن العلم الذي يعلمه، معلوم أن أهل العلم لا يدركون كل العلوم، فليس من شرط العالم أو الشيخ الذي يعلم أن يكون متصدرا في كل فن وفي كل علم، هٰذا قلّ من يؤتاه، ولكن المهم أنه إذا تكلم في علم من العلوم أجاد، يحسن تقرير العقيدة، يحسن تقرير الفقه، يحسن تقرير الحديث، ويحسن تقرير التَّفسير، الأصول، النحو، إلىٰ آخر العلوم، فتأخذ العلم ممَّن يحسن تقريره، وهٰذا إذا تحرَّيت وأقبلت علىٰ العالم عالمًا بمنزلته في العلم الذي يعلمه فإنَّ الذي ينبغي عليك أن تحسن الظن به فيما يقول؛ يعني أن تأخذ ما يقول أخذ المستفيدِ لا أخذ المعترض.

وهٰذا كتقعيدٍ عام ينفع في حسن التلقِّي وقَبول العلم واستقرار العلم في الصدر؛ لأنَّ من المتعلمين من يحضر عند شيخ مثلا، وهٰذا المعلِّم أو الشيخ إذا تكلم تجد أن المتعلِّم يورد الاعتراضات علىٰ هٰذا الشيخ، وهو يتكلَّم يورد الاعتراضات فيما بينه وبين نفسه، فتجد هٰذه أنَّ الاعتراضات التي يوردها علىٰ كلامه تفوّته ربط الكلام بعضه ببعض، وتفوّته أيضا الاستفادة من الشَّيخ والمعلم فيما يقول وفيما يقرِّر.

لهٰذا أوَّلا انتقاء المشايخ، وأن تنتقي العالم الذي يحسن تقرير العلم الذي يدرسه كلٌّ في مجاله، فإذا اخترت فتُحسن الظنَّ به في أن الأصل فيما يقوله هو الصَّواب في هٰذا العلم، وألا تكثر الاعتراضات عليه فيما يقول وفيما يقرر.

الثاني من الآداب:

أن يكون طالب العلم متأدبا مع شيخه في لفظه وفي جلسته وفي فعله

وهٰذا أخذه أهل العلم من قصَّة جبريل مع المصطفي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث المشهور المعروف؛ وهو أنَّ جبريل لمَّا أتىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في صورة رجل جاء إليه متعلِّمًا، فأقبل النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وثنىٰ ركبتيه بين يديه وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه وجعل يديه علىٰ فخذيه، فهٰذا أدبُ الجلسة بين يدي المعلِّم، وهٰذا الأدب يفيد فوائد منها:

أوَّلًا: أن يتعلم طالب العلم الصبر في التعلُّم.

والثَّاني: أن يكون هٰذا داعيا لإقبال الشيخ علىٰ المتعلم للإجابة؛ لأنَّ للمشايخ حبّ ورغبة فيمن يكون

متأدِّبًا في الكلام معهم؛ لأنَّه من سنن أهل العلم المتوارَثة أنَّ العلم إنما يكون في المتأدِّبين.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أمسك بزمام ناقة زيد بن ثابت فقالوا له: هٰذا وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا.

وقد جاء في بعض الآثار أن من السنة توقير العالم، وهٰذا له شواهده العملية من هدي الصَّحابة رضوان الله عليهم.

فإذن الجِلسة أمام العالم لها أثر، والتَّكلُّم معه في طريقته له أثر علىٰ المتعلِّم وعلىٰ العالم جميعا: أما أثره علىٰ المتعلم وهو أن يوطِّن نفسه علىٰ احترام العلم وأهله، وإذا العالم احترم العالم الذي يكون أمامه فإنه سيحترم العلماء الأولين، وكم رأينا من ذوي فضاضة وغلظة علىٰ العلماء الحاضرين فصاروا ذوي فضاضة وغلظة علىٰ العلماء العابرين السابقين، والأمر من جهة ما يَقَرُّ في نفس المتعلم واحد؛ فإذا تعلم الأدب في اللفظ فإنه يكون متأدبا في العلم وحمله.

كان رجلان أتيا إلىٰ الأعمش أحدهما صاحب حديث والآخر ليس بصاحب حديث، فأغلظ الأعمش -وكان فيه نوع حدّة- علىٰ صاحب الحديث بكلام فيه غلظة، فلما انتهوا قال الآخر لصاحب الحديث في حضرة الأعمش: لو قال لي ما قال لك لم أحضر إليه أبدًا. فقال الأعمش: أوَ يكون أحمق كمثلك يترك خيري الدنيا والآخرة لغلظتي.

إذا كان هٰذا تركَّب في نفس بعض المشايخ أو في كلامه أو في طريقة تعامله أن فيه غلظة، فهل يترك المتعلِّم الأدب لأجل شدة الشيخ أو لأجل تعنيفه أو نحو ذلك؟ هٰذا ليس بصحيح؛ لأن طالب العلم ما أخذ في طريق العلم إلا وهو مؤْثِرٌ له علىٰ الدنيا، مؤثر له علىٰ الرَّاحة، ومن جملة الدُّنيا والراحة أن يكون الكلام معه دائما بعبارة لا تسوؤه، ولهٰذا يدخل ذلك في التَّأدُّب في اللفظ بحيث أنه إذا سأل يسأل متأدبا، ينتقي أحسن العبارات، وإذا تكلَّم في حضرة شيخه تكلَّم بأحسن العبارات، وإذا أراد المعلِّم أو الشيخ أن يعنف أو عنّف أو تكلم فإنَّ ذلك الطالب يحتمله ولا يردُّ عليه مقالته.

[ثالثا:] من الأدب أيضًا مع الشيخ الأدب في الأفعال، وهو أن لا يرىٰ العالم طالب العلم علىٰ هيئة لا تحسن؛ في لباسه، أو في مشيته، أو في خفة في تصرفاته، أو في نقص في الأدب معه وهو يكلمه، فيكون معه في فعل حسن، قالوا: ومن الآداب أن لا يمشي المتعلم بين يدي شيخه إلَّا بأمر شيخه، وأن يكون وقورًا في مماشاة المشايخ غير مكثرٍ للحديث، غير مكثر للحركة، وهٰذا لا شك له أثر علىٰ المتعلِّم وعلىٰ الشيخ فيما يفيد به المتعلم.

فإذن هٰذه الثَّلاث -الأقوال والأفعال والجلسة، هيئة الجلوس- لها أثر في إقبال المتعلم علىٰ العلم

واحترامه أهله وفي إقبال المعلم علىٰ إفادة المتعلم.

من الآداب وهو الأدب الثالث:

أن يكون طالب العلم متأدِّبًا مع شيخه في السؤال

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيح أراد ابن عباس أن يسأله عن المرأتين اللَّتين تضاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ، يقول ابن عباس: مكثتُ سنة أتحيَّن الفرصة لأسأله حتىٰ إذا كان وقت قفولنا من الحج ذهب عمر إلىٰ شجرة أراك ليقضي حاجةً له، فانتظرت فلما رجع سألته فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان تضاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال: هما عائشة وحفصة.

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين لقد كان هٰذا في نفسي سنةً أريد أن أسأل عنه فما سألتك هيبة لك. قال له عمر: لا تفعل أبدًا ما بدا لك فسل وما كان عندي من علم أخبرتك به. أو كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هٰذا الكلام من عمر وهو الرجل المهيب من أثر أدب ابن عباس، فانفتح الباب لأجل هٰذا الأدب وهٰذه الهيبة التي كانت عند ابن عباس لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجمعين.

هٰذا الأدب في المخاطبة وفي السؤال وتحرِّي الوقت المناسب، هٰذا مهمٌّ جدًّا في طالب العلم مع شيخه لم؟ أولا ليس كل وقت يكون بالُ المعلم أو بال الشَّيخ جيِّدًا محبذا لإجابة السؤال، هو بشر يعتريه ما يعتري البشر، وأعظم إذا كان السؤال بالهاتف في مثل هٰذا الزمان فإن المتَّصل لا يدري ما حال الشيخ، فقد يكون جوابه ليس تامًّا، وقد يكون لا يريد الجواب ونحو ذلك، فالطَّالب يكون عاذرا لشيخه في كل ما يحصل منه من جهة السُّؤال والجواب، وأن يكون ذا هيبة وأن يتحرَّىٰ الوقت المناسب للسؤال، فلا يسأله مثلا وهو متعب، لا يسأله في وقت يكون من حقوقه؛ يعني من حقوق الشيخ مع نفسه أو مع أهله، لا يسأله في وقت يريد الانصراف؛ لأن باله يكون مشغولا، قد لا يستحضر الجواب من كل جهة ومراد المتعلم من السؤال أن يستفيد من شيخه، وهٰذا إنَّما يكون في حال يكون فيها الشيخ مع طلابه حسن الاستحضار أو مرتاح البال فيفيض عليهم ممَّا عنده، أما إذا كان باله غير جيد فينبغي لطالب العلم أن يتحرىٰ وأن يكون شيخه حِسُّه مُحِسًّا بأن هٰذا الطالب يهابه ويحترمه ويحبه فإنه يختصه ويخصه بأشياء قد لا يفيضها علىٰ الآخرين، وهٰذا ظاهر بيِّن في سيرة كثير من أهل العلم.

انظر مثلا كم نقل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية من مسائل لم ينقلها غيره؛ بل كان يختصه بكلمات وبفوائد وبعلوم لم يعطها غيره.

وكذلك أهل العلم فيما يتواردون فإنهم يختصُّون بعض طلابهم بأشياء، وهٰذا إنَّما كان نتيجة لحسن أدب الطالب، وحسن إظهار هيبة الشَّيخ ووقت السُّؤال ونحو ذلك مما هو من الآداب العامَّة.

صيغة السؤال أيضا مهمَّة، عدم الاعتراض في الجواب هٰذا مهم، فإذا كان مثلا في الدرس فلا يحسن إذا أجاب الشيخ إجابةً أن يعترض الطَّالب؛ بل يذهب معه وينبهه إلىٰ رأيه في المسألة، إذا كان هو مثلا يعني الشيخ ترك شيئًا أو ما استحضر الجواب أو أخطأ أو ذهب ذهنه إلىٰ شيء آخر ونحو ذلك من عوارض البشر، ينبهِّه والأصل في أهل العلم أن يكونوا رجّاعين إلىٰ الحق، فإذا استبان الصَّواب إلىٰ الشيخ من جرّاء كلام الطالب عنده فإنَّه ينبه الطلاب بعد ذلك علىٰ هٰذا الأمر.

فإذن نخلص من هٰذا إلىٰ شيئين:

الأوَّل: أنه لا يُشترط أن يكون العالم مصيبًا دائما، مفصلا للمسائل دائمًا، قال: كنا -يعني في رواية الحديث- إذا نشطنا أسندنا وإذا كسلنا أرسلنا. يعني قد يكون الحديث مسندًا عند العالم فيختار أن يكون مرسلًا، فيقول مثلا: عن ابن عباس أن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال كذا، أو يقول الزهري قال رسول الله ﷺ كذا، وإذا نشط أسند، وهٰذا يعني أنَّ العالم قد يكون عند الجواب مفصلا؛ لكن لأجل شيء في باله، أو ضيق المجلس، أو ما يعتري المرء عادة يختصر الجواب، وقد يكون ثم في الاختصار شيء من الخلل.

فإذن طالب العلم إذا رأىٰ في جواب مسألة ما ليس بمستقيم، فإمَّا أن ينبِّه الشيخ أو أن يعرض السُّؤال مرَّةً أخرَىٰ في وقتٍ آخر؛ ليأخذ الجواب ويعرف اجتهاد العالم أو رأيه في هٰذه المسألة أو جوابه علىٰ السُّؤال؛ لأنَّ الشيخ والعالم أو المعلم ليس دائما نشيطًا أن يقول كل ما عنده، فتارة يكون نشيطا وتارة لا يكون نشيطا، فتجد الجواب مختصرًا وأحيانا ربما كلمة واحدة.

من الآداب أيضا وهو الرابع:

أن يكون طالب العلم مع شيخه صبورا

- والصَّبر يعني في التعلم.
- والصَّبر علىٰ أخلاق شيخه.
- والصَّبر علىٰ انتزاع الفوائد منه.

هٰذه ثلاثة أشياء:

المسألة الأولىٰ: **صبره علىٰ التَّعلم**: في أن يكون صابرا علىٰ حضور الدرس، كما قلنا إذا كان واثقا بعلم شيخه فلا يحكمن علىٰ شيخه أو يزهَد فيه إذا حضر درسا أو درسين أو ثلاثة، فهٰذا ربما تأتي عوارض، أو نوع الدرس يحدده، أو المتن مثلا ما فيه مجال للتفصيل وللإفادة، فلا يكن الطالب عجِلًا غير صبور في الحكم في التعامل مع شيخه وفي الحكم عليه.

وهٰذا كثير عند الشباب في أنهم يستعجلون في الحكم ولا يصبرون خاصة مع المشايخ الكبار الذين لهم علم بالعلوم الأصلية في الشريعة، والصبر عليهم ومعهم يفيد الطالب كثيرًا.

المسألة الثَّانية: الصَّبر علىٰ الشَّيخ من جهة أخلاقه: فقد قدَّمنا طرفًا منه؛ ما يشير إشارة إلىٰ أصل ذلك، وقصَّة موسىٰ عليه السلام مع الخضِر معلومة لديكم، كيف أنّ موسىٰ عليه السلام كما روىٰ البخاري وغيره «**سئل فقيل له: من أعلم أهل الأرض؟ فقال موسىٰ: أنا. فأوحىٰ الله إليه ايتي عبدَنا خضِرًا، فإنه أعلم منك**». في القصة المعروفة، وموسىٰ عليه السلام لما صحِب الخضر لم يصبر عليه:

قال في المرة الأولىٰ له –ركب السفينة فخرقها الخضر– فقال له موسىٰ: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف]، لأنَّ الأصل الصبر.

المرة الثانية سأل فكرر عليه الجواب، فقال الخضر لموسىٰ: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ ﴾هٰذه فيها تخويف وفيها غلظة، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾﴾[الكهف] ثم فارق الكليم الخضر بسبب عدم الصبر، ولو صبر– وددنا أن موسىٰ صبر – لأخذ منه علما كثيرا.

فهٰذا الأصل العام؛ وهو أن الطالب مع الشيخ يكون صبورا ولا يستعجل عليه في مسائل لا يحسنها الطَّالب، هٰذا وجدناه من بعض الإخوان؛ أنهم يستعجلون.

خُذْ مثلا علم قبل مخالطته لهٰذا العالم، والشيخ، علم مسألتين أو ثلاث مثلا في مصطلح الحديث، علم حكم المرسل أو حكم الحديث الضعيف والاستدلال به أو نحو ذلك أو الحديث الضعيف أو الحديث هٰذا ليس بصحيح، أو علم أن الراجح في المسألة كذا، فإذا خالط هٰذا عالما وابتدأ هٰذا بكلام ذهب ذاك لعدم صبره يعارضه، فيقول مثلا معترضا: هٰذا حديث مرسل، أليس هٰذا الحديث مرسل يا شيخ؟ –مثلا–، يقول هٰذا الحديث أليس حديثا ضعيفا؟ ونحو ذلك.

وهٰذا الطالب لقلة صبره وأيضا لقلة العلم فإنه اعترض، وهٰذا الاعتراض الذي هو من جراء عدم الصبر يسبب المفارقة وعدم إحسان الشيخ الظَّن بهٰذا الطالب وعدم إفادته.

ومعلوم كما قلنا أن العلوم مختلفة وأن المشايخ مختلفون في استعداداتهم وفي علومهم، وأيضا الطالب قد يكون متأثِّرًا بكلام عالم فيأخذ هٰذا الكلام ويدلي به علىٰ عالم فيقع منه عدم الصبر والاستعجال.

المسألة الثالثة: ترك الصبر الذي يفضي إلىٰ خسارةٍ في اقتناص الفوائد: العلم مراتب؛ هناك علم هو تقرير للعلم، مثل تحضر تسمع شرح كتاب وتقرير علىٰ متن أو تقرير علىٰ كتاب مطوّل، هٰذا علم يمكن

أن يؤدىٰ والطالب يسمع؛ لكن هناك فوائد لا يجدها الطالب في كتاب بسهولة؛ فوائد متنوِّعة حصَّلها الشيخ من مشايخه المتنوِّعين ومن معلومات كثيرة ومن قراءات متنوعة بضوابط وفوائد ونحو ذلك، وهٰذه الفوائد والضَّوابط والنُّكات الرَّصينة هٰذه لا يوصلها الشيخ لأي طالب؛ بل يخصُّ بها بعض طلابه؛ لأنها من الفوائد المهمة عنده، فلا يظهرها لكلِّ أحد، لهٰذا إذا صبر المتعلم علىٰ العالم فإنَّه يخصه بأشياء تفتح له باب العلم، بل ربما كانت الواحدة من تلك الفوائد تساوي رحلة كما يقال.

لهٰذا ينبغي لطالب العلم أن يكون صبورًا وأن يعلم أنَّه كلما طالت صحبته لشيخه وكلما طال حسن أدبه معه وكلَّما كان صبره عليه أكثر كلما أعطاه من العلم؛ من العلم الخاصّ الذي قد لا يكون ثم مناسبة لإبدائه لكل أحد، رأي العالم في النَّاس، رأي العالم في الأوضاع، رأي العالم في بعض المسائل الخاصَّة ونحو ذلك، هٰذه قد لا يحسن أن تُبدىٰ في الدروس، وإنما قد يخص بها بعض الطلاب، وهٰذا إنما يكون لمن عنده الأدب مع الشيخ وحسن ظن الشيخ بالطالب في أنه حافظ لكلامه مستفيدٌ منه.

الأدب الذي يلي هٰذا وهو الخامس:

أن يعلم الطالب أنّ حضوره لمجلس الشيخ إما في علم أو في مجلس ليس من مجالس العلم؛ يعني في مجلس معتاد في بيته أو يصحبه في رحلة أو يمشي معه في وعظ أو إلقاء دروس أو محاضرات أو علم أو نحو ذلك، أو يصحبه في حج أو في سفر إلىٰ آخره، أنْ يكون طالب العلم مع الشيخ متحريا للاستعداد.

يعني أن لا يبتدئ الكلام دون استعداد منه لذلك، بل يقتنص هٰذا الوقت ولو كان ضئيلا في أن يأتي الأسئلة المهمة المشكلة، أو أن يتحرىٰ الفوائد التي لا يكون المجال مفتوحًا أن يلقيها دائما، وهٰذا يحتاج إلىٰ استعداد، معلوم أنّ كل طالب علم إذا قرأ، فإن لديه مشكلات يشكل عليه قراءة في الكتاب الفلاني وكلام العالم، ويشكل عليه فتوىٰ العالم ولا يدري ما وجه هٰذا؛ هٰذا الحديث كيف يوجَّه، الفتوىٰ علىٰ كذا والحديث فيه كيف نوجه هٰذا، أنت قلت -مثلا- مرة كذا والسنة دلت علىٰ كذا، بما توجِّه هٰذا؟ وأشباه ذلك من المُشكلات التي تعترض طالب العلم في قراءاته، ومن المشكلات التي تعترض طالب العلم فيما يسمع من الفتاوىٰ والعلم، فإنَّ هٰذه تحتاج منه إلىٰ وقت مناسب للسُّؤال، وهٰذا كما ذكرت يحتاج إلىٰ استعداد.

فإذن صلة طالب العلم بشيخه في مجلس العلم أو في خارج مجلس العلم لا بد أن يكون علىٰ استعداد، لا يأتيه للمجلس هكذا عفوا، وخاصة في هٰذا الزمن الوقت فيه أصبح أقل من القليل، فإذا أراد طالب العلم أن يستفيد من المعلم أو من شيخه أو من العالم فيكون مستعدا للحضور فيما يفكِّر به وفيه وفيما سيعرضه قبل حضوره، من الناس مثلا من يظهر علىٰ باله سؤال وقت الجلوس فيلقيه، وهٰذا غير

مناسب؛ لأنه قد لا تكون أنت مفكِّرًا في السؤال من كل جهة فيأخذ العالم أو الشيخ الانطباع عنك بأنك تستعجل في السؤال، وبالتالي قد لا يفتح لك ويفصل لك أو يعطيك المنزلة اللائقة بعلمك.

فينبغي أن يكون طالب العلم مستعدا في مخالطته للعلماء وللمشايخ في أن يكون حذِرًا في الكلام هائبا بأن يسأل إلا بشيء يحسن السؤال عنه لا يورد إشكال إلا بإشكال يحسن الاستفهام عنه وهكذا.

وأما أن يحضر ويلقي أي سؤال أو أي كلام ونحو ذلك فهٰذا ليس مناسبا؛ لأنه قد يُعطي الشيخ نظرًا علىٰ طالب العلم ليس بحسن.

هٰذه بعض آداب عامة مع المشايخ، والأدب الذي ينبغي حفظه وتجده في الكتب التي ذكرنا بكثرة أن **موالاة طالب العلم لشيخه أنها واجبة**، ومعنىٰ الموالاة يعني أن يحبه وأن ينصره وأن يذُبَّ عنه ونحو ذلك بما يعلمه هو.

ولهٰذا جاء في كتب الآداب أو في بعضها أنه يُحرم الطَّالب من علم الشيخ إذا كان مغتابًا له، وهٰذه مجرَّبة؛ لأن غيبة طالب العلم للشيخ تُفقد محبته وتفقد الاستفادة من علمه بعد ذلك، والأمور تأتي شيئا فشيئا؛ لأن القلب كلما كان أكثر محبة وأكثر قبولا لما يُقال ورغبة في هٰذا المعلم أو في هٰذا الشيخ أو العالم كلما كان أذب عنه واحفظ لعرضه وأكف اللسان عنه.

وما علمنا أحد من خاصة طلبة أحد من أهل العلم المتقدمين أو المتأخرين إلا وينشرون محاسنهم، معلوم أن العلماء أو طلبة العلم ليسوا بأنبياء ولا يشترط فيهم الوَلاية؛ يعني أن يكونوا من كُمَّل المؤمنين وإنما يستفاد منهم علىٰ ما فيهم، وكلما كان العالم أو الشيخ أكثر إتِّباعا وأكثر استقامة وأكثر مجاهدة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر فهو أعلىٰ لمقامه، لكن يؤخذ من العالم ما عنده وأن لا يتْبع العالم بزلته، فالعالم لا يتَّبع في زلته، وكذلك لا يُتْبَع في زلته، فلا يشنَّع عليه بأشياء يقولها مثلا وتنشر عنه ويترك الخير الكثير الذي يقوله.

فلو تتبع الناس سقطات العلماء في الماضي من الأموات رحمهم الله تعالىٰ ورفع درجتهم لوجدوا شيئا كثيرا، فما من عالم إلا وله زلة، ولما ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة محمد بن نصر المروزي لما ذكر بعض ما قيل قال: ولو فتحنا هٰذا الباب -يعني ما يقال- لما سلم لنا محمد بن نصر المروزي ولما سلم لنا ابن منده ولما سلم لنا فلان وفلان.

فإذن العالم يغتفر قليل خطئه في كثير صوابه، كما قال ابن رجب في فاتحة كتابه «القواعد» حيث قال: فلقد سنح بالبال -يعني يصف كتابه- علىٰ جناح الاستعجال في أيام يسيرة وليال، والمنصف من اغتفر قليل خطإ المرء في كثير صواب. وهٰذا هو المنصف، يعني كل عالم لابد أن يكون له غلط هل يشترط في

العالم أن يحرر كل مسألة أو أن يكون إماما في كل مسألة ولو ذكرنا ما نقل فمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ نقلت عنه أشياء كما هو معلوم، الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نُقلت عنه أشياء، أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت عنه أشياء، أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت عنه أشياء، وهكذا، العلماء ما منهم أحد إلا وثَمّ شيء، قال بعض أهل العلم هٰذا فيه حكمة من الله جل وعلا حتىٰ لا يظنَّ الناس بعالم أنه وصل مرتبة الأنبياء في أنه يؤخذ قوله كلُّه، وأن يقبل بعمله في الإقتداء كلّه؛ يعني أن يقبل بعلمه كله في الإقتداء، فلا بد من ظهور بعض النقص، وكلما قل النقص كلما ظهرت إمامة العالم وازدادت مكانته للناس وكلما زاد النقص كلما قلت مكانته وهكذا.

فإذن ينبغي لطالب العلم أن يتحقق قول الله جل وعلا: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ [التوبة:٧١]، وأن يتحقق قول الله جل وعلا: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة:١١]، وأن يعلم أن أهل العلم هم أهل الرفعة في هٰذه الدنيا وأن أهل العلم درجات فلا يجعلنهم في مرتبة واحدة وأن يطلب الكمال في العالم أو في المعلم أو في شيخه، هٰذا لا يكون، وما من أحدٍ إلَّا وله قصوره إما في مقاله أو في أفعاله أو تصوره للمسائل أو في إلقائه للعلم، فيأخذ الطالب من العالم أحسن ما يجده والحَكم في ذلك كله سنَّةُ المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

هٰذه كلمات مختصرة في ابتداء هٰذا الدرس.

وأسأل الله جلَّ وعلا أن ينفعني وإيَّاكم بما سمعنا، وأن يجعلنا متأدِّبين مع علمائنا ومشايخنا، وأن يلحقنا بالصَّالحين، وأن يجعلنا في زمرة العلماء العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّد.

[الأسئلة وأجوبتها]

سؤال (١): سؤال يُكتب لثالث مرَّة: ورد عن الإمام أحمد أنه كان يترك السنة الراتبة، فإذا سئل عن ذلك قال: اكتفينا بدرس أبي زرعة أو كلمة نحوها، -(اكتفينا عن الرَّواتب بمذاكرة العلم مع أبي زرعة) هٰذه كلمة الإمام أحمد- فهل ينطبق هٰذا علىٰ وضعنا في هٰذا المسجد؟

الجواب: لا، لا يُتصور في عالم أو في طالب علم أو في رجل صالح يرجو ما عند الله جل وعلا ويحب المصطفىٰ ﷺ أنه يترك النوافل، فمن ترك النوافل رُدَّت شهادته كما قال أهل العلم، وإنما قد يترك العالم أو طالب العلم بعض النوافل لمصلحةٍ راجحة؛ لأن النوافل نفعها قاصر، وقد ينشغل طالبُ العلم بما نفعه متعدٍّ ويفوت وقته، فأبو زرعة من أهل الرَّي فلما قدم بغداد تذاكر العلم مع أحمد ليلة كاملة حتىٰ أصبح من بعد صلاة العشاء وفي النهار فترك الإمام أحمد الرواتب والوتر فيما يُذكر، وهٰذا لأجل أن مذاكرة العلم مع أبي زرعة هٰذا نفعها متعدٍّ للأمة مصلحتها عامة في العلم وفي الإرشاد وفي نقد الأحاديث

وفي تعليلها ونحو ذلك، والرَّواتب قاصرٌ نفعها علىٰ من أداها، وأيضا مذاكرة أبي زرعة تفوت والرواتب يمكن أن يزيد من النوافل المطلقة في وقت لاحقٍ ويأتيه الثواب.

يعني أنّ الأصل المتابعة في السنة، الأصل أداء هٰذه الرواتب، وقد يعرض لطالب العلم، قد يعرض للشيخ ما يرجحه من جهة أنه أفضل شرعًا لا من جهة هواه أو من جهة رغبته، ومعلوم أنَّ الرواتب أنها ليست مفروضة لكن من جهة المصلحة التي يرجوها في تركها المصلحة المتعدِّية، فهٰذا يسوغ، لكن لا يكون ديدنا له ولا هديًا له.

وهٰذه لها نظائر، فبعضهم ترك قيام الليل لأجل التَّفكُّر، وبعضهم ترك بعض الصلوات لأجل التَّأليف يعني الرواتب لأجل التأليف، ونحو ذلك مما هو معلوم.

سؤال (٢): ما حكم تحية المسجد، وماذا أفعل لو دخلت المسجد في وقت نهي؟

الجواب: تحية المسجد سنة مؤكَّدة وليست بواجبة علىٰ الصحيح، وإذا دخلت المسجد وقت نهي فالعلماء اختلفوا في ذلك اختلافًا كثيرا طويلا، والاختلاف من جهة التَّرجيح فيه صعوبة.

ومن أهل العلم من قال: النهي مقدم؛ النهي عن الصلاة في هٰذه الأوقات يعني أوقات النهي، وتحية المسجد سنة والنهي يدلُّ علىٰ التحريم فلا تصلَّىٰ وقت النهي، وهٰذا مذهب الإمام أحمد وجمع من أهل الحديث.

وآخرون من أهل العلم قالوا: إن النهي عن الصَّلاة في وقت النهي هي الأوقات الخمسة المعروفة، ثلاثة أوقات مضيقة ووقتان واسعان، هٰذا لغير الصلوات ذوات السَّبب، أما إذا كانت الصلاة لها سبب مثل ركعتي الوضوء ومثل تحية المسجد والاستخارة وركعتي الطَّواف وركعتي الدخول في الإحرام عند من قال به ونحو ذلك، فإن هٰذا يعتبر من ذوات السَّبب فتُفعل وقت النهي، وهٰذا مذهب طائفة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وينصره طائفة من أهل العلم في هٰذا الزمن.

والشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عرض إلىٰ هٰذه المسالة ذهب مذهبًا غريبًا، هو أصولي وتعارضت عنده الأدلة؛ لأنَّ الدَّليل الذي فيه الأمر بصلاة المسجد فيه الأمر بتحية المسجد هٰذا فيه عموم، فيه أنه إذا دخل في أي وقت فيركع ركعتين، والنهي عن الصلاة هٰذا فيه خصوص الأوقات ولكنه فيه عموم الصلوات، وذاك فيه عموم الأوقات وفيه خصوص الصَّلاة، فأي العمومين يقضىٰ به علىٰ الآخر وأي الخصوصين يقضىٰ به علىٰ الآخر؟ نظر فيه نظرا أصوليا ولم يترجح له شيء -في نيل الأوطار-، وقال: فإن قلتَ ما الذي تحصل لكَ في هٰذه المسألة المشكلة؟ قلتُ: تحصَّل لي أن لا تدخل المسجد وقت النهي، حتىٰ لا تصلي تحية المسجد. يعني لا تدخل المسجد أصلا.

وهٰذا يبيِّن لك أن المسألة مشكلة من جهة الترجيح لتعارض العمومين فيها والخصوصين، وإذا أعملنا القاعدة أن الاحتياط يقضي بالترك لأجل النهي، وأن درأ المفسدة مقدَّم وإذا اجتمع حاظر ومبيح فيقدم الحاضر ونحو ذلك من القواعد، فإنه يرجَّح بذلك عدم أداء الصلاة وقت النهي كما هو مذهب الإمام أحمد.

ومن نظر في أنها ذات سبب وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام أمر الرجل الذي أتىٰ وهو يخطب في الجمعة وقال له: «**أصليت ركعتين**» فقال: لا، فقال: «**قم فصليهما**»، وأن ذلك كان وقت نهي، جعل ذلك من ذوات الأسباب.

وتبقىٰ المسألة فيها هٰذه المذاهب.

سؤال (٣): ما رأيك يا شيخ في الإكثار من الأسئلة علىٰ الشيخ من باب الأخذ أكبر كمية من العلم، أي حرصًا من الطالب؟

الجواب: أولا العلم ليس بالسؤال، العلم بالتعلم، السؤال كاشف عما يشكل في العلم، وإذا كان طالب العلم يُكثر من السؤال لأخذ العلم فلن يحصّل علما؛ لأن الأسئلة لا يجمعها زمام، ومعلوم أنّ تقرير العلم من جهة الكتب غير الجواب علىٰ الأسئلة، وقد نأتي نقرر المسألة في كتاب ونفصل الكلام فيها ويأتي السؤال ويكون الجواب عليه مقتضبا أو يكون الجواب عليه له منحنىٰ آخر.

فإذن العلم التأصيلي ليس بالأسئلة، هٰذا كأصل تأخذ معك، الأسئلة إنما تنفع لكشف ما يشكل، شيء يشكل عليك في العلم تسأل عنه لكشفه، وأما إذا كان السؤال للتعلم فليس كذلك، فالعلم ليس بالسؤال وإنما يؤخذ العلم بالتعلم والسؤال بالعلم في كشف ما يشكل من العلم.

سؤال (٤): من الملحوظ قلة من يتصدىٰ لتدريس علوم الآلة من أهل العلم فما هو السبب، وما هو الحل بالنسبة للطالب؟

الجواب: علوم الآلة محدودة، ولا ينبغي للطالب أن يُكثر من علوم الآلة علىٰ حساب العلوم الأصلية؛ علوم الشريعة العقيدة، التوحيد، الفقه، الحديث، التفسير، هٰذه هي العلوم الأصلية التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها، ويأخذ من علوم الآلة ما يحتاجه لفقه الكتاب والسنة، هٰذا هو الأصل الذي ينبغي لطالب العلم أن يتعاهده.

علوم الآلة طويلة عريضة ليس لها طرف، بحر لا ساحل له، وهي علوم اصطلاحية، والتحقيق فيها وفهمها يحتاج منك إلىٰ وقت طويل وإلىٰ أخذ عن عدد من العلماء؛ لأن استيعاب تلك العلوم متنوع، وعرض تلك العلوم أيضا متنوع، فمنهم من يعرضها بتوسط، ومنهم من يعرضها بطول، من أهل العلم

من يعرضها لحاجة الطالب لما هو فوق حاجة الطالب إلىٰ آخر ذلك، فلذلك أنت تأخذ منها ما ينفعك في فقه الكتاب والسنة، وخاصة النحو وأصول الفقه.

النحو وأصول الفقه هٰذه ينبغي علىٰ كل طالب علم أن يعتني بهما، ولم أذكر أصول الحديث يعني المصطلح؛ لأن الغالب يهتم بالمصطلح، غالب من نرىٰ من الإخوان الاهتمام بالمصطلح، لكنهم لا يهتمون بالنحو ولا بأصول الفقه، وهما علمان مهمان فالعلوم الثلاثة هٰذه: أصول الفقه، أصول الحديث، أصول العربية يعني النحو، هٰذه أهم علوم الآلة.

سؤال (٥): قد يوجد تقرير لبعض العلوم عند الأصاغر بما لا يجده المرء عند الأكابر، فيترك هؤلاء ويلزم هؤلاء في أخذ العلوم؟

الجواب: أن العلم يؤخذ ممن يفيد فيه، فقد يكون الصغير أكثر إفادة، لكن لا يترك طالب العلم أهل العلم الكبار لا يسألهم ولا يحضر دروسهم ولا يأخذ من هديهم ولا يحضر مجالسهم، هٰذا يعطي خللا في بِنية طالب العلم في نفسه، الذي ينبغي أن يأخذ العلم ممن يفيده، إذا كان طالب العلم الذي هو أقل في سنه أكثر إفادة للطالب فيأخذ منه، ولكن لا يترك أهل العلم الكبار والمشايخ.

فهنا مسألة ينبغي التنبيه عليها، وهي أنه ليس تقييم طالب العلم من جهة الفائدة الكبرىٰ أو كَثرة الفوائد يكون بكثرة الكلام، قد يكون الشرح طويلا لكن الفائدة قليلة، مثل ما قال ابن رجب في كتابه «**فضل علم السلف علىٰ علم الخلف**» وهو كتاب مهم ومفيد جدا –فضل علم السلف علىٰ علم الخلف– قال: **كلام السلف قليل كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير قليل الفائدة.**

قد يكون المعلم الذي سماه الأخ السائل سماه من الأصاغر يعني ممن يصغر الكبار في سنه أو نحو ذلك قد يكون أكثر تفصيلا أو أكثر معلومات لكن طريقته لا تفيد الطالب هٰذا لا يعني أنه أكثر إفادة، قد تكون المعلومات أكثر ولكن الإفادة أقل، قد يكون كلامه من جهة التفصيل ومن جهة الاستطراد أكثر ولكن إفادته أقل؛ لأن العالم يربي طالب العلم في العلوم، يريبه شيئا فشيئا، يعطيه ما ينفعه وما يحتاجه في فهم المتن، في فهم الكتاب الذي يُقرأ عليه، وهٰذا لابد فيه من رعاية لهٰذا، ذكر العلماء في قوله تعالىٰ ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[آل عمران]، أن الرباني هو الذي يربي الطلاب بصغار العلم قبل كباره يعني في التربية ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ففي تعليم الكتاب وفي الدرس يحتاج إلىٰ تدرج، فإذن ينبه الطالب لأن الأصاغر لا يعني كثرة كلامهم وكثرة تفصيلاتهم أنها أنفع، فقد تكون أنفع وقد لا تكون أنفع بحسب المنهجية والطريقة.

سؤال (٦): بعض الطلاب يهتمون كثيرا بالدروس في المساجد ولا يهتمون بالدراسة المنهجية في الجامعة، فيكون الطالب متعثرا في الدراسة المنهجية بحجة أنّ العلم يؤخذ من المساجد؟

الجواب: هٰذا غير صحيح؛ بأن الدراسة الجامعية ليست مفيدة، لا الدراسة الجامعية مفيدة، ولكن:

كثرة المعلومات، واحد.

عدم بروز المعلِّمين فيما يعلّمون، اثنين.

وعدم ثقة الطالب في مشايخه في الجامعة لأسباب، ثلاثة.

أيضا ضعف بعض الأساتذة في الجامعة في المستوىٰ العلمي يجعل الطالب لا يتفاعل مع الدرس في الجامعة.

أيضا الهدي العام، والسمت وملازمة السنة، وإذا سأل الطلاب بعض الأساتذة في الجامعة وجاءت إجاباتهم ليست بمستقيمة فإنه لا يحسن الظن به أوْ لا يستفيد منه.

فيه عوامل كثيرة وأسباب كثيرة، تجعل الطالب لا يحسن أو لا يحبِّذ الدراسة في الجامعة من جهة الجد، وهٰذا غير جيد.

الكتب التي تدرسها في الجامعة في الإجمال كتب منهجية عظيمة؛ لكن قد تكون أعلىٰ من مستوىٰ بعض الطلاب فهي موضوعة لمستوىٰ الطلاب قبل ثلاثين سنة، نفس الكتب التي درسها الآن يدرسها الطلاب مثلا في الشريعة يدرسوها في أصول الدين هي نفس الكتب التي كانت تدرس منذ عشرين، ثلاثين سنة لما كان الطلاب يقرؤون علىٰ المشايخ وكانوا أقوىٰ وكانوا يتخرجون من المعاهد العلمية ومستواهم أعلىٰ.

فإذن الخلل متنوع، فكثرة المعلومات التي يتلقاها الطالب في الكلية تجعله ما يتحمَّل، ويجد أن الدراسة في المسجد أيسر، أيضا الدراسة في الجامعة يجد أنها ليست بالطريقة التي يرتاح إليها.

هٰذه نظرة عامة، يبقىٰ ولا شك أنّ المسجد له بركته، مكان عبادة وهو أحب البقاع إلىٰ الله جل وعلا، واجتماع الطلاب وهم جالسون علىٰ الأرض ويسمعون ويثقون بالمعلم ويأخذون منه، وكلٌّ يحرص علىٰ هٰذا الدرس هٰذا أمر نفسي وأيضا عبادي ويجعل النية فيه صالحة، ولهٰذا يستفيد أكثر، فإذن المسألة تحتاج من طالب العلم إلىٰ تعاهد في نفسه وكلٌّ يقيّم نفسَه.

سؤال (٧): هل يصح أن يقال: إن من صفات طالب العلم كثرة الشيوخ حتىٰ يتجرَّد طالب العلم من التعصب للرجال كما يظهر من حال أهل الحديث بخلاف حال كثير من أهل الفقهاء؟

الجواب: التعصُّب مذموم بالاتِّفاق، التعصب مذموم بالاتفاق؛ باتفاق المحدثين والفقهاء وجميع

أصناف العلماء، لكن ما هو التعصُّب؟

التَّعصُّب أن تأخذ بقول وتنصره وتدفع غيرَه مع عدم وضوح الدليل عليه، هٰذا هو التعصب، تأخذ بقول فلان لأنه قال، والأصل عندنا أن الحق لا يعرف بالرِّجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق، هٰذا الأصل العام عند السلف؛ يعني أن قبول كلام المتكلم إذا كان علىٰ إطلاقه وتدفع عنه وتنصره سواء وافق الحق أم لم يوافقه ولو ظهر لك الدليل بخلافه، فهٰذا هو التعصب المذموم هٰذا هو الذي يقال فيه تعصب، أما أن يكون الرجل محبًّا لشيخ من المشايخ ويأخذ بأقواله لظهور دليلها عنده، أو يأخذ طائفة من الناس بمذهب من المذاهب لظهور الدَّليل عندهم فيه أو لمتابعتهم لتأصيل المذهب فهٰذا ليس بتعصب إذا لم يردوا القول الحق إذا ظهر الدَّليل.

فإذن ثَم فرق ما بين المتابعة والتقليد، فقد يتابع المذهب في مسألة ويتابع شيخًا معينا في مسألة لاقتناعه بكلامه مع أنَّ السنة تكون بخلافه، لكنه هو مقتنع بكلام هٰذا العالم وبوجهة نظره في هٰذا الدليل وبتوجيهه لهٰذا الاستدلال ونحو ذلك فيأخذ به هٰذا لا يعد تعصبا، فلو كان كذلك لقيل في كل من أخذ يقول أحد من أهل العلم إنه يتعصب له، وهٰذا ليس بصحيح.

فإذن كثرة الشيوخ قد تكون محمودة وقد تكون مذمومة؛ قد تكون محمودة إذا كانت في تنوُّع العلوم، وقد تكون مذمومة إذا كانت كثرة الشُّيوخ تسبب الإرباك لطالب العلم في طلب العلم، بعض الناس يذهب هنا يحضر لعشرة أو لستة أو ثمانية من أهل العلم هنا وهناك وفي النهاية ماذا حصّل؟ تجد أنه لم يحصّل، والأفضل أن يجعل له شيخا مختصا في التوحيد والعقيدة فيأخذ طريقته حتىٰ ينهيها معه، ثم بعد ذلك يريد أن ينتقل إلىٰ غيره لا بأس، فهو يأخذ له شيخًا في الفقه ويأخذ ما عنده، ويأخذ له شيخًا يثق به في السنة؛ الحديث، ويأخذ ما عنده في ذلك، ثم كل طالب علم تتكون شخصيّته بقدر تأثير الشيخ المعين فيه، فهو يميل لفلان في الفقه، يميل إلىٰ فلان في الحديث بحسب استعداداته وما جعل له.

طلَّاب شيخ الإسلام ابن تيمية منهم المتخصِّص في العقيدة، ومنهم المتخصص في الفقه كابن مفلح، ويكون في غير ذلك أقل، ومنهم المتخصِّص في الرَّد علىٰ المتصوفة ومنهم المتخصِّص في الرجال ونحو ذلك.

فإذن لا يعني الأخذ من شيخ والذب عنه وتلقي ما يقول أن يكون الرجل الطالب كهيئة شيخه في كل شيء لا يعني ذلك؛ بل يكون هو باستعداداته وبما وهب الله جل وعلا وما يسر له وما قدر له «**واعملوا فكل ميسر لما خلق له**» يكون ينصبغ بصبغة جديدة بحسب ما كتب الله جل وعلا له.

كما يظهر من حال أهل الحديث بخلاف حال كثير من الفقهاء، بعض أهل الحديث يتعصبون أكثر من

تعصب الفقهاء، وبعض أهل الفقه يتعصبون أكثر، وهٰذا ليس علىٰ إطلاقه أنَّ كل من كان من أهل الحديث ليس بمتعصب وكل من من أهل الفقه فهو متعصب هٰذا ليس بصحيح، ولا يقول هٰذه من يفقه العلم ويعرف مدارك أهله.

لأن أصلًا التقليد يجري مثلا أخذ قول العالم الفلاني بأن الحديث صحيح؛ أحد العلماء قال هٰذا الحديث صحيح وبناء عليه نأخذ منه كذا وكذا، طيب هل هو شارك العالم الفلاني الذي أخذ قوله هل شاركه في صحة الحديث؟ هل شاركه في البحث وصارت صحة الحديث عنده عن دليل لا عن تقليد له؟ سؤال.

الثاني هل إذا نظر في الرجال نظرا متجردا سيشارك هٰذا العالم؟ لا.

الخلاف في درجات الحديث وهل الحديث هٰذا صحيح أو حسن أو ضعيف بين أهل العلم في الحديث أكثر من خلاف الفقهاء؛ لأنها مبنية علىٰ الحكم علىٰ الرجال، ومعلوم أن الرجال من الرواة المتفق عليهم قليل؛ قليل جدا وأكثر الرواة مختلف فيهم، إما من جهة الثقة والضعف هل هو ثقة أو ليس بثقة، وإما من جهة صحة حديثه مطلقا في بعض الأحيان كحال المختلطين، وإما من جهة صحة حديثه في بلد وعدم صحته في بلد آخر كحال عدد مثل معمر وغيره، معمر من رواة الصحيح لكن حديثه في البصرة إذا علمنا أن الحديث هٰذا في البصرة فإنه ضعيف وإن كان من رواة «الصحيحين»، وهو من الأفذاذ في العلم، وهل هٰذا الحديث معلل؟ ومعلوم أن العلل والتعليل يدخلها الاجتهاد في كثير من الأحيان، هل يرجح قول يحيىٰ القطان في هٰذا الرجل علىٰ قول أحمد؟ هل يرجح قول بلدي الرجل؛ يعني إذا كان الرجل كوفيا نرجح قول العالم من أهل الكوفة في ثقته أو نرجح قول البغدادي في توثيقه؟

هٰذه مسائل كلها تبين لك الكلام في صحة الإسناد أيضا فيه خلاف وميدان فيه للاجتهاد والأخذ والنظر.

هل يؤثر العمل في صحة الحديث أم لا يؤثر؟ هل تؤثر رواية الصحابي في تقوية المرفوع أم لا؟ وهٰذه مسائل كثيرة تحتاج إلىٰ نظر.

ولهٰذا نقول: إنّ التقليد يكون من أهل الحديث في صحة الأحاديث وفي قبولها كما يكون في أهل الفقه في قبول الفتوىٰ ونحو ذلك، فالتقليد موجود لن يسلم أحد من التقليد؛ لكن هو درجات، والتعصب هو المذموم.

سؤال (٨): كيف نفسر قبول كثير من السلف عند النظر في بعض شيوخهم أنهم أهل نحل وملل من غير أهل السنة والجماعة، مع أن المشهور عن السلف انتقاء الشيوخ؟

الجواب: هٰذا الكلام ليس صحيح علىٰ إطلاقه، فالسلف في رواية المبتدعة لم يجعلوا المبتدعة علىٰ درجة واحدة، بل التحقيق أن المبتدعة من أهل الرِّواية درجات، فإذا علموا أنّ هٰذا الرَّاوي الذي اُتُّهم بالبدعة أنه صادق في قوله صادق في روايته فإنه يقبل حديثه ولا يقبل مطلقا، بل يقبل بعض حديثه انتقاء كما خرج البخاري لعمران بن حطان وكما خرّج لقتادة وكان يرىٰ القدر إلىٰ آخره.

هناك عدد من أهل العلم من رواة الحديث لم تؤثر بدعتهم في صدق حديثهم، وكان منهم من أثَّرت بدعته في صدق حديثه، كما قال أحدهم: كنا إذا هوينا أمرا صيَّرناه حديثا.

بعض أهل العلم يقول: لا يؤخذ برواية المبتدع فيما يؤيد بدعته أما في غيرها فلا بأس.

والتَّحقيق عند أهل العلم عند المحققين كما ذكرها ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ وكلامه متين في آخر «شرح علل الترمذي»: أنّ المسألة فيها تفصيل، وأنه لا يُطلق القول بقبول رواية المبتدع ولا يُطلق القول بردها، بل لابد من التفصيل.

والمذاهب في المسألة متعددة:

منها مذهب من يردُّ أحاديث المبتدع إطلاقا، هٰذا مذهب شائع.

ومنها مذهب من يقول العمدة في رواية المبتدع صدقه فإذا ثبتت ثقته من جهة الصدق فلا ننظر إلىٰ عدالته من جهة البدعة، وهٰذا مذهب بعض المتأخرين وليس بجيد.

ومذهب المحققين من أهل العلم كالبخاري ومسلم والإمام أحمد وجماعة أنهم ينظرون إلىٰ هٰذا المبتدع فيما يروي بحسب بدعته، فلا يجعلون البدع مرتبة واحدة، فبدعة الإرجاء لا يجعلونها كبدعة الخروج؛ يعني أن يكون مرجئا ليس كأن يكون خارجيا، فالقدري حال، الجهمي حال، المعتزلي حال، المرجئ حال، وهكذا في أنواع البدع، فيجعلون لكل ما يناسبه فالذين ابتلوا بالقدر من أهل البصرة عُفي عن أكثرهم من جهة الرواية، الخوارج أنتقي من أحاديثهم ما ظهر صدق القائل فيه أو غلب علىٰ الظن صدق القائل فيه، فمنهم من كان يرىٰ الكذب في الحديث كفرا، من طوائف الخوارج من يرىٰ الكذب في الحديث كفرا، ولهٰذا قبل منهم عدد كما في «الصحيحين»؛ لكن في الجملة ترىٰ أن هؤلاء نوادر أربعة خمسة عشرة لكنهم نوادر في جملة الرواة .

كذلك المرجئ تجد أنه يتركون الرواية عنه، لهٰذا البخاري قال: في كتابي هٰذا لم أخرج لأحد إلا وهو يقول الإيمان قول وعمل. ما روىٰ لأحد وهو يقول الإيمان قول وعمل هٰذا قد يكون من جهة التعزير أن لا يروي عن مرجئ، وقد يكون من جهة اتهامه في صدق حديثه.

أما الجهمية والمعتزلة فإنهم لم يرووا عن جهمي وعن معتزلي شيئا بل من أجاب في الفتنة فتنة خلق

القرآن وسكت فإنهم تركوا حديثه اتِّقاء واحتياطا، حتىٰ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مع جلالته وأنه إمام من أئمة أهل السنة والجماعة وأمير المؤمنين في الحديث لما ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل قال محمد بن إسماعيل البخاري ترك أبي وأبو زرعة الحديث عنه، يعني أنه عند أبي حاتم وعند أبي زرعة متروك قال لما أظهر القول في اللفظ في القصة المعروفة بينه وبين محمد بن يحيىٰ الذهلي فيما هو معروف.

لما ترجم لمسلم لأجل تولي قال صدوق تجد مسلم بن الحجاج النيسابوري صدوق، هٰذه الفتنة ترىٰ أن من وقف فيها أهل الحديث وأهل السنة اشتدُّوا في التغليظ عليه حتىٰ لا يقتدي الناس بهم، مع أن الأمة أجمعت علىٰ إمامتهم وجلالتهم كالبخاري ومسلم وعلي بن المديني ويحيىٰ بن معين إلىٰ آخره، وهل يصبر كل أحد علىٰ ما قوي عليه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أسأل الله أن يغفر لهم ولنا وأن يحشرنا معهم في زمرة أوليائه وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمَّد.

بسم الله الرَّحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبِه ومنِ اهتدَى بهداه.

أمَّا بعدُ..

فموضوعُ كلمةِ هٰذا اليَومِ عن (**نفسيَّةِ طالِبِ العلْمِ حينَ يتلقَّى الدَّرس**)، والمستمِعُونَ للعلْمِ يختلفُونَ: يختلفون مِن جهةِ رغبَتِهم فيما يسمعُون، ويختلفُونَ أيضًا مِنْ جهةِ استعداداتِهم، فليسَتِ الرَّغباتُ واحدَةٌ وليسَتِ الاستعداداتُ واحدةٌ.

فالرَّغباتُ مختلفَةٌ:

- منهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تحصِيلِه، هٰذا هو الغالِبُ ولله الحمْدُ.
- ومنهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تقييمِ المعلِّمِ أو في معرفَةِ مكانتِهِ مِنَ العلْمِ وحُسنِ تعلِيمِه أو حُسن استعداداتِه للعلوم.
- ومِنْهم مَنْ يأتِي مرَّةً ويترُكُ عشْرَ مرَّاتٍ.

وفِيهِ رغباتٌ متنوِّعَةٌ، ويهمُّنَا منها مَنْ يأتِي للعلْمِ رغبةً فِي العِلْمِ، فحِينَ يأتي طالِبُ العِلمِ للدَّرسِ راغِبًا فِي الاستفادَةِ ينبَغِي أنْ يكُونَ علَى نفسيَّةٍ وحالَةٍ قلبيَّةٍ خاصَّةً، وحالَةٍ عقليَّةٍ أيضًا خاصَّة.

أمَّا الحالَة القَلبيَّة والنَّفسيَّة:

♦ فأنْ يكونَ قصْدُه مِن هٰذا العِلْمِ أنْ يرفَعَ الجهْلَ عنْ نفسِه، وهٰذا هو الإخلاصُ في العلْمِ؛ لأنَّ طلَبَ العلمِ عبادةٌ، والإخلاصُ فيه واجِبٌ، والإخلاصُ في العِلْمِ بأنْ ينْوِي بتعلُّمِه رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه، وقدْ سُئلَ الإمامُ أحمَدَ عنِ النِّيَّة فِي العلْمِ كيف تكون؟ فقال: **أنْ ينْوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِهِ**.

فإذا كان في طلَبِه للعلْمِ يرُومُ أنْ يكونَ معلِّمًا، أو أنْ يكونَ داعِيًا، أو أنْ يكونَ مؤلِّفًا ونحوَ ذلك فالنِّيَّةُ الصَّالحَةُ فيه والإخلاصُ في ذلك يكون بشيئين:

الأوَّلُ: أنْ ينوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه.

الثَّاني: أنْ ينْوِي رفْعَ الجهْلِ عنْ غيْرِه.

فإذا لم ينوِ أحدَ هٰذين، أو لم ينوهِمَا معًا، فإنَّه ليس بصاحِبِ نيَّةٍ صحيحَةٍ، فإذا رامَ أحدُنا أنْ يطلُبَ العِلمَ فلابدَّ أنْ يكونَ ناويًا رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِه، وإذا نوَى هٰذه النِّيَّة يكونُ مستحضِرًا -بالطَّبعِ- أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه خلَقَهُ ولَهُ عليْهِ أمرٌ ونهيٌ في أصْلِ الأُصولِ -ألَا وهُوَ حقُّه جلَّ وعلا: التَّوحيدُ-، وكذلِكَ فِي الأمْرِ والنَّهيِ في الحلالِ وفي الحرامِ، ومِنْ أسبابِ الإقدامِ على المنهيَّاتِ في العقائِدِ وكذلكَ فِي السُّلوكِ الجهْلِ، وثَمَّ أسبابٌ أخْرَى.

فإذا عَلِمَ ورَفَع الجهْلَ عنْ نفسِه، كان عالمًا بمرادِ الله جلَّ وعلا، ثُمَّ بعْدَ ذلك يستعِينُ اللهَ جلَّ وعلا في امتثالِ مُرَادَاتِهِ الشَّرعيَّةِ، هٰذا أمرٌ نفسيٌّ مهِمٌّ.

♦ والأمرُ النَّفسيُّ الثَّاني المهِمُّ أيضًا: أنَّه حينَ يتلقَّى العِلمَ يتلَقَّى وهو واثِقٌ مِنْ علْمِ المعلِّمِ؛ يعنِي أنْ يكونَ فِي نفسِهِ أنَّ الأصْلَ فِي المُعلِّمِ أنَّهُ يعلِّمُ على الصَّوابِ، فإذا دخَلَ وفِي نفْسِه أنَّ المُعلِّم يعلِّمُ غلطًا أو أنَّ معلوماتِه مشوَّشةً، أو أنَّه كذا وكذا ممَّا يُضعِفُه في العِلمِ، فإنَّه لنْ يستفِيدَ؛ ذلك لأنَّه إذا استمَعَ سيستَمِعُ بنَفَسِ المُعارِضِ، فسيأتِي إذا قال كلمةً أخذ يفكِّرُ بعدَها نصْفَ دقيقة أو دقيقة فيما قال، قال: هٰذا صحيحٌ وفي اطِّلاعاتِه، وقد اطَّلَعَ كذا وكذا ممَّا يعارِضُ كلامَ المعلِّم، ثم في هٰذه الدَّقيقة يكون المعلِّمُ قد أتى بشيءٍ آخَرَ، فإذا انتهى هٰذا من تفكِيرِه سمِعَ جملةً أخرى، فتكونُ مشوَّشةً أيضًا، فيدخُلُ في اعتراضاتٍ، وهٰذا يَحْرُمُ المُستَمِعَ العِلْمَ.

وإذا كانَ عِنْدَ طَالِبِ العِلْمَ فيما يسْمَعُ إشكالاتٍ أو إيراداتٍ فيكونُ عندَهُ ورقةٌ أو كُرَّاسَةٌ بيْنَ يديْهِ يكتُبُ الإشكالَ ثُمَّ لا يفكِّرُ فيه، وهو يستمِعُ العلم، يكتب المسألة كذا وكذا، ثُم بعد ذلك إذا فرغ مِن

هٰذا الدَّرسِ يذهب هو ذلك اليوم أو بعده ويبحثُ هٰذه المسألة أو يسألُ عنها.

ومِن المعلوم أنَّه ليس من شرْطِ المعلِّم أنْ يكون محقِّقًا، وليس مِن شرْطِ المعلِّم أن يكون مُصيبًا دائمًا، فقد يكون له اختيارات أو آراء تخالِفُ المشهور، أو يكون له توجيهاتٌ غلِطَ فيها؛ لكنَّ الشَّأنَ أنْ يكونَ المعلِّمُ مشهودًا له بالعلْمِ، مؤصَّلًا في العلم، يعرِفُ ما يتكلَّمُ به، فإذا عرَفَ ما يتكلَّم به وعرف أقوالَ النَّاسِ وعلَّمَ العلمَ، فإنَّه قد يكون عنده غفلةٌ في مسألةٍ أو في حكمٍ أو نحو ذلك، فيغلَطُ مرَّةً أو يغلَطُ في تصوُّرٍ ونحوِ ذلك، ليْسَ بالعجِيبِ؛ لأنَّ المعلِّم بشَرٌ والبشَرُ خطَّاؤون.

المهمُّ أنْ تتلقَّى العلمَ ممَّن وثِقْتَ بعِلْمِه وأنْتَ في نفسيَّةٍ غيرِ معارِضَةٍ، وهٰذا يحرِمُ كثِيرين علمًا واسعًا؛ حيثُ إنَّهم يتلقَّوْن العلْمَ بنفسيَّةِ السُّؤالِ بنفسيَّةِ مَن يستشْكِلُ، ولهٰذَا مَنْ أكثَرَ السُّؤالَ في حلقاتِ العلْمِ لا يكُونُ مُجيدًا.

وقد حضرتُ مرَّةً عند الشَّيْخِ عبدِ الرَّزَّاقِ عفِيفِي العلَّامةُ المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وكان عنْدَه مَنْ يسأَلُه عنِ المسائلِ في الحجِّ، فإذا أتَى مُستفْتٍ يستفْتِي فيأتِي هٰذا السَّائلُ ويقول له: فإنْ كان كذا. يحاوِلُ أنْ يتعلَّمَ

العلمَ بطرْحِ مسائلَ أُخَر غيْرِ المسألة التِي استفْتَى فيها السَّائل، فقال له الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **العِلْمُ لا يُؤتَى هكذا، وإنَّما يُؤتى العِلْمُ بدراسَتِهِ.**

وهٰذا صحيحٌ؛ لأنَّ المتعلِّمَ حين يحضُرُ عند أهلِ العلْمِ فيَسمَعُ فإنَّه إذَا عرَضَ لذِهنِه أنَّه في كلِّ ما يأتِي يسأل أو في كلِّ ما يسمع يعترِضْ، كما مرَّ معنَا كثيرًا مِنْ بعْضِ الإخوانِ والشَّبابِ في حلقاتِ العلْمِ؛ يُوردون أسئلةً ويُوردونَ استشكالاتٍ طبعًا بحسَبِ ما عندَهُم مِنَ العِلمِ سألُوا واستشكَلُوا ولو صبَرُوا لكان خيرًا لهم.

هٰذه النَّفسيَّةُ تؤثِّرُ على الذِّهنِ وعلى صفائِه وعلى تصوُّرِ العُلومِ في أثناءِ الدَّرْسِ.

لهٰذا ينبَغِي لنَا أنَّنا حينَ نتلقَّى العِلْمَ أنْ نتلقَّاهُ بنفسيَّةِ مَنْ ليْسَ عنْدَه عِلْمٌ البتَّة، يسمعُ ويسمعُ ويسمعُ، وإذا استشكَل فيكونُ بعد ذلك في محلِّه يقيِّدُ، ثمَّ يبحثُ أو يسألُ عنْ ذلك.

طبعًا هٰذا في حقِّ مَنْ وثِقنَا بعلمِه فأخذْنا عنْهُ العِلمَ عنْ ثقةٍ بما يأتِي به.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّد.

نفسيَّةُ طالِبِ العِلْمِ حينَ يتلَقَّى الدَّرْسَ

كلمة

لفضيلة الشَّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونية الأولىٰ

الشيخ لم يراجع التفريغ

أدبُ السُّؤال

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي هدانا للخيرات وجنَّبنا سُبل المنكرات، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، وصفيُّه وخليله، صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد..

فأسأل الله جلّ وعلا أن يجعلني وإيَّاكم ممَّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهٰذه الثَّلاث هي عنوان السَّعادة، من وُفّق إليها فقد أوتي خيرًا عظيمًا؛ من إذا أُعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر، فمن حيزت له هٰذه الثَّلاث فقد حِيزَ له خيرُ الدُّنيا والآخرة، أسأل الله جلّ وعلا أن يجعلنا وإيَّاكم من أهلها.

هٰذه الكلمة موضوعها عن:

أدبِ السُّؤال

والسُّؤال هٰذا المقصود به سؤال أهل العلم أو سؤال المعلِّمين عمّا يحتاجه النَّاس.

وإلَّا فإنَّ عموم لفظها يشمل سؤال الرَّب جلَّ وعلا في الدُّعاء؛ لأنّ سؤالَ الله جلّ وعلا له أدبٌ وله أحكام ينبغي للعبْدِ أن يحيط بها وأن يكون مراعيًا لها؛ لأنَّ كثيرًا من أسباب ردِّ إجابة السُّؤال أنْ يكون السُّؤالُ فيه اعتداءٌ -يعني من الله جلَّ وعلا -، أو يكون السُّؤال على غير المشروع أو أن يكون السَّائل لم يحسن المسألة، فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سؤال الله جلّ وعلا: إنِّي لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ الدُّعاء فإذا وُفِّقتُ إلى الدُّعاء جاءت الإجابة.

موضوعنا عن أدب السُّؤال الذي هو سؤال أهل العلم، والحاجةُ ماسَّة إلى معرفة آداب سؤال أهل العلم، ما طريقة سؤالهم؟ وعمّ يُسألون؟ وكيف يكون السُّؤال؟ وكيف تُتلقَّى الإجابة؟ وما ينبغي للمسلم من توقير أهل العلم وعدم الإلحاح عليهم بالمسائل، ونحو ذلك من الآداب.

وأهل العلم فيما مضى قد دوَّنوا كثيرًا من هٰذه الآداب في مصنَّفاتهم في «أدب العلم والتَّعلم» وفي «أدب الطالب مع شيخه» وفي «حقوق أهل العلم بعامَّة» والله جلّ وعلا قال في محكم كتابه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[التوبة:٧١]، قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ يعني بعضهم يحبُّ بعضًا وينصر بعضًا ويُقيل عثرة بعض.

ومن أكثر أهل الإيمان حقًّا في الوَلاية والمحبَّة والنُّصرة= أهل العلم؛ لأنَّهم لما شهد الله جلّ وعلا لهم به

هم أخصُّ أهل الإيمان؛ لأنّ الله قرنهم بنفسه وملائكته في الشَّهادة له بالتَّوحيد حيث قال جلّ وعلا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، فأولو العلم من النَّاس هم الصَّفوة، كما قال أيضًا سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] فالله جلّ وعلا رفع المؤمنين على النَّاس جميعًا درجات، ورفع أهل العلم من المؤمنين على أهل الإيمان عمومًا درجاتٍ، فهم الخاصَّة، وهم الصَّفوة؛ لأنَّ معهم من فهم كلام الله جلّ وعلا وفهم سنّة رسول الله ﷺ ما جعل قلوبهم أكثر نورًا من قلوب غيرهم؛ لأنَّ النُّور بالعلم، والنُّور إنَّما هو بفقه القرآن والسُّنَّة ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾[المائدة:١٥]، من فَقُه القرآن وفقه السُّنّة كان أعظم نورًا في القلب وكان أعظم حقًّا لحقوق أهل الإيمان.

الملاحظ أنَّ الحريص على الخير من النَّاس يسأل أهل العلم؛ يسألهم في مسائل فقهيَّة فيما يواجهه، أو يسألهم في مسائل اجتماعية فيما يواجهه من مشاكل في بيته أو في عمله أو نحو ذلك، ويسأل المتعلمُ المعلمَ، لكن وجدنا كثيرًا من الأسئلة قد خرجت عمَّا ينبغي من مراعاته من توقير أهل العلم ومن مراعاتهم وعدم الإخلال بحقِّهم، فتجد أنَّ من النَّاس من يخوض في سؤاله أهلَ العلم أمورًا لا ينبغي أن يخوض فيها.

وأصل كثرة السُّؤال وكثرة المسائل قد جاء النَّهي عنها فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا ما استطعتم، فإنَّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» قال أهل العلم: قوله: «**كثرة مسائلهم**» يعني عما لم يقع وعما لم يأت بيانه في الكتاب المُنَزَّل، ولهذا جاء في الصَّحيح أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أشدّ المسلمين بالمسلمين جُرمًا من سأل عن شيء لم يحرَّم على المسلمين فحرِّم عليهم لأجل مسألته**»، وقد قال جلّ وعلا: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة:١٠١].

والأحاديث التي جاءت في النَّهي عن كثرة السُّؤال متعدِّدة، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيتُ قومًا خيرًا من أصحاب محمَّد ﷺ ما سألوه إلَّا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض، كلُّها في القرآن. قد قال جلّ وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[البقرة:٢٢٢]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة:١٨٦]، إلى آخر هذه المسائل، مجموع ما سأل صحابة رسول الله ﷺ الذين هم منه مقرَّبون إنَّما هي ثلاث عشرة مسألة وكلُّها في القرآن.

وقد كان الصَّحابة من توقيرهم للنَّبيِّ ﷺ ومن كراهتهم لكثرة المسائل يحبُّون أن يأتي الرَّجل من البادية ومن خارج المدينة حتى يسأل النَّبيَّ ﷺ فيستفيدوا من السُّؤال ومن الجواب، وقد جاء أيضًا في الحديث

الصَّحيح: «**إنّ الله كره لكم قيل وقال وكثرة السُّؤال وإضاعة المال**» وقد قال أيضًا الحجَّاج بن عامر الثُّمالي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكم وكثرة السُّؤال**».

فالأحاديث دالة على أنَّ كثرة الأسئلة لأهل العلم إنَّما ذلك داخلٌ في المكروه إلَّا ما يحتاج إليه العبد فيما يأتي بضوابطه، والله جلّ وعلا أمر المؤمنين بأنْ يسألوا إذا جهلوا، وقد قال ﷻ لما أنكر كفَّار قريش أن يكون الرَّسول بشرًا رجلًا، وقالوا: إنَّ الرَّسول يجب أن يكون ملَكًا.

قال ﷻ في سورة النَّحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

هٰذه الآية أمر الله جلّ وعلا فيها أهل الشِّرك -كفَّار قريش وغيرهم- أن يسألوا أهل الذِّكر -يعني أهل الكتاب- عمَّا إذا كان الرَّسول الذي جاءهم بشرٌ أم هو ملَكٌ؟ فإذا كان الرَّسول الذي جاءهم بشرًا فاقبلوا رسالة محمَّد ﷺ لأنّه بشرٌ قد خلت من قبله الرُّسل، وقد وصف أهل الكتاب بأنَّهم أهل الذِّكر؛ لأنَّ الكتاب الذي أنزله الله جلَّ وعلا هو الذِّكر، وأعلى الذِّكر القرآن كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر].

وهنا في هٰذه الآية قال جلّ وعلا: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ قال العلماء: هٰذه الآية نازلة في سؤال أهل الكتاب، ولكنّ عموم لفظها يشمل سؤال أهل القرآن وأهل السُّنّة؛ لأنَّهم أحقُّ ببيان ما نزَّل الله جلَّ وعلا، ولهٰذا قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾

قال الشَّيخ عبد الرَّحمٰن بن سِعدي في تفسيره عند هٰذه الآية: وعموم هٰذه الآية فيها مدحُ أهل العلم، وأنَّ أعلى أنواع العلم: العلم بكتاب الله المنزّل، فإنَّ الله جلَّ وعلا أمر من لم يعلم بالرُّجوع إلى أهل العلم وأهل الذِّكر في جميع الحوادث، وفي ضمن ذلك تعديلٌ لأهل العلم وتزكيةٌ لهم، حيث أمر الله جلّ وعلا بسؤالهم وأنَّه بذلك يخرج الجاهل من التَّبعة.

إذن الأصل موجودٌ في كتاب الله وأنّ المرء إذا جهل شيئًا ولم يعلم حكمه فإنَّه يسأل عنه أهل العلم، وإذا سأل عنه أهل العلم -أهل الكتاب والسُّنَّة الذين رسخت قدمُهم في ذلك- فإنَّ تبعته في ذلك تزول؛ لأنَّه قد سأل مَنْ أمر الله جلَّ وعلا أن يُسأل، فمن جهل شيئًا وسأل عن حكمه فأفتي من ثبْتٍ، فإنَّ تبعته قد زالت وقد برئ من التَّبعة، فإذا امتثل ما أفتى به فيكون قد زال عنه المحذور؛ لأنَّه امتثل ما أمر الله جلّ

وعلا به في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

سؤال أهل العلم وسؤال أهل الذِّكر له أحوال

النَّاس يحتاجون إلى أن يسألوا ولابدّ، ولكن هٰذا السُّؤال من حيث هو له أحوال:

- حالٌ من جهة السَّائل.
- وحالٌ من جهة المسؤول.

فالسَّائل ينبغي له أن يراعي حتَّى يصل المسؤول إلى الجواب الموافق للحقِّ إن شاء الله آدابًا وأن يراعي أشياءً منها:

من تلك الأشياء التي يجب أن يراعيها السَّائل أن تكون مسألته واضحة غير ملتبسة -يعني أن يتبيَّن المسألة قبل أن يسأل- والملاحظ أنَّ من المسلمين مَنْ إذا جاء على باله مسألة أو واجهته مشكلة فإنَّه يأتي أهل العلم ويسألهم مباشرةً دون أن يستحضر ويستعدَّ لتفاصيل هٰذه المسألة، أو مباشرةً يرفع الهاتف ويسأل العالم عمَّا عرض له دون أن يستحضر ما اتَّصل بهٰذه المسألة، فإذا سأله عن بعض التَّفاصيل قال: والله لا أعرف هٰذا، فلان أوصاني، هٰذا كذا، لا أدري.

فلابدَّ للسَّائل أن يستحضر تفاصيل المسألة قبل أن يسأل؛ لأنَّ السُّؤال تسأل فيه عن حكم الله جلّ وعلا الذي إذا أدركته؛ يعني أدركت الحكم فقد برئت من التَّبعة، والمسؤول - العالم الذي يُسأل - لابدّ أن تكون المسألة عنده واضحة، وإلا فكيف يجيب على شيء ليس بواضح.

ولهٰذا ينبغي للسَّائل أوَّلا أن يستحضر السُّؤال جيِّدًا، وأن يُعدّ له في عبارة ملخَّصَة، لا تظنّ أنّ المسؤول، المفتي، أو طالب العلم الذي تأهَّل للجواب لا تظنّ أنَّ الذي يتَّصل عليه واحدٌ فقط أو اثنين، اليوم مع الهاتف صار الذي يتَّصل من الدَّاخل أو الخارج بأهل العلم عشرات الآلاف في السَّنة مثلا، وفي اليوم الواحد قد يتَّصل عشرين أو ثلاثين، فلهٰذا كان من الأدب الذي ينبغي مراعاته أن يستحضر السَّائل ضيق وقت المفتي، ضيق وقت المجيب على السُّؤال، فعليه أنْ يُعِدّ السُّؤال بعبارة واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض، ويجتهد في أن يُعين المفتي على وقته، وحتى تكون المسألة أنفع؛ يعني لا تظن أن هٰذا الذي أجابك أو ردّ عليك بالهاتف من أهل العلم أنَّه لك وحدك، بل اعتقد أنَّ الذي يسأل أهل العلم في اليوم عشرات النَّاس يسألون في كلِّ وقتٍ، فلابدّ من رعاية الحال والتَّأدُّب معهم في اختصار المسألة، وتقبّل الجواب

---

(١) سورة: النحل، الآية (٤٣)، الأنبياء، الآية (٧).

بحسب ما أورد، فإذا كانت المسألة واضحة كان الجواب واضحًا.

ولهٰذا ترى أنَّ أسئلة جبريل عليه السَّلام للنَّبي ﷺ دليل على وضوح المسألة وما ينبني على وضوح المسألة من وضوح الجواب.

قال جبريل عليه السَّلام للنَّبي ﷺ: «**أخبرني عن الإسلام**» سؤال ملخَّصٌ وواضحٌ، «**أخبرني عن الإيمان**»، «**أخبرني عن الإحسان؟**» وعن أشراط السَّاعة، قال: «**وما أمارتها**» ونحو ذلك.

فوضوح السُّؤال وقلَّة ألفاظه باستحضار تفاصيله ووضوح السُّؤال قبل أن تسأل هٰذا من الآداب التي ينبغي مراعاتها، وكثيرًا ما تكون الإجابة غير واضحة؛ لأنَّ السَّائل لم يحسن السُّؤال، فلو أحسن السَّائل الاستعداد للسُّؤال فسأل لكانت الإجابة واضحة.

من الآداب التي ينبغي مراعاتُها في السُّؤال أنْ لا يسأل السَّائل أهل العلم عن شيءٍ يعرف جوابه: بعض طلبة العلم، أو الذين لديهم إطِّلاع ولديهم معرفة، يكون قد بحث المسألة وعرف ما فيها من الأقوال ونحو ذلك، فيأتي ويسأل، فإذا سأل وأُجيب بجوابٍ موافقٍ لأحد الأقوال أتى باعتراضات، يقول: هٰذا ما دليله؟ هٰذا الدَّليل قُدح فيه بكذا، أو وجِّه بكذا، قال بعض أهل العلم فيه كذا، ونحو ذلك. ففرقٌ ما بين أن تسأل لتستفيد أو لتعلم وأنت لا تعلم، وما بين أن تناظر.

والعالم أو المعلِّم ليست وظيفته ولم يفتح لك المجال لتناظره، ابتدئ له وقُل: أنا أريد أن أناظرك في المسألة الفلانية.

ما معنى المناظرة؟ معناها أجادلك فيها تعرف ما عندي وأعرف ما عندك حتى نصل إلى الحقِّ، وهٰذا غير مطلوب مع عدم رعاية الأدب مع أهل العلم؛ لأنَّ في ذلك بعضُ التَّعدِّي على حقِّ أهل العلم إلَّا إذا أفصحت له بأنَّك تريد أن تبحث معه هٰذه المسألة، فإذا أذن لك بالبحث فإنَّه عند ذاك تخرج المسألة من كونها استفتاء وسؤال وجواب إلى مسألة بحث واستفصال، وهٰذا أيضًا يكون عند المتعلِّمين في مجالس العلم، فإنَّه يكون عنده معرفة بالجواب ولكن يسأل ليختبر -بعض الأحيان- أو ليُعلم غيره بأنَّه سأل سؤالًا جيِّدًا ونحو ذلك.

وهٰذا الوقت الآن تقاصر عن أن نسأل عن شيء قد علمناه، فلنسأل عن شيء لم نعلمه، فلهٰذا كان ممَّا ينبغي التَّأدُّب فيه أن لا تسأل عن شيءٍ إلَّا عن شيء لم تعلمه، وذلك لأنّ الله جلّ وعلا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنْ كنت تعلم فلا تسأل؛ لأنَّه قد جاء عندك العلم ووقت المفتي أو العالم أو طالب العلم ينبغي أن يُصرف إلى أشياء كثيرة، والواجبات الآن يتقاصر عنها وقت الكثيرين، فكيف

بالاستطراد ونحو ذلك.

من الآداب التي ينبغي مراعاتها أيضًا في السُّؤال: أنْ لا تذكُر للعالم قول غيره، بعض النَّاس يسأل أهل العلم بالهاتف -والهاتف الآن قرَّب وأكثر من إشكالات الأسئلة- يسأل واحدٌ وبعده يسأل الثَّاني، وبعده يسأل الثَّالث، والرَّابع، فهو يضطرب في المسألة، ثم بعد ذلك يذهب إلى شيءٍ غير جيِّد وهو أنَّه يذهب إلى أسهل تلك الأقوال، وهٰذا لا ينبغي، فإنَّه الذي ينبغي في السُّؤال أن تبحث عمَّن تثق بعلمه ودينه في ذلك، كما قال أهل العلم: ينبغي للمستفتي أنْ يسأل من يثق بعلمه ودينه. فإذا وثقتَ بعلم فلان ودينه فإنَّك تسأله ولا تسأل غيره؛ لأنَّك إذا سألت غيره فإنَّه قد يكون عنده من الجواب غير ما يكون عند الأوَّل فتقع أنت في حيرة، وعهدتك تبرأ.

وفي حالٍ لك أن تسأل غير من سألت أوَّلًا، وذلك فيما إذا كان جوابه مُشكل من جهة الدَّليل؛ إذا كان عند المرء معرفة ببعض الأدلَّة ونحو ذلك فأشكل عليه الجواب من جهة الدَّليل فإنّ له أن يسأل غيره؛ لأنَّه ما اقتنع بالجواب لا من جهة عدم مناسبته لحاله أو من جهة صعوبة الجواب أو أنَّه لا يناسب أو يريد أن يبحث عمَّن يخفِّف له؟ لا؛ ولكن من جهة أنَّه استشكل هل هٰذا حكم الله جلّ وعلا وحكم رسوله ﷺ في المسألة أم لا؟ لفهمه من بعض الأدلَّة والأحاديث خلاف ذلك.

فإذن من الآداب ألَّا تسأل أكثر من عالم في المسألة لأنّ كثرة الأسئلة هٰذه:

أوَّلًا: تضيق وقت العلماء.

والثَّاني: أنَّه يوقع ذلك السَّائل في إشكالات، وكثيرٌ من الذين سألوا يقولون: احترنا ما ندري، هٰذا يقول كذا وهٰذا يقول كذا. نقول: أنت الذي أخطأت أوَّلًا حيث سألت أكثر من عالم، سل من تثق بعلمه ودينه وخذ بفتواه وتبرأ أمام الله جلّ وعلا؛ لأنَّ الله جلّ وعلا أمرك بأن تسأل أهل الذِّكر وقد امتثلت بسؤال أهل الذِّكر، فلا تزد على نفسك ثقلًا وحملًا.

من الآداب أيضًا أن لا تسأل حين تسأل بإلغازٍ في السُّؤال، مثلا هناك من يسأل ويقول: فلانٌ من النَّاس حصل له كذا وكذا. وهو يريد أن يخرج عن مسألته بخصوصه إلى مسألة مشابهة، وهو يظنُّ -هٰذا السَّائل- أنَّه إنْ أجيب على تلك، فمسألته مثل تلك المسألة، فيقول مثلًا: فلان لو حصل عليه كذا وكذا. ومسألته في الواقع تختلف عن تلك ولكنَّه يظن أنّ هٰذه وتلك سواء، فحتى لا يظن العالم أنّه هو الذي وقع في المسألة وهو الذي يحتاج إلى الجواب فإنَّه يعمِّم.

سؤال أهل العلم ليس فيه عيبٌ؛ بل هو شرف ويدل على حرص السَّائل على الخير ورغبته في إبراء

ذمته، وأن يكون متخفِّفًا من التَّبعة حين يلقى ربَّه جلّ وعلا، فحين تسأل لا تسأل أهل العلم بإلغاز، سَلْ عمَّا وقع بوضوح ولا حرج في ذلك، فقد سألت بعض الصَّحابيات النَّبيَّ ﷺ عن المرأة إذا رأت الماء؛ عن المرأة إذا احتلمت ماذا يكون حكمها؟ والحياء لا يكون في السُّؤال؛ لأنّ الحياء محمودٌ ولكن فيما إذا كان الحياء يُبعدك عن معرفة حكم في الدِّين فإنّ ذلك غير محمود كما جاء في الحديث.

فإذن من الآداب التي ينبغي لنا أن نُراعيها أن تسأل السُّؤال الذي تحتاجه، وأنْ لا تظنَّ أنّك إذا ألغزتَ بالسُّؤال وأجاب أنّ الجواب مطابقٌ على مسألتك، لو قلت له المسألة بوضوح والسُّؤال أو الحادثة التي تريد أن تسأل عنها بوضوح يكون الجواب مختلفًا تمامًا، فلا تكن ملغزًا في سؤال أهل العلم؛ لا عن مسألة فقهية ولا عن أشخاص ولا عن أحوال، بل ينبغي أن يكون السُّؤال واضحًا وذلك من توقير أهل العلم ومن السَّعي للوصول إلى الجواب الصَّحيح، أمَّا أن نعمي على أهل العلم حتى نحصل منهم على جواب، فإنَّ هٰذا لا يوافق ما ينبغي من توقير أهل العلم، وأيضًا لا تبرأ به أنت لأنك أوقعت العالم في الجواب، ولو عرف السُّؤال على حقيقته ومرادك منه لربَّما أجاب بجوابٍ آخر، فأنت لا تبرأ.

ولهٰذا نرى أنَّ كثيرًا من الإشكالات التي حصلت في تضارب أقوال بعض أهل العلم في بعض المسائل إمَّا الفقهية أو المسائل الواقعة أو الاجتماعية أو نحو ذلك، إنَّما جاء من جهة من يسأل بسؤال ملغز معمًّى، أو يكون المراد وراءه وليس في ظاهره، وهٰذا لا ينبغي؛ لأنَّ الله جلّ وعلا أمرنا بأمر واضح فتعدَّى هٰذا الأمر لما ينبغي من الأدب في السُّؤال.

من الآداب التي ينبغي مراعاتها في السُّؤال أن يكون السَّائل يسأل لنفسه وأن لا يسأل لغيره: يأتي كثيرٌ من الأسئلة يكون فيها سائلٌ يقول: أحد الأقارب أوصاني يسأل عن كذا وكذا. أو يقول: لو حصل لفلان -صديق لي في العمل- حصل معه كذا وكذا وأوصاني لأسأل له. لم هو لا يسأل؟ يختلف الحال لأنّ المفتي أو العالم لابدّ أن يستفصل، لابدّ أن يسأل؛ ما الذي حصل؟ هل حصل كذا وكذا؟ فإذا كان السَّائل غير من حصلت له المسألة فإنَّه لا يكون ذلك معينًا على الجواب إلاّ فيما كان السّؤال مختصرًا وكان المانع من سؤال السَّائل هيبة العالم أو الاستحياء، كما فعل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث كان رجلًا مذّاءً -يعني كثير المذي- فاستحيا أن يسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته -يعني لأجل أنَّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج علي- فخشي أن يسأل وهاب أن يسأل واستحيا عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسأل في مثل هٰذا السُّؤال الذي له تعلُّقٌ بالزَّوجة فأوصى المقداد أن يسأل النَّبي ﷺ عن هٰذه المسألة وهي كثرة المذي، فسأله فأجابه النَّبيُّ ﷺ ثم نقل الجواب إلى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذن الأصل أن لا يسأل المرء إلَّا فيما يخصُّه؛ لأنّ الجواب يختلف بحسب السَّائل وبحسب عرض

السُّؤال، والنَّاقل ليس دائما ينقل الصُّورة على حقيقتها، وكثيرًا ما يحصل من الأجوبة ما ليس فيه دقَّة من جهة عرض السَّائل.

من الآداب المرعيَّة في السَّائل أنَّه إذا سأل أهل العلم في الهاتف أو بغير الهاتف فلا يُسَجِّل الجواب مكتوبًا أو على جهاز التَّسجيل إلَّا بإذن العالم: وقد مرَّ عليّ بعض الإخوة مرَّة أنْ سجّل لأحد أهل العلم جوابًا ليس كما ينبغي، وهٰذا راجع إلى أنّ العالم يجيب على قدر الاستفتاء، ولو استحضر العالم أنّ هٰذا سيسجَّل وأنَّ الجواب سيسمعه آخرون لكان جوابه غير الجواب الأوَّل...

فمن عدم توقير أهل العلم وعدم رعاية حقِّهم؛ بل من الافتئات على حقِّهم أن تسجِّل جواب أهل العلم بالهاتف أو كتابة ثم تنشره دون إذنه؛ لأنَّه هو الذي له الحقّ في أن تنشر فتواه على الملأ أو لا تنشر أو لا تسجل، فالسَّائل سأل فيما يخصُّه، فهل أذن العالم لك أن تسجِّل السُّؤال والجواب بالهاتف؟ لم يأذن.

فإذا أردت أن تسجِّل فتستأذنه في البداية، وتقول: أحسن الله إليك أنا محتاجٌ للجوابِ مسجَّلًا على الشَّريط والآن أريد أن أسجله. فإذا أذِن تكون أنت قد أتيت بما ينبغي من الأدب، ولم تكن ممن لا يوقِّرون أهل العلم أو يجعلون الأمر غير واضح لهم؛ فيستغل بعض الفرص فيسجل عليهم ما لا يرغبون في تسجيله، لهٰذا مرَّةً من المرّات حصل مثل هٰذا ولما سئل قال: أبدًا ما قلت كذا وكذا على تفاصيله، بل المسألة فيها تفصيل بنحو ما. السُّؤال والجواب في التَّسجيل واضح، لِمَ قال العالم إنّ المسألة فيها تفصيل؟ لأنّه استحضر من المسألة الآن فيه أخذ ورد معنا ذلك فيه إشكال لكنّه ظنّ حين سأله السَّائل بالهاتف أنها لا يعدو عن اهتمام السَّائل بنفسه.

إذن مما ينبغي من توقير أهل العلم -وقد أمرنا بتوقيرهم كما جاء في الأثر عن عددٍ من التَّابعين أمرنا بتوقير أهل العلم- أن لا تفتئت عليهم بتسجيل أو كتابةٍ وتنشر إلَّا بعد إقراره، حتى ما تسمعه منه في درس بشرح مسائل، لابد من أن تعرضه عليه فيقر أن ينشر أو يصور أو ينسخ أو يسجل إلى آخر ذلك، لابد من ذلك لأنَّ ما يصلح للقليل قد لا يصلح للكثير؛ لأنَّ الكثير يعني الأمة أو النَّاس تختلف طبقاتهم، قد يرعى العالم حين يتكلم الحاضرين؛ يرعى حال الذين أمامه، هٰذا لو استحضر أنَّه سيُنشر على النَّاس فيطلع عليه فئات من الناس وبعقول مختلفة لكان جوابه يختلف عن الجواب الأوَّل.

ولهٰذا ترون أنَّ بعض الأسئلة التي يسأل فيها أهل العلم بالهاتف يكون الجواب مختلفًا عما لو سئلوا مثلًا في برنامج نور على الدَّرب، فيكون الجواب هناك في تفصيل وفيه دليل وفيه تعليل ونحو ذلك؛ لأنَّه سينشر على الملأ، لكن الجواب لك يكون على حسب الحال يصلح هٰذا أو لا يصلح، يجوز أو لا يجوز، السُّنّة

كذا –باختصار–؛ لأنّ الوقت يضيق عن أن يفصّل لكلِّ أحد.

هٰذه من بعض الآداب المتعلِّقة بالسَّائل.

لعلنا نضيف **من الآداب** المتعلِّقة بالسَّائل أنْ لا يسأل السَّائل عن أشياء لا يفهمها إلَّا الخاصة ويثير السُّؤال أمام العامَّة –أمام الملأ–: يعني في مثل هٰذه المحاضرة يأتي سؤال قد لا يعلم معناه ولا يفهم جوابه إلَّا فئة قليلة من طلبة العلم، فلم تسأل أمام الناس؟ كذلك إذا حضرت في مجلس عند بعض أهل العلم فإنّ المجلس يحضر فيه العامي والمتوسط المثقف المتعلم طالب العلم فلا تسأل العالم أو طالب العلم عن سؤال إنما هو للخاصة يعني ليس العامة، وقد قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله. وقد بوب البخاري في (كتاب العلم) من «صحيحه» بقوله: (باب من خصّ بالعلم قوما دون آخرين كراهيةَ أن يقصر فهمهم عنه فيقعوا في أشد منه).

مثال ذلك أن يأتي –في مثل هٰذا الجمع المبارك ممن هم حريصون على الخير والأجر والثواب– يأتي ويسأل عن بعض المسائل الدقيقة في العقيدة، الناس يُطلب منهم المسائل العامة فيما يجب عليهم من العقيدة؛ لكن لا ينبغي أن تسأل عن المسائل الدقيقة أمام من لا يفهم الجواب فيما لو أجاب المسؤول عن السؤال، مثلا الكلام على بعض أحاديث الصفات التي قد لا يفهمها البعض، مثلا الكلام على بعض الآراء في مواقف يوم القيامة والاختلاف فيها ونحو ذلك، والكلام على بعض دقائق المسائل في الفقه واختلاف أهل العلم فيها هٰذا يقول كذا وهٰذا يقول كذا، العامة إنما يحتاجون قولا واحدا بدليله يمشون عليه، ولكن السؤال الخاص إنما يكون لأجل هٰذا السائل ولمن هم في طبقته، ولهٰذا ينبغي أن تُفرق فرقا مهما بين السؤال والبحث –بين السؤال الذي تحتاج معه إلى جواب وبين بحث المسألة– فتارة يكون السائل يريد بحث المسألة في المقام ويعرضها بصيغة سؤال، وهٰذا غير مناسب، ولهٰذا نقول: لا تسل عن أشياء لا يفهمها إلا الخاصة، فمن أدب السؤال أن تسأل بما يناسب الحال بما يناسب المقام، وأن لا تسأل عن أشياء لا يستوعب الجواب عليها أكثر الحاضرين.

من الآداب أيضا أنك إذا سألت فأجبت، أو سمعت علما، فإنّك تستفصل فيه أو تسترجع فيه حتى تفهمه؛ لأنّ بعض أهل العلم قد يكون جوابه سريعا، مثلا تسأل أنت وقد أتيت بأدب السؤال؛ فراعيت السؤال وأتيت بكلمات واضحة وتأنيت فيه واستوضحت الصورة والمسألة، فأوضحت للعالم فيكون الجواب سريعا، يكون جواب العالم ربما سريعا، فهنا ينبغي لك أنْ لا تأخذ ما علق بذهنك في هٰذه الحال بل إذا كان عندك اشتباه فتستفصل منه أو تسترجعه في الجواب حتى تفهمه، قد روى البخاري في «صحيحه»

عن ابن أبي مُليكة أنه قال: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه. وقد بوب عليه البخاري أيضا في (كتاب العلم) من «صحيحه».

فالأدب الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أنهم إذا سمعوا شيئا يَستشكل عليهم فإنهم يراجعون حتى يفهموه، حتى لا ينقلون للناس نقلا خاطئا أو حتى لا يعلم بشيء غير واضح.

فإذن هٰذا ينبغي للسائل إذا أجيب ولم يتضح له جواب أن لا يترك السؤال على الجواب الذي هو غير واضح فيذهب يعمل بشيء غير واضح، بل يسترجع ولا بأس أن يقول: ما فهمت الجواب. أو يقول: هل كذا أو كذا. فيستوضح حتى يكون الجواب واضحا قارًّا في ذهنه.

من الآداب التي ينبغي للسائل مراعاتها أن يكون لبقا مع أهل العلم متأدبا معهم، وأن يكون لأهل العلم هيبة في صدره وتوقيرًا في قلبه: فإنّك إذا زدت في احترام العالم وشعر بذلك منك فإنه يزيدك من العلم والجواب لأنك قد تحقَّقت بالزيادة؛ يعني أصبحت متأهلا للزيادة؛ لأنّ دليل تأهّل طالب العلم للتفصيل في الجواب والاستفادة الكاملة من العالم أن يكون متأدِّبا معه، ما يأتي مثلا ويستعمل كلمات غير جيّدة أو كلمات فيها جفاء، بل يتأدب ويتحيّن الفرصة الجيّدة للعالم فيسأله.

هنا تنتبه إلى أنّ أوقات العالم تختلف، فهناك وقت قد يكون مناسبا لك لا يكون مناسبا له، فيكون الجواب الذي جاءك بحسب حاله هو، قد يكون مستعجلا، قد يكون وراءه أمر، قد يكون وقت الصلاة قرب فيريد أن يستعد بوضوء أو نحوه، قد يكون وقت نومه، قد يكون عنده ما يشغله، قد يكون في البيت شيء أهمّه، قد يعالج في ذهنه مسألة من المسائل التي في المجتمع أو التي يريد أن يبذل فيها بعض الشيء فيكون ذهنه منشغلا، فينبغي أن تراعي حال العالم حين تسأله فتقول له هل هٰذا وقت مناسب للسؤال أو أرجئ السؤال إلى وقت آخر، فإذا قال: أرجئه إلى وقت آخر. فيكون هٰذا زيادة في أدبك وأجر لك ويكون قد راعيت وتأدبت، وإذا أتى وقت آخر وسألته يكون مهيأ نفسه لأنْ يفصّل لك ويجيب المسألة بما ينبغي، فالمتصل دائما هٰذا وارد هو المرتاح، وأما المتصل به فلا يُدرى حاله، فهٰذا يظن أنه ينبغي له أن يقول العالم له كذا وكذا، وأن يرحب به بأعظم ترحيب وأن يفصل له أعظم تفصيل، لا يدري ما حال المتصل به، أحوال الناس في بيوتهم أو في أعمالهم مختلفة وقد يكون الذّهن منشغلا بتلك الحال فقد يكون وقد يكون، فينبغي أن يراعى ذلك وأن لا يظنّ أنّ المسؤول أو طالب العلم إذا سُئل أنه دائما ذهنه في نفس المستوى وفي نفس التأهيل بأن يجيب دائما جوابا مفصلا بأدلته إلى آخره.

لهٰذا لو تذهب وترى في المدوّنة مثلا التي دُونت فيها أسئلة مالك وبعض أصحابه والأجوبة، وكذلك

أسئلة للشافعي، وكذلك أسئلة أصحاب أحمد لأحمد، لا تجد الأجوبة متفقة من حيث التفصيل وعدمه، فتجد بعض أصحاب أحمد -لو رأيت المسائل المختلفة عن أحمد- تجده يسأله سائل فيكون الجواب: لا يصلح هٰذا، أكرهه. وفي مسائل أخر تجد أنه فصّل، لِمَ في موضع اختصر وفي موضع فصّل؟ نحن نقرأ الكتاب لا نستحضر الحال التي سُئل فيها ذاك السؤال والحال التي سُئل فيها السؤال مرّة أخرى، وإنما نقول: لِمَ فصل في موضع وفي موضع لم يفصل وإنما أجاب بإجابة مختصرة؟ واقع الحال وواقع العالم النفسي والذهني والزمني والمكاني يفرض عليه أشياء كما سيأتي أيضا، ولهٰذا ينبغي أن يراعى ذلك في حال سؤال أهل العلم.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْر الأمة في القرآن وحِبْرها؛ يعني كثير العلم في كتاب الله جل وعلا بدعوة النبي ﷺ، مكث زمانًا طويلا تردّد في نفسه مَن المقصود بالمرأتين في قول الله جلّ وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[التحريم:٤]، من المرأتان؟ قال ابن عباس: تردد ذلك في نفسي زمنا طويلا، وهِبت أن أسأل عمرا لأنّ عمر كان يحب ابن عباس وكان يقدمه في المجالس ويباهي به كبار الصحابة لما يظن ويلمح فيه من علم وتُؤدة وأدب وفهم عنده في الكتاب والسنة. قال ابن عباس: هبت أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. قال: حتى كان منصرفه مرّة من الحج فصحبته فقال لي: يا ابن عباس قرّب لي وَضوءا -يعني ماء-. فلما قرّبت له الوضوء قلت له في أثنائه يا أمير المؤمنين مَن المرأتان اللتان قال فيهما الله جل وعلا ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾؟ قال: فأجابني عمر فقال: عائشة وحفصة.

وكان ابن عباس ربما توسد بردته في يوم حار عند باب أحد الأنصار ليستفيد منه علما، سمع عنده حديث عن النبي ﷺ فأراد أن يتثبّت منه أو أراد أن يأخذه منه مباشرة، فيأتي فيطرق الباب فيقولون هو قائل -يعني نائم- أو هو في الدّار أو مثل ما يقول أحدنا اليوم هو مشغول أو نحو ذلك فانتظر، انتظر حتى خرج فلما خرج قال: يا ابن عمّ رسول الله ﷺ منذ متى وأنت هنا؟ فقال ابن عباس: منذ كذا وكذا. وكان يتوسد البردة وتسفي الريح التراب عليه تذللا في العلم واحتراما لأهل العلم، فلما رآه على هٰذه الحال انشرح صدر المسؤول أن يجيبه عما أراد وعظُم في نفسه، فكان ابن عباس إذا سأل أُجيب غير كثير ممن هم في طبقته من الصحابة رضي الله عن الجميع، ولهٰذا قال كلمته المشهورة: **ذللتُ طالبًا فعززتُ مطلوبًا**. يعني لّما كنت طالبا كنت أذلّ لمن أستفيد منه ولكن لما أحتاج الناس إلي عززت مطلوبا؛ لأنه صار عندي من العلم ما ليس عند غيري.

وقد قال ابن عباس لبعض الأنصار -وكان صديقا له- اذهب بنا يا أخي إلى صحابة رسول الله ﷺ نسألهم عن العلم ونستفيد منهم، فقال: ذاك الأنصاري يا ابن عباس أتظنّ أنّ النّاس سيحتاجون إليك وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ الكبار بين ظهرانيهم. قال: فتركت العلم والسؤال وذهب ابن عباس يسأل. ذهب كبار الصحابة فأتى زمن ابن عباس فيه هو من كبار صحابة رسول الله ﷺ، فاحتاج الناس إلى علمه وأصبح يجيب الناس بما فتح الله جلّ وعلا عليه ومنّ عليه من العلم، الشاهد من ذلك أنّ السائل والمتعلم يحتاج إلى أدب وهو مراعاة أهل العلم وأن لا يضيق بالعالم إذا لم يفتح له صدره دائما، بشر هو، أحيانا يكون على حال وأحيانا يكون على حال أخرى؛ وهٰذا لعله من أسباب عدم إكثار الصحابة سؤال النبي ﷺ تأدبا معه وتوقيرا له عليه الصلاة والسلام، وحتى يكون ذلك أبلغ في الأدب معه عليه الصلاة والسلام.

هٰذا من جهة أدب السائل.

أما العالم فأيضا يحتاج إلى أن يكون -أو طالب العلم- معه أدب في الجواب، وأهل العلم يعلمون ذلك وهم الذين يعلمون غيرهم في ذلك، فإنْ كان من بعض طلبة العلم أو المنتسبين إلى العلم أو أهل العلم من لم يكن للسائل حفيّا أو اشتد على السائل أو وبّخه فلا يغضب السائل ويأتي -كما هو حاصل اليوم- يذهب ويقول: فلان من المشايخ سألته ونهرني وقال لي كذا وكذا، ليش نحن جَايِّين نطلب منه شيئا ونحو ذلك.

هٰذا لا ينبغي لأنّ حال المسؤول ينبغي لك أن تعذره؛ لأنّه خاصة في هٰذا الزمن ليس في زمن الرياض أو المملكة منذ خمسين سنة، الذين هم في الرياض كلهم خمسة آلاف أو أربعة آلاف، الواحد يسأل سؤالا واحدا في اليوم، وقد يمر أيام ما أحد سأل لوضوح الأمور، الآن الهاتف كل لحظة يشتغل، والمسجد هٰذا سائل والثاني والثالث، والرسائل التي تحتاج إلى جواب، ونحو ذلك من المشكلات العظام أيضا التي تحتاج إلى علاج، وما أشبه ذلك.

فلابد أن نكون ملتمسين عذرًا لأهل العلم ولطلبة العلم، لابد، وإذا كنا غير ملتمسين للعذر فإن هٰذا غير جيد في حقِّنا ومن ترك مراعاة الأدب؛ أدب السؤال وأدب الجواب.

أيضا العلماء يختلفون، بعضهم يكون سهل الجواب، وبعضهم يكون غير سهل الجواب، وهٰذا راجع إلى طبيعته؛ طبيعته التي جعله الله جل وعلا عليها، فإذن السائل ينبغي له أن يلتمس العذر، وأن يتأدَّب وأن يوقر العالم ويستفيد من علمه بقدر ما يحب العالم وأن لا يقصيه في أموره.

من الأدب المهم أيضًا -أدب السائل- أن لا يحرِّج السائلُ العالمَ أو طالب العلم مثال ذلك مثلا أسئلة مرّت جاءني في أحد المحاضرات سؤال يقول: أسألك بالله وبوجهه وأقسم عليك أن تجيب على هٰذا

السؤال.

طيب المسؤول قد يكون له نظر في أنّه لا تناسب إجابة هٰذا السؤال على العامة، فأنت الآن أحرجته شرعا؛ لأنّ من السنة إبرار المقسم؛ فإذا أقسم عليك أحد بالله فإنه من السنة أن تجيبه «**من سألكم بالله فأجيبوه**» فالآن أحرجته.

هو يرى المصلحة الشرعية السؤال لا يعرض ولا يجيب عليه وأنت تحرجه شرعا في أن يجيبه.

وهٰذا من غاية ما يكون من عدم رعاية الأدب وعدم احترام أهل العلم وطلبة العلم؛ لأنّك تريد أنت الإجابة لغرضٍ في نفسك، ومثل هٰذا الذي يكون معه إقسام وسؤال بالله غالبا بل الأكثر والجلّ لا يكون هو الذي يريد أن ينتفع لنفسه، وإنما يريد أن يكون هٰذا جوابا لأشياء تتعلق بالمجتمع أو بالأمة بالرأي العام ونحو ذلك، يريد أن ينتشر الجواب عن ذلك.

العالم أو طالب العلم قد يترك جواب بعض المسائل لغرض شرعي صحيح يرعاه، وقد يرعى من المصالح الشرعية ما لا يستبينه السائل، فإذا حرّج السائلُ طالب العلم في مثل هٰذا التحريج كان هٰذا في غاية ما يكون من الإساءة، فإما أن يجيب عليه العالم فيقع عدم المصلحة الشرعية، وإما أن يرتكب النهي، فبذلك يوقع العالم أو طالب العلم في الحرج في أي المفسدتين أدنى حتى يرتكبها، هل يرتكب مفسدة الجواب أو مخالفة إبرار المقسم ونحو ذلك.

المسائل التي يُسأل عنها تنقسم إلى:

- مسائل في التَّوحيد والعقيدة.
- ومسائل فقهيَّة.
- ومسائل اجتماعيَّة.

المسائل التي في العقيدة: تارة تكون غايتها للبحث والفائدة، وتارة تكون لها مِساس بموقفٍ سيكون في الواقع:

تارة يكون البحث في مسائل التوحيد والعقيدة لغرض إفادة السَّائل؛ السائل يبحث عما يريد أن يستفيده، مثلا مسألة في التَّوحيد، معنى الشهادتين، واستفصال حول باب من أبواب «كتاب التوحيد»، أو مسألة من مسائل الصفات أو الإيمان بالقدر أو ما أشبه ذلك.

وهناك أسئلة يسأل لكي ينبني على هٰذا السؤال شيئا من التصرُّفات في نفسه أو في من معه سواء في داخل هٰذه البلاد أو في خارجها، فهنا ينبغي للسائل؛ بل يجب عليه أن يبين للعالم الذي يسأله غرضه من

السؤال، وأن لا يدلس عليه؛ فيقول هٰذا السؤال لشخصي، أو يقول هٰذا السؤال أريد أن أرسله إلى بلد كذا وكذا لكي ينتفع منه بعض من سألنا من هناك.

مثلا أسئلة جاءت من الجزائر يختلف الجواب، أسئلة جاءت من مصر يختلف الجواب، إذا كان السؤال تبعثه من نفسك بنفسك يختلف جوابه عما إذا كان سينبني عليه عمل أمة، ينبني عليه عمل في المجتمع، يترتب عليه مصلحة أو مفسدة إلى آخره؛ لأنّ الحكم الشرعي الفرق بين العالم وطالب العلم والدّارس، الفرق بين المفتي والباحث أنّ المفتي يبني فتواه على أشياء كثيرة؛ يرعى النصوص ويرعى كلام أهل العلم ويرعى القواعد الشرعية ويرعى ما أمر الله جلّ وعلا به من الأصول وما نهى الله جلّ وعلا عنه، فيرعى أشياء كثيرة غير المسألة الموجودة في الكتاب، فقد يجد السائل المسألة موجودة في كتاب من الكتب ويذهب يطبقها على الواقع لا ليس الأمر كذلك، ولو كان الأمر لما احتاج أهل العقول أن يطلبوا العلم على أهل العلم وإنما يقرؤون ويُكتفى بقراءتهم.

ولهٰذا قال بعض من تقدّم: **لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي ولا القرآن عن مُصْحفي**. (**لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي**) يعني عمن يقرأ في الصحف، والنسبة إلى الصحف صَحَفي وليس صُحُفي؛ لأنّ النسبة تكون إلى الصَّحيفة على وزن فعيلة وليست النسبة إلى الجمع؛ لأنّ القاعدة اللغوية أن النسبة تكون إلى المفرد لا إلى الجمع، فقال: **لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي ولا القرآن عن مُصْحفي**. يعني بَسْ الذي قرأ القرآن من مصحف وحفظ من المصحف لا تأخذ عنه القرآن، لابدّ أن يكون قد قرأ القرآن على شيخ أخذه عنه؛ لأنه هناك أشياء لا يدركها بقراءته في المصحف، كذلك العلم هناك أشياء لا يدركها بقراءته للكتب، ولهٰذا عاب بعض أهل العلم بعض الفحول في مسائل لأنهم اقتصروا على ما قرؤوا:

أخطأ ابن حزم في مسائل في الحج ما السبب؟ أنه قرأها وما حجّ ورأى المشاعر ورأى ما فيه الناس.

شيخ الإسلام ابن تيمية كتب منسكا من المناسك على ما هو موجود عنده في الكتب، ثم لما حجّ غيّر رأيه في مسائل كثيرة.

كذلك ابن القطان مثلا -أحد علماء الحديث المعروفين- لكنه لم يأخذ علم الحديث عن رواية وعن أهل العلم وإنما كان -ذكر ذلك الذهبي- كان أكثر أخذه لذلك عن طريق القراءة ووقع في أشياء كثيرة لا يقع فيها أمثاله من أهل العلم.

إذن هناك فرق بين أن يكون السؤال لحالة تخصك أنت، أو أن يكون السؤال لحالة عامة في مسائل العقيدة والتوحيد.

وكذلك في مسائل الفقه: إذا كان السؤال شخصي هٰذا له حال، وإذا كان السؤال ستنشره وسيبني عليه عمل أناس كثير هٰذا ينبغي أن توضحه للعالم حتى يتحرَّى في جوابه الأنفع للأمة، ولهٰذا بعض أهل العلم يفتي بفتاوى خاصَّة لفلان من الناس ويأتي هٰذا ويقول أفتاني الشيخ بكذا وكذا، فيذهب على أن الشيخ هٰذه فتواه وإذا سئل العالم يقول لا هٰذه فتوى ما أفتيت بها يعني للعامة وإنما أفتى بها لمسألة خاصة.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ -إمام هٰذه الدعوة عجّل الله له المثوبة ورفع درجته في الجنة- أفتى في بعض المسائل في مسألة معروفة في الطلاق مرة واحدة فقط مدونة موجودة، مرة واحدة وفي بقيتها يفتي على غير هٰذه الفتوى، في تلك المرة هل نأخذها ونجعلها قاعدة؟ لا؛ لأنه رأى من حال السائل وحال السؤال ما يجعله يفتي بتلك الفتوى.

فإذن العالم قد يخصّ في حالة معينة بفتوى لو قيل له: إنها ستنتشر، لا يفتي بتلك الفتوى، وهٰذا مما ينبغي للسائل أن يرعاه، فيكون الأدب في ذلك أن تخبر العالم أنّ هٰذا السؤال خاص بي في مسائل التوحيد والعقيدة، أو أنّه سيبعث إلى بلد كذا وكذا وينتشر، أو نتدارسه نحن والإخوان وسنرتب عليه كذا وكذا في عمل في إنكار منكر إلى آخره، فهٰذا يختلف.

وبعض السَّائلين -وحصل مرارا، وأنا أدركت بعض هٰذه الأشياء - مع الأسف أنه يعتقد من الذكاء أن يُبهم السؤال ويستغفل العالم فيسأله حتى يقع في جواب، هو ما أوضح له الصورة.

فيقول: مثلا إذا حصل من واحد أنه قال كذا وكذا فهل يكون مرتدًّا أم لا؟ هل يكون مبتدعا أم لا؟ هل يكون فاسقا أم لا؟ بعض العلماء خاصة بعد ما مرت تجارب يستفصل أو قد لا يجيب على السؤال، وبعضهم قد يجيب على ظاهره باعتبارها مسألة علميَّة عامَّة، لو سئل عن تنزيلها في الواقع ربما اختلف جوابه.

فهٰذا من المهم أن تتبيّنه قبل السؤال، وأنْ لا تُلغز أو تبهم وتظن أن هٰذا من الذكاء أو أنك أخذت منه جوابا، في الواقع أنت تأثَّمت بما ستنقل وتأثمت بوضع العالم، وقد حصل كما رأى بعضكم كثير من الاختلاف في الفتاوى في فترة مضت، هٰذا ينقل كذا وهٰذا ينقل كذا، وكثير منها راجع إلى أنّ السائل ما أعطى العالم الحقيقة في ما وراء كلمات سؤاله، إنما سأل سؤال عام ذلك ظنّ أنها مسألة علمية وما استفصل منه فأجاب على أنها مسألة علمية، فهٰذا ما راعى الآداب والتفريق بين المسألة العلمية وتطبيقها في الواقع، فلهٰذا أخذ هٰذا الجواب وحصل من الاختلاف والآراء المتضاربة ما حصل لأجل هٰذه المسائل.

إذن إذا كانت المسألة عقدية أو كانت المسألة فقهية فلابدّ أن ترعى الأدب فيها، وأن تفرِّق حين تسأل

السؤال بين أن تكون شخصيَّة أو عامة، وأن تبين ذلك للعالم الذي تسأله.

أحوال السّؤال

السّؤال له أحوال، سؤال المسجد بعد المحاضرة يختلف عن سؤال المسجد بعد ما ينصرف العالم من الصلاة، يختلف عن السؤال في الجامعة، يختلف عن السؤال في درس يلقيه العالم، يختلف عن السؤال فيما إذا كان راكبا سيارته -يسمع بسرعة ويجيب-، فهٰذا السائل يأتي راغبا -ما شاء الله- والمسؤول يأتي يريد أن ينتهي؛ مثلا ألقى محاضرة زمنها كذا وكذا، فهو يريد أن يكون الجواب على نحو ما، يأتي يسأل سؤالا هكذا عرضا ويأتيه الجواب فيأخذ هٰذا الجواب وهو صادق في أنّ العالم أجابه، لكن غير صادق في أنّ العالم فهم ما أراده بأبعاده وما وراء كلمات السؤال، ولهٰذا ينبغي أن نفرق -رعاية للأدب وإبراء للذمة- بين أحوال؛ السؤال؛ سؤال المسجد بعد محاضرة له حال، سؤال المسجد بعد الإمامة له حال، سؤال بعد درس من الدروس في مجلس من مجالس العلم في الفقه أو في التوحيد أوغيرهما له حال في الإجابة والاستفصال والرد إلى آخره، سؤال الجامعة، سؤال الهاتف له حال، سؤال السيارة له حال .. إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد ذكر لي بعض كبار السن أنه أراد مرة أن يسأل الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ سؤالا في السيارة فأجابه الشيخ قائلا: إنّ السيارة ما فيها فتاوى إذا رُحنا إلى البيت فادخل واسأل، أو إذا كنا في المسجد ادخل واسألني فيه. لماذا؟ لأنه راكب معه في السيارة فيعرض له أشياء هٰذا مرّ وهٰذا يسلّم وهٰذا.. والمفتي ينقل عن الله جلّ وعلا وموقع عن رب العالمين حينما يجيب يقول: هٰذه فتوى الله جلّ وعلا في المسألة. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾[النساء:١٧٦]، هٰذا كلام الله جلّ وعلا، هٰذا حكم الشرع، فالمسألة عظيمة، ولهٰذا كثير من السلف هاب السؤال وردّ السائل وتردد، وتردد وقال: لا أدري. كثيرا، الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كان يسأل ويجيب لا أدري وهو أبو عبد الله مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ، أتاه سائل من مِصْرٍ بعيد قال: يا أبا عبد الله أتيتك من بلد كذا وكذا من أبناء لك أو إخوان لك يحبونك وحملوني أربعين مسألة، فقال مالك: سَل فسأل المسألة الأولى فقال الإمام مالك: لا أدري، والثانية: لا أدري، والثالثة: لا أدري، أجاب عن سبع مسائل أو قيل أربع مسائل، وفي ثلاث وثلاثين أو ست وثلاثين مسألة قال: لا أدري.

لو عالم يأتي ويقول اليوم هٰذا؛ لا أدري ولا أدري، سيقال: هٰذا ما عنده خبر ما عنده علم. قد يكون الحال غير مناسب قد يكون يريد أن يؤدِّب السائل وقد وقد... فقال هٰذا للإمام مالك: يا أبا عبد الله أتيتك من كذا وكذا وكلُّهم ينتظرون جوابا أأذهب إليهم وأقول: مالك يقول في ثلاث وثلاثين مسألة لا أدري؟ قال: قل لهم إنّ مالكا لا يدري. ما أبردها على القلب. لماذا؟ لأنه إذا أجاب يجيب عن الله جلّ وعلا، هٰذا

حكم الكتاب والسنة، وهي مسألة تجلّ لها القلوب، ولهٰذا نُهينا عن كثرة المسائل، وهٰذا مما ينبغي لنا أن نتركه –كثرة السُّؤال–؛ هٰذا سؤال كذا، سؤال كذا، سؤال كذا، في مكان واحد مائة سؤال مائتين سؤال، ذهن المسؤول يكلّ ويتعب وقد يضعف في آخره، ولهٰذا يأتي بالمسائل الكبيرة والكبيرة، ولا أحد يقدر يحلها؛ لا أدري، فالمسؤول بشر، العالم بشر، طالب العلم بشر، فينبغي أن يُراعى الحال وأن لا تكثر المسائل.

جاء في النصوص –ونختم بهٰذا حتى لا نطيل عليكم– النهي عن كثرة المسائل وقد قال العلماء كثرة المسائل الناس تجاهها على أحوال؛ يعني على أقوال:

❖ من الناس –وهو قول طائفة من المنتسبين لأهل الحديث– مَن لم يسأله وقالوا يكفينا ما عندنا من النصوص ولا نحتاج أن نسأل؛ لأنه نهينا عن السؤال، ويأخذون بعموم ما ورد في النهي عن المسألة والنهي عن كثرة المسائل «**وإياكم والمسائل**» «**وإياكم والأغلوطات**» ونحو ذلك مما جاء في الأحاديث، فأخذوا به على ظاهره فلم يسألوا، وهؤلاء أدَّى بهم ذلك إلى ألاّ يكونوا فقهاء وأن يكون فهمهم للشريعة قاصرًا أو على غير السّداد، كما ذكر ذلك ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، هٰذا صنفٌ، قالوا: لا تسأل عندك النصوص عندك الكتب ما يحتاج لأنّ السؤال منهي عنه وكثرة المسائل معيبة، فعندك إذا احتجت دور من الكتب وإذا لم تحتاج فلا تسل، وهٰذا الحال أو الفعل غير صواب.

❖ والفعل الثاني أو الحال الثاني: حال أهل الرأي الذين شقّقوا المسائل وسألوا عن أشياء لم تقع، وافترضوا أحوالا لم تقع في زمانهم:

منها أشياء لم تقع ولن تقع أبدا؛ لأنها خيال أو لا يمكن أن تتصور إلا في الذهن أما في الواقع لا تتصور.

ومنها أشياء تخيلوها ووقعت، ووقوع البعض لا يعني أنّ ما شققوه أنه مأذون به.

بالمثال يتضح الحال: بعض فقهاء أهل الرأي من الحنفية وغيرهم لهم كتب فيها الطريقة التالية: أرأيت إن كان كذا فمثلا يبدأ الكتاب، الوقف هو كذا، أرأيت إن كان كذا، فالجواب كذا، يعني أنه يسأل العالم مائة سؤال مائتين ثلاثمائة سؤال، كلها تشقيق للمسائل، فيه أشياء واقعة وأشياء غير واقعة، وبإيراد الحيل في هٰذه المسائل.

وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أتاه رجل يسمع حديثه، فقال ابن عمر: من السُّنَّة تقبيل الحجر الأسود، قال الرجل لابن عمر: أرأيت إن هناك ثَم زحام؟ قال: من السُّنة تقبيل الحجر الأسود. قال: أرأيت إن غُلبت عنه؟ قال: من السنة تقبيل الحجر الأسود. قال: أرأيت إن لم يمكني تقبيله. قال: دع أرأيت في اليمن –هو كان من أهل اليمن– من السنة تقبيل الحجر الأسود. فإذا تمكنت من تطبيق السنة فطبق ما تمكنت، لا تكثر من

أرأيت إن حصل كذا؟ أرأيت إن حصل كذا؟ وهٰذا يحرمه كثيرون يظنون العلم بكثرة السؤال، يسأل عن أشياء لا يعلم عن حكمها يسأل ويسأل، لا، العلم بالتعلم وإنما السؤال كاشف للعلم وليس أساسا في العلم، لأنّ الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1] فإذا استشكلت فاسأل، إذا كنت لا تعلم فسل، وأما كل شيء تسأل عنه في موقع واحد تسأل عشرين ثلاثين سؤال، هٰذا غير محمود.

فإذن هٰذا القسم وهو السؤال عن أشياء لم تقع وكثرة المسائل باقٍ في النهي عنه «**فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» سؤال عن أشياء لم تقع.

❖ القسم الثالث وهو حال فقهاء الأمة فقهاء أهل الحديث ومن تابعوا حال السلف في ذلك: وهم الذين يسألون عن معاني الكتاب والسنة وعما يدخل في دلالاتها من الفقه، هٰذا السؤال المحمود الذي من بحث عنه فهو الذي يرضى قوله وعمله، تسأل عن معنى آية، تسأل عن معنى حديث، استشكلته فتسأل عن ذلك فهٰذا لا يدخل ضمن المنهي عنه.

النبي ﷺ قال: «**من نوقش الحساب عذب**» فقالت عائشة: يا رسول الله أليس الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾[الانشقاق]، قال رسول الله ﷺ: «**ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذّب**» (**العرض**) يعني أن يعرض عليه أن يحاسب بمعنى تعرض عليه، عملت كذا وكذا وسترتها عليك وعملت كذا وكذا وأثيبك عليها وهكذا، هٰذا عرض للمسائل، وأما المناقشة فإنّ معها العذاب؛ لأنّ الله جلّ وعلا لا يناقش الحساب أحدا إلاّ عذبه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من نُوقش الحساب عُذّب**».

هٰذا القسم محمود سؤاله، وهو الذي فعله أهل العلم ويفعلونه مع مشايخهم؛ يسألون عن أشياء تخصُّهم في دينهم؛ يستفتون، أو يسألون عن معاني الكتاب والسنة، ويسألون لرجاء نفعهم.

من المسائل التي ينبغي أيضًا أن تراعى في أدب السؤال ما يخصُّ الذين يسألون أهل العلم في عقب المحاضرات أو النَّدوات: السائل الذي أَرسل السؤال في الورقة طبعا يضيق المقام أن تعرض جميع الأسئلة بعد محاضرة أو بعد ندوة؛ لكن هو يحتاج إلى الجواب، وهٰذا الذي يفرز الأسئلة ينبغي أن يكون متأدِّبًا مع العالم في السؤال، وأحيانا لا يرعى الأدب في ذلك بأن تُحجب بعض الأسئلة وتُعرض بعض الأسئلة،

---

(١) سورة: النحل، الآية (٤٣)، الأنبياء، الآية (٧).

الأسئلة التي فيها مخالفة لرأي هٰذا الذي يفرز لا يعرضها والتي توافق رأيه يعرضها، هو لم يؤتمن على هٰذا!! أؤتمن على أنّ المسألة التي تفيد السائل وتناسب الحال وله أن يقيم الحال حال المسجد يرعى المصلحة ويدرأ المفسدة أو ينظر لرغبة الشيخ أو العالم فيما يسأل عنه وما لا يسأل عنه هٰذا لابد منه، طيب، لكن أن يكون هو يختار ما يريده ويلغي ما لا يريده، هٰذا نوع من عدم الأدب مع أهل العلم في السؤال، وسببوا إشكالات كثيرة، فيأتي هٰذا ويستدعي عالم أو يطلب من عالم فيسأله عن أشياء هو يريدها، أو تأتي الأسئلة فيبعد بعض الأسئلة التي جوابها يعلم أن العالم يجيب هٰذا الجواب لكن هٰذا الجواب غير مرضي عنه، يعني أنت حكم على أهل العلم في أجوبتهم؟ هٰذا يسبب فرقة في الأمة ويسبب أشياء من عدم رعاية وتوقير أهل العلم.

الذي ينبغي من الأدب للذين يسألون أهل العلم أن يسألوا الأسئلة النَّافعة، سواء كانت توافق ما عنده أو لا توافق؛ لأنّ العالم هو الذي سيجيب بما دلت عليه النصوص -إذا كان راسخا في العلم- والهوى بعيد عن أهل العلم، وهٰذا من تزكية الله جلّ وعلا لهم، ولهٰذا لا ينبغي لهٰذا الذي يفرز الأسئلة أن ينتقي على رغبته بل يسأل، ويقول للعالم قبل أن يأتي الأسئلة إذا جاءت: ما الأسئلة التي تحبّ أن تعرض وما التي لا تحب أن تعرض؟ فيقول له: الأسئلة التي فيها كذا وكذا لا تعرضها؛ لأنه قد لا يناسب عرضها أمام الناس في مسجد، منهم من يكون خالي الذِّهن أصلا عن بحث هٰذه المسألة، يأتي تعرض فيطلع على شيء هو في غنية عن أن يطلّع عليه.

إذن هٰذه المسألة بحاجة أن تُرعى في الندوات والمحاضرات أن يكون الذي يفرز الأسئلة يرعى ما يرغبه العالم فيما يعرض وفيما لا يعرض، وأن لا يتحكم هو؛ لأنّ تحكمه يسبب بعض عدم رعاية توقير أهل العلم، لهٰذا نجد أنّ بعض المشايخ يعتذر عن بعض الندوات ويعتذر عن بعض المحاضرات، لمَ؟ لأنّه يخشى أن تأتي أسئلة لا يناسب الجواب عليها أمام العامة.

مثل ما ذكرنا السلف ما أجابوا على كل سؤال في كل مقام، وإنما يختلف الجواب بحسب اختلاف الحال، يفصل في موضع، لا يفصل في موضع، يمتنع عن الجواب في موضع، إلى آخر ذلك.

النَّبي عليه الصلاة والسلام كان يتكلم فأتاه رجل فسأله: متى الساعة؟ فلم يجبه عليه الصلاة والسلام وأكمل حديثه، ثم سأله: متى الساعة؟ وأكمل حديثه، ثم قال: متى الساعة؟ فأجابه النبي ﷺ عن السؤال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾[النازعات] ما يعلمها عليه الصلاة والسلام ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف:١٨٧] جلّ وعلا، فلما ألحّ في المسألة كره النبي ﷺ ذلك منه وقال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، هٰذا الجواب غير السؤال -صحيح؟- لأنّ السؤال كان بـ(متى) عن

الزمن النبي ﷺ أجابه بقوله «**إذا وسد**» بعلامة من العلامات، وأشراط الساعة معلومة.

كذلك في قول الله جلّ وعلا لما سأل النبيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الناسُ عن الأهلّة كان الجواب: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩]، الصحابة -يعني بعضهم- سألوا وقالوا: لمَ يبدُو الهلال في أوّل الشهر رفيعا ثم يكبر ثم يكبر حتى يستتم؟ يعني هل هم يفهمون وضع الأرض ووضع القمر لو فصل لهم إلى آخره لو فصل لهم؟ لن يفهموا ذلك، سألوا سؤالا لا تستوعب الجواب عليه عقولُهم فكان الجواب ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أجيبوا بشيء غير السؤال بما ينفعهم؛ وهو أنّ الأهلّة هٰذه مواقيت، لم يبدو كذا ثم يكون كذا، هٰذا عُدل عن الجواب عنه وفي هٰذا أصل شرعي في أنّ العالم قد يعدل عن الجواب إلى شيء آخر، ويأتي بعض الناس ويقول هٰذا هروب من الجواب، الشيخ ما أجاب هرب من الجواب، ليس هروبا من الجواب لأنّه لا يريد أن يجيب لخوفه من الجواب ونحو ذلك، لا، العالم مربي يربي الناس ويجيب بالأصلح لهم لما يرعى فيه المصلحة ويدرأ المفسدة.

هٰذه بعض ما يتعلق بالآداب التي ينبغي مراعاتها حين السُّؤال.

وأسأل الله جلّ وعلا أن ينفعني وإيّاكم بما سمعنا، وأن يجعلنا من المتأدِّبين الذين يريدون وجه الله والدّار الآخرة، وأسأله جلّ وعلا أن ينفعنا بعلمائنا، وأن يجعلنا من المتعاونين معهم على البرّ والتقوى، والمتأدبين معهم، والذّابين عنهم قول أهل السوء، وأسأله سبحانه لي ولكم العفو العافية والمعافاة الدائمة في الدّنيا والآخرة، وأن يختم علينا هٰذا الشهر الكريم بقبولٍ وغفران، وألاّ يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يوفق ولاة أمورنا لما يحب ويرضى، هٰذا وصلَّى الله وسلم وبارك على من علمنا الخير وأدَّبنا أحسن تأديب نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وأشكر لكم حسن هٰذا الاستماع وحسن الإقبال، وأسأله سبحانه أن يجعلنا جميعا ممن غفر له أول ذنبه وآخر ذنبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

[الأسئلة وأجوبتها]

سؤال (١): كيف أوفِّق بين النهي عن كثرة السؤال وبين قول ابن عباس: أوتيته -عن العلم- بلسان سَؤول وقلب عقول؟ وأحسن الله إليكم.

الجواب: الحمد لله، ذكرنا أن الأحوال ثلاثة: حال الممتنع عن السؤال، وحال من يفرِّع المسائل التي لم تقع، وحال من يسأل عن علم الكتاب والسنة.

ابن عباس في أسئلته كان يسأل عن علم الكتاب والسنة؛ عن معاني النصوص، وقول النبي -عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» هٰذا حمل على وجهين:

الأول: أن يكون هٰذا النهي عن كثرة المسائل في حال تنزُّل القرآن، كما قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:١٠١]، فحين يُنزّل القرآن لا تسل، أُدِّبَ الصَّحابة بهٰذا التأديب، وكثرة المسائل حين ينزل القرآن هٰذه غير جيدة بل منهي عنها؛ لأنه ربما سيأتي الحكم في فترة من التشريع لاحقة، فيكون كثرة السؤال استعجال للأحكام ولو أبديت لأساءتهم، ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أوتي العلم بكثرة السؤال؛ لكن سؤال عن معاني النصوص سؤال عن السنة عن الحديث وليس سؤالا عن المسائل التي لم تقع أو تشقيق للمسائل، لهٰذا ذكرنا لكم أن الأحوال ثلاثة:

حال من لم يسأل مطلقا وهٰذا مذموم.

وحال من شقق المسائل كصنيع أهل الرأي، وهٰذا جاء نهي السلف عنه.

وحال من سأل عن فقه الكتاب والسنة، وهٰذا هو المحمود وهو صنيع الصحابة وصنيع أهل العلم بعدهم.

سؤال (٢): فضيلة الشيخ حديث «**من سأل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار**» هل المقصود بالعلم هنا عموم العلم أو العلم الشرعي؟

الجواب: المقصود بهٰذا العلم الشرعي؛ لأنه إذا أطلقت نصوص العلم في الكتاب والسنة فإنما يراد به أنفع العلوم وهو العلم الشرعي، «**فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**» وقد جاء في بعض الأحاديث وحمله أهل العلم على أن هٰذا الوعيد في حالة من تعيَّنت عليه الإجابة فامتنع وبامتناعه لا يظهر العلم في الأمَّة.

أما إذا كان مكفيًّا فإنه له أن يحيل الجواب على غيره، وقد جاء سائل إلى بعض الصحابة وسأله فقال: اذهب إلى فلان، ثم ذهب إلى الثاني فقال: اذهب إلى فلان، والثالث حتى سبعة، والسابع أرجعه إلى الأول فقال ذهبت إلى فلان وفلان وفلان وكلهم يحيل إلى الآخر حتى أحالني السابع إليك، فقال: الآن إذن، فأجابه.

فإذن قوله: (**من سئل عن علم فكتمه**) هو العلم الذي يجابه عينية وفرض على من سئل أما إذا كان مكفيا فإن له أن لا يجيب إحالة للجواب على غيره.

سؤال (٣): كثيرا ما تعرض لأحدنا مشكلة ما ويبحث عن جوابها في كتب الفتاوى، فهل يكتفي بجواب قضية مشابهة لما يريد أن يسأل عنه أم لابد أن يسأل العلماء؟ والله يحفظكم ويرعاكم.

الجواب: الذي في الفتاوى على قسمين:

منه ما يمكن أن ينطبق على حالته.

ومنه ما لا يمكن أن ينطبق على الحالة.

الذي ينطبق على الحالة في مثل مسائل لا تتعلق إجابتها باختلاف الواقع والحال، هٰذا إنما يعلمه المفتي؛ يعني مثل مسألة في الصلاة، سئل الشيخ فلان عن رجل إمام ترك ركعة من الصلاة سها فيها، ثم سُبِّح به إلى آخره، فهٰذا إذا حصل معك الحال فهي مشابهة لها فتعمل بمقتضى الفتوى.

سئل مثلا عن حكم التصوير، سئل عن حكم صلة الرحم ونحو ذلك، سئل عن الوتر، سئل عن القنوت هٰذه تنطبق على الناس في أي وقت وفي أي زمان.

لكن هناك أشياء متعلقة باختلاف الأزمنة، متعلقة برعاية قواعد، هٰذه لا تطبقها؛ لأنه إذا طبقتها على غير زمنها فإنه قد يكون في ذلك إخلالًا، هٰذا حصل كثيرين طبقوا فتاوى في وقت ما على غيره، فصار في ذلك إخلالٌ بمراد العالم حين أفتى بتلك الفتوى؛ لأن الفتوى لها حال.

مثلا فتاوى تتعلق بالجهاد، فتاوى تتعلق بالتكفير، فتاوى تتعلق بموقف المسلم من غيره، فأجاب العالم بإجابة لاشك أنه قد رعى الحال التي في ذلك الزمن، أفتى فتاوى في الجهاد يختلف عما إذا كان الحال حال أخرى؛ مثلا شيخ الإسلام ابن تيمية له فتاوى تتعلق بجهاد التتار، هل تأتي وتطبِّق بما ورد في جهاد التتار على غير تلك الصورة، وأنت تلحق الصورة المتأخرة بتلك الصورة المتقدمة؟ لاشك أن هٰذا يحتاج للإلحاق إلى عالم راسخ في العلم يقول: المناط في هٰذه الحال في هٰذا الزمن هو المناط في تلك الحال.

ولهٰذا عند الأصوليين مناط الحكم يختلف باختلاف الحال، وعندهم قاعدة يعبر عنها بعض أهل العلم بقوله: بساط الحال مؤثر في الفتوى. حال الفتوى، حال الاستفتاء، حال الناس مؤثر في الفتوى، كذلك -مثل ما ذكرنا- اختلاف الأزمنة مؤثر في الأزمنة، الأحكام واحدة لكن الفتوى تختلف؛ لأنه يكون إعمال قاعدة قد ترجح شيء على شيء، وهٰذا واضح فيما لو رعاه طالب العلم لوجد لذلك مأخذًا ظاهرًا.

فإذن المسائل التي تقرأ؛ تقرأ في الفتاوى تختلف بعضها يمكن أن يطبق وبعضها لابد فيه من تحقيق المناط، لهٰذا عند الأصوليين هناك شيء يسمى تخريج المناط، وهناك شيء يسمى تحقيق المناط؛ تحقيق المناط يعني أن يحقق العالمُ أنّ مناط الحكم في الواقعة هو كذا وكذا، فإذا حقق العالم المناط جاءت الفتوى، ولهٰذا

العبارة المشهورة أن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما، والعلة تارة تكون علة قياس وتارة تكون علة قواعد، وهٰذا لاشك أنه يحتاج إلى عمق في القواعد وفي الأصول، وهٰذا إنما هو لأهل العلم.

فإذن القارئ يستفيدُ من الفتاوى في معرفة أحكام لم يطلع عليها يعمل بها في نفسه، إذا حكم في مسألة مختلفة، لا يلحق هٰذه بهٰذه، إذا كانت عين المسألة يعمل بها في نفسه في القنوت في الصلاة في الزكاة إلى آخره في الحج لا بأس.

لكن إذا كانت هٰذه مثل هٰذه، ووش الفرق؟ العالم عنده ربما فرق لم يخطر على بال القارئ.

ولو كانت المسألة بالعقل لما كان فرق بين عالم وغيره، والله أعلم.

۞۞۞۞

طالبُ العلم والكُـتُــب

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعل هٰذه السنة لنا سنة خير وعلم وعمل وتُقىٰ وصلاح، وأن يزيدنا فيها من العلم النافع والعمل الصالح.

وأسأله -جل وعلا- أن يقوي همتنا في العلم والعمل، وأن يُعلي عزمنا في دَرْسِ العلم وتحصيله والمحافظة عليه والثبات علىٰ ذلك.

وكمقدمة لدروسنا في هٰذا الفصل -إن شاء الله تعالىٰ- نتحدّث كالعادة بحديث عام مما يَسنح في الخاطر بما يكون معه النفع إن شاء الله تعالىٰ.

وحديثنا سيكون عن:

طالب العلم والكتب

من المعلوم أن العلم يُتلقَّىٰ بأحد طريقين:

- إما عن طريق المشافهة والسّماع ومجالسة أهل العلم وأخذ العلم عنهم سماعًا.
- وإما أن يكون عن طريق الكتب بالمطالعة والنّظر والاستفادة.

والأوَّل هو طريق الثاني، والثاني صوابه مبني علىٰ الأول، كما قال بعض أهل العلم: **كان العلم في صدور الرجال، ثم صار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه في أيدي الرجال.**

يعني أنّ طالب العلم الكتب له مهمة؛ ولكن هٰذه الكتب إنما يُحسن التعامل معها ويحسن فهمها من أسس نفسه عن طريق طلب العلم علىٰ أهل العلم وخالطهم وفهِم مراد أهل العلم بكلامهم فيما دوَّنوه في الكتب.

التّدوين -تدوين العلم- في الكتب قديم في الناس وكانت الحضارات السالفة لحضارة الإسلام كانوا يعتنون بالكتابة، وكانت كتب الله -جل وعلا- تكتب كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾[سبأ:٤٤]، وقال جل وعلا: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾[البينة]، وربُّنا -جل وعلا- خطَّ لموسىٰ

عليه السلام في الألواح وكتب له فيها.

وبقيت الكتب في الناس يتداولونها بالكتابة، وكان من الأمور المهمة أن تُحفظ من التغيير والتبديل، وأن يهتم بها الناس، وأن يحافظوا عليها.

وهٰذه المسألة عامة في الأمم، وكتب الله -جل وعلا- جعلها الله ﷻ ابتلاء وامتحانا للأمم: هل يحافظون عليها أم لا؟ فحصل في الكتب قبل القرآن عدم المحافظة حيث دخلها التحريف في اللفظ ودخلها التحريف في المعنىٰ بما هو معلوم، وخصّ الله -جل وعلا- هٰذا القرآن وعلوم نبي الإسلام محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- بالحفظ كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر]، والذِّكر هنا هو القرآن والسنة المبينة له محفوظة أيضا، فالله جل وعلا حفظ القرآن وحفظ السنة، ومعنىٰ ذلك أنّ هناك أشياء مما يُكتب يطرأ عليه التحريف والتغيير والتبديل، فليس كل ما كتب يُعَدُّ صحيحا، وليس كل ما زُبِرَ في الورق عُدَّ نافعا وصوابا؛ بل لابد أن يكون من العلم المحفوظ ويكون حفظه حفظ ألفاظه وحفظ معانيه أيضا من التغيير والتبديل.

في أوائل هٰذه الأمة ما كتب من الصحابة السنة إلا نفر قليل، وهكذا فيمن بعدهم كتبوا أشياء؛ من التابعين كما هو معلوم في صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة وكغيرها كتبوا أشياء من السنة، وحفظت أيضا رسائل للمصطفىٰ ﷺ إلىٰ ملوك الأطراف وإلىٰ عماله والأمراء عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، وكذلك حفظت رسائل للخلفاء الراشدين وللأمراء من بعدهم ومراسلات الصحابة فيما بينهم، حتىٰ جاء وقت تدوين العلم، فصُنفت المصنفات ودُونت وتوسع الناس في ذلك حتىٰ صار التصنيف في كل أنواع العلوم، فصنف أول ما صنف في الحديث والسنة، ثم صنف في التفسير، ثم صنف في اللغة ومعاني القرآن، ثم توسعت التصانيف والكتب.

لما كان الأمر كذلك العلماء أوصوا الطلاب بحفظ الكتاب من التغيير والتبديل؛ لأن الكتاب يُكتب وينسخ، والنَّسخ والكتابة إذا كانت صحيحة فإن الكتاب يكون صحيحا، وإذا كانت الكتابة غير دقيقة وكان النسخ غير دقيق دخل من الخلل في العلم من جهة عدم الدقة في الكتابة أو عدم الدقة في النسخ، ولهٰذا ذكر طائفة من الأدباء ومنهم الجاحظ في كتابه الحيوان وذكره غيره أيضا أنّ من أهل العلم من كان يقتني من الكتاب الواحد ثلاث نسخ برواية واحدة وربما إذا تعددت الروايات أيضا حرصوا أكثر علىٰ

اقتناء كل الروايات التي رُوي بها الكتاب، وهـٰذا لأجل الحرص علىٰ دقة العلم ودقة تلقيه؛ لأنه ربما اختلف لفظ عن لفظ أو سقطت جملة أو تحرّف في موضع فبان في الموضع الآخر.

أهل العلم أوصوا الطلاب طلاب العلم أن يحرصوا جدا علىٰ كتبهم؛ بأن يكون الكتاب محفوظا من التغيير والتبديل، وأن يكون التقييد عليه له آدابه، وأن يكون طالب العلم فيما يكتبه علىٰ الكتاب بعد نسخه من تعليقات ومن حواشٍ ومن فوائد ومن مطالب وأشباه ذلك أن يكون دقيقا فيما يكتب حتىٰ يتسنىٰ له أن يستفيد مما كَتَب وحتىٰ لا يتغير الكتاب بكتابةٍ في أثناء الأسطر وأشباه ذلك.

بهـٰذا جعل أهل العلم في كتب الرواية وكتب طلب العلم جعلوا آدابا لطالب العلم في تعامله مع الكتاب، فالكتاب لطالب العلم أشبه ما يكون بأحد أعضائه، فكتب طالب العلم خلاياه التي يعيش بها، وهي سمعه وبصره الذي لو فقده لضعف في العلم شيئا فشيئا، وترىٰ أن الذي يضعف في المطالعة ويضعف في النظر في العلم وفي القراءة تجد أنه يضعف قليلاً قليلا وينسىٰ العلم شيئا فشيئا حتىٰ يكون أمّيا بعد مر سنين من الزمان، وهـٰذا لأن مطالعة العلم في الكتب من أهم ما يكون.

وهـٰذا يتطلب أن يكون لطالب العلم صلة عظيمة بالكتاب، وهـٰذه الصلة لها آدابها ولها رونقها ولها شروطها التي بينها أهل العلم في كتبهم ككتاب الجامع لابن عبد البر، وكتاب ابن جماعة في أدب الطلب «تذكرة السامع والمتكلم»، وكتب كثيرة في هـٰذا ذكروا كيف يتعامل طالب العلم مع الكتب.

ونذكر من هـٰذا أشياء، وقبل أن ندخل في الآداب العامة فإننا نذكر أنّ اهتمام طالب العلم بكتبه يدل علىٰ اهتمامه بالعلم.

فمن الآداب التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها:

ترتيب الكتب

أولا أن يرتِّب كتبه حتىٰ يتسنىٰ له أن يراجع، إذا كانت مسألة تحتاج أن يراجع لها بعض الكتب فلابد له من أن يرتِّبها.

وترتيب الكتب بحسب حال هـٰذا الطالب، فإذا كان يحتاج أن يرتب كتب التفسير جميعا وكتب الحديث جميعا ويصنف التفسير إلىٰ علومه والحديث إلىٰ علومه والفقه إلىٰ مذاهبه وأشباه ذلك، فلا بأس، وإذا كان يرىٰ ثمة ترتيب آخر يرىٰ أنه أنفع له فلا بأس.

المقصود أن يكون الكتاب في مكانه الذي إذا احتاجه طلبه.

والكتب علىٰ قسمين: كتب كبيرة وكتب رسائل صغيرة.

أما **الكتب الكبيرة**: فهٰذه سيراها في المكتبة لأنها كبيرة عشر مجلدات خمسة عشرة مجلدا وثلاثة أو أربعة هٰذه ظاهرة.

ولكن الذي يحتاج إلىٰ العناية به **الرسائل الصغيرة** التي هي مهمة وربما يكون فيها من العلم ما ليس في الكتب الكبار، إذا احتاج أن يراجع كتابا منها أو رسالة فبحث عنه لا يجده، لم؟ لأنه ما وضعه في مكانه المناسب.

وهٰذه الرسائل الصغيرة ينبغي أن يهتم بها في أن تكون في مكان مستقل؛ يعني أن لا تكون ضمن البحوث أو ضمن الكتب الكبيرة، فيضع كتاب كبير وبجنبه كتاب صغير عبارة عن أوراق وبجنبه رسالة أربعين صفحة أو خمسين صفحة إلىٰ آخره.

وهٰذا النوع اعتنىٰ به العلماء حيث وضعوا له ما أسموه بالمجاميع، ترون في فهارس المخطوطات بما يسمىٰ مجموع، المجموع عبارة عن مجلد أو أكثر فيه عشر رسائل أو فيه اثنا عشرة رسالة أو أكثر من ذلك، فإذا تهيأ لطالب العلم أن يجمع هٰذه الرسائل الصغيرة في مجموع ويجمع النظائر في مجلد، يجعل الرسائل التي في أداء طلب العلم في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في مصطلح الحديث الصغيرة في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في علوم التفسير أو علوم القرآن يجعلها مجموعة أو ما أشبه ذلك، كذلك الكتب والرسائل الفقهية يجعلها مستقلة، ومن المناسب في الكتب والرسائل الفقهية أن يبوّبها علىٰ حسب أبواب الفقه، مثلا يجعل رسالة في الجنايات في موقعها في الفقه، فيرتب الكتب يبتدئ بالرسائل التي في الطهارة، ثم الرسائل التي في الصلاة، ثم الصلاة أيضا يرتبها أيضا في داخلها شروط الصلاة أولا، ثم الأحكام التي فيها، ثم سجود السهو يجعلها في مكانها، التي في الزكاة أيضا يجعلها بعد الصلاة، وهكذا في نظائرها؛ يعني أن يرتب هٰذه الرسائل الصغيرة التي قد لا يصل إليها لو احتاج في خضم كتبه أن يرتبها بحسب موضوعات الفقه، كذلك غيرها من العلوم في التاريخ أو في العقيدة أو ما أشبه ذلك، يجعل العقيدة العامة مستقلة في الكتب أو الرسائل العامة في العقيدة، أو التي تبحث في مسألة في العقيدة يرتِّبها علىٰ مباحث في العقيدة حتىٰ يتسنّىٰ له مراجعة ذلك.

إذن أول أدب أن يحسن الترتيب، والترتيب -ترتيب المكتبة- هو عنوان طالب العلم في عنايته بكتبه.

أما إذا أتىٰ وكان المكان متيسرا ووجدت أن الكتب مبعثرة إلىٰ آخره فهٰذه لها أحد احتمالين:

إما أن يكون من كثرة بحثه وكثرة مطالعته للكتب جعلها تنتثر، وهٰذا أمر محمود ولكن لابد أن يكون بعدها يرجعها إلىٰ ترتيبها.

وإما أن يكون هو أصلا غير مرتب.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه في قضاة مصر الذي سماه «رفع الإصر عن قضاة مصر» ترجم لأحد قضاة مصر حيث تولىٰ القضاء، وكان يجلس في مكان فيه كتبه وكانت كتبه حسنة التصفيف مصففة بطريقة جميلة، فدخل عليه أحد الناس من طلاب العلم، وقال له: ما أحسن تصفيف هٰذه الكتب. قال الحافظ ابن حجر يعرّض به أن حُسن تصفيف الكتب يدل علىٰ عدم المطالعة فيها وعدم الاشتغال، ففهم القاضي هٰذا وأسرها في نفسه، قال: حتىٰ تولىٰ هٰذا الرجل الذي انتقد القاضي تصفيف كتبه، قال: تولىٰ الكتابة للناس في أنكحتهم -يعني عقود النكاح وما يسمىٰ مأذون الأنكحة- فعثر منه القاضي علىٰ غلطة في أحد صكوك النكاح، قال: فعزره تعزيرا بليغا حافظا تلك الكلمة.

المقصود أنه استدل بحسن التصفيف علىٰ عدم الاشتغال وهٰذا ليس بمطَّرد؛ بل طالب العلم إذا أراد أن يشتغل بفن أو ببحث فيجلب عدد من الكتب تكون أمامه ويبحث هٰذا في هٰذا وإذا انتهىٰ منها أرجعها في أماكنها حتىٰ يتسنىٰ له أن يطالعها.

الاهتمام بالنسخ المصححة

الأدب الثاني من آداب التعامل مع الكتب: أن يهتم طالب العلم بالنسخ المصححة.

في القديم كان الكتاب يُشترىٰ من الوراقين، يقال: فلان وراق؛ يعني عنده مكان ينسخ فيه الكتب ويبيعها، أو يبيع لمن أراد أن يبيع كتبه، يسمىٰ هؤلاء الوراقون الذي يعتنون بنَسْخ الكتب باليد أو بيع الكتب.

وهؤلاء الوراقون منهم المعتني ومنهم غير المعتني، وأشبه ما يكون في هٰذا الزمن بالمطابع، المطابع الموجودة الآن هي ورثت عمل الوراقين فيما مضىٰ من الزمان.

لهٰذا نقول: إن صنعة الوراقين فيما مضىٰ تناولها أهل العلم بالتحليل، وأنّ طالب العلم يحرص علىٰ أن يشتري كتابا مصححا مدققا، أو أن ينسخ بيده ويقابل ما نسخ بأصله، أو أن يشتري كتابا ويقابله بنسخة معتمدة مقروءة علىٰ أهل العلم، وأشباه ذلك.

يعني أن طالب العلم مع الكتب لابد له من أن يعتني بالنسخ الصحيحة في النسخ المخطوطة أو في

المطبوعات.

وفي هٰذا الزمن عناية جل طلاب العلم بالمطبوعات.

ولهٰذا نقول: المطبوعات كثيرة وقد ابتدأ بالطباعة باللغة العربية منذ أكثر من خمسة قرون –يعني منذ أكثر من خمسمائة سنة– ابتدأت الطباعة بالعربي يعني من نحو سنة ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ بالميلاد لأنها هكذا أُرخت يعني من نحو خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة وزيادة، وأكثر ما طُبع في اللغة العربية في البلاد العربية والإسلامية منذ نحو مائتين سنة من الزمان، وما قبل ذلك تطبع في بلاد الغرب لاهتمامهم بالطباعة.

المقصود من هٰذا أن الكتب طباعتها قديمة، واليوم الذي يُطرح في السوق أنواع من دور النشر، وأنواع من الكتب، وأنواع من أسماء المحققين أو أسماء المصححين إلىٰ آخره.

ولهٰذا حصلت مرّات أنه تُنقل عبارات وجمل عن كتب مطبوعة مؤخرا تكون طباعتها غير صحيحة وغير دقيقة فيقع الخلط كما حصل لي مثلا عدة مرات في قاعات الجامعة من أني أقرر شيئا مثلا بناء علىٰ نسخ مطبوعات الصحيحة ويأتي بعض الطلاب مجتهدا ويبرز الكتاب الذي طبع مؤخرا فإذا الكلام الذي فيه غير صحيح؛ لأن الطبعات المتأخرة ليست كلها مُعتنىٰ بها، وهكذا الطبعات المتقدمة.

إذن فالمطبوعات سواء منها طبع منها قديما أو ما طبع حديثا لابد لك من البحث هل هٰذه الطبعة صحيحة، وإذا أردت أن تعتني بشراء كتاب أو أن تعتني بعلم ما فلابد أن تحصّل الكتب الصحيحة المطبوعة بدقة فيه، فتسأل أهل العلم أو الذين يعتنون بهٰذا الجانب، فتقول مثلا: الكتاب الفلاني ما النسخة المعتمدة منه؟ مثلا تقول: «تفسير القرطبي» ما أصح نسخه؟ «تفسير الطبري» ما أصح نسخه؟ «صحيح البخاري» ما أصح نسخه التي تقتنيها؟ وتكون عندك في المكتبة ما تحتاج معها إلىٰ نسخة أخرىٰ.

الملاحظ اليوم أنه مع كثرة المطبوعات تجد أن دور النشر تطبع لغرض التجارة بطبعات لا تأمَنُها، لهٰذا ينبغي لك أن تسأل عن الطبعة التي تقتنيها أو الطبعة التي تريد شراءها، ولا تشتري أي كتاب طُرح أمامك؛ بل تسأل عنه وتعرف دار النشر التي أصدرته، وإذا كان اعتنىٰ به أحد المحققين، تسأل هل هٰذا المحقق دقيق أو غير دقيق أو غير دقيق؟ هل هو تجاري أو غير تجاري؟ إلىٰ آخر ذلك، يعني أن اهتمام طالب العلم بالنسخة الصحيحة التي يقتنيها لابد منه.

تشتري مثلا كتاب بعد السؤال عنه، تقول مثلا: «تفسير القرطبي» النسخة الصحيحة منه ما هي؟ فإذا أجبت عن هٰذا السؤال ذهبت وتقتني هٰذه النسخة سواء كانت مطبوعة أو مصورة أو مطبوعة طبعا حديثا بالكمبيوتر؛ يعني أن تحرص علىٰ النسخ الصحيحة.

الملاحظ -من جهة نظري- أنّ ما بأيدي الإخوان من الكتب أنّ كثيرا منها يكون نسخا غير صحيحة تكون نسخة لكن غير دقيقة اعتنىٰ بها أحد الناس عناية لا تسمىٰ عناية، أو يقال: إنها صححت بمعرفة الناشر أو ما أشبه ذلك، ويكون فيها من الأغلاط والسقط وأشباه ذلك ما يَعيبها، ولا يصلح أن تقتنىٰ لطالب علم يرجع إليها ويبحث من خلالها.

إذن فالأدب الثاني أن يحرص طالب العلم علىٰ اقتناء النسخ الصحيحة سواء كانت مطبوعة طبعات قديمة أو كانت مطبوعة حديثا، المهم أن تكون نسخة صحيحة، فيعرف دور النشر المعتنية الدقيقة ودور النشر التي لا تعتني حتىٰ يميز، يعرف المحققين الذين يتاجرون والمحققين الذين يعتنون بتحقيقاتهم، ويعرف أيضا مزايا الطبعات وتعدد الطبعة للكتاب الواحد وميزة هٰذه علىٰ هٰذه.

نتفرع من هٰذا إلىٰ أن طالب العلم الذي يعتني برؤية التحقيقات وما يعمله المتأخرون من حواش وتعليقات، لابد له أيضا أن يعرف أيضا طبعات الكتاب؛ لأنه حصل مثلا أنّ المحقق يرجع إلىٰ جزء وصفحة فهٰذا يظن أن الكتاب طبع مرة واحدة، فيذهب ويرجع إلىٰ الجزء والصفحة هٰذه فلا يجده، فيقول أن هٰذا وهم أو غلط أو نحو ذلك، قد يكون الكتاب طبع مائة مرة أو عشرين مرة أو ثلاثين مرة أو خمس أو أربع إلىٰ آخره.

فإذن معرفة طالب العلم بطباعة الكتب، وعدد مرات طباعتها، وميزة هٰذه وهٰذه، هٰذا أيضا من مكملات العلم ومن ملحه التي هي من الآداب العامة التي ينبغي لطالب العلم العناية بها.

الحرص على نظافة الكتاب وطريقة حفظه

الأدب الثالث مع الكتب الحرص علىٰ نظافة الكتاب وطريقة حفظه؛ يعني أن يكون الكتاب نظيفا ليس عليه غبار يَعْلق به، أو يكون متسخا، أو أن يكون عليه كتابات سيئة، أو أن يكون يضعه في موضع غير لائق به؛ يعني أن يضع الكتاب فيما يكون لائقا به.

فمما لا يليق بالكتب خاصة كتب أهل العلم التي فيها بيان معاني الكتاب والسنة أن تكون عليها الأتربة أو أن تكون متسخة، تنظيف الكتب هٰذا دليل توقير ما اشتملت عليه وتعظيم شعائر الله، وقد قال جل

وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج]، فإذا كان الكتاب في التفسير أو كان في السنة أو كان في فقه الحلال والحرام أو في العقيدة فإن النفس تنبعث في المحافظة عليه وفي تنظيفه من إجلال الله -جل وعلا- وإجلال العلم الشرعي الذي هو مأخوذ من الكتاب والسنة.

كذلك أن يكون طالب العلم في تعامله مع الكتاب من جهة صيانته وحفظه بأن لا يتخذه صندوقا لأوراقه ورسائله الخاصة أو الفواتير التي تكون عنده -فواتير الكتب أو نحو ذلك-، فتأخذ ونظر كتابا فتجد أن فيه فاتورة أو رسالة أو فيه قلم أو في داخله محّاية إلىٰ آخره.

وقد قال بعض العلماء: **لا تجعل كتابك بوقا ولا صندوقا.**

هـٰذا من الأدب المهم مع الكتاب لا تجعله صندوقًا يعني أن تجعل فيه الأقلام وتجعله مستودع لفلوس والريالات؛ يعني تفتح الكتاب تجد فيه كل هـٰذا، ثم تلاحظ أن الجلدة تغيرت والكتاب تغير إلىٰ آخره من جرّاء الصيانة.

كذلك لا تجعله بوقا يعني لا تلف الكتاب لفا لا يليق به، يعني مثل هـٰذا الكتاب تجد أن بعضهم يلف الكتاب كذا ويأخذه وأحيانا يجعله كأنه بوقا، فهـٰذا لا يليق؛ لأن الكتاب فيه كلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ فلا يليق أن يُجعل بهـٰذه المثابة.

كذلك لا يليق أو يُوضع عليه كأس ماء أو شاي وما أشبه ذلك.

كتب أهل العلم التي فيها نصوص الكتاب والسنة تجعل أعلىٰ ما تجعل أسفل تجعل فوقها دفاتر بيضاء وأشباه ذلك.

وهـٰذا مما يجعل في القلب تعظيما لكلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ، وكل ما استفيد من العلوم من هذين الأصلين.

كذلك مما يتعلق بحفظ الكتاب أن ينتبه طالب العلم في طريقة الكتابة علىٰ الكتب، أحيانا نرىٰ بعض الكتب يُعلق عليها حواشي بحيث أنه تضيع فائدتها، وقد نهىٰ العلماء فيما سبق عن الخط الصغير علىٰ الكتب، أن تُكتب الكتب بخط دقيق أو أن يُعلق عليها من الفوائد ما يكون بخط دقيق، بحيث إذا أراده طالب العلم لم يتهيأ له أن يستفيد منه.

وندم -فيما يذكر- الإمام أحمد مرة علىٰ أنه كتب حديث بخط دقيق لما احتاج لها في كِبَره لم يحسن

أن يستخرج تلك الفوائد؛ لأنها كانت بخط صغير وتقارب الحبر مع بعضه حتىٰ فاتت الفائدة.

بعض العلماء لا يكون خطه حسنا أو بعض طلاب العلم لا يكون خطه حسنا هٰذا ليس بعيب؛ لكن أن يرتب الكتابة بحيث أن تكون بخط واضح، لهٰذا كان بعض العلماء ممن خطه غير جيد هو نفسه لا يحسن قراءة خطه مثل شيخ الإسلام ابن تيمية كان هناك أحد طلابه هو الذي يستخرج كتابه، وقد ذُكر هٰذا في التراجم ونبّه عليه الحافظ ابن كثير في الجزء الرابع عشر من «البداية والنهاية» في سنة وفاة تلميذ شيخ الإسلام ونسيت اسمه الآن،(١) قال: وكان هو الذي يحسن استخراج خط ابن تيمية، وإذا أراد ابن تيمية أن يأخذ موضعا لا يستخرجه إلا هو. لأن شيخ الإسلام يكتب بسرعة ويشتبه، ربما التبس عليه، ولكن هٰذا من دقته يحسن ذلك، ولكن هٰذا قد لا يتهيأ دائما.

ولهٰذا طالب العلم يحتاج إلىٰ معرفة كيف يكتب علىٰ الكتب نبّه علماء الحديث في آداب الكتابة أن طالب العلم إذا أراد أن يكتب: فيبتدئ في الكتابة من السطر الذي فيه أو عليه التعليق، ثم يرتفع إلىٰ أعلىٰ ولا ينزل إلىٰ أسفل؛ يعني قرأت علىٰ شيخ أو تعلق علىٰ كتاب فأتيت إلىٰ موضع فتبدأ بالكتابة من هٰذا السطر إلىٰ أعلىٰ؛ لأنه ربما أتىٰ في السطر الذي بعده فائدة تحتاج إلىٰ الكتابة عليها فالتبس عليك، كيف تكتب تعرج عليه، وإذا كتبت إلىٰ أعلىٰ فحبذا أن تكون الكتابة واضحة وفيها نوع ميول متساوي الأسطر، حتىٰ إذا احتجت إلىٰ ضبط يمكنه إدخاله في الفراغات في ما بيت الميول.

ربما بعضكم رأىٰ بعض الكتب القديمة المحشاة فتجد أن الكتابة أتت علىٰ شكل مثلثات هٰذا ليس عبثا لكنه لأنه يكتب بهٰذه الطريقة علىٰ طريقة الأقدمين لأنه قد يحتاج إلىٰ ضبط بعد ذلك فيدخله في هٰذا الفراغ، أو أن يقابل هٰذا الكتاب بنسخة أخرىٰ فيقول في هٰذا الفراغ نسخة كذا وكذا وهكذا.

فإذن تهتم بوضوح الخط وبأن يكون مرتبا في معرفة مكان البداية، فإذا أتيت إلىٰ ما كتبته أنت وعلقته اعرف أن هٰذه الجملة التعليق عليها سيكون عليها في هٰذا الاتجاه.

وحبذا لو راجعتم كتب المصطلح قد بينوا كيف تكتب وتحشي علىٰ الكتب، في ضوابط لهم وتفصيلات سواء كانت في التضبيط -يعني بيان الكلمة والتصحيح عليها- أو كانت حاشية أو بيان نسخة

---

(١) قال ابن كثير في (ج١٤/ ص١٩٤): وفي هٰذا اليوم - أي يوم السبت يوم عرفة من سنة ٧٤٩هـ - توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية ، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه علىٰ الشيخ استخرجه أبو عبد الله هٰذا ، وكان سريع الكتابة لا بأس به، دينا عابدا، كثير التلاوة، حسن الصلاة، له عيال، وعليه ديون، رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له آمين.

أو كيف تكتب صحة العبارة أو ما أشبه ذلك، فنحيلكم علىٰ كتب المصطلح لأنهم كتبوا في هـٰذا وأوفوا المقام.

انتخاب الفوائد من الكتب

من آداب الكتب أيضا التي ينبغي العناية بها أن يكون طالب العلم له فوائد ينتخبها من الكتاب؛ يعني أنه إذا قرأ كتابا لا يثق بحافظته وذاكرته ولو كان شبابا، بل فوائد هـٰذا الكتاب ينتخبها في دفتر خاص عنده، أو يشير إليها في بداية الكتاب في ورقة في أوله بأن يضع شبيها بالفِهرس له؛ لأن هـٰذه الفوائد التي تناسبك قد لا تناسب شخصا آخر، تحتاج أنت إلىٰ أن تراجع ما استفدته من هـٰذا الكتاب.

وقبل ليلتين كتاب كنت قرأته منذ نحو عشر سنوات فلما نظرت في أوله أخذته من مكانه في المكتبة - وهو كتاب لجمال الدين القاسمي «الفضل المبين في شرح الأربعين»- وإذا بي قد قرأت الكتاب وذكرت الفوائد التي فيه، فإذا بها فوائد كثيرة تسعين في المائة منها نسيته فبدل أن أقرأ الكتاب مرة أخرىٰ فإذا هـٰذه فائدة وهـٰذه فائدة وهـٰذه فائدة.

ومنها مثلا من الفوائد التي كانت فيه الفرق ما بين العالم والعارف ولم عدل الصوفية عن العالم إلىٰ العارف؟ لماذا يقولون: العارف فلان، لا يقولون: العالم؟ هـٰذا من فوائده.

من الفوائد أيضا نقلا كان جيدا ومتينا عن ابن حزم في الفِصَل في معنىٰ قضىٰ وقدر، وقال في آخره جمال الدين القاسمي لما أتم النقل وهـٰذا ألطف ما قيل في معنىٰ قضىٰ وقدر أو القضاء والقدر وأحقه بالقبول. وهو كما قال، ربما نذكره لكم في مكانه.

هـٰذه الفوائد التي تكتبها في صدر الكتاب مهمة إذا راجعت بعد حين تجد أن الفوائد معك.

يعني أن الكتاب إذا قرأته أو أن الكتب إذا قرأتها فتنتخب منها ما تراه مفيدا لك وتجعله في صدر الكتاب في الورقة الأولىٰ علىٰ شكل فهرس فيه عبارة مختصرة.

وهـٰذا لاشك أنه مهم جدا لطالب العلم إذا حصل أن تجعل له دفترا خاصا تنتخب فيه ما تحتاجه فهـٰذا مهم وسترجع إليه ولابد بعد زمن.

يعني لا يناسب أن تقرأ هكذا وتقول: هـٰذه القراءة كافية لأنك بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة أو سنة تنسىٰ؛ لكن لو قيدت فإنك سترجع إليه بعد سنين تجد أن الفوائد ماثلة أمامك. وكما قيل: الفهم عرض يطرأ ويزول والكتابة قيد. تقيد ما فهمته أو تقيد ما استفدته.

أدب إعارة الكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أدب الإعارة.

والإعارة للكتب منهي عنها إلا لمؤتمن عليها؛ لأن كتابك أنت أولىٰ الناس به، إلا إذا وجدت من هو حريص علىٰ هٰذه الكتب وإذا استفاد منها أرجعها.

وذكر في ترجمة الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ أن رجلا طلب منه أن يعيره كتابا فقال: لك ثلاثة أيام. فقال: قد لا تكفي. قال: قد عددت أوراقه، فإن احتجت إلىٰ نسخه فالثلاثة كافية، وإن احتجت إلىٰ قراءته فالثلاثة كافية، وإن كنت تريد أن تستكثر به فأنا أولىٰ بكتابي.

وهٰذا صحيح فيه كتاب الجزء الأول كتاب كبير عندي -ما أريد أن أذكره ربما فيسمعه هٰذا فيظن أنه تعريض به- الجزء الأول من كتاب من ثمانية مجلدات استعاره أحد الإخوة وإلىٰ الآن من اثني عشر سنة ما وصلني، وهو يقول: ما أدري أين ذهب. وأيضا الجزء الثامن من كتاب آخر والكتاب ربما لا آسف عليه كثيرا ولكن الجزء الثامن منه له أكثر من عشرين سنة إلىٰ الآن ما رجع، ولذلك قال القائل:

لا تعيرن كتابا ... واجعل العذر جوابه
من أعار كتابا ... فلعمري ما أصابه

وقال آخر: آفة الكتب إعارتها.

وقيل لرجل في الهند كوّن مكتبة عظيمة قيل له: كيف كونت هٰذه المكتبة؟ قال: من استعارة الكتب. قال: كيف؟ قال: أستعير كتابا فلا أرده، وتكونت هٰذه المكتبة. فقيل له: أليس هٰذا جناية علىٰ من استعرت منهم؟ قال: من أعار الكتاب فهو مجنون، ومن رد ما استعار فهو أكثر جنونا منه.

وهٰذا لأن الكتاب النفوس متعلقة به، فقد ذكر الحافظ ابن رجب في مسألة في كتاب القواعد ضمن قاعدة: أن الكتب لا قطْع في سرقتها؛ يعني إذا سرق كتابا فعند بعض العلماء لا يقطع؛ لأن فيه شبهة أنّ الحق في الكتاب للجميع.

لهٰذا قد يأخذ بعض طلبة العلم مثلا أو بعض الزملاء كتابا ويرىٰ أن له حقا فيه، خاصة إذا كان وقفا أو كان مهدىٰ إليك أو ما أشبه ذلك فيتساهل فيه ثم تخسر أنت الكتاب.

فإن كنت لا تعلم أن هٰذا الذي جاء يطلب الإعارة جاد وسيستفيد منه في أيام يسيرة وليال وإلا فلا تُعِر الكتاب؛ لأن في إعارته حرمانك من الاستفادة، وليس كل مستعير للكتاب مأمونا علىٰ الكتاب، فكم

استعار أناس وما ردوا الكتب.

استعراض الكتب بين حين وآخر

أيضا من الآداب المتعلقة بالكتاب -الحديث ذو شجون ويطول- من الآداب المتعلقة بالاهتمام بالكتب أن يستعرض طالب العلم كتبه بين حين وآخر؛ يعني أن لا يجمع الكتب دون استعراض لها، يأتي أخذ الكتاب ووضعه وأخذ الكتاب ووضعه وأخذ الكتاب ووضعه، ثم إنما يراجع طائفة قليلة منها، لابد من استعراضها، تأتي وتستعرض هـٰذه الكتب حتىٰ تتذكر الموضوعات، لأن من الناس من اشترىٰ الكتاب مرتين وثلاث وأربع؛ لأنه ينسىٰ أن الكتاب عنده لقلة استعراضه لكتبه، ولو أنه كثير الاتصال بكتبه خاصة في مثل بلادنا مكتبات بعض الطلاب -طلاب العلم- كبيرة إذا استعرض كتبه تذكر أن الكتاب عنده، أما إذا ترك الاستعراض ربما طلب الكتاب من غيره وهو عنده أو نسي ما في الكتب أو تابع لموضوعه ولم يراجع فيه إلىٰ آخره.

الاهتمام بالكتب الموقوفة

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتب الاهتمام بكتب الوقف.

والكتب الموقوفة يعني التي عليها طبع أنه وقف أو ختم بأنها موقوفة أو أشباه ذلك هـٰذه الاحتفاظ بها في مكتبتك لابد أن يكون علىٰ شرط الواقف، والواقف حين وقفها جعلها علىٰ طلبة العلم، وإذا كنت لا تستفيد من الكتاب وغيرك بحاجة إليه فدفعك الكتاب إلىٰ من يحتاجه أولىٰ، نعم قد يكون لك حاجة فيه ولو مرة في السنة تراجع فيه فهـٰذا لا بأس؛ لأن الكتاب موقوف علىٰ طلاب العلم؛ لكن إذا كنت لا تراجعه تمر عليك أربع خمس سنين وأنت لا تراجعه تعرف نفسك ليست ذات همة في مراجعة هـٰذا الكتاب أو الكتب بعامة أو قد لا تحتاجه في المستقبل فإن الاحتفاظ به في هـٰذه الحال خلاف الأولىٰ، وبعض أهل العلم يقول لا يجوز الاحتفاظ به يل يدفع إلىٰ مستحقه يدفع إلىٰ من ينتفع به؛ لأن الواقف وقفه علىٰ من ينتفع به وإذا كنت لا تنتفع به فمن ينتفع به أولىٰ.

ومن هنا كان كثير من طلاب العلم من يتنزه عن الاحتفاظ بالكتب الموقوفة إذا كان عنده فضل مال يمكن أن يحصّل الكتاب ببذل ماله لأنه ربما يركن الكتاب ولا يستفيد منه، فإذا كان موقوفا ربما لحقه إثم من حبسه عمن ينتفع به، وهـٰذا ربما ظهر أكثر في البلاد التي يكون الكتاب فيها شحيحا.

العناية بالكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أن يهتم في الكتاب بتجليده وبطانته وبهارته حتىٰ يكون الكتاب بالوضع اللائق به للاستمرار؛ لأنّ طالب العلم حين يقتني الكتاب، نقول: الأفضل له أن يستحضر نوعين من النية:

أما الأول أن ينوي الانتفاع به في تخليص نفسه من الجهل.

والثاني أن ينوي أن يستفيد غيره من هـٰذا الكتاب إما أهله وولده وإما من يكون عنده أو أن يوقف الكتب بعده أو أن يبذلها لغيره بإهداء أو أن يبيعها إلىٰ آخره.

وهـٰذا يعني أنه كلما اعتني بالكتاب من جهة جلده والمحافظة عليه بما يبقىٰ أكثر في المستقبل كلما كان ذلك أكثر في الأجر والثواب.

ومن عجائب التفريط في الكتب ما ذكره القِفطي صاحب كتاب «إنباه الرواة»(١) -ربما ذكرته لكم مرة- في قصته مع كتاب الأنساب للسمعاني كان حريصا علىٰ الكتب جدا وجمع مكتبة من أنفس ما جُمع، قال: عُرض علي كتاب الأنساب للسمعاني بخط مصنفه الأجزاء الثاني والثالث والرابع، والأول مفقود بخط مؤلفه السمعاني، وبين القفطي والسمعاني نحو ٢٥٠ عاما أو قريبا منها. فاشترىٰ هـٰذه الثلاثة، قال: اشتريتها فلما مضىٰ مدة من الزمن وهو سأل عن الكتاب عن الجزء الأول وسأل فظن أن فقد وانتهىٰ، وبخط المصنف عُرضة إلىٰ أنه أعير ففقد، أو أنه ضاع أو إلىٰ آخره. قال: فمرة جاءني خادمي جاءه خادمه بسرّة من بُقُول وقد لُفّت بورق كتاب، قال: فأخذت الورقة قبل -يعني البقول ما له قيمة عنده بالنسبة لهـٰذه الورقة، فلما نظرت إليها فإذا هو خط السمعاني الذي أعرفه فأتيت بنسخة الأنساب فإذا هـٰذا الورق من الجزء الأول المفقود.

قال: فذهبت سريعا إلىٰ الذي يبيع البقول فوجدت عنده بعض أوراق بقيت من هـٰذا، فقلت له: أين بقية هـٰذه الأوراق؟ قال: لففنا بها البقول وتفرقت في البيوت. فقال: إنا لله وإنا لله راجعون، مأساة، مصائب قوم عند قوم فوائد.

---

(١) «إِنْبَاهُ الرُّواة علىٰ أَنْبَاء النُّحاة»، كتاب يُعدُّ من أهم المصنفات التي تناولت تراجم علماء العربية. ألفه أبو الحسن، جمال الدين بن يوسف القفطي (٥٦٨ ـ٦٤٦هـ، ١١٧٢ ـ١٢٤٨م). والكتاب معجم شامل لتراجم أعلام اللّغة والنحو منذ القرن الأول الهجري وحتىٰ زمان المؤلف، منتصف القرن السابع الهجري. وهو كتاب كبير يمتاز بسداد المنهج وجودة التصنيف وغزارة المادة.

هٰذا يأسىٰ علىٰ فقده، وذاك فرح لأنه وجد هٰذه الأوراق التي لا قيمة لها بخط الحافظ السمعاني يلف بها البقول ويعطيها الناس. قيل: فأقام مناحة شهرا من الزمان علىٰ العلم وأهله وعلىٰ كتاب «الأنساب» للسمعاني.

نريد من هٰذا نقول: إن الكتب لابد من العناية بها من جهة تجليدها من جهة حفظها، هٰذا وجدها مفرقة أن تتفرق الأوراق وأن تضيع؛ لكن لو كانت محفوظة مضموم بعضها إلىٰ بعض، فكان ذلك أدعىٰ إلىٰ استمرارها في مكتبتك.

والمسائل المتعلقة بذلك كثيرة لعل فيما ذكرنا تنبيهًا علىٰ بعض ما يحتاج إليه.

أسأل الله -جل وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد والصلاح والرشاد.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

ننبه إلىٰ أن هٰذا الأسبوع عندنا درس الخميس -إن شاء الله- الصباح بعد صلاة الفجر ودرس يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، درس يوم الخميس هنا ودرس العشاء في «فتح المجيد» في مسجد الأمير عبد الرحمٰن بن عبد الله الذي هو قريب.

وبالنسبة لدرس الاثنين الزاد هٰذا الأسبوع ما يكون عندنا شيء وننبهم الأسبوع القادم إن شاء الله علىٰ ما يجدّ في ذلك.

وليلة الأحد نكمل «كشف الشبهات» إن شاء الله تعالىٰ.

الخميس الصباح في الكتب التي كنا نقرأ فيها.

والجمعة مساء بعد العشاء في كتاب «فتح المجيد» في أواخره لعلنا ننتهي منه إن شاء الله في الأسابيع القادمة.

هٰذا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

طالب العلم
والبـــحـــث

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه حامدا شاهدا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعل عملي وعملكم له خالصا، وأن يجعل ما سبق من أعمالنا مقبولا، وأن يبارك في قليلها وأن يعظم أجرنا فيها.

كما نسأله -سبحانه- أن يقينا العِثَار فيما نستقبل من أعمارنا، وأن يجعلنا من أهل الثبات علىٰ القول الحق والعمل الصائب، إنه سبحانه جواد كريم.

ثم إنه كما جرت العادة في فاتحة هٰذه الدروس نطرح مسألة من المسائل التي تهمّ طالب العلم، والعلم بها لابدّ منه لمن يعاني طلب العلم، ويعاني البحث، ويعاني النظر في كلام أهل العلم المتقدمين منهم والمتأخرين.

فقد ذكرنا جملة من المسائل التي يهتمّ بها طالب العلم، وسنح في البال أن نتكلّم الليلة عن مسألة مهمّة في هٰذا المجال ألا وهي: **طالب العلم والبحث.**

قد ذكرنا لكم فيما سبق في هٰذه الكلمات أنّ طالب العلم لابدّ له أن يجمع ما بين ثلاثة أشياء:

- ما بين تلقي العلم عن الأشياخ الذين ينفعونه.
- والثّاني الإطلاع والقراءة والتوسع في المطالعة.
- والثّالث في البحث؛ بحث المسائل وتحريرها والنظر في كلام أهل العلم فيها باحثًا مدوِّنا كاتبا ما يصل إليه في بحثه.

وقد ذكرنا المسألتين الأوليين:

طالب العلم والقراءة علىٰ الأشياخ، ومنهجية الطلب، وكيف يتعامل مع المشايخ، وأشباه ذلك وما يتفرّع منها.

وذكرنا أيضا طالب العلم والقراءة، وكيف يقرأ كتب أهل العلم، ومنهجية القراءة في كتب أهل العلم، والفرق ما بين كتب الأهل الفقه وكتب أهل الحديث في مقدمةٍ لذلك، إلىٰ أشباه هٰذه المباحث التي تتّصل بهاتين المسألتين.

وبقي أن نذكر شيئا من القول في مسألة طالب العلم والبحث.

والذي دعا إلىٰ ذلك؛ يعني إلىٰ طرح هـٰذا الموضوع شيئان:

الأول: ما ذكرته من أن طالب العلم لابد له أن يبحث، ولا ينبت لطالب العلم ريش لجناحيه يصلح له أن يطير بهما في سماء العلم إلا بالبحث، فمن لم يبحث يبقىٰ في العلم ضعيفًا.

والأمر الثاني: أن البحث به تتضح المسائل، وبه يتبيّن طالب العلم معلومات كثيرة متنوِّعة لم تكن تحصل له بلا بحث.

فكم من معلومات استفدناها من جرَّاء بحث مسألة في اللغة، أو بحث تفسير آية، أو في بحث موضع حديث، فمرّ معنا أثناء البحث مئات الفوائد المختلفة، وهـٰذه إذا كان طالب العلم صحيح الذهن فإنه يستفيد مما يمرّ عليه، ولهـٰذا يفضَّل دائما أن يكون البحث لطالب العلم المبتدئ أو لطالب العلم الذي في طريق الطلب دائما يفضَّل أن يعاني البحث وأن لا يرجع دائما إلىٰ الفهارس التي توصله إلىٰ المقصود بأقرب طريق؛ لأنّ هـٰذه الفهارس إما فهارس كشفية عن طريق المادة، أو عن طريق أول الحديث مثلا، أو عن طريق كلمة في آية إذا كان لا يحفظ القرآن، طيبا يعاني هـٰذه الآية في أي سورة ينظر ويتأمل لأنه سيستفيد من خلال ذلك، هـٰذا الحديث أين أجده في البخاري، موضوع الحديث هل هو في كتاب كذا، في مسلم أين أجده وهكذا.

بمعنىٰ أنه إذا كان ثَمّ وقت عند طالب العلم فكلما كان أبعد في بحثه عن الوسائل المساعدة السّريعة كالفهارس، فضلا عن السريعة جدا كالكمبيوتر والبرامج الحديثة، كلما كان مستفيدًا للمعلومات ومتوسعا فيما لا يتصل ببحثه.

يبحث مسألة في الفقه فيمر علىٰ كتاب كامل من كتب الفقه؛ يعني مثلا كتاب البيوع حتىٰ يصل إلىٰ مسألة، من خلال هـٰذا البحث سيمر علىٰ المسائل هـٰذه وسيرسخ في ذهنه بعض ما يرسخ، وسيمضي ويعبر بعض ما يعبر؛ لكنه سيستفيد فوائد كثيرة.

لهـٰذا نقول: إنه كأصل عام لطالب العلم مع البحث كلّما كان أبعد عمَّا ييسِّر له البحث جدا في مقتبل الطلب ومتوسّط الطلب كلما كان أنفع له.

فإذن كمنهجية ابتدائية لا تفرح بسهولة العثور علىٰ المسألة في مقتبل أمرك بقدر ما تفرح إذا بحثت عن مسألة وتعبت في البحث حتىٰ وجدتها.

طبعا من المسائل ما هو معروف المكان، أو من الأحاديث ما هو معروف المظنة، لكن منها أحاديث لا تدري أين يوجد.

فلا بد أن تبحث، وهٰذا البحث قد يكون عن طريق «المعجم المفهرس» مثلا في الحديث؛ تبحث عن هٰذه الكلمة، ويخرج لك الباب والكتاب إما في البخاري وإما في مسلم إلىٰ آخره من الكتب، والجزء والصفحة في مسند الإمام أحمد إلىٰ آخره، هٰذا متيسّر، لكن إذا أردت الفائدة الكبرىٰ لا تعاني ذلك إلا إذا كان عندك متسعا من الوقت؛ بل عاني التّعب، مثلا تنظر في موضوع الحديث، إلىٰ آخره.

هٰذا كمقدمة مهمّة في أنك في بحثك في أي مسألة كلّما عانيت أكثر كلما استفدت أكثر.

هٰذه فوائد علمية، إضافة إلىٰ الفوائد التّعبدية الكبيرة التي يحصل عليها طالب العلم إذا مرَّ علىٰ تفسير آيات كثيرة فيها ذِكر الرحمٰن -جل جلاله- وذكر صفاته وذكر نعوت كماله، وما يحصل للقلب من فوائد العبادة والرِّقة والخضوع لله -جل وعلا-، المرور علىٰ الأحاديث كم من مرة سيصلي علىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، ربما مررت علىٰ مجلد كامل لتبحث عن حديث؛ بل ربما أيام، في بعض الأحاديث أو بعض الآثار مكثنا أياما نبحث عنها حتىٰ وجدت، في خلال ذلك إذا صلحت النية من طالب العلم فإنه سيصلّي علىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- مرات كثيرة.

فإذن في معاناة البحث فوائد في العبادة وفوائد في التعبد، فإذا كان ثَم متّسع من الوقت عند طالب العلم فلا يختر الطريق السّهل.

البحث -كما ذكرنا- مهم؛ ولكن البحث يتنوّع بتنوّع الباحث، فقد يكون الباحث محدود الإطلاع، محدود العلم، ففي بحثه يريد أن يعرف شيئًا يسيرا، وقد يكون الباحث يريد التوسّع فيبحث عن أشياء كثيرة ومعلومات متوسِّعة، وقدرة الباحث علىٰ البحث لا يمكن أن تَحْدُثَ عندك إلا بشيء، لا يمكن علىٰ الإطلاق أن تحدث عندك إلا بشيء ألا وهو الإطِّلاع علىٰ الكتب، فكلما كانت معرفتُك بكتب أهل العلم أكثر وبما يختصّ به هٰذا الكتاب عن ذاك، مميزات هٰذا الكتاب، مميزات هٰذا المؤلَّف، ما تميّز به المؤلِّف، إلىٰ آخره، كلّما كان قدرتك علىٰ البحث أعظم.

معلوم أن كتب التّفسير مختلفة، هل تريد كلمة مختصرة تعرف معناها، أم تريد خلاف العلماء في هٰذه الكلمة؟

ثم إذا رأيت خلاف العلماء في معناها، هل تريد أصول هٰذا الخلاف أم لا؟

إذا نظرت هل هٰذا الخلاف مبني علىٰ أمرٍ في القراءات، ففي القراءات تنظر إلىٰ أصول هٰذه القراءة، ثـم إلىٰ علل هٰذه القراءة، ثم إلىٰ مأخذ هٰذه القراءة.

بمعنىٰ أن البحث إذا أردت أن يضيق ضاق، وإذا أردت أن يتّسع جدّا اتسع.

فما من مسألة في أي مجال من مجالات العلم، وفي أي فن من الفنون إلا ويمكن أن تَكتب عليها صفحات كثيرة في هٰذا الزمن؛ لأنّ العلم كثير والكتب كثيرة جدا؛ ولكن يختلف الباحثون في مدىٰ الإطلاع علىٰ الكتب.

إذن من لم يطَّلع علىٰ الكتب فإنه لن يستطيع أن يبحث، والإطلاع علىٰ الكتب ليس معناه أن تقتني الكتاب، المكتبات العامة مثل مكتبات الجامعات، المكتبات المفتوحة العامة، هٰذه فيها آلاف الكتب، ومعلوم أنّ طالب العلم المبتدئ أو المتوسط أو حتىٰ أكثر طلبة العلم لم يحصِّلوا كل الكتب، ولهٰذا كيف يطَّلعون علىٰ الكتب وعلىٰ موضوعاتها وعلىٰ شروط هٰذا الكتاب وما تميز به ومنهجه إلىٰ آخره في كل فن من الفنون؛ في التفسير وأصوله، وفي الحديث وأصوله، وفي اللغة وأصولها، والفقه.. وإلىٰ آخر العلوم جميعا، لاشك أن هٰذا يتطلب منك -معرفة الكتب- أن تعيش في المكتبات العامة، وهٰذا هو الذي يفقده كثير من طلبة العلم والشباب أنهم لم يطّلعوا علىٰ الكتب، يقولون: الكتاب ما سمعنا به، ما شفناه في السوق، هٰذا ليس عذرا لأن المكتبات العامة فيها حصيلة الكتب التي طبعت من نحو ثلاثمائة سنة أو أربعمائة سنة والمخطوطات إلىٰ آخره إلىٰ زماننا هٰذا.

فكيف يكون طالب العلم باحثا إذا لم يعرف الكتب، يكون في المسألة يعرف كتابا أو كتابين، في مذهب ما عندك كتاب أو كتابين، في شرح البخاري مثلا عندك كتابا أو كتابين، طيب أين بقية الشروح؟ شرح مسلم عندك شرح واحد، فأين بقية الشروح؟ سنن أبي داود عنده شرح أين بقية الشروح؟ وكتاب في الأصول عنده مثلا الروضة وشرحها، أو عنده كتاب التحرير في أصول الشافعية والحنفية ويظن أن هٰذه هي المسألة كلها؟ لا، كل علم فيه مئات الكتب وليس عشرات، ففي الأصول ثم مئات، وفي اللغة ثم مئات، وفي اللغة مثلا فيه من أسماء اللبن فيه مؤلف إلىٰ لسان العرب وتاج العروس، أسماء اللبن فيه مؤلف، أسماء جسم الإنسان، الرأس هٰذا فيه مصنف في أسمائه في اللغة بالدقة؛ العين، السواد ماذا يسمىٰ، ما بداخل السواد البياض ما يسمىٰ، الرموش هٰذه أسماءها في اللغة العربية، والحواجب

والأجفان وأسماءها إلىٰ آخره. الأزمنة النهار من بدايته إلىٰ نهايته والشمس، والليل من بدايته إلىٰ نهايته ثَم فيه مؤلفات في أسمائها.

إذن ما ثم مسألة حصيلة هٰذه القرون العظيمة قلّت أو صغرت في علوم الشريعة الأصلية أو المساندة إلاَّ وثَم فيها تصنيف كثير؛ لكن يختلف الناس في الاطلاع، بعض الناس يقول: ما ندري منين جابها فلان، المسائل كبيرة، العلوم طويلة ما نكون مثل الذي يقول: ما لم نطلع عليه فليس بشيء، مثل القصة التي تعرفونها عن الإمام أحمد حينما أتىٰ بحديث فقال له رجل: هٰذا حديث ما سمعناه. قال له: هل سمعت نصف العلم؟ قال: نعم، قال: والنصف الآخر؟ قال لم أسمعه. قال: هٰذا في النصف الذي لم تسمعه.

وثَم من يدّعي في العلم ويتكبّر عليه؛ ولكن ليس الكلام فيه، مثل ذاك الرجل الذي ما ثم غريبة في اللغة إلا ويأتي بها، وما يسأل عنىٰ شيء إلا ويجيب، فاجتمع بعض طلابه الذين يحبون البحث وراء الأستاذ، اجتمعوا قالوا: لنُخرج كلمة لا أصل لها، ونسأل الشيخ عنها، فإذا هم يقطعون بيتا من الشعر:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا ....[1]

(فاستبق بعضنا) قال: نأخذ هٰذه الكلمة (ق بعض) هٰذه نأخذها ونسأل الشيخ عنها فلما أتوا في الصباح، قالوا: يا شيخ وجدنا كلمة لا نعرف معناها قال: ما هي؟ قالوا: كلمة (قبعض).

قال: (قبعض) هٰذا نبات طيِّب الرائحة ينبت في أعالي جبال اليمن. وهم في بغداد، وكيف يصلون إلىٰ اليمن وكيف يثبتون صحة هٰذه المسألة إلىٰ آخره، قد يكون مصيبا وقد لا يكون، وبعض أهل العلم أوردها وقال: مصيب في هٰذا، قال هٰذا: قال الشاعر:

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في قصيدة و تكملته (حنانَيْكَ! بعضُ الشرّ أهوَن من بعضِ).

قال المفجع البصري: كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يُتهم بالوضع فيها، فتواضعنا علىٰ مسألة نسأله عنها لا أصل لها لننظر ماذا يجيب!؟ وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقال البعض: هو من البحر الفلاني، وقال آخرون: هو من البحر الفلاني، وتردد علىٰ أفواهنا من تقطيعه: القبعضنا، ثم ذهبنا إلىٰ المبرد، فقلت له: أيدك الله تعالىٰ ما القبعضُ عند العرب !؟ فقال هو القطن، وفي ذلك يقول الشاعر:

كأن سنامها حشي القبعضا

قال: فقلت لأصحابي ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحاً؛ فهو عجب، وإن كان مختلقًا علىٰ البديهة فهو أعجب !!

(إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب : معجم الأدباء ؛ لياقوت الحمويّ).

كأن سنامها حُشِي قبعضا

فإذن العلم واسع وطالب العلم متىٰ يتوسع في البحث إذا اطلع علىٰ الكتب، لهٰذا لا يُتصور أن تكون باحثا بدون إطلاع علىٰ الكتب، ولن تكون مطّلعا علىٰ الكتب إذا اقتصرت علىٰ ما يباع أو ما عندك؛ لأنّ الكتب بحر لا ساحل له، لما تحمله هٰذه الكلمة من معنىٰ (بحر لا ساحل له).

فإذن كيف تتطّلع علىٰ الكتب، تعرف الفنون المختلفة وما أُلف فيها؟ تذهب إلىٰ المكتبات العامة، ولهٰذا أنا أريد علىٰ طلاب العلم أن يجلسوا في المكتبات العامة، هٰذه الكتب التي في الرفوف لمن حفظت؟ حفظت لطلاب العلم، إذا كان طالب العلم كسْلان لا يتصل بالكتب في أماكنها ولا يعرف الطبعات، ولا يعرف هٰذا الكتاب هل هو موجود، غير موجود، وقديم أو غير قديم، هٰذا يصيبه فيه ضعف بقدر ما فاته من ذلك.

إذن من المهمات في البحث الاطلاع ووسيلة الاطلاع علىٰ الكتب ومعرفة شروحها أن ترتاد المكتبات العامة وتعرف ما في كل فن من الكتب.

المسألة الثالثة: أنّ الباحث لابد أن يحدِّد ما يريد، إذا كان يريد بحث مسألة لابد أن يتجه إليها تكون دائما نصب عينيه وهو يبحث، ثُم يعلم أنّ الكتب التي تبحث في أيّ فن من الفنون لها اتجاهات:

ففي التفسير ثَم مدارس: التفسير منقسم إلىٰ مدرستين كبيرتين:

- مدرسة التّفسير بالأثر.
- ومدرسة التّفسير بالاجتهاد والرأي، ومدرسة التفسير بالاجتهاد والرأي تنقسم إلىٰ أربع أو خمس مدارس وكل من هٰذه فيها مؤلّفات.

إذا نظرت إلىٰ اللغة: اللغة ثَم فيها مصنفات وتختلف هٰذه المصنفات في قوّتها وضعفها وفي الثِّقة بما فيها، من غيرها في الاستشهاد.

كتب النحو مختلفة المدارس ثَم ثلاث مدارس أو أربع مدارس في النحو معروفة:

مدرسة البصريين، والكوفيين، ومدرسة أهل الموصل ببغداد، والمدرسة الأندلسية في النحو.. إلىٰ غير ذلك.

فإذن وأنت تبحث المسائل تطول عليك فلابد أن تكون محدَّدًا في بحثك حتىٰ تصل إلىٰ الشيء؛ لأنك قد تجد أمامك بحرا متلاطمًا وردود وخلافات إلىٰ آخره، فلا تدري من أين تبدأ وإلىٰ أين تنتهي.

لهٰذا تكون المسألة محددة تعرف أولا كيف تأتيها شيئا فشيئا، بمعنىٰ أن تبدأ بالأيسر ثم تبدأ في التوسّع، الأطول فالأطول، ولا تذهب إلىٰ المطول ثم ترجع إلىٰ المختصر.

مثلا: طالب علم يبحث في تفسير كلمة فيها قراءات مثلا، أو يبحث في تفسير كلمة فيها لغة، يذهب إلىٰ «البحر المحيط»، هٰذا بحر محيط علىٰ اسمه ما المناسب؟ يذهب إلىٰ ابن كثير أقرب، إذن يذهب إلىٰ أقل منه، طيب.

فإذن من الأمور الجيّدة للباحث في أول بحثه أن يبتدئ بالكتب المختصرة التي توصله إلىٰ المقصود حتىٰ يتصور، ثم يتقدّم في بحثه.

نصل هنا في هٰذه المسألة إلىٰ معرفة أنَّ الكتب نمت مع الزّمان، نمت مع القرون، ولهٰذا الخالف يأخذ من السالف، المتأخر يستفيد من المتقدِّم.

إذا نظرت مثلا إلىٰ كتب الفقه وجدت أن مدرسة مثلا الإمام أحمد ابن حنبل ومذهب الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في الفقه الكتب كثيرة جدا؛ لكن يمكن أن تحصرها في كتب محدودة، وهٰذه الكتب أخذت من كتب محدودة إلىٰ أن تصل إلىٰ زمان المتقدِّمين في الفقه الحنبلي، يعني لا يأتي الباحث ويأخذ في الفقه خط واحد في التأليف ويستكثر به، هٰذا فيه ضعف في البحث؛ مثلا: ينقل عشرة نقول أو اثنىٰ عشر نقلا كلها من كلام المتأخرين من الحنابلة مثلا أو من الشافعية لا شك هي مدرسة واحدة بعضهم ينقل عن بعض، وبعضها موسّع وبعضها مختصر.

لكن الباحث ينتبه إلىٰ المدارس الموجودة في هٰذا الفن، فإذا أراد أن يتوسع فلا يُشغل نفسه بالتوسع في الخط الواحد أو في المدرسة الواحدة؛ بل إذا أراد أن يتوسّع يتوسع في الموجود في جميع هٰذه المدرسة أو المذهب الفقهي أو المذهب النحوي أو التفسير أو الحديث إلىٰ آخره.

نقف وقفة عند البحث في كتب الفقه لطلب العلم والبحث في كتب الأصول كمثال.

كتب الفقه -كما ذكرنا لك- عدة مدارس، كلام الفقهاء في كتبهم؛ كل مذهب هو الذي يؤتمن علىٰ نقل مذهبه؛ يعني إذا وجدتَّ كلام المذهب تريد تعرف رأي الحنابلة في مسألة: تأخذه من كتب الحنابلة، ما تأخذ رأي الحنابلة من «سبل السلام» أو من «فتح الباري» أو نحو ذلك؛ لأنه ما دام أنّ المصدر الأصيل موجود فإن الأخذ عن الفروع ضعيف.

مثل: في كتب الفقه من يأخذ مثلا عن «مختصر المقنع» يعني: «زاد المستقنع» في مسألة نُصّ عليها في المقنع، أو يأخذ من «الإقناع» في فقه الحنابلة مسألة موجودة في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن صاحب الإقناع كثيرا ما يقول وقال الشيخ كذا يعني شيخ الإسلام ابن تيمية، أو يأخذ مثلا من الحواشي؛ حواشي كتب الحنابلة وهي كثيرة جدا: حواشي المنتهىٰ، حواشي الإقناع، حواشي الفروع إلىٰ آخره. يأخذ من الحواشي الكلام في الخلاف والروايات والإنصاف موجود.

إذن فالباحث إذا كان يعرف الكتب فإنه إذا نزل درجة في البحث فإنه معرّض للغلط، فكلما علا إسناده وعلا النقل كلما كان أقوىٰ، هٰذا في الفقه فقه الحنابلة عند المتأخرين، وكيف وصلت عند المتوسطين، فكيف إذا انتقلنا عند المتقدمين، كذلك عند الشافعية، كذلك عند المالكية، عند الحنفية، كتب الحنفية الآن طبع منها عشرات، هل كل هٰذه الكتب معتمدة عند الحنفية؟ لا، ثَم كتب ظاهر الرواية وثَم كتب أخرىٰ، فما هو المعتمد عندهم لابد أن يعرف طالب العلم، ما الكتب التي يعتمد عليها أصحاب المذهب حتىٰ إذا نقل يكون نقله موافقًا للصواب عند أهله.

مثلا المذهب المالكي فيه كتب معتمدة وفيه كتب غير معتمدة؛ يعني عند المتأخِّرين والمذهب، إذن لابد من معرفة ذلك، هٰذا بنظرة عامة.

نصل هنا إلىٰ بحث إذا أراد طالب العلم أن يبحث في جمع الأقوال المختلفة للعلماء في مسألة فقهية كيف يفعل؟

مثلا عندنا مسألة: **الوقوف بعرفة إلىٰ زوال الشّمس**. يعني في يوم عرفة، هل هو مجزئ في الحج؟ يعني علىٰ الوقوف بعرفة أو من وقف هل يعتبر حجه تام؟ يعني أتىٰ بالركن أم لا بد من الوقوف بعد الزوال؟ يعني هل الوقوف بعرفة يبتدئ وقته من بعد الزوال أم من فجر يوم عرفة؟ طيب.

مسألة: إذا وقف بعرفة وقبل غروب الشمس نفر منها؛ يعني خرج من عرفة وغربت عليه الشمس وهو خارج عرفة، هل حجه صحيح أم ليس بصحيح؟ التحلل الأول يحصل بإيش؛ بأي شيء؟ هٰذه مثلا مسائل فقهية، مسائل مشهورة ستجدها في الكتب؛ لكن هنا نأتي إلىٰ منهجية كيف منهجية البحث شيئا فشيئا.

أولا لابد أن تتضح الصورة؛ صورة المسألة، اتضاح الصورة إذا كانت صورة المسألة قد عرضت عليك عن طريق شيخ أو فهمتها أو تصورتها فهٰذا طيب، إذا لم تتضح لك صورة مسألة من المسائل

فالخلاف؛ خلاف العلماء في المسألة يوضح الصورة، بمعنىٰ إذا صارت الصورة واضحة أيش معنىٰ هـٰذه المسألة، تنظر إلىٰ خلاف العلماء فيتضح لك حدود الصورة وستقرب أو طبعا إذا تمكنت من السؤال عنها فهـٰذا حسن، تأتي الآن إلىٰ بحث أحد هـٰذه المسائل الفقهية التي ذكرنا، طبعا تعرف أن المذاهب الفقهية منقسمة إلىٰ خمسة مذاهب: المذاهب الأربعة ومذهب الظاهرية، مذاهب أهل الحديث هي داخلة في مذاهب الأئمة الأربعة؛ لأنها بين أقوال أحمد والشافعي ومالك، هـٰذا يسمىٰ عند العلماء الخلاف العالي.

وثَم خلاف أقل وهو كلام العلماء غير المتبوعين مثلا خلاف الأوزاعي، خلاف الثوري، خلاف الليث، خلاف إسحاق، خلاف ابن جرير، أو خلاف المتقدين من التابعين إلىٰ غير ذلك.

فإذا أراد طالب العلم أن يبحث مسألة في ذلك فإنه يبتدئ بالخلاف العالي ثم ينزل إلىٰ أن يصل إلىٰ عهد الصحابة -رضوان الله عليهم-، وهـٰذه المنهجية هي التي تفقّه وتفيد الباحث، خلافا لمن ظن أن الصّواب العكس أنك تبدأ من عهد الصحابة ثم تصعد، هـٰذا غير جيد؛ لأن مع تقدم العصور المسائل اتضحت وصار الخلاف محدد والأدلة محددة، فإذا نظرت إلىٰ كلام المتأخرين؛ يعني كلام الأئمة ثم انتقلت شيئا فشيئا إلىٰ الخلاف أن تصل إلىٰ زمن التابعين ثم زمن الصحابة في الكتب والمصنفات هنا تصل في البحث إلىٰ رؤية واضحة وقوة.

وهـٰذه هي طريقة أهل العلم والمحققين فيما يعرضونه في البحث كما تراه في «المغني» و«المجموع» وفي «المحلىٰ»، وفي غير هـٰذه الكتب.

هـٰذه الخطوات تتنوع بحسب المذهب؛ يعني تأخذ رأي الحنابلة قد تجد الرأي في كتاب حديث في شروح الأحاديث مثل «نيل الأوطار» أو «فتح الباري» أو ما أشبه ذلك أو «شرح النّووي علىٰ مسلم»، هـٰذا طيب؛ لكنه قد ينسب إلىٰ مذهب ما ليس قولا لصاحب المذهب؛ يعني قد ينسب «فتح الباري» للإمام أحمد أقوالا هي في الواقع أخذها من بعض كتب المذهب؛ لكن ليست هي المذهب، إذا أتىٰ الباحث وقال الحنابلة كذا أو مذهب الإمام أحمد كذا هـٰذه تحتاج منه إلىٰ تأنّي لابد أن يأخذها من كتب أصحابها، كذلك الشافعي المالكي أبو حنيفة إلىٰ آخره.

الظاهرية إذا قيل: هـٰذه المسألة تبحث ما مذهب الظاهرية فيها، مذهب الظاهرية يُؤخذ من أقوال داود الظاهري، وأقوال داود الظاهري مدونة في عدد من الكتب، وفيه كتاب جمع المسائل التي خالف فيها

داود الأئمة الأربعة، ابن حزم خالف داود في المدرسة الظاهرية في مسائل وذهب إلىٰ خلاف مذهب الظاهرية؛ يعني خلاف مذهب داود في هٰذه المسائل؛ يعني طالب العلم تبدأ تحدد عنده المسار، فإذا عرف أصبح دقيقا في بحثه.

أنا أرىٰ اليوم كثيرا ممن يبحثون ويحققون الكتب خاصة من طلبة العلم المتوسطين لا يرعون جانب المنهجية في البحث والتعليقات وتحقيق المسائل، فلهٰذا يجد طالب العلم إذا نظر في هٰذه التحقيقات يجد صوابا كثيرا ويجد خلطا أيضا أو ضعفا في المنهجية.

نأخذ مسألة من مسائل الأصول؛ نأخذ مثلا مسألة من مسائل الأصول، الأصول أصول الفقه متنوعة بحسب المذاهب، فالحنابلة لهم أصول، والشافعية لهم أصول، والمالكية لهم أصول، والحنفية لهم أصول، والظاهرية أيضا أو ابن حزم بالخصوص له أصول فقه خاصة به دونها في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام».

إذن، إذا أردت أن تبحث مسألة من مسائل الأصول تقول: قال الأصوليون: كذا. إذا قلت هٰذه الكلمة فإما أن تنسب إلىٰ مذهب؛ يعني قال الأصوليون في مذهب الحنابلة: كذا، أو أن تنسبها إلىٰ إجماع الأصوليين، ومعلوم أن المسألة دقيقة.

فمثلا: إذا قال القائل: **قال الأصوليون: الأمر للوجوب**. هٰذه الكلمة ما لها معنىٰ؛ لأن الأصوليين مختلفون هل الأمر للوجوب أم لا؟ اختلاف طويل.

آخر يكون أدق في التعبير فيقول: **قال الأصوليون: الأصل في الأمر أنه للوجوب**. هٰذه أدق من الكلمة السابقة وتكون أقرب إلىٰ قول جمهرة من الأصوليين أكثر من الأوائل، إذا قال الأصوليون: الأمر للوجوب هؤلاء قلة، إذا قال: قال الأصوليون: الأصل في الأمر أنه للوجوب هؤلاء كثرة من الأصوليين، وقد يكون منسوب إلىٰ مذهب أو مذهبين من مذاهب الأئمة أو أكثر، وهكذا تمشي في أنواع المسائل.

مثلا إذا قال: قال الأصوليون: الأمر إذا عرض له استفهام فإنه يدل علىٰ الاستحباب. هٰذه قد تجدها مثلا في فتح الباري، قد تجد مثل هٰذه الكلمات؛ لكن هو لا يعني بالأصوليين إجماع الأصوليين: إنما يعني طائفة من الأصوليين الذين استفاد منهم هٰذه المسألة.

مثلا: تأتي هٰذه المسألة هل الاستفهام يدل علىٰ الاستحباب أم لا؟ الاستفهام صارف من صوارف الأمر من أن يكون أصله الوجوب أم لا؟ هٰذه مسألة فيها بحث بين علماء الأصول.

المقصود من ذلك أن طالب العلم إذا أراد أن يبحث مسألة من مسائل الأصول فليعلم طرائق الأصوليين في بحث المسائل حتىٰ تكون عبارته دقيقة فيما إذا بحث يعرف مدارس الأصول وكتب الأصول ومميزاتها إلىٰ غير ذلك.

تقسيم الأصول -أصول الفقه- كيف قسموه، تقسم الفقه، كل هـٰذه مهمة لطالب العلم وهو يبحث.

تنظر إلىٰ مسألة كلية أخرىٰ من المسائل في بحثك، إذا أراد أن يبحث مثلا في اللغة، كتب اللغة معلوم أن بعضها ينقل عن بعض، بعضها مختصر لبعض، وبعضها يجمع كتبا متعددة، فمثلا يأتي طالب العلم - مثل ما نشوف في كتب ورسائل إلىٰ آخره- يقول مثلا: قال في «لسان العرب» كذا، وقال الجوهري في «صحاح اللغة»: كذا؛ يعني جاب نفس العبارة في «اللسان» كذا وفي الصحاح العربية، طبعا صاحب «الصحاح» متقدم في القرن الرابع الهجري وصاحب اللسان متأخِّر، صاحب «اللسان» جمع خمسة كتب ابن منظور ليس له كلام في لسان العرب، ولذلك يأتي طالب العلم ويقول قال ابن منظور في لسان العرب: كذا، هـٰذا كلام لا معنىٰ له، هـٰذا الكلام لا معنىٰ له للعلم الذين يفهمون اللغة، أن يقول: قال ابن منظور في «لسان العرب» معنىٰ كذا هو كذا، هـٰذا ليس له مانع لماذا؟ لأن ابن منظور ذكر في مقدمة كتابه أنه جمع خمسة كتب أو ستة فرتبها في هـٰذا الكتاب، فلم يؤلف تأليفا مستقلا خلافا لفيروز آبادي في القاموس المحيط الذي جمع كُتبا لكن صاغها بصياغته، وثَم أشياء تفرد فيها ورد فيها علىٰ من سبقه ورد عليه واستدرك وأُستدرك عليه إلىٰ غير ذلك مما هو معروف.

إذن طالب العلم -مثلا: في اللغة- يعرف تسلسل كتب اللغة والكتاب الذي دخل في غيره، والكتاب الذي استقل به صاحبه، يعرف من أين أُستقي ذلك حتىٰ يكون دقيقا، هـٰذا لا يتأتّىٰ لك إلا بمعرفة مدارس اللغة وكيف نشأت الكتب وصنفت وأشباه ذلك.

منزلة كتب اللغة؛ هل كل كتاب لغة معتمد؟ لا، هل إذا قال فلان: قال: صاحب الكتاب الفلاني يعني انتهىٰ في المسألة؟ لا، لأن صاحب اللغة أيضا يحتاج إلىٰ دليل له يدل علىٰ أن ما نقله صواب، وإلا فيكون الاحتجاج غير مستقيم.

خذ مثلا: الجوهري في كتابه «صحاح اللغة العربية» ذكر أنه ألَّف كتابه هـٰذا بعد أن مكث في البادية نحو من أربعين يتلقف اللغة، فأخذت هـٰذه الكلمة منه علىٰ أن كل كلمة أوردها في كتابه معناه أنه سمعها من العرب الأقحاح بعد أن خالطهم في البوادي.

هل يعني ذلك أن العرب الذين خالطهم لم يدخل إليهم اللحن البتة؟ هٰذا واحد.

الثاني هل يعني كلامه هٰذا أنه ليس ثم مادة أوردها إلا وهي مسموعة له من كلام العرب؟

ولذلك جاءنا كتاب الجوهري وهو معروف سماه «الصحاح»، وهو عند أهل اللغة بمنزلة كتب الصحاح في الحديث؛ لكن ثم فيه أشياء لا مستند لها عند الباحث اللغوي الصحيح.

وثَم مسألة من مسائل العقيدة المشهورة عندكم هي مسألة الاستواء المعروفة قال: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، قال الشاعر:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق

يعني استولىٰ، وهٰذا غلط والشعر لا يصح إلىٰ آخره، إذن فليس معنىٰ ورود الكلمة في كتاب من كتب اللغة أنها في اللغة كذلك؛ لكن هٰذا متىٰ يصل إليه الباحث إذا تطور في بحثه وفي تدقيقه وعلم أننا كلما رجعنا إلىٰ الزمن الأول كلما كنا في سعة؛ يعني في معلومات واسعة ثم تبدأ تضيق تضيق إلىٰ أن نصل إلىٰ الصواب في العلوم كلها.

يأتي آتٍ ويقول: قال الشاعر -يحتج بمسألة- يقول: قال الشاعر كذا، طيب هٰذا الشاعر من هو؟ يقول هٰذا بيت لا يعرف قائله، طيب كيف عرفنا أن هٰذا البيت محفوظ؟ أولا وأن هٰذه الكلمة التي أحتج بها حفظت ورويت علىٰ هٰذا النحو؟ من الذي رواها؟ وهل هو من حفاظ العربية أم لا؟ ثم هل خولف فيها أم لا؟ ثم هل القافية واحدة أم تعددت القافية؛ لأن من علامات الشعر الملحون أن تتعدد القافية في البيت الواحد إلىٰ غير ذلك.

إذن فالبحث إذا أردته علىٰ حقيقته فإنه متوسِّع جدًّا؛ يعني ليس ثم مسألة إلا وراءها مسألة، وراءها مسألة حتىٰ يصل الباحث في تحقيق العلم إلىٰ أهله، فلا يمكن أن تحقق أنت مسائل في العربية حتىٰ تحكم العربية وتُحكم المؤلفات وتحكم أصول الاستدلال، وثَم مصطلح للغة أليس كذلك؟ ألف السيوطي «الاقتراح في أصول النحو» وثَم «البلغة في أصول اللغة»، وثم في التاريخ «مصطلح التاريخ»، وثم في الفقه «أصول الفقه»، وفي التفسير «أصول التفسير». وفي الحديث «أصول الحديث».

إذن ليس ثم علم إلا وله أصول تصل بها، هٰذه قوانين تضبط بها.

إذن الباحث لابد أن يكون متئدا في بحثه متريثا، فالعلم واسع جدا جدّا أكبر مما تتصور، فلهٰذا لابد أن يكون ثم هدوء في البحث وفي أخذ العلم، وأن يتحرىٰ طالب العلم الصواب المختصر، ولا يظن أنه إذا

نقل نقلا معناه انتهىٰ، انتهىٰ الأمر هـٰذا قاله فلان، وانتهت المسألة؟ لا، فالعلم واسع ومدارسه كبيرة متنوعة.

إذا أراد طالب العلم أن يبحث مسألة تاريخية، التأريخ يعرض لك إما في كتب أهل العلم، ابتداء من موضع من التاريخ أو من السيرة، أو تَرِد عليك شبهة أو إيراد أن الصحابة كانوا يفعلون كذا أو حصل في وقعة كذا، تريد أن تحقق المسائل.

طبعا كُتب التاريخ المتأخرة أخذت كما قلنا: أخذت عن المتقدمة مثل سائر العلوم.

كتب المتقدمين في التاريخ كانت بالأسانيد، ما قبل الطبري من الكتب، كتاب ابن إسحاق؛ بل ما قبله، كتاب عروة بن الزبير، وكتب التابعين في السيرة والتاريخ، وكتب وهب بن منبه في التاريخ وكتب ابن جرير وكتب ابن أبي خيثمة إلىٰ آخره، ثَم كتب كثيرة في التاريخ كانت تروىٰ بأسانيدها، ما ثم واقعة إلا بأسانيدها، فتأتي فتنظر في كتب المتأخرين فتجد أن ثَم وقائع بلا إسناد، تبدأ من ابن الجوزي؛ بل ما قبله ابن الجوزي في «المنتظم» إلىٰ ابن الأثير في «الكامل» إلىٰ ابن كثير في «البداية والنهاية» إلىٰ آخره، مع أن ابن كثير حافظ من حفاظ الحديث تحرّىٰ ودقق لكنه أيضا اعتمد علىٰ ما ساقه من قبله.

إذن التاريخ يروىٰ هكذا؛ لكن إذا أردت أن تبحث مسألة فهل تبحثها بوجودها في البداية والنهاية، يقول لك قائل: ذكرها في البداية والنهاية، هل معناه انتهت؟ لم تنته المسألة.

إذن ثم كتب قبل البداية والنهاية عرض فيها للمسألة إلىٰ أن تصل إلىٰ مصدر هـٰذه القصة أين هو؟ فإذا بحثت وبحثت ستجد المصدر.

فإذن، مسائل التاريخ تروىٰ هكذا، فإذا أتينا إلىٰ قضية في محك وأردنا أن نبحث فيها لابد من التدقيق وإلىٰ الرجوع في التاريخ أول ما طَبعوا طبعوا التاريخ للطبري، وطبعوا كتب في التاريخ متنوعة مثل سير ابن هشام أول من طبعها، وتواريخ مختلفة تاريخ مكة والمدينة وتاريخ بغداد وتاريخ مصر وتواريخ المغرب إلىٰ آخره، تواريخ فارس هم الذين طبعوها، أخذوا من هـٰذه الكتب أشياء وقالوا: هـٰذا الموجود في تاريخ المسلمين.

فإذن الباحث لا يقول: هـٰذا ذكره الطبري هـٰذا غير مستقيم في أصول البحث؛ بل لابد أن ينظر إلىٰ استقامة ما أورد إذا كان مستقيما، فقصص التاريخ تذكر للعبرة؛ لكن إذا كان فيه ثم إشكال لابد أن يحقق المسألة ويبحث هـٰذه القضية إلىٰ أن يصل إلىٰ الزمن الأول.

لم يكتب للتاريخ مصطلح وأصول في بحث التاريخ، إلا من أحد الباحثين في الزمن الحاضر، وسمَّىٰ كتابه «مصطلح التاريخ» واعتمد في كتابه علىٰ أصول الحديث ومصطلح الحديث مع النظر في الدراسات التاريخية يعني مع إضافات، وهٰذا لاشك مهم؛ لأن التاريخ نقل بالأسانيد، نعم أسانيد التاريخ لا ينظر إليها نظرنا إلىٰ أسانيد الحلال والحرام والعقيدة؛ لكن إذا كان المقام مقام استدلال فلا بد أن يبحث الباحث.[1]

خذ مثلا علما آخر فيما يبحث طالب العلم وما يبحثه -في مسائل التوحيد ذكرنا لكم في ذلك لكن نعيدها- في مسائل التوحيد سيبحث مذهب السلف في مسألة، فهل يبحثها في كتب السنة المتقدمة مباشرة أم يرتب البحث؟ نقول: لابد أن يرتب البحث كما ذكرنا من مختصرات كتب أئمتنا أئمة الدعوة كابن تيمية وابن القيم أين ذكروها؟ كيف عرضوا المسألة؛ صوّروها؟ ثم بعد ذلك تبدأ تنتقل إلىٰ الكتب المطولة للسلف حتىٰ تصل إلىٰ كتب السنة المتقدمة بالأسانيد، هٰذا يعطي ثراء في تصور المسألة، ثم تبدأ تتوسع؛ لأن المتأخر من أئمة السنة يسَّر لك عرض المسألة وأعطاكها في قالب قاعدة منتهية، وفي كتب السلف قد تجد نقلا عن إمام يمثِّل بعض القاعدة العقدية ونقل عن آخر يكملها إلىٰ آخره فمجموع كلام السلف صاغه الأئمة المتأخرون.

فإذن طالب العلم يرتب بحثه بالتوسع في ذلك، إذا أراد أن يبحث في مسألة من مسائل اعتقاد أهل البدع مثلا: من مسائل الأشاعرة ينظر أين ذكرت المسالة كيف صوروها، أولا ترجع إلىٰ كتب الأئمة تنظر كيف عرضوا للمسألة، كيف صوروا مذهب أهل السنة وكيف صوروا منهج المخالفين من الأشاعرة والمعتزلة والخوارج إلىٰ آخره.

ثم تنتقل منها إلىٰ كتب القوم، ولابد للباحث المتخصّص في العقيدة ليس كل طالب علم أن يعرف أنواع هٰذه الكتب ومميزاتها إلىٰ آخره، ثم بعد ذلك يرجع إلىٰ الرد عليها عند شيخ الإسلام وابن القيم والأئمة رحمهم الله تعالىٰ.

كتب الحديث وهي آخر المطاف كثيرة جدًّا، ومناهج علماء الحديث في الشروح مختلف، وكما ذكرت لك في كلمة سبقت يظن الظان أن المسألة إذا ذكرها أحد شراح الحديث معناه أنها هي مذهب أهل الحديث، أو أنّ هٰذا القول هو الأحق بأن يلقىٰ وهٰذا ليس علىٰ إطلاقه.

---

(١) انتهىٰ الوجه الأول.

فإذا نظرتَ إلىٰ بداية شرح كتب السنة، شرح البخاري من أول من شرحه؟ الحافظ الخطّابي محمد بن سليمان بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك سنن أبي داود شرحه الخطابي أيضا في كتاب «معالم السنن»، وكل من الكتابين مختصر جدا ومطبوع، بدأ العلماء يفرِّعون علىٰ هٰذه النواة الأولىٰ شرح كل بحسب ما يفهم من الفقه علىٰ مذهبه، ولهٰذا تميَّز الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» بأنه جمع ما قاله العلماء في الحديث: سواء علماء اللغة أو علماء الإسناد أو علماء الفقه، مثلا إذا جاءت كلمة في حديث رواه البخاري تجد أن هٰذه الكلمة يفسرها من تقدم بكلمة، هٰذه ليس معناها أنها مسلَّمة، تجد أن الخطابي قال: هٰذه الكلمة معناها كذا؛ لكن عند ابن حجر تجد أنه توسَّع نقل عدة نقول عن السلف يعني السلف اللغويين.

مثلا أتينا إلىٰ حديث «**أخرجوا اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب**»، طيب جزيرة العرب عند الحنابلة لها حد، وعند الشافعية لها حد، وعند المالكية لها حد، عند علماء اللغة لها حد، اختلفوا فيها وطوَّلوا، يأتي شارح الحديث يقول جزيرة العرب هي كذا وكذا، فهل عند الباحث انتهىٰ الحد عند هٰذه المسألة يعني خلاص، ذكر الشراح يقول ذكر الشراح أنها كذا يعني انتهىٰ؟ لا؛ لأنه لابد البحث جزيرة العرب في أصل بحثها هل هو فقهي أم لغوي؟ لابد تسأل نفسك هٰذا السؤال، فإذا كان فقهيا المرجع عند أهل الفقه، وإذا كان لغويا فمرجعه عند أهل اللغة.

إذن أصل البحث هو بحث لغوي؛ يعني جزيرة العرب هٰذه كلمة موجودة معروفة عند العرب في استعمالاتهم وجاء استعمالها في النص في الأحاديث إلىٰ آخره.

فإذن تعرف مأخذ هٰذا البحث الذي تبحثه، فيكون إذن كتاب شرح الحديث هو مثل الهادي لك لتعرف مداخل البحث، فإذا قرأت للشارح ونقل عن الفقهاء تذهب إلىٰ كتب الفقهاء وتتوسع، نقل الشارح عن اللغويين تذهب إلىٰ كتب اللغة وتتوسع، ثم بعد ذلك يكون العلم عندك ثريا متوسعا في هٰذه المسألة.

مثلا هٰذا حد جزيرة العرب في «شرح المُفَضَّليات» المعروف اختيارات المفضَّل ثَم فصل طويل جدا فصل فيه أقوال العلماء والأشعار وما يتعلق بذلك في حد جزيرة العرب، هٰذا بحث موجود في شرح من شروح أشعار العرب كتاب أدبي وهو متقدم في الزمان في القرن الثاني نقل عن الفقهاء ونقل عن التابعين

عن الشعبي ونقل عن غيره في حد جزيرة العرب ونقل عن اللغويين وعن الأئمة وقول الإمام مالك إلىٰ آخره.

فإذن ثم مصادر للبحوث موجودة في كتب الحديث، فطالب العلم إذا اقتصر في مسألة ما علىٰ ما هو موجود في كتب الشروح المتأخرة وقال: خلاص هٰذه هي كلمة الفصل، يضعف بقدر ذلك، طيب إذا كان العالم هو الذي استدلَّ بما هو موجود عند الحافظ، بما هو موجود عند النووي، فهٰذه لها مزيتها؛ لأن العالم الأصل فيه أنه اطلع علىٰ أشياء كثيرة جدا، ثم اختار كلام الحافظ ابن حجر، ثم اختار كلام النووي، فيكون هٰذا الاختيار دلَّ علىٰ أن هٰذا الكلام هو أحسن ما وجد، فإذا كان العلام متبحرا في العلم ثم اختار من كلام العلماء بعضه فيدل ذلك علىٰ نفاسة هٰذا الكلام وعلىٰ أنه هو الصحيح عنده.

فإذن، نأتي إلىٰ مسائل الرجال يأتي باحث ويقول: هٰذا الحديث إسناده حسن؛ لأن فيه فلان قال: الحافظ ابن حجر فيه صدوق، هٰذا الكلام في الحقيقة لا معنىٰ له، الحافظ ابن حجر ألف التقريب ليكون كاشفا معك في اليد في أسفارك؛ يعني تعرف تقريبه ليس الحكم علىٰ الرجل، نعم يدل هٰذا علىٰ أن الحكم هو اختيار الحافظ والحافظ حافظ وله جلالته في العلم؛ لكن المسألة لم تنته عند هٰذا الحد، لابد أن تتطلع علىٰ كلام الأئمة المتقدمين، من قال: ثقة لماذا قال: ثقة؟ ومن قال: ضعيف لماذا قال؟ هل ضُعِّفَ مطلقا أو ضُعِّفَ في زمن دون زمن يعني اختلط أو في بلد دون بلد أو في حضرة كتبه أو في غير حضرة كتبه أو هل هو مقبول في كل العلوم؟ أو يعني ثَم أشياء كثيرة تأتي.

فإذن الباحث لابد أن يكون دقيقا وكلما صار أدق كلما صار أحرىٰ بالصواب في العلم.

نأتي إلىٰ المتأخرين في شروح الحديث خاصة علماء الهند، علماء الهند شرحوا البخاري، شرحوا مسلما، وشرحوا أبا داود، وشرحوا جامع الترمذي، وشرحوا النسائي، وشرحوا ابن ماجه، شرحوا الجميع، و«مسند الإمام أحمد» شرحه الشيخ أحمد البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هٰذه الشروحات للأحاديث من أين استقيت؟ لابد للمؤلف مراجع، فإذا أراد الباحث أن يقتصر عليها فإنه يضعف بقدر ذلك، تبحث تكشف سريعا هٰذا حسن، لكن إذا أردت أن تبحث بحثا مدققا وتنشره ويكون لك فائدة بشيء تقتنع به لابد أن تتوسع في البحث مرة وتصل إلىٰ أقصىٰ الموجود، هٰذه الطبقة من الشروح تجد أن اعتمادهم علىٰ أربعة أنواع من الكتب:

- في اللغة اعتمدوا علىٰ القاموس دون غيره.

- وفي شروح الأحاديث اعتمدوا علىٰ شرح المشكاة الذي هو «مرقاة المصابيح» لملا علي القاري و«فتح الباري» و«نيل الأوطار»، هـٰذا الثاني.
- الثالث في نقلهم للمذاهب الفقهية اعتمد بعضهم علىٰ بعض، السلسلة تدور، هـٰذا يأخذ من هـٰذا، وهـٰذا سبق هـٰذا، وإلىٰ آخره.
- الرابع في مسألة التحقيق والتحرير إذا قال: الراجح فهو يرجِّح بحسب ما تاح له في ذلك الوقت بحسب وضعه، تارة تجد أنه يقول: إن هـٰذا واجب تارة يقول أنه مستحب، وكلما كان أقوىٰ في الأصول وفي الاستدلال وفي الاجتهاد كلما كان نظره أدق، من لم يدرك علم الأصول مثل من أدرك علم أصول الفقه كالشوكاني، ليس بمنزلة من أدرك علم الإسناد والصحيح من الضعيف مثل من لم يدرك ذلك في الشروح.

فإذن ليس كل ما قيل في شروح الأحاديث هـٰذه المتأخرة مسلم؛ بل لابد للباحث لا يقتصر عليها ليصل إلىٰ كلام المتقدمين.

أغرب من ذلك أن يقتصر الباحث علىٰ كلام بعض المعاصرين في بحوثهم، سواء في اللغة أو في العلوم المختلفة، لاشك أن هـٰذا ضعف لأنه من حيث أخذوا فخذ، ومن حيث نقلوا فانقل، والحمد لله الآن ثورة علمية كبيرة بوجود هـٰذه الكتب بيننا، فلابد للباحث أن يصل إلىٰ أوائل المسائل.

هـٰذه الكلمات لعلها تفتح مجالا في استقبال هـٰذه الدروس علىٰ تنشيط كل واحد منكم وممن يسمع هـٰذا الكلام في البحث، فطالب العلم ما يشتاق للعلم يتحرك فيتفاعل معه إلا بالبحث، لابد أن يقسم أمره علىٰ هـٰذه الأقسام الثلاثة:

- لابد من طلب العلم علىٰ الأشياخ.
- لابد من المطالعة والقراءة لتستفيد.
- لابد من بحث مسائل تتنقح عندك وتتضح الصورة ويكون عندك شغف بالعلم.

وكلما كنت أرغب في البحث كلما كان رغبك في العلم وصلة بالكتب أعظم.

أسأل الله جل وعلا أن يقويني وإياكم في العلم والتحصيل، وأن يذكِّرنا منه ما نسينا إنه سبحانه جواد كريم.

أسأله -جل وعلا- أن يثبت العلم في قلوبنا، وأن يعلمنا ما جهلنا، وأن يذكِّرنا بالعلم والعمل جميعا وأن يختم لنا بالرضا إنه جواد كريم.

سبحانه نسأله وهو مجيب بدعوة الداعي إذا دعاه.

كما أسأله -جل وعلا- أن يبارك في أعمار علمائنا الذين عن طريقهم فهمنا العلم ونبت لنا أجنحة طرنا بها في سماء العلم، وأسأله سبحانه أن يرحم المتقدمين من علمائنا الذين أفادونا بمصنفاتهم وبعلومهم فبيننا وبينهم سبب وثيق وصلة عظيمة ألا وهي صلة العلم ولهم منا الدعاء دائما: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

❁❁❁❁

[الأسئلة]

سؤال (٠١): نرى هناك من كبار علماء الإسلام في القديم والحديث من لهم قدم راسخة في العلم، وقد فقدوا البصر منذ الصغر، فكيف حصلوا هذا العلم دون الإطلاع على الكتب؟

الجواب مختصر، (الجمل) المعروف الذي شرح تفسير الجلالين، وله شرح كتاب في فقه الشافعية كان في الليل كان أعمى البصر، كان في الليل تقرأ له زوجته، لابد أن يُقرأ عليه، الشيخ محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللهُ- الجد ورفع درجته كان يقرأ عليه من الشباب الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد كانا متزاملين يقرأ عليه الكتب، في دروسه يقرأ عليه خاصته من الطلبة يحضرون بعد العشاء هو يعرف مظان البحث؛ لأنه مر على كتب كثيرة يقول: ايتني بالكتاب الفلاني البحث فيه، يفتشون له ويقرؤون كلام أهل العلم، فمن فقد البصر فبالعلم يكون من أولي البصيرة، فهم أولوا الأبصار إذا كانوا علماء.

سؤال (٠٢): ما صحة الحديث: نهى رسول الله ﷺ أن يبرك أحدكم كما يبرك البعير؟

الجواب: هذا ليس على هذا اللفظ، هو هذا الحديث مشهور معروف؛ يعني مشهور التداول لا مشهور المعنى الاصطلاحي «**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**» هذا هو القدر المحفوظ، ثم اختلفت الرواية في بقية الحديث «**وليضع يديه قبل ركبتيه**» ورويت «**وليضع ركبتيه قبل يديه**» والعلماء اختلفوا أيّ هذه الروايات هو الصحيح.

والصواب عندي أن كل هـٰذه الروايات فيها اضطراب، لا يصح منها شيء؛ بل الزِّيادات هـٰذه كلها مضطربة، والثابت هو أول هـٰذا الحديث «**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**»، وإذا تقرر ذلك فإنّ النهي في هـٰذا الحديث عن مشابهة البعير في هيئة البُروك؛ لأنه نهىٰ عن بروك كبروك البعير (**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**) فظاهر من الحديث أنَّ النّهي عن أن يبرك المصلي بروكًا كبروك البعير، وبروك البعير له هيئة، وهـٰذه الهيئة قد تكون بتقديم اليدين علىٰ الرّكبتين، وقد تكون بتقديم الرّكبتين علىٰ اليدين.

والهيئة: هي **أن يكون الأعلىٰ المؤخرة، وأن يكون الرأس منخفضا.**

هـٰذه هي الهيئة المنهي عنها؛ يعني إذا سجد أحدكم فلا يبرك بروك البعير؛ يعني لا يجعل رأسه منخفض يصل إلىٰ الأرض هكذا مثل البعير إذا أراد أن يبرك ويبقىٰ ظهره عالٍ؛ هـٰذه صفة بروك البعير، فيها إضرار بالمصلي.

وهـٰذا داخل تحت قاعدة عامة وهي أن: **المصلي لا يشابه الحيوانات ولا يماثلها في هيئة الصلاة.**

فنهىٰ عن إقعاء كإقعاء الكلب، وعن نقر كنقر الغراب، الغراب ينقر بإيش؟ ينقر بمنقاره، هل نقول: إن المنقار هو الأنف هو أشبه شيء بالمنقار ونقول: إن معناه أن لا يجعل أنفه علىٰ الأرض؟ لا، العلماء فهموا من نقرة الغراب هـٰذه من السرعة، ينقر ويرفع رأسه، كذلك لا يبسط أحدكم يديه كما يبسط الكلب، وأشباه ذلك؛ فإذن النهي في هـٰذا الحديث عن الهيئة.

والهيئة هـٰذه قد تحصل بتقديم اليدين علىٰ الرّكبتين؛ يعني في ابن آدم، وقد تحصل بالعكس.

فإذن المقصود من السّنة في ذلك أن لا تشابه البعير في هيئة البروك، إن قدَّمت يديك علىٰ رجليك ولم تشابه فالأمر واسع، وإن قدّمت الركبتين ولم تشابه فالأمر واسع؛ لكن لا تشابه البعير في هيئة البروك.

لهـٰذا ذكر التّرمذي في «جامعه» حينما ساق الحديث قال: وقال بعض أهل العلم: يقدم يديه علىٰ ركبتيه، وقال آخرون: يقدم ركبتيه علىٰ يديه، والأمر في ذلك واسع جدًّا. كأنه يلمح إلىٰ ما ذكرنا.

هناك بحث لغوي بحثه بعضهم هل ركبتا البعير في رجليه أم في يديه؟ وهـٰذا في الحقيقة بحث مفيد لغوي؛ لكن هو خارج عن محلّ الفقه عند التدقيق؛ لأن المقصود الهيئة، الرُّكَب إذا كانت في يدي البعير أو كانت في رجليه هيئة البعير واحدة وهو أن الرّأس منخفض و[المؤخرة] مرتفعة.

سؤال (٠٣): حديث أخرجه الحاكم في «مستدركه» وصححه الألباني وهو في ما معناه: إن القرآن يأتي يوم القيامة ويقول لصاحبه مخاطبا له: يا ربّ ألبسه به حلة في الآخرة.

هل هـٰذا يدل علىٰ أن القرآن مخلوق؟

الجواب: الحديث صحيح وله شواهد متعدّدة في معناه.

والجواب أن هـٰذا لا يدل علىٰ أن القرآن مخلوق، إن الله -جل وعلا- يجعل القرآن ممثلا في هـٰذا الشيء، وهـٰذا ليس المقصود منه أنّ القرآن مخلوق، وأنه يتكلم لأنه مخلوق، وبمثل هـٰذا احتج المعتزلة بمثل هـٰذا الحديث والحديث الآخر «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غيايتان -أو غيابتان أو فرقان- من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**» هـٰذه المحاجة، هـٰذه بلسان المقال؛ لكن الله -جل وعلا- يجعل القرآن كذلك يعني عمل صاحب القرآن تلاوة صاحب القرآن يجعلها كذلك، مثل العمل الصالح يأتي الإنسان في قبره، لهـٰذا له نظائر، مثل الوزن العمل الصالح، يوزن في الميزان.

سؤال (٠٤): هل معنىٰ الإطلاع علىٰ الكتاب قراءته كلِّه أم معرفة منهج المؤلف فيه؟

الجواب: قراءة كل كتاب صعب؛ لكن تعرف الكتاب أيش فيه، تعرف منهج المؤلف، تعرف البحوث التي فيه، بحث، بحوثه متميزة غير متميزة، إذا كان كتاب في الفقه من أين درسه هو، هل هو متأخر متوسط متقدم، كتاب من شروح الأحاديث؛ ميزته، كتاب في الأصول هل هو مطول يطول في الأمثلة ما يطول، هل هو يميل إلىٰ العقليات أم له نقل .. يعني تعرف منهج المؤلف، تقرأ منه حتىٰ يحصل لك خبرة.

سؤال (٠٥): كيف يجمع طالب العلم بين فهم وإدراك أصول العلوم وهي فيما يبدو أنها كثيرة ومتشعبة، ومعظمها اجتهادات كتّاب وبين العلوم، نرجو ذكر الثمرة المرجوة؟

الجواب: لاشك أن طالب العلم يبتدئ إلىٰ العلوم نفسها، لكن إن كان عنده قدرة للبحث، البحث علىٰ ما ذكرنا، والذي ذكرناه علىٰ هـٰذا التوسع قد لا يناسب الأكثرين؛ لكن لابد من معرفته، المقصود العلم نفسه، كما أنه إن كان عند الإنسان قدرة علىٰ البحث ليس معناه أن البحث فرض؛ لكن البحث مساعد إذا استطاعه أو يجاوزه إلىٰ ما يستطيع.

سؤال (٠٦): كيف السبيل إلىٰ العلم الذي يورث الخشية من الله عز وجل؟

الجواب: لقد سألت عن عظيم، العلم الموروث عن المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- يورث الخشية كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، فمن أخذ العلم الموروث عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وهو العلم بالقرآن وبحديثه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وتأمَّل في ذلك فإنه يورثه الخشية، فقد قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله. يعني طلبناه في زحمة الشباب والتنافس ثم لما طلبوه وعلِمُوا ما أنزل الله -جل وعلا- علىٰ رسوله وعلموا ميراث المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- الذي هو العلم جاءتهم الخشية، وجاءهم الإخلاص وجاءهم الإخبات، وهٰذا معنىٰ قول آخر: طلبنا العلم وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد.

والنية والإخلاص هي أن يرفع الجهل عن نفسه، رفع الجهل بحق الله -جل وعلا- أو الجهل بسنة النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أو الجهل بكيفية عبادته ربه -جل وعلا-، إذا نويت وقصدت رفع الجهل عن نفسك فهٰذا هو معنىٰ الإخلاص في العلم، معنىٰ النية: «**إنما الأعمال بالنيات**» النية الصالحة في العلم أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، لا تنوي الترفع زيادة المعارف، تنوي به الشهادة، تنوي به الوظيفة، هٰذه كلها من نيات للدنيا، النية الصالحة تنوي رفع الجهل عن نفسك.

فإذا آنست من نفسك رشدا، وأنك ستحصل إن شاء الله فتنوي مع ذلك رفع الجهل عن غيرك، وبثّ ميراث النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وتبليغ العلم؛ لأنه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال: «**بلغوا عني ولو آية، فرُبَّ مبلغ أوعىٰ له من سامع**» وقال أيضا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- فيما رواه أبو داود وغيره: «**نضر الله أمرؤا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعىٰ له من سامع**» وهو حديث صحيح، وهكذا.

فإذن النية الصالحة في طلب العلم أن ينوي المرء رفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن غيره؛ أهله في البيت، الذين يخالطونه، ولذلك العالم يستغفر له كل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء، لم؟ لأنه لا يتصرف إلا بعلم، إن أصاب بعلم، وإن خالف فهو يخالف بعلم، يستغفر الله جل وعلا يعرف معنىٰ الاستغفار إذا استغفر، ويعرف معنىٰ الطاعة إذا أطاع والصواب في هٰذا وهٰذا، ولذلك أكثر الناس خشية هم العلماء الذين انتفعوا بعلمهم، جعلني الله وإياكم منهم ووقانا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

سؤال (٠٧): رجل توضأ وأكل طعاما ثم صلىٰ المغرب، ولما حان وقت صلاة العشاء تبين أن في الطعام الذي أكله لحم إبل فماذا عليه؟

الجواب: يعني صلىٰ المغرب وهو قد أكل لحم إبل يتوضأ ويعيد الصلاة؛ لأن لحم الإبل ناقض من نواقض الوضوء علىٰ الصحيح لقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من أكل لحم جزور فليتوضأ**».

وهل يلزم السؤال عن نوع اللحم قبل الأكل منه؟

إذا شك يسأل، والمرء إذا كان قدّم للناس لحم إبل يقول لهم بطريقة مهذبة؛ فيقول لهم: لحم الإبل مفيد فقدمناه لكم.. وأشباه ذلك.

سؤال (٠٨): هل يدخل من فاتته الصلاة مع من يقضي أو من يصلي النافلة؟

الجواب: من فاتته الصلاة يصلي وحده، أو يتصدق عليه أحد فيصلي معه، فإن صلىٰ مع من يصلي النافلة أو مع من يقضي ممن لم ينوِ الإمامة فالصلاة صحيحة؛ لكن تركها أولىٰ لعدم مجيئها في السنة.

نكتفي بهٰذا القدر، ونلتقي إن شاء الله الأسبوع القادم، والدروس إن شاء الله تبدأ الخميس بعد الفجر عندنا، والسبت إن شاء الله نبتدئ في الطّحاوية وفقني الله وإياكم لما فيه رضاه.

۞۞۞۞

محاضرات (١/ ٥٨-٥٩)

المنهجية في قراءة كتب أهل العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، الذي بعث محمّدًا بالهدىٰ ودين الحق، ليظهره علىٰ الدين كلّه، وكفىٰ بالله شهيدًا، وأشهد أنْ لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلّم تسليما مزيدًا.

أما بعد؛

فأسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم العلم النافع، والعمل الصالح، والقلب الخاشع، والدّعاء المسموع.

اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا أرحم الراحمين.

ثم إنِّي مسرورٌ بهٰذا اللِّقاء بالإخوة طلبة العلم في هٰذا البلد المبارك، وبالشباب بعامة، لما بيننا من صلة ومحبَّة في الله وإنْ لم نلتق قبلُ.

ولا شك أنّ العلمَ، من أقوىٰ الرّوابط بين أهله، فطالب العلم لطالب العلم أخٌ وناصرٌ ووليٌّ ومحبٌ، فُهُم خاصّة أهل الإيمان، وقد قال جلّ وعلا: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة:٧١]، ومن مقتضىٰ الولاية، أنْ يحبّه وأنْ ينصرَهُ وأنْ يكون معه كما يحبّ أنْ يكون مع نفسه.

طلب العلم طريقٌ طويل، لا يكون إلاّ بتركٍ للهو والشّهوات، وإقبال جادٍّ عليه، لأنّ الله -جلّ وعلا-، وصف وهو أصدق الواصفين، وأصدق القائلين، وصف ما أنزل علىٰ محمد بن عبد الله -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، بأنّه قول ثقيل، فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل]، والقول الثقيل هو (الكتاب والسنة) ولهٰذا لما قيل للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة، توقف عن الإجابة فيها، قال القائلُ له: هٰذه مسألة سهلة، أو مسألة يسيرة. فقال: لا تقل هٰذا فما في العلم صَغُرَ أو كَبُر شيءٌ يسيرٌ أو شيء سهل، لأنّ الله -جلّ وعلا- وصفه بأنه ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

وهٰذا الفهم العظيم، هو أول درجات الصّعود في طلب العلم، أنْ تفهم أنّ العلم كلَّه ثقيل، فكل مسألة من مسائل العلم، تحتاج منك إلىٰ إقبال بقلْبٍ، وفهمٍ مستقلٍ، فمن قال هٰذه مسألة سهلة فمرّ عليها وعنها مرور الكرام، فإنّه لن يحصِّل العلم حتىٰ يكون العلمُ عنده سواء، بكلِّياته وجزئياته، بقواعده وفروعه، بأصوله وتفريعاته، سواء من جهة العناية به، سواء من جهة تحصيله، وترديده وحفظه، وتثبيته، فالعلم إذا تركته تركك، وإذا أقبلت عليه أعطاك بعضَه، كما هو معلوم في المقالة المشهورة: العلم إنْ أعطيته كلّك أعطاك بعضه، وإنْ أعطيته بعضك لم تدرك منه شيئا.

وهٰذا واقع مجرَّب.

هٰذه المحاضرة عُنونت بـ:

المنهجية في قراءة كتب أهل العلم

وموضوعها مهم، لأنَّ كثيرين قرءوا كتبًا متنوعةً، لكن تجيء الشّكوىٰ منهم، متواترة بأننا لم نحصِّل علمًا راسخا مقعّدًا، لم نضبط العلم بحيث نطمئن إلىٰ هٰذا العمر الذي بذلناه في العلم، وهٰذا تجده عند

كثيرين؛ لأنهم قرؤوا مدَّةً طويلة وربما حضروا بعض الدروس عند أهل العلم، وربما كتبوا الكتابات أو البحوث أو ألّفوا، ولكن في قرارة نفسه يدرك أنّه لم يحصِّل من العلم ما به تتميز مسائله، وما به يتّضح المُشْكِلُ منه.

فلهٰذا جاءت هٰذه المحاضرة -وكانت مهمَّة- لأنّه لابدّ من منهج مضبوطٍ للقراءة في كتب أهل العلم، ومن لم يسر في حياته كلِّها علىٰ منهج منضبط يرجعُ إليه، فإنّه سيترك الطَّريق الواضح، وسيأخذ بالطرق المختلفة.

كُتب أهل العلم، إذا نظرت إليها في هٰذا الزَّمن وجدتها تصل إلىٰ عشرات الآلاف في الفنون المختلفة.

فهل العلم كثير، بكثرة هٰذه الكتب؟

الجواب ما وصفه وأجاب به الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﵁ إذ قال: **العلم نقطة كثّرها الجاهلون**. يعني أنّ أصل العلم، الذي فقهه الصحابة -رضوان الله عليهم- قليل، هو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ، وهٰذا قليل بالنسبة إلىٰ ما كَثُرَ في زمن علي ﵁ من كثرة المسائل والتفريعات التي لا يحتاج إليها الناس.

وكلّما ازداد الناس بعدًا عن الزمن الأول، احتاجوا إلىٰ ازدياد العلم، أو ازدياد الكتب لأجل أنْ يفقهوا، كما قال: العلم نقطة كثّرها الجاهلون، فلأجل وجود الجهل وأهله كثر التأليف وكثر التصنيف، لأجل أنْ يبسط العلم لأهله، وبه أهله يهدون الجاهل ويرشدون الضال.

كذلك إذا تقدمتَ في الزمن وجدت أنّ الكتب في أوّل زمان الإسلام قليلة، ثم تكثر شيئا فشيئا، وهٰذه الكتب تنوّعت بتنوع العلوم والفنون.

فأوّل ما دوِّن من الكتب: الحديث، فأوّل ما دون بعد القرآن العظيم دُونت السنة، علىٰ اختلاف أنواع التدوين ما بين صحائف محدودة، إلىٰ أشياء كثيرة.

ثم تلاها تدوين التفسير عن ابن عباس ﵁ كما هو معلوم في الصحيفة الصادقة التي رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﵄، والتي قال فيها الإمام أحمد ﵀: إنّ بمصر صحيفة في التفسير يرويها علي بن أبي طلحة، لو رحَلَ رجل لها ما كان كثيرًا. وهٰذه الصحيفة صادقة صحيحة عن ابن عباس وإنْ لم يلق عليُّ بنُ أبي طلحةَ ابنَ عباس، كما هو معلوم، فهي مروية بالوجادة عن مجاهد عن ابن عباس، كما حرّره الحافظ ابن حجر في أول التفسير من كتاب «فتح الباري».

جاءت مصنفات في التوحيد -في العقيدة- لما ظهرت الفرق المختلفة من خوارج ومرجئة، جاءت الرسائل ومختصرات التصنيف إمّا في كتب أهل الحديث، وإما مفردة شيئا فشيئا.

ثم توالىٰ الزمان، حتىٰ صار لكل فنٍّ كتب كثيرة.

وإذا أردنا أنْ نضبط المنهجية في قراءة كتب أهل العلم، فإننا نقسِمُ ذلك إلىٰ قسمين:

الأول منهجية عامة تصلح للضّبط في قراءة أيِّ نوع من كتب أهل العلم، سواءٌ أكان في العقيدة، أمْ كان التفسير، أم الحديث، أم الفقه.. إلىٰ آخر الفنون الأصلية، والمساعدة، فالعلوم الأساسية والعلوم

الصناعية كلها ثمَّ ضوابط عامة يمكن أنْ تسير عليها في منهج واضح تضبط به العلم المنتشر في تلك الكتب.

وثَمَّ ضوابط خاصة بكل علم، التفسير له قواعدُ تحصيل علمه وله قواعد ضبط التفسير من حيث هو، الحديث كذلك، العقيدة كذلك، إلىٰ آخر الفنون...

القسم الأول: الضوابط التي تصلح لجميع كتب أهل العلم.

نقدِّم لها بمقدمة: وهي أنّ العلم الشرعي ينقسم إلىٰ قسمين:

- علم مقصودٌ لذاته.
- وعلم مقصودٌ لغيره.

أما العلم المقصود لذاته فهو علم الكتاب والسنة، فقه كلام الله جلّ وعلا، وفقه حديث رسول الله ﷺ هـٰذان العلمان هما المقصودان بالأصالة، وبهما يُمدَحُ أهل العلم، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١]، يعني الذين فقهوا عن الله -جل وعلا- مرادَه وعن الرسول ﷺ مراده.

علم الكتاب وعلم السنة فيه التَّوحيد، وفيه الحلال والحرامُ.

فرجعَ الأمرُ إذن إلىٰ علمين، ألاَ وهما علم العقيدة والتوحيد، وعلم الحلال والحرام، الذي هو الفقه.

هـٰذا العلمان التوحيد والفقه، مقصودان لذاتهما؛ لأنّه بالتوحيد يتحقق الإخلاص، وعبادة الله -جلّ وعلا- وحده دون ما سواه، والإيمان بأركان الإيمان حقّ الإيمان، وبالفقه يكون الامتثال في الأمر والنهي، لأنّ الله -جل وعلا-، جعل دينه أخبارًا وأوامر ونواهي، فالتّصديق بالأخبار هو الاعتقاد، وامتثال الأوامر والنواهي هو امتثال العمليات، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأمر والنهي.

فإذن العلمان المقصودان لذاتها في طلب العلم هما التوحيد والفقه.

والمقصود لغيره من الفنون ما كان من العلوم الصِّناعية المختلفة، علوم العربية بعامة ليست مقصودة لذاتها، علم النحو، وعلم الصرف، وعلم المعاني والبيان، والبديع، وعلوم البلاغة المختلفة، وعلوم الاشتقاق وهي ضمن الصرف، ومفردات اللغة، وأشباه ذلك، وكذلك أصول الفقه، أصول الحديث، السيرة، هـٰذه كلّها مقصودة لغيرها، ليس طلبها مقصودًا لذاته، يعني أنّ طالب العلم إذا قرأ هـٰذه الفنون فإنما يقرؤها للتوصُّل إلىٰ العلمين المقصودين، ألا وهما علم التوحيد وعلم الفقه، فقه الكتاب والسنة، فإذا رامَ أنْ يجعل الوسيلة غاية، فإنه لا يكون فاقِهًا الكتاب والسنة، وإنّما يكون قام ربما بفرضٍ كفائيٍّ في تعلم وسيلة مساعدة لفقه الكتاب والسنة.

هـٰذا النوع بعامة -العلم المقصود لذاته والمقصود لغيره- كتُبُهُ كثيرةٌ متنوعة، كما قلنا: هـٰذه منهجية تشمل الجميع.

فأوَّل الضوابط في ذلك: أنْ تعلم أنّ كتب أي علم من العلوم تنقسم إلىٰ كتب مختصرة -متون-، وإلىٰ

متوسِّطة، وإلىٰ منتهية، إلىٰ شروح كبار.

فأيُّ علم من العلوم، التفسير، شروح الحديث بل الحديث نفسه، والفقه، والعقيدة، إلىٰ آخر ذلك، كتبه ما بين مختصر ومطوّل، من رامَ المطول قبل المختصر فقدَ منهجيَّةً مهمة في استقرار الأصول، والمختصرات لها فائدة، وفائدتها تثبيت أصول العلم، والبناء كما هو معلوم يحتاج إلىٰ أساس قبل تشييد ارتفاعه، فالمختصرات طريق للكتب المتوسطة، طريق للكتب المطوَّلة.

فإذن من لم يُحكم المختصرات فلا يُديمنّ النظر في المطوّلات، وإنما المطولات في أي فنٍّ من الفنون يُحتاج إليها في معرفة ما أشكل من المختصرات، فالمطولات بالنسبة للمختصرات، كالعلوم الصناعية بالنسبة للعلوم الأساسية، يعني أنّ ابتداء طالب العلم والمتوسط أيضا لا يكون بالكتب المطولة.

فإذن لا يحسنُ أنْ نسمع من بعض طلبة العلم المبتدئين أنْ يقول قرأت كتاب «فتح الباري»، وقرأت «المغني»، قرأت «المجموع شرح المهذب»، قرأت «المحلىٰ»، قرأت «نيل الأوطار»، إلىٰ آخر ذلك.

هٰذا لا يَحسن؛ لأنّه وإنْ قرأ فسيؤول به الأمر إلىٰ عدم التحصيل، سيكون ثمَّ معلومات متناثرة في قلبه لا يجمعها زمام ولا يربط بينها رابط.

هنا لابدَّ إذن كمنهجية في القراءة أنْ تبدأ بالمختصر، ثم المتوسط، ثم المطوَّل، في تأسيسك؛ لكن إنْ أردتَ مراجعةَ مسألة، فتراجعها في أيّ كتاب شئتَ، في المطول أو المتوسط أو غيره.

لكن كتأسيس في طلب العلم، لابدّ من رعاية الاختصار، قبل المتوسط، قبل المطوَّل، وما أحسن صنيع الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ، إذ ألّف في الفقه ما يمثل هٰذا المنهج، فألَّفَ مثلاً كتاب «العمدة في الفقه»، المعروف وهو كتاب مختصر، أطول منه قليلا «المقنع» وله منهج، أطول منه «الكافي» وله منهج، والمنتهي يقرأ «المغني».

وسمعت الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مرّة- يقول: إنّ الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ سبق المدارس الحديثة، فجعل «العمدة في الفقه» للمستوىٰ الابتدائي، و«المقنع» للمستوىٰ المتوسط، و«الكافي» للمستوىٰ الثانوي، و«المغني» للمستوىٰ الجامعي.

طبعًا بالنسبة إلىٰ أهل العلم الذين يدركون هٰذه الكتب، وإلاّ فربّما قرأ بعض من في المستوىٰ الجامعي الآن، «العمدة» ولم يدرك أكثره.

فإذن من المهم في المنهجية في القراءة، أنْ يكون ثمَّ تفريق ما بين التأسيس والإطلاع، وهٰذه مرة كلمة قلتها وسجلت وهي مهمة لو رُجِعَ إليها، وهي: «**الفرق ما بين العقد والملح في العلم**». العلم منه عُقَد يصار إليها ومنه ملح مساندة، فمن رام المُلح وترك عقد العلم، فإنّه لن يدرك بل سيكون عنده أخبار كثيرة ومعلومات أو ثقافة لكن لا يستطيع أنْ يتكلم بوضوح في مسألة عَقدية، أو في مسألة فقهية.

فإذن أول المنهج العام في قراءة كتب أهل العلم بعامة، أنْ يكون ثمَّ انتقال من المختصر إلىٰ المطوّل، وهٰذا يتفرّع بتفرع الفنون المختلفة.

الثاني: أنْ يكون القارئ منتبهًا إلىٰ مذهب الإمام أو المؤلف، فالعلماء ألّفوا كتبًا ولكن ألفوها بحسب

نزْعَةِ كلّ منهم من جهة مذهبية، فمنهم من هو من الحنابلة، ومنهم من هو من الشافعية، ومنهم من هو من الحنفية، المالكية، وكذلك منهم من صفا مشربه في السنة، ومنهم من صار عنده صواب كثير وغلط قليل في السنة، ومنهم من خلط سنة وبدعة إلىٰ آخر ذلك، فمعرفة هٰذا المؤلِّف والمُؤَلَّف مهم قبل الإقبال عليه، وهٰذا لابدّ منه، لأنّه قد يتأثر القارئ، بمؤلف وهو لا يدري إلىٰ أيِّ شيء نزع.

فمثلاً بعض طلبة العلم، يرجّح دائما ما في (شروح كتب الحديث) علىٰ ما في الشروح المطولة في كتب الفقه، لأنّ شارح الحديث عندهم أكثر استقلالا وأميل للاجتهاد من الذي ألّف في الفقه، فينظر إلىٰ أنّ ترجيح صاحب كتاب الحديث أوثق من ترجيح صاحب كتاب الفقه، هٰذا ليس صوابًا علىٰ إطلاقه.

بل نجد أنّ شرّاح الحديث نزعوا في ترجيحاتهم إلىٰ مذاهبهم، فمثلا، تجد أنّ الحافظ النووي في «شرح مسلم» رجَّح ما يرجحه الشافعية، وإذا دخل أيضا في استدلالٍ وتطبيقٍ لأصول الفقه، فهو يطبق أصول الفقه الشافعية، فينظر الناظر إلىٰ أنّه إذا قال في مسألة ما هٰذا الحديث صحيح، وهٰذه المسألة الراجح فيها كذا لمجيء الحديث الصحيح بها. فيرجِّح من جهة ترجيح النووي، المبني علىٰ صحة الإسناد، وهٰذا صحيح في كثير من المسائل، وغيرُ صحيح في بعض، لهٰذا نجد أنّه رجح أشياء في مسائل الصواب خلافُها، لم؟

لأنّ صحة الإسناد، أو صحة الحديث، ليست كافية في الفقه، بل الأهم منها، أنْ ننظر في وجه الاستدلال من الحديث علىٰ المسألة، وجه الاستدلال يعني الاستنباط، كيف استنبط الحكم من المسألة، استنباط الحكم من الدليل، هٰذا يُرجع فيه إلىٰ أي علم؟!

إلىٰ أصول الفقه، الحكم بصحة الإسناد يُرجع فيه إلىٰ مصطلح الحديث وإلىٰ علم الرجال.

في كلا الأمرين المصطلح والرجال، وعلم أصول الفقه، هٰذه كلّها لها تبعات ولها خلفيات سابقة، فتجد أنّه رجّح صحة الإسناد لمذهبٍ له في الإسناد.

فمثلاً، تجدُ أنّه يرجح صحة الترجمة المعروفة (عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه)، أو يرجِّح صحة (بهز بن حكيم عن أبيه عن جده)، أو ما أشبه ذلك، وغيره قد ينازعه في ذلك.

كذلك من جهة رجل، هل هو ثقة أم ليس بثقة، هل هو صدوق أم هو يهم، هل هو مقبولُ الرّواية في هٰذا الباب أم ليس بمقبول الرواية، هل هو مقبول الرواية عن هٰذا الشيخ أم ليس بمقبول الرّواية، وهٰذا مما يدخل في علم علل الحديث.

المسألة الثانية أصول الفقه إذا صح الإسناد، وصح الحديث، فكيف نستنبط الحكم من الدليل لابدّ من استخدام أصول الفقه فيأتي استخدام أصول الفقه في بعض الأحيان موافقا لمذهب المؤلف، فينظر الناظر ويقول: هٰذه المسألة رجحها الحافظ ابن حجر، رجّحها الحافظ ابن حجر بناءً علىٰ مذهبه في أصول الفقه، فيأتي الناظر، ويقول الدليل كذا وصحّح إسناده الحافظ أو صححه الحافظ في «الفتح» أو في «البلوغ»، ورَجّح كذا.

لكن المسألة لا تقف عند هٰذا الحد، بل لا بد من النظر في أصول الفقه التي بها استنبط الشارح الحكم

في المسألة.

ولهٰذا نقولُ: إنّ بعض المسائل، جاء الخَلل فيها:

- من جهة العقيدة.
- من جهة عدم إحسان تطبيق أصول الفقه.
- أو من جهة عدم معرفة هدي السلف.
- أو من جهة أنّ المؤلف لم يُكمل الآثار في هٰذا الباب.

وهٰذا متنوعٌ كثير، فتجد مثلًا عند الحافظ النووي، عنده أشياء حتىٰ في كتاب «رياض الصالحين»، في كتاب رياض الصالحين عقد بابًا في كراهة الحلف بالأمانة وبتربة فلان وبقبر فلان، والحديث الذي استند إليه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، واستند أيضا إلىٰ ما صح في السنن عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «**من حلف بالأمانة فليس منّا**»، فيأتي الناظر ويقول النووي قال: يكره، ما دليل النووي؟ أتىٰ بالدليل الذي فيه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، ويدخل في عموم قوله من حلف بغير الله الحلف بالقبر أو بالتربة أو بالأمانة، إلىٰ آخر ذلك، فإذًا هناك بونٌ شاسعٌ ما بين قوله: مكروه، وما بين قول النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وقوله: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»، ومن المتقرر عند المحققين من أهل العلم أنّ قول النبي ﷺ: «**ليس منّا من فعل كذا**» أنّه يدلّ علىٰ التحريم كما هو مقرر عند الجمهور في تحقيق أصول الفقه.

إذن الترجمة شيء والاستدلال شيءٌ آخر، لو ناقشنا النووي لـمَ ذهبتَ إلىٰ الكراهة؟ ما ندري بـمَ يجيب؟ لكنْ أظنّ أنّه نزع إلىٰ شيء عنده في أصول الفقه، به فهم من قوله: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، أنّ المقصود به كفر النعمة أو الشرك الأصغر، وهٰذا يدخل في كراهة التحريم، ولم يطلق كراهة التحريم، وإنّما أطلق الكراهة دون التحريم.

المقصود من هٰذا أنْ تنتبه إلىٰ الفرق ما بين وجه الاستدلال وما بين حكم صاحب الكتاب، وهٰذه مسألة كبيرة تُدخلك في أنواع من البحث في قراءة كتب أهل العلم.

فإذن ضابط عام، فيما تقرأ من كتب أهل العلم أنْ تتبين منهج المؤلف، فليس كلّ عالمٍ رجّح مسألة، تكون راجحة في نفس الأمر، بل لابدّ لرجحان مسألة، من صحة الدليل، ورجحان الاستدلال.

ومن الفُروق المهمة في قراءة كتب أهل العلم، وفي طلب العلم ألاّ يظنّ الظان أنّ الراجح في المسائل العلمية يكون راجحًا لمجيء الدليل لقولٍ، وعدم مجيء الدليل لقول آخر، هٰذا قليل، وهٰذه هي المسائل التي تسمىٰ مسائل الخلاف، وهي ليس الكلام فيها، وإنّما أكثر الخلاف مجيء دليل، ينزع المجتهد الأول منه بوجه استدلال، وينزع المجتهد الثاني منه بوجه استدلالٍ آخر، متىٰ يكون الاستدلال راجحًا؟ ويكون القول في المسألة راجحًا؟ إذا كان الاعتراض علىٰ الاستدلال الأول أقل من الاعتراض علىٰ الاستدلال الثاني.

تجد مثلا إذا نظرت مثلا في «نيل الأوطار» أو «فتح الباري» أو «المجموع» أو «المغني»، أو غير ذلك،

ترىٰ أنّ هـٰذا الإمام ينزع من نفس الدليل إلىٰ حكم، والآخر ينزع إلىٰ حكم آخر مـن نفس الـدليل، وهـٰذا راجع إلىٰ اختلاف المجتهدين.

متىٰ يكون القول راجحا؟ نرجح الأول أو الثاني؟! ليست المسألة مسألة أهواء ولا شهوات، يـرجِّح مـا كان الاعتراض عليه من القولين أقل، وإلاّ فلا تتصوَّر أنّ ثمـة مسـائل كثيـرة في العلـم الـرَّاجح فيهـا راجـح مطلق، بمعنىٰ أنْ يكون الأول صوابًا تاما، والآخر غلطًا تامًّا، هـٰذا قليل في مسائل العلم، والأكثر أنْ يكـون هـٰذا عنده وجه استدلال، وهـٰذا عنـده وجـه اسـتدلال، لكـن الاعـتراض علـىٰ أحـد الاسـتدلالين أكثـر مـن الاعتراض علىٰ استدلال الإمام الآخر، فيكون مـا قـلّ عليـه الاعـتراض راجحًـا ومـا كثُـر عليـه الاعـتراض مرجوحًا.

الضابط الثالث: من الضوابط العامة في المنهجية، أنْ ينتبه طالـب العلـم، إلـىٰ المسـألة التـي يقرؤهـا في فَهْمِ بلغةِ أهل العلم، وهـٰذا يحتاج إلىٰ شيء من التَّفصيل:

ذلك أنّ لغة أهل العلم، بها أُلفت العلوم فمـن نظـر مـثلا في فتـاوىٰ شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بمـا يفهمه من لغته الدّارجة أو من لغة الجرائد أو من لغة الثقافة العصرية، فإنّه سيخطئ في كثيـر مـن المسـائل، في فهمها، في فهم مراد شيخ الإسلام من كلامه، لأنّ أهل العلم علىٰ اختلاف العصـور دوّنـوا العلـم بلغـة العلم، لم يدونوا العلم بلغتهم في زمانهم حتىٰ يتواصل العلم ويلحق الآخر بالأول في فهم العلم.

فإذن العلم له لغة، العلم له مصطلح، العلم له ألفاظ، يجب أنْ يُفهم العلم بالوعـاء الـذي احتوتـه تلـك الألفاظ، فالألفاظ وعاءٌ للمعـاني فكـل لفـظ، في كتـب أهـل العلـم لا يسـوغُ أنْ يفهـم بمـا عنـد القـارئ مـن المقررات السابقة، لأنّه إذا فهمه علىٰ هـٰذا الأساس فإنه سيفهم العلم علـىٰ غيـر مـراد أهلـه، وهـٰذه مهمـة جدًّا، وإنما تدرك بطلب العلم عند أهل العلم، كيف أو ما مراد العلمـاء في الفقـه في هـٰذه الكلمـة؟ و هـٰذه الكلمة؟ وهـٰذه الكلمة؟ ما مرادهم في العقيدة بهـٰذه الكلمة؟ وهـٰذه الكلمة؟ وهـٰذه الكلمة؟ مـا مـرادهم في النحو؟ إلىٰ آخره.

فألفاظ العلم ألفاظ رعاها العلماء.

وهكذا ينبغي علىٰ كل طالب علمٍ درّس أو تلقىٰ العلم أنْ يجتهد في التعبير عـن العلـم بلغـة أهلـه، فـإنْ عبّر عن العلم بغير لغة أهله، فإنّه لن يكون متصلا مع من سبقه بسبب وثيق، وكـذلك مـن فهـم كـلام أهـل العلم علىٰ غير ما تقرره لغة أهل العلم، فإنه لن يدرك.

الضابط الرابع من الضوابط العامة: أنّ كتب أهل العلم المطوّلـة والمتوسـطة والمختصـرة، تحتـاج مـن القارئ ومن طالب العلـم إلـىٰ تـدوين للمهـم منهـا، فـالقراءة وحـدها غيـر مجديـة، فلابـد مـع القـراءة مـن تدوينٍ وكتابة، وكم سمعنا في كتب أهل العلم، وفيما خلّفوه مختصرات للكتب، تجد مثلا العـالم الفـلاني اختصـر الكتـاب الفـلاني، واختصـر الكتـاب الفـلاني، واختصـر الكتـاب الفـلاني، لـمَ؟ هـل هـو رغبـة في الاختصار من حيث هو؟ لا، الاختصار نوعٌ فهمٍ للمختصَر.

ولذلك انتخاب طالب العلم من كتب أهل العلم ما ينفعه في فهم العلم هـٰذا مهم.

فتأخذ مثلا في قراءتك في المختصرات أو في المطولات تأخذ الفوائد وتجعلها في كُنَّاشَةٍ مستقلة، في دفتر مستقل.

وهٰذه الفوائد تترقىٰ معك، بترقي عمرك في طلب العلم.

فستجد يومًا ما بعد سنين عددا، أنّ ما كتبته في أول الطلب مع أنه كان عندك أعَزّ من بيضِ الأنُوق في الفائدة، ستجد أنّه لا شيء، لأنّه صار عندك واضحا جدا، بحيث إنك تقول: كيف كتبت أول عمري هٰذه الفائدة.

فمثلا واحد يكتب الفرق بين السنة والمستحب، بعد سنين يرجع يقول: كيف أنا أفرق بين السنة والمستحب!! يعني هٰذه المسألة واضحة ما تحتاج إلىٰ أنْ تكتب فائدة من كتب أهل العلم.

مثلا يكتب هل المباح من الأحكام التكليفية أو خارج عن الأحكام التكليفية، فائدة ينقلها من كتاب أصول أو كتاب قواعد، وهٰذا يجد في يوم ما أنّ هٰذه المسألة لا تستحق أنْ تدون.

القواعد انقسامها إلىٰ قواعد كلية وإلىٰ قواعد جزئية، والجزئية انقسامها إلىٰ كذا وكذا في قواعد الفقه، هٰذه سيكتبها يوما ما، ثم بعد ذلك يقول: هٰذه لم أحتج أنْ أكتبها، لظنه أنها صارت واضحة عنده، فمن سهولتها قال: لا احتاج إلىٰ كتابتها، وهٰذا غير صحيح. فإنما تتضح بالانتخاب.

يعني أنّك إذا قرأت كتابا، فاجعل دائما بجنبك الدفتر والقلم، واكتب الفوائد التي تمر بك، أكتبها تارة بالعنوان، ترجع إليها في وقت فراغك وتملي، وتارة تكتبها بالتفصيل حتىٰ تراجعها مرّةً وثانيةً وثالثةً، فإذا اتضحت، صار ما بعدها من العلم أيسر، كما تعلّم الصغير ألف باء تاء ثاء، فإنّ العلم كذلك يحتاج إلىٰ تعوّد.

هٰذه بعض الضوابط العامة في قراءة كتب أهل العلم بعامة.

وسبق أنْ ألقيت كلمة بعنوان: «**كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية**». مؤلفات شيخ الإسلام العقدية، ومؤلفات شيخ الإسلام الفقهية، سواء من الرسائل والقواعد والأصول في هٰذا العلم أو من هٰذا العلم، أو من الكتب الكبار.

كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية. هٰذه آمل أنْ يرجع إليها الأخ لأنها تفصيل وهي طويلة بعض الشيء، تفصيل لضوابط عامة في قراءة كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي تنطبق أيضا في جمل منها علىٰ غير كتب شيخ الإسلام.

إذا تبين ذلك، فالقسم الثاني ممّا يحتاج فيه إلىٰ تبيين المنهجية، التّفصيلات بالنسبة للفنون، يعني كيف نقرأ كتب التفسير، كيف نقرأ كتب العقيدة، كيف نقرأ كتب الفقه، كيف نقرأ كتب الحديث إلىٰ آخره، تلك ضوابط عامة، ونأتي الآن إلىٰ ضوابط خاصة بكل فن من الفنون.

نبتدئ **بالتفسير** لأنّه شرح كلام الله -جلّ وعلا-، وفَسْرُه، وبيان تأويله.

التفسير لا شك أنّه من العلوم المهمة جدا بل هو أصل العلوم، لأنه فقهُ القرآن؛ والله -جلّ وعلا- قال لعباده: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾[النساء]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾[ص]، والآيات في الأمر بالتدبر متنوعة، التفسير كتبه منها المختصر ومنها المطول؛ لكن كيف يترقّىٰ طالب العلم في فهم التفسير، كيف يقرأ كتبه؟ منهم من يقرأ المطولات من كتب التفسير دائما وهٰذا ينطبق عليه ما ذكرناه قبل ذلك.

المنهجية العامة لتحقيق هٰذا العلم، أنْ ترتب القراءة فيه علىٰ هٰذه المراتب:

أما المرتبة الأولىٰ: فهي معرفة الوجوه والنظائر في التفسير، فالتفسير بيان لمعاني القرآن، القرآن ثمَّ فيه كلمات كثيرة تكرّرت في السور، فقد تكون الكلمة لها معنىٰ في سورة البقرة، والمعنىٰ نفسه في سورة آل عمران وتمشي إلىٰ آخر المصحف، وهٰذه ما تسمىٰ بالكلمات ذات المعنىٰ الواحد.

وهناك كلمات لا، الكلمة واحدة ولها عدة معاني في القرآن، وهي التي تسمىٰ الوجوه والنظائر أو الأسماء المتواطئة والمُشْتَرَكَة.

معرفة المفردات هٰذه مهمّة، ومعرفة المفردات تكون بقراءة كتب الوجوه والنظائر، وكتب مفردات القرآن، أما الوجوه والنظائر فمن أمثلها كتاب ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الوجوه والنظائر» وهو من الكتب المفيدة في هٰذا الباب، يقول لك مثلا كلمة (السماء) جاءت في القرآن علىٰ معنيين، (الأرض)، جاءت في القرآن علىٰ ثلاثة معانٍ، (الدابة) جاءت في القرآن علىٰ كذا معنىٰ، ويقدم قبل هٰذا بمقدمة يبين لك فيها الأصل العام لمعنىٰ هٰذه الكلمة.

الخُطوة الأولىٰ إذن في قراءة التفسير أنْ تطلب معنىٰ الكلمات التي يكثر ورودها في القرآن لأنّك إذا ضبطت هٰذه الكلمات فإنها تتكرر في التفسير فتريح قلبك وعقلك من دقة النظر والحفظ حين قراءة كتب التفسير، وتروح تهتم بشيء آخر، وكذلك مفردات القرآن.

ومن أمثلها علىٰ غلطٍ عنده في الاعتقاد، وانتمائه إلىٰ مذهب المتكلمين، كتاب «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني، وهو من أمثل الكتب في معرفة معاني المفردات.

المرتبة الثانية: في قراءة كتب التفسير أنْ ترجع في التفسير إلىٰ اشتقاق الكلمات؛ يعني أنْ تضبط الكلمة هٰذه من أين اشتُقَّت في اللغة، وتبحثها بحثًا لُغَويا لأنّ بحث الكلمات بحثا لغويا، يقوي الملكة وما يحفظ والمحفوظ في علم التفسير.

المرتبة الثالثة: أنْ تنظر إلىٰ كتب التفسير، وكتب التفسير -كما هو معلوم- منقسمة إلىٰ مدرستين:

- مدرسة التفسير بالأثر.
- ومدرسة التفسير بالرأي، ومدرسة التفسير بالرأي أيضا لها عدة أقسام:

- منها ما هو من الرأي المحمود يعني الاجتهاد والاستنباط، المقبول، الذي له أُسُسه، المقبولة شرعا.
- ومنها ما فسر القرآن برأي مجرد يعني بغير حجة، إما في الاعتقاد أو في غيره.

فكتب التفسير إذن علىٰ قسمين: كتب التفسير بالأثر وكتب التفسير بالرأي.

كتب التفسير بالأثر، نعني بها الكتب التي تمحضت في نقل الآثار، فيأتي في التفسير هٰذه فسرها ابن عباس كذا وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير مثلا، وابن مسعود وعلقمة إلىٰ آخر ذلك، به قال فلان وفلان وفلان يعني نقل أقوال السلف في التفسير تسمىٰ التفسير بالمأثور.

من المهم الطالب العلم، قبل أنْ يقرأ في كتب التفسير بالرأي المحمود، مثل «تفسير القرطبي»، أو «تفسير الألوسي» أو تفسير كذا وكذا من الكتب، سواء كانت من مدرسة التفاسير الفقهية أو الموسوعية، قبل أنْ يقرأها لابدّ أنْ يطالع قول السلف في التفسير، لـمَ؟ لأنّه من المتقرر عند أهل العلم بعامة أنّه لا يجوز أنْ يُعتقد أنّ صوابا في مسألة من مسائل التفسير يحجب عن الصحابة والتابعين، ويُدْرِكُ هٰذا الصواب من بعدهم؛ لأنّهم هم الذين نزل عليهم التنزيل -أعني الصحابة- فنقلوه إلىٰ من بعدهم، فكل تفسير يضاد، -والحظ أنني أقول: يضاد، ولا أقول: يخالف- تفسير السلف فإنه قطعًا غلط؛ لأنّه لا يجوز أنْ يُعتقدَ أو يظنّ أنّ ثمة صوابا في التفسير يُحجب عن سلف هٰذه الأمة لأنه لا يجوز أنْ نقول أو نظن أنّ كلمة من القرآن جهلها الصحابة وأدركها من بعدهم، فسرها الصحابة بتفسير ويأتي المتأخر فيفسرها بتفسير مضاد له ويكون الصواب مع المتأخر هٰذا قطعا ممتنع.

ولهٰذا نقول: في أساسيات قراءة كتب التفسير أنْ تبدأ بقراءة التفسير بالمأثور، قبل التفسير بالرأي، أنْ تطالع آثار السلف في الآية، قبل أنْ تنظر في اجتهادات المتأخرين التي تكون مبنية علىٰ العلوم المختلفة؛ النحو ومفردات اللغة وأصول الفقه إلىٰ غير ذلك..

كتب التفسير بالأثر متدرجة، هناك صحيفة علي بن أبي طلحة التي ذكرنا مهمة أنْ تقرأ تفسيرها أول ما تقرأ ثم «تفسير عبد الرزاق» وهو مطبوع في أجزاء قليلة، ثم «تفسير ابن جرير»، «تفسير البغوي»، «تفسير ابن كثير» إلىٰ آخره، هٰذه مدرسة التفسير بالأثر.

ثم مدرسة التفسير بالرّأي يعني بالاجتهاد والاستنباط، وأكثرهم استخدموا علوم الآلة يعني اللغة والمفردات في التفسير.

هٰذه وهٰذه فإذا ضبطت أقوال المفسرين ومشيت ومعها خَطوة فخطوة، ترجع إلىٰ التفسير بالرأي -لا بأس-، يكون عندك منهجية صحيحة تدرك بها الصواب من غيره في التفسير.

العقيدة كيف تُقرأ كتب الاعتقاد؟

العقيدة في الأصل واضحة هي بيان أركان الإيمان، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٦]، فالإيمان بأركان الإيمان الستة سهل واضح تقبله الفطرة، لكن لما شاع الخلل في ذلك، ألّف أهل العلم كتبا في الاعتقاد، وهٰذه الكتب عند السلف علىٰ قسمين:

منها كتب أوردت الاعتقاد إيرادًا إجماليا.

ومنها كتب فصلت كل مسألة من مسائل الاعتقاد، فأُلف في الإيمان وحده عدة مؤلفات، أُلِّفَ في القدر وحده عدة مؤلفات، ألّف في الكتاب -يعني في القرآن- عدة مؤلفات، وهكذا.

فإذن كتب الاعتقاد، منها ما عُرضت فيه العقيدة بعامة، ومنها ما عُرض فيه موضوع من موضوعات العقيدة.

طبعا يمشي معك ما ذكرناه أولا من التدرج بقراءة المختصر ثم المتوسط ثم المطول من الكتب.

وهٰذا ذكرناه في محاضرة بعنوان «**المنهجية في طلب العلم**»، يمكن أنْ ترجع إليها بتفصيل.

إذا سرت في فهم مختصرات العقيدة، فهل هٰذه هي النهاية؟

بعض طلبة العلم يرىٰ أنّ الأكثر فائدة أنْ يقرأ في الكتب المطولة في العقيدة، يقرأ مباشرة في فتاوىٰ شيخ الإسلام، يقرأ مباشرة في «الإيمان» لابن منده، يقرأ مباشرة في كتاب «التوحيد» لابن منده مثلا، أو الكتب المتقدمة، أو في «الشريعة» للآجري أو في كتاب اللالكائي، وهكذا.

وهٰذه الكتب لا شك أنّها أصّلت مذاهب السلف؛ لكن مذاهب السلف وأقوالُهم تفرقت بحيث إنّ المؤلفين الأقدمين لم يجعلوها متواليةً في انضباطٍ تأليفي واضح في مؤلفاتهم القديمة.

فأتىٰ المتأخرون من أهل العلم والسنة، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن قدامة، وغيرهما، أتوا فلخّصوا هٰذه العقائد في كتب مختصرة ومتوسطة لابدّ لفهم كلام السلف من فهم هٰذه الكتب.

فإذن الطريق إلىٰ فهم المطولات، أنْ تفهم مختصرات الاعتقاد، مثل «الواسطية» لشيخ الإسلام و«الحموية» و«لمعة الاعتقاد» لابن قدامة وهكذا في كتبٍ كثيرة مختلفة.

إذا ضبطت الكتب هٰذه، يمكن أنْ ترجع **إلىٰ الكتب المتقدمة علىٰ ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولىٰ: أنْ يكون الإطلاع علىٰ المطول عند تقرير المسألة المختصرة، يعني مثلا، تأتي مسألة الإيمان في العقيدة، هل الإيمان قول وعمل واعتقاد أم أنّه قول واعتقاد دون عمل؟ المسألة المعروفة بالخلاف ما بين أهل الحديث والسنة ومرجئة الفقهاء.

الفرق بين هٰذا وهٰذا يكون في الكتب المختصرة لَمْحَة عنه، لكن تفصيله يكون في المطولة، إذا احتجت إلىٰ تفصيله تذهب إلىٰ الكتب المطولة بخصوصها، هٰذه المرتبة الأولىٰ.

ويتبع هٰذه أنْ تنتقل من مرتبة المختصر بعد إحكامه إلىٰ المطول بعامة، يعني إذا قرأت مثلا العقيدة وضبطتها علىٰ المنهجية فيها بقراءة المختصر ثم المتوسط إلىٰ آخره علىٰ نحو ما سبق إيضاحه، فإنك تنتقل إلىٰ كتب المتقدمين لقراءتها من أولها.

إذا ضبطت شروح الكتب المتأخرة فإنّ كتب المتقدمين ستَنْزِلُ كل مسألة منها منزِلها، أما إذا أخذت كتب المتقدمين دون النظر في قواعد المتأخرين التي ضبطوا بها الاعتقاد، فإنه سيكون ثم خلل كبير في فهم منهج أهل السنة وعقيدة أهل السنة.

مثال ذلك: ما ورد في بعض كتب أهل السنة من الكلام علىٰ أبي حنيفة الإمام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ورفع درجته في الجنة-، هٰذا. لو أقبل مقبلٌ علىٰ كتب العقيدة الأولىٰ مثل بعض كتب السنة ونحو ذلك لوجد فيها كلامًا علىٰ هٰذا الإمام، لم يقله أئمة أهل السنة المتأخرون، وإنّما هجروا هٰذا الكلام وتركوه، فلا ترىٰ مثلا في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مقالةً سيئة في الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع أنّ كتب السنة

المتقدمة فيها من هٰذا الكلام وفيها الكلام عمّا فعله وعما فعله... إلىٰ آخره، وأما الكتب المتأخرة فلا تجد فيها ذمّا للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بما في كتب الأولين، بل هُجِر ما في كتب الأولين، وقُرِّر ما يجب أنْ يقرر تباعًا لمنهج أهل السنة بعامة، لأنّ المسألة تلك كانت لها فتوىٰ بظروفها وزمانها إلىٰ آخره، فألف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ومنهم أبو حنيفة، مع أنّ قوله في الإيمان معروف وقوله في كذا معروف؛ لكن كما قيل في حقه: إنّه لا يُنْظر فيه إلىٰ هٰذه الأمور، لو قرأ قارئ في الكتب المتقدمة قبل المتأخرة فإنه سيحصل عنده خلل في الفهم.

من أين يأتي الخلل؟

يأتي الخلل من جهة أنّ كلام السلف له بساط حال قام عليه إذا لم يَرْعَ المتأخرُ بساط الحال الذي قام عليه كلام السلف فإنه لن يفهم كلام السلف، يعني أنْ تعرف حال ذلك الزمان، وما كان فيه من أقوال، ومن مذاهب، ومن فتن إلىٰ آخر ذلك، فينبني كلامهم علىٰ ما كان في ذلك الزمان، لكن المتأخر لما ترك، علمنا أنه تركه لعلة.

ولهٰذا مثلا لما طبع الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومعه بعض المشايخ في مكة لما طبعوا كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يروا بأسا من أنْ ينتزعوا منه بابًا كاملا، وهٰذا لأجل المصلحة الشرعية التي توافق منهج أهل السنة والجماعة، فانتزعوا فصلا كاملا متعلق بأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبأصحابه، وبالأقوال التي فيهم وذمهم أو تكفيرهم، إلىٰ آخر ذلك، انتزعوه.

لِمَ؟ هل انتزاعه كما قال بعضهم إنّه ليس من أداء الأمانة؟ لا بل هي أمانة، لأنّ الأمانة التي أُنيطت بنا ليست هي أمانة قبول المؤلفات علىٰ ما هي عليه، وإنما هي أمانة بقاء الأمة علىٰ وحدتها في العقيدة، وعلىٰ وحدتها في المحبة.

فإذا ذهب ذاك الكلام مع زمانه فإنَّ تكراره مع عدم المصلحة الشرعية منه لا حاجة إليه، وهٰذا لا شك أنه من الفقه المهم.

بعض كلمات السلف في المبتدعة، بعض كلمات السلف في أهل الأهواء لها بِساطُ حال في الزمن الأول، وليس ذلك منطبقا علىٰ بساط الحال في الزمن هٰذا، ولذلك ترىٰ أنّ بعضهم أخذ من تلك الكلمات كلمات عامة فطبقها علىٰ غير الزمان الذي كان ذلك القول فيه، ولو رأىٰ كلام الأئمة الحفاظ والمحققين من أهل السنة، لوجد أنّه يخالف ذلك الكلام في التطبيق، أما في التأصيل فهو واقع.

هٰذا استطراد لبيان أهمية قراءة كتب المتأخرين من أهل السنة في الاعتقاد وإِحْكامها قبل إدمان النظر في كتب السلف؛ لأنّ إدمان النظر في كتب السلف دون معرفةٍ بقواعد أهل السنة التي قعّدها أهل السنة والجماعة المتأخرون فإنّ هٰذا يُعطي خللاً في فهم منهج السلف بعامة، وهٰذا له أمثلة كثيرة ربما تحتاج إلىٰ وقت طويل.

المرتبة الثانية: معرفة أقوال المردود عليهم من كتبهم، هٰذا الآن منهجية للمنتهين ليس للمبتدئين في طلب العلم، يعني بعد أنْ يُحكم الأصول والمختصرات، ويضبط كلام السلف، ينتقل بعدها إلىٰ معرفة

أقوال المردود عليهم من كتبهم؛ لأنّه لا يسوغ أنْ تقبَل ردًّا علىٰ مردودٍ عليه بعامة، دون أنْ تسمع أو تقرأ كلام المردود عليه إلاّ إذا كان الناقل له ثقة وهٰذا لا شك أنّه يكفي؛ لكن قراءة الكتب التي منها أخذت الأقوال توضّح لك المراد.

فتجد مثلا أنّه يقال: قال فلان كذا، ومذهب مثلا الأشاعرة في المسألة كذا، وإذا نظرت كتبَ القوم وجدت أنّ لهم تفصيلا، لم يحتج المؤلف إلىٰ ذكره في هٰذا الموطن لكن القارئ فهمه علىٰ الإطلاق، فيحصل هناك لبس في فهم مذهب القوم.

نعم نحن لا ندافع عن أهل البدع لكن الله -جلّ وعلا أوجب علينا أنْ لا يجرمنّا شنآن قوم علىٰ ألا نعدل، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ﴾[المائدة:٨]، والمتخلص من هواه يكون متخلصا منه في العلم أولىٰ منه في الحُكْمِ وفي الرأي؛ لأنّ العلم يحتاج إلىٰ تجرد ومن تجَرَّدَ في العلم أقبل علىٰ الله -جل وعلا- بقلبٍ سليم.

فينظر مثلا في أقوالهم، في القول من حيث هو حتىٰ إذا أتىٰ من يردّ علىٰ من ردّ عليهم، فيقول: لا هٰذا ليس في كتبنا، فتكون أنت عنده بالحجة الدامغة؛ يعني من كان منتهيًا في طلب علىٰ العقيدة يقول لا مذكور في الكتاب الفلاني كذا وكذا، مثل المسألة التي كثيرا ما نمثل بها.

مثلا، نقول: المتكلمون والأشاعرة والماتريدية إلىٰ آخره يرون أنّ التوحيد الذي هو الغاية هو توحيد الربوبية، لا توحيد الإلهية، يعني من آمن بوجود الله -جلّ وعلا- وأنّه هو القادر علىٰ الاختراع وأنّه هو الخالق هٰذا يكفي في تحقيق (لا إله إلاّ الله)، فيأتي قائل، فيقول هٰذا ليس بصحيح، ليس عند علمائنا من الأشاعرة أو الماتريدية إلىٰ آخره ليس عندنا هٰذا الكلام، وإنما أنتم ترددون كلامًا، تبعًا لعلمائكم لا تدرون معناه، فتقول له: إنّ كتبكم المختصرة مثل ما في «السنوسية» المعروفة بأصول مذهب الأشاعرة أو عقيدة الأشاعرة، قال فيها ما نصه: فالإله هو المستغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه، فمعنىٰ (لا إله إلا الله) لا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه، إلاّ الله.

فهنا تقوم أنت بالحجة الواضحة البينة.

ثم الحظ أيضا أنك قد تنقل كلاما عن متقدم ردّ به علىٰ من تقدمه، ولكن يكون في المذهب عند المتأخرين غير ما ذكره الإمام الأول عمن تقدمه، فتكون أنت تقول كلاما يأتي صاحب المذهب المنحرف يقول: ليس عندنا كذا، وقد يشكك الناس ويرد، مثل ما حصل فعلا في عدد من المؤلفات الموجودة.

فإذن طلاب العلم المحققون الذين يزاولون التأليف بخاصة هٰذا لابدّ لهم أنْ يرجعوا إذا أرادوا أنْ يؤلفوا، وخاصة في الردود أنْ يرجعوا إلىٰ أصول كتب الناس حتىٰ يرووا الكلام فيها نصا حيث يكون مع ذلك القيام بالأمانة، ونقل الأقوال كما هي.

لكن أعود فأنبه أنّ هٰذا ليس إلاّ بعد الإحكام في الاعتقاد، لا يصلح الرجوع إلىٰ كتبهم للمبتدئين ولا أوصيكم جميعا بالرجوع إلىٰ كتبهم لكن من أراد أنْ يردّ ردا صحيحًا أو أنْ يكون ذا منهجية كاملة في

ذلك، فلابدّ أنْ يسير علىٰ هـٰذا النحو.

المرتبة الثالثة والأخيرة: الإطلاع علىٰ فتاوىٰ العلماء في العقيدة، كثير من المسائل تنظيرية في كتب الاعتقاد سواء أكانت كتب الاعتقاد المتأخرة أو كتب الاعتقاد المتقدمة، تنظيرية.

من الذي يطبقها علىٰ الواقع؟

المحققون من أهل العلم والراسخون من أهل العلم، فالإطلاع علىٰ فتاوىٰ العلماء، ينقل تلك المسائل من كونها نظرية إلىٰ كونها علىٰ بساط الحال، وبساط الواقع، فإذا المرتبة الثالثة في منهجية قراءة كتب العقيدة، أنْ ترجع إلىٰ الفتاوىٰ في المسائل، لتربط ما بين ما هو موجود في كتب التوحيد وما هو موجود علىٰ الواقع.***٢٦

العلم الثالث: علم الحديث

وعلم الحديث التدرج فيه معلوم بأنْ تُحفظ الكتب المختصرة كـ«الأربعين النووية» ثم «العمدة» عمدة الحديث، ثم «بلوغ المرام»، أو أنْ ينتقل من «الأربعين النووية» إلىٰ «البلوغ» مباشرة، وينتقل بعدها إلىٰ «المنتقىٰ» إلىٰ آخر ذلك.

وهـٰذا واضح في التدرج العام في طلب علم الحديث.

لكن كتب الحديث، تحتاج منك إلىٰ منهج واضح في قراءتها، وأعني بكتب الحديث هنا شروح الأحاديث، أما كتب الحديث التي هي المتون فهـٰذه موجودة في الشروح.

شروح الأحاديث مختلفة بحسب اختلاف المؤلفين، وبحسب اختلاف الكتب، فشروح البخاري كما هو معلوم متنوعة، شروح مسلم متنوعة، شروح أبي داود متنوعة.

ولكن هناك صبغة عامة علىٰ هـٰذه الشروح، يمكن أنْ تنضبط إذا سرتَ عليها بضابط ومنهجية مقبولة في قراءة كتب الحديث:

الأول من هـٰذه الضوابط في قراءة كتب الحديث بخاصة أنّ المسألة الفقهية التي ذكرت في كتب الحديث يكون تفسيرها في شرح الحديث بحسب مذهب الشَّارح.

فإذا أراد الشارح -مثلا- أنْ يعرِّف المرابحة، فسيُعَرِّفُها بما عند أهل مذهبه.

إذا أراد أنْ يعرِّف مثلا العُروض في زكاة العروض، فسيعرفها بما عنده في مذهبه.

إذا أراد أنْ يبيّن معنىٰ الفقير والمسكين، سيبينها بما عنده في مذهبه.

إلاّ أنْ يكون محققا، يتوسع في كل مسألة وهـٰذا نادر أنْ تجد من يتوسع في كل مسألة من جهة التفسير.

فإذن تفسير الكلمات تفسير المسألة، صورة المسألة، هـٰذه ينبغي أنْ تؤخذ من كتب الفقه لا من كتب الحديث، وهـٰذا ضابط منهجي مهم، لأنّك ترد علىٰ هـٰذه المسألة في شروح الأحاديث، وضبط المسألة بتصويرها وبيان ما يتعلق بها ليس من واجبات الشارح، وإنّما هي راجعة إلىٰ الفقه، ففي كتب الفقه ترىٰ تفصيل الكلام علىٰ صورة المسألة وبيان ما عليها من الضوابط أو الشروط إلىٰ آخره، تجدها هناك.

فإذن قبل قراءة مسألةٍ ما في كتب الحديث تنظر هل فسَّرها هـٰذا الشارح بتفسير يستوعب الاستدلال أو

يستوعب المذاهب جميعا، ويرجّح فيها، أم هو ذكر تعريفا ومرّ عليه.

بل ينبغي لك أنْ لا تُقبل علىٰ كتاب حديث من حيث الشرح في مسألة من المسائل إلاّ وقد تصورتها فقهيًا، تصورت المسألة من حيث هي -ليس المقصود الحكم-، تصورت المسألة من حيث هي في كتب الفقه.

يعني مثلا أوقات النهي عن الصلاة، هٰذه إيضاحها يكون في كتب الفقه من حيث التعريف والضابط وتفصيل الكلام عليها يكون في كتب الفقه وكتب الحديث.

هٰذه المرتبة الأولىٰ؛ أنْ تأخذ صورة المسألة من كتب الفقه قبل قراءة شرح الحديث، إذا كان شارح الحديث لم يستوعب الكلام علىٰ صورة هٰذه المسألة.

وفي الغالب كما جربت وربما جرب الكثيرون منكم، أنّ شارح الحديث يعتمد علىٰ أنّ المسألة واضحة والصورة واضحة فيبدأ يتكلم عن حكمها اختلف العلماء فيها، استدل هٰذا بكذا وهٰذا بكذا، أما صورة المسألة فلا يأتي عليها ببيان.

المرتبة الثانية: أنّ تلحظ أنّ كتب الحديث بعامة، أعني شروح الأحاديث منها ما هو تأصيلي، ومنها ما هو للمجتهد، فمثلا كتاب «فتح الباري» هٰذا للمجتهدين، وإنْ كان يرجح فيه، لكن إيراده للخلاف وللترجيح وللمسائل بعبارة عالية جدًّا، من حيث صياغتها الأدبية، وصياغتها الفقهية أيضا، وغلط من قال: إنّ الحافظ ابن حجر، ليس من بابة الفقه؛ بل هو محدث فقيه وعبارته في ذكر الخلاف من أرفع عبارات أهل العلم لكنه يصلح للمجتهد الذي تصوّر الخلاف في المسائل، قبل «فتح الباري».

فلهٰذا ترىٰ مثلاً أنّ كتاب «جامع العلوم والحكم» هٰذا ينفع في تصوير المسائل وفي ذكر تأصيلاتها فيما ذُكر في الأربعين النووية للنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بعده يأتي شرح «بلوغ المرام» لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني المعروف، وشرحه المسمىٰ «سبل السلام».

لكن فيه مسألة ربما خفيت علىٰ كثيرين، وهو أنّ «سبل السلام»، لم يؤلفه الصنعاني قصدا وإنما اختصر به كتابًا آخر لأحد علماء الزيدية وذلك الكتاب اسمه «البدر التمام»، وهو موجود بكامله، فاختصر «البدر التمام» في «سبل السلام»، وأضاف عليه بعض الأقوال، و لذلك تجد أنّ هٰذا الكتاب فيه عدم تحقيق في المسائل المنسوبة إلىٰ الإمام مالك والإمام أحمد رحمهما الله، أما الحنفية والشافعية فالغالب عليه الصواب، أما ما ينسب للإمام أحمد أو ينسب للإمام مالك، يعني من مذاهبهم فهٰذا تجد فيه هفوات كثيرة، بسبب أنّ الأصل علىٰ هٰذا الأساس، الأصل هو الذي نقل النقول الكثيرة.

فإذن في قراءة الكتب هنا من جهة العزو لا تأخذ العزو عن كتاب حديث، يعني قال الحافظ ابن حجر، ومذهب الإمام أحمد كذا، أو مذهب الحنابلة كذا، لا تأخذه منه لا تأخذه من الصنعاني، لا تأخذه من «نيل الأوطار»، لا تأخذ قوله مذهب الشافعية كذا، ومذهب الحنفية من هٰذه الكتب، بل لابدّ من الرجوع إلىٰ الكتب كتب المذاهب نفسها، لِمَ؟

لأنّا وجدنا أنّ عزوهم للمذاهب يختل كثيرا وخاصة في «سبل السلام» و«نيل الأوطار».

المرتبة الثالثة: أنْ تنتبه في قراءتك لكتب أهل العلم في الحديث وشروح الأحاديث إلىٰ أنّ مؤلفي الشروح لا يشترطُ فيهم أنْ يكونوا محققين في كل فنّ من الفنون، فلا تظنّن أنّ شارح «بلوغ المرام» أو شارح «نيل الأوطار»، أو شارح «البخاري» أو شارح «مسلم» أو شارح «أبي داود» أو «الترمذي» لأنه شرح كتاب حديث فهو محقق في كل المسائل التي شرحها، والواقع يخالف ذلك.

مثلا لو نظرت -هٰذا تمثيل لأجل كثرة الورود عليه- إلىٰ كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني رحمه الله لوجدتَ أنه في الأصول إذا أورد مسائل الأصول فهو يحققها لأنّه قويٌ في الأصول، أما إذا أتىٰ لمسائل التخريج -تخريج الحديث والرجال والحكم علىٰ الإسناد-، فتجد فرقا كبيرا بين مستواه فيه ومستواه في علم أصول الفقه.

فإذن تعرف الميدان الذي يحقق فيه المؤلف (الشارح) فمثلاً عندك الصنعاني يميل إلىٰ الظاهرية، ويتابع ابن حزم كثيرا في ترجيحاته وفي استدلالاته، «نيل الأوطار» من جهة استنباطه وإيراد الأدلة، واستعمال أصول الفقه، تجد أنّه يحقق في ذلك، ولأجل قوة تحقيقه وقع في مشكلات في بعض المسائل، لكن في التخريج في الرجال في الأسانيد إذا حكم هو ليس محققا في علم الحديث، وإنما هو ناقل ينقل في الغالب عن غيره، أو يذكر ما بدا له.

فإذن في منهجيتك في قراءة كتب الحديث -يعني شروح كتب الأحاديث- ينبغي بل يجب أنْ تعرف فنّ المؤلف، فن المؤلف ما هو؟ هل هٰذا المؤلف شرَحَ وفنه الرجال والأسانيد، شرح وفنه الفقه، شرح وفنه الأصول، شرح وفنه الاعتقاد، شرح وفنه اللغة، فإذا عرفت منهجه وعرفت فنه الذي يحققه، عرفت ميزة هٰذا الكتاب، وكيف تجعله في مرحليات القراءة.

أما أنْ يُظَن أنّ كل شرح للأحاديث ففيه كلّ الصواب، فهٰذا ليس كذلك كما هو معلوم.

لهٰذا تجد أنّ بعض الخلاف يكون في كتب الفقه أقوىٰ منه في بعض شروح الأحاديث، لم؟ لأنّه يكون المؤلف في شرح الحديث لم يحقق المسألة ويعتني بها كما اعتنىٰ بها شارح الفقه كالنووي في «المجموع» أو الحافظ ابن قدامة في «المغني» أو ابن حزم إلىٰ آخره.

أيضا من المنهجية المتقررة في كتب الحديث -ولا نطيل عليكم بهٰذا-، أنّ كتب الأحاديث يعني شروح الأحاديث الكبيرة، قل أنْ تسلم من غلط في العقيدة وسبب ذلك، ليس راجعًا إلىٰ قصورٍ أو إلىٰ بدعة في مؤلفيها بل كلهم حريصون علىٰ السنة؛ لكنه راجع إلىٰ عدم الإطلاع علىٰ ما في الباب من الآثار والسنن تارة، وراجع تارة أخرىٰ إلىٰ عدم الإطلاع علىٰ كلام المحققين في هٰذه المسألة، بل ربما وقع من بعضهم كلامات قبيحة في حق بعض الصحابة، وهٰذا لا شك أنّه لا يسوغ أنْ يقبله طالب العلم علىٰ إطلاقه.

بل تعرف أنّ شروح الأحاديث فيها سمين كثير وصواب كثير، وفيها أيضًا بعض الغلط.

يعني مثلاً هل يجوز أنْ يُقرّ في شرح من شروح الأحاديث، لعن معاوية؟ لا يجوز.

هل يجوز أنْ يقرَّ في شرح من شروح الأحاديث وصف عمر ﵁ بالمسكين؟ أين يقع هـٰذا المسكين من كلام رسول الله ﷺ، مثل ما قال بعض الشرّاح.

هل يتهم عمر ﵁ بإحداث بدعة التراويح، كما في بعض الشروح.

هل نجعل بعض الشروح مقبولة لأنّها شرح حديث لأجل مؤلفها وجلالته وإمامته إلىٰ آخر ذلك، ونقبل كل ما فيها؟

الصواب: لا، الصواب الكامل ليس إلاّ عند رسول الله ﷺ، ومن كان صوابه أكثر من أهل العلم، فهو الحري بالثناء، هو الحري بالإجلال؛ لأنّه اجتهد في أنْ يكون صوابه أكثر، وهـٰذه مسائل راجعة عند كثيرين إلىٰ مسألة الاستنباط والاجتهاد.

ومن القواعد المقررة عند الفقهاء أنّ العالم لا يُتْبَعُ بزلته وكذلك لا يُتَّبَعُ علىٰ زلته.

قال بعض العلماء: جعل الله -جلّ وعلا- لكل عالم غلطا إمّا في قول أو في فعل ويعلم الناس أنّه غلِط في هـٰذا حتىٰ لا يرتفع عالم إلىٰ مرتبة النبوة.

لا يمكن أنْ يُعتقد في أحدٍ أنّه علىٰ الصواب التام لا يخطئ البتة، هـٰذا ليس إلاّ إلىٰ رسول الله ﷺ.

لهـٰذا شروح الأحاديث ينبغي من جهة التوحيد والعقيدة، أنْ تُنظر علىٰ احترام مؤلفيها والترحم عليهم، وعذرهم فيما أخطؤوا فيه، لكن لا يتابعون علىٰ ذلك.

نقول: أخطأ أو يقول العالم الراسخ: أخطأ العالم، أو لا يذكر أصلا أنّ فلان أخطأ؛ لأنّه ما من عالم إلاّ وله سهو، قد يكون غُلِبَ عليه، ما حقق المسألة، تبع ما كان شائعا عندهم إلىٰ آخر ذلك كما هو موجود عند كثيرين.

فلابدّ أنْ تُلاحَظ مثل هـٰذه المسائل في قراءة كتب شروح الأحاديث؛ يعني أنْ تجعل العقيدة معك، فلا تتساهل في من يتكلم علىٰ الصحابة ولو كان من شراح الحديث، أو يحسّن البدعة والخرافة، ولو كان من شراح الحديث، أو من يحسّن البدع العملية ولو كان من شراح الحديث، فإنّ هـٰذا لا يقبل منه، وهو علىٰ نيته ونترحم علىٰ الجميع، لكن طالب العلم لا يقبل كل ما في الكتب المختلفة؛ لأنّ مؤلفها فلان وفلان بل يُنْظَر إلىٰ دليلها وإلىٰ موافقتها لقواعد السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ.

لو أردنا أنْ نطيل لأخذنا الفقه وأخذنا الأصول والنحو والصرف إلىٰ آخره، ولكن ذكرنا العلوم الثلاثة هـٰذه (التفسير والعقيدة والحديث)، لتكون دليلا علىٰ غيرها والقواعد العامة، والضوابط العامة في أول الكلام ربما تمشي معك في قراءتك لأكثر الفنون.

وفي الختام أسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يلهمني وإياكم الرشد والسداد، وأنْ يقينا الزلل والعثار، وأنْ يجعل صوابنا أكثر من خطئنا.

اللّٰهمَّ إنّا نستغفرك من سيّئاتنا وخطلنا وغلطنا، ونسألك اللّهمّ أنْ تعفوَ عنا جميعا، اللّهم ارحمنا وارحم آباءنا وارحم أمهاتنا، اللّهم واغفر لنا جميعا، ونسألك اللّهم أنْ تصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأنْ تصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأنْ تصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا.

اللّهمّ وأصلح ولاة أمرنا ووفقهم اللّهم لما فيه الرشد والسداد، وباعد بينهم وبين سبل أهل البغي والفساد يا أرحم الراحمين.

وفي الختام أيضًا أشكر الإخوة القائمين علىٰ فرع الوزارة في منطقة مكة المكرمة وعلىٰ رأسهم مدير الفرع الأخ الدكتور حسن الحجاجي، علىٰ اعتنائهم بهٰذه الدروس والمحاضرات والدعوة، ولا شكّ أنّ هٰذا من الواجبات الشرعية المهمة التي أُنيطت بالمسؤول أولا ويؤديها واجبا شرعيا من جهة أخرىٰ، فيؤديها علىٰ أنّها واجب ويؤديها علىٰ أنها مطلوبة شرعا.

فإثراء البلاد بالدروس العلمية وبالدعوة والمحاضرات النافعة هٰذا لا شك أنّه أمر مطلوب شرعا، وأيضا مما تُيسر له السبل ولله الحمد في هٰذه البلاد المباركة.

فلهم منا الشكر الجزيل ودعاؤنا لهم ولنا جميعا بالتوفيق والسداد.

وفي الختام أيضا ننبه علىٰ ما ابتدأ به إمام هٰذا المسجد وفقه الله لكل خير وزاده من الصلاح والتوفيق والهدىٰ، ننبه إلىٰ أنه في مثل هٰذه المقدمات التي يقدم بها لأهل العلم وطلبة العلم ليس من السنة أن يبالغ في وصف المتحدث ولا في وصف الضيف، وإذا كان ثَم ثناء فيكون في ظهر الغيب، أما في حضرته وهو يسمع فإن الحي لا يؤمن عليه الشيطان ولا تؤمن عليه الفتنة، وإذا كان نبينا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- قال لمن قال له: يا سيدنا وابن سيدنا وقال أيضا: وابن خيرنا قال: «**قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**» فأين حالنا نحن.

وينبغي علينا أن لا تبالغ في الأمر، وإذا كان من ثناء أو حسن منٍّ ففي عدم حضرة صاحب الشأن؛ لأنه أدعىٰ لثباته وعدم مدخل الشيطان عليه، وهو اتباع للسنة التي نتبعها جميعا، جزىٰ الله جميعا خير الجزاء ووفقنا جميعا لما يحب ويرضىٰ.

وصلّ اللّهم وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

❂❂❂❂

[الأسئلة]

المقدم: جزاكم الله خير وجعل ذلك في موازين حسناتكم، أيها الإخوة باسمكم جميعا نتقدم بالشكر والتقدير لفضيلة الشيخ صالح جزاه الله خيرا علىٰ هٰذه المحاضرة الطيبة القيمة.

وفي الحقيقة هناك أسئلة كثيرة صُدّرت بإعلام الشيخ بالمحبة في الله

الشيخ: أحبهم الله..

طلب: وأيضا هناك عدة طلبات تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نرجو من فضيلتكم أن تخصصوا درسا بالمجيء لأهل مكة كل شهر أو كل شهرين أو ثلاثة أشهر أو بحسب استطاعتكم جزاكم الله خيرا.

الجواب: أهل مكة ولله الحمد طلاب العلم فيها والعلماء كثير، وكما قيل: أهل مكة أدرىٰ بشعابها

وبما يصلح لأهلها؛ لكن لا يمنع هٰذا أن نزور إن شاء الله في مثل هٰذه المحاضرة بين فَيْنة وأخرىٰ، ومكة لا يختار بها بدلا لأنها أفضل أرض الله -كما هو معلوم- والعمل الصالح فيها مضاعف؛ ولكن الواجبات كثيرة -كما هو معلوم- ونسأل الله -جل وعلا- للجميع الإعانة.

سؤال (٠١): ما الضوابط لدعوة الأئمة في مساجدهم للعامة، هل يبدأ بتصحيح العقيدة وبعد ذلك بغيرها أو يجمع بين العقيدة والفقه والزهد؟

الجواب أن هٰذه المسألة المهمة؛ لأن دعوة العامة فيها التوحيد والعقيدة والاستقامة، لاشك أنه قيام بواجب عظيم، وهٰذه مهمة الأنبياء والمرسلين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[آل عمران:٧٩] قال بعض أهل العلم: الربّاني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

والعقيدة لها مرتبتان: عقيدة إجمالية، وعقيدة تفصيلية.

والعقيدة الإجمالية هٰذه هي التي لا يصح إيمان أحد حتىٰ يؤمن بها، وهي المتعلقة بأركان الإيمان؛ الإيمان بالله ربا بالله إلها وبتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره شره من الله تعالىٰ.

فشرح الإيمان وأركان الإيمان يصح بها إسلام المؤمن، فلابد من تعليم هٰذا للناس حتىٰ يكونوا مؤمنين إيمانا صحيحا.

والقسم الثاني من العقيدة التفصيلي: وهٰذا التفصيلي راجع إلىٰ ما يحتاج إليه، فمن المسائل ما تفصلها للناس لا بأس؛ مثل أصول المسائل التي جاءت في الكتاب والسنة؛ الإيمان بالملائكة الإيمان العام بالصفات صفات الله جل وعلا باليوم الآخر بالكتب والرسل وبالقدر هٰذا الإيمان إذا فصلته بما جاء في النصوص فهٰذا محمود أيضا.

ولكن هناك مرتبة من التفصيلي وهي أن يكون تفصيلا لائقا بأهل العلم مثل: الخلاف في مسألة عقدية بين أهل السنة وبين غيرهم، المعلوم أن عامة المسلمين علىٰ الفطرة لا يعرفون في الصفات التأويل، ولا يعرفون في الإيمان الإرجاء، ولا يعرفون في القدر الجبر كما هو مذهب الأشاعرة وغيرهم، وهٰذا إذا كان المخاطب خاليا ذهنه من هٰذه الأشياء فالأصل ألا تلقي عليهم الخلاف؛ بل تعلمهم ما دلت النصوص عليه تعليما عاما.

ولا تدخل العامة في مسائل من الصفات مثلا أو من القدر أو من مسائل الإيمان لا تسعها عقولهم، وقد قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أنت محدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. لهٰذا نهىٰ الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن قراءة أحاديث الغرائب، الأحاديث التي فيها أشياء جديدة لا تسعها عقولهم، بيانها أو إلقاؤها علىٰ الناس لابد أن يكون معها شرحها لأنه لا يسوغ أن تلقي شيئا من العلم الذي هو للخاصة علىٰ العامة دون بيان له وشرح، وإذا كان عقل العامل لا يسع الشيء فإنه لا يسوغ أن توقعه في قلبه، وقد

تحدثه بشيء يكون له به فتنة، والعلم من أصوله أن منه ما يخص به قوما دون آخرين.

وقد بوب علىٰ هٰذا البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: باب من خص بالعلم قوما دون آخرين. وساق فيه النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- أنه قال لعائشة، بل في باب آخر وهو باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقع الناس في أشد منه، وساق فيه حديث عائشة «**لولا حدثان قومك بكفر لهدمت الكعبة ولبنيتها علىٰ قواعد إبراهيم**» مع أنه عمل صالح أن تبنىٰ علىٰ قواعد إبراهيم؛ لكن المصلحة الشرعية تقتضي أن تترك فتركها النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- لأجل ذلك.

فإذن السلف نهوا أن يحدث العامة بأحاديث الصفات الغريبة وأن يفصل ذلك في الخطب، أن يفصل ذلك في المحاضرات التي يحضرها العامة وإنما هٰذا علم لطلبة العلم، فإذا وُجد من عنده اشتباه في ذلك أو وقع هناك بدعة عامة في الناس فلابد من البيان العام.

فالأصل أن دعوة الناس إلىٰ التوحيد والعقيدة مبنية علىٰ شرح أركان الإيمان، الشرح الإجمالي والتفصيلي بما جاء في النصوص، أما الخوض في الخلافات وما هو تفصيل كما هو معلوم في كتب شروح العقيدة فهٰذا لا يرغب فيه للعامة فقد يكون لبعضهم فتنة.

سؤال (٠٢): أسئلة كثيرة تدور حول: هل من منهج أهل السنة والجماعة أخذ كلمات متناثرة من كلام الأقران، وضمِّها إلىٰ بعض مع اختلاف المناسبة وظروف الكلام، ثم الرَّد علىٰ هٰذه الكلمات مجتمعة وما يلحق ذلك من تفسيق أو تبديع أو منهج الموازنة بين الحسنات والسيئات.

وما هي ضوابط تكفير وتبديع المعين؟

الجواب: ننبه علىٰ منهج السؤال، والأدب في السؤال: أنّ سؤال السائل يُراد منه ليفيد نفسه ويفيد غيره بمسائل علمية.

أما السؤال الذي يُشخَّصُ فيه حالةُ شخص أو حالة فئة ولو لم يذكرها نصا، فإنني لا أرغب أن أسأل عنها؛ لأن هٰذا قد يجيب المجيب غافل عما حرَّر عليه السائل سؤاله فيقع الناس في إشكال.

ولهٰذا نجد أن بعض المشايخ سئلوا هل أنت قلت كذا وكذا؟ قال: أنا ما قلت كذا، والآخر يقول: لا أنا سألت هو قال. فيكون النتيجة -طبعا الشيخ صادق والسائل يقول: سألت فأجابني صادق- لكن جاءت من جهة السؤال، فالسؤال صياغته مهمة.

ومن حسن أدب طالب العلم أن يُحسن السؤال.

لهٰذا من المنهج العام في الإجابة في مثل هٰذه المحاضرات ألا يُجاب عن سؤال يشخَّصُ علىٰ شخص أو علىٰ فئة؛ بل يترك الجواب عنه، إذا كان مسألة عامَّة علمية فنعم، ولو كانت متعلقة بفرق باعتبارها فِرقا عامة موجودة في الكتب، أما ما يشخص علىٰ فلان من الناس الحاضر أو علىٰ كتاب فلاني أو ما أشبه ذلك، فهٰذا يكون الحديث مع صاحبه شخصيا لأجل إفادته، وأما إشغال من لم يفهم هٰذه المسائل بتلك المسائل فهو ليس ممَّا يراد.

فلينتبه لهٰذا، فهي قاعدة حتىٰ في الندوات والمحاضرات بعامة رعاية للاجتماع والائتلاف.

ما ضوابط تكفير وتبديع وتضليل المعين ؟

هٰذه مسألة تكلم عليها أهل العلم؛ لكن ينبغي كقاعدة أن يُعلم أن منهج أهل السنة والجماعة التفريق ما بين ثنائيَّة الكفر والكافر أو التكفير، وثنائيَّة البدعة والتَّبديع، وثنائية الفسق والتفسيق، فليس كل فسق قام بمعيّن صار المعين به فاسقا، وليس كل كفر قام بمعين صار به كافرا، وهٰذا لاشك أنّ له ضوابط وله قواعد تحكمه.

فإذن تقرير المسألة من حيث هي ما حكم كذا؟ فيقال: كفر أو شرك أو بدعة.

من قامت به تلك المسألة من قام به الكفر، فلابد من إقامة الحجة عليه حتىٰ يُحكم عليه باللَّفظ بأنه كافر، والحجة يُقيمها ورثة الأنبياء.

كذلك البدعة لابد من إقامة الحجة علىٰ من عمل بدعة أو دعا إلىٰ بدعة، فقد يكون قال ذلك عن تقليد أو نحو ذلك، فقبل أن تُطلِق عليه أنه مبتدع وتجري عليه أحكام المبتدع لابد من إقامة الحجة عليه.

لكن هنا يُنتبه إلىٰ التفريق ما بين الحكم الباطن والحكم الظاهر.

فالحكم الظاهر في التكفير وفي التبديع وفي التفسيق هٰذا لا بأس به باعتبار أنّه رعاية للتَّعامل معه.

فمن قام به الكفر لا تعامله علىٰ أنه مسلم حتىٰ تُقام عليه الحجة، من قام به الكفر لا تعامله معاملة مسلم مسدّد؛ بل في الباطن لا نحكم بكفره وفي الظاهر نأخذ الحذر منه في مسألة الذبائح ذبائح المشركين ومسألة الأضاحي عن المشركين وأشباه ذلك والدعاء للمشركين، تكلم العلماء فيها أنه وإن لم تقم عليهم الحجة فإنهم لا يدعىٰ لهم ولا يضحىٰ عنهم وأشباه ذلك؛ لأنهم قام بهم الكفر ظاهرا فنحتاط لديننا.

كذلك مسألة الفسق من جاهر بفسق وقد يكون غافلا عنه، فإنه لابد من الحكم عليه بالفسق باطنا وظاهرا بإقامة الحجة ببيان ذلك له والإنكار عليه ونصيحته وأشباه ذلك، وقبل ذلك فإنك تعامله معاملة الفاسق احتياطًا لدينك.

وكذلك المبتدع فتعامله معاملة المبتدع احتياطًا لدينك؛ لكن لا تصرح ببدعته.

وهنا ننتبه إلىٰ ضابط مهم أيضا في البدعة وهي أن هناك فَرْقا بين مخالفة السنة والبدعة فليس كل مخالفة للسنة إلىٰ غيرها يعدُّ بدعة كما حرّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنما البدعة ملتزمٌ بها كما هو معروف بتعريفها: **طريقة مخترعة في الدين يضاهىٰ بها الطريقة الشرعية يقصد بالسلوك عليها نفس السلوك علىٰ الطريقة الشرعية؛ يعني من حيث التقرب إلىٰ الله.**

فقوله في تعريف البدعة (طريقة في الدين) طريقة يعني مسلوكة، فمن ضوابط البدعة أن كلا ملتزَما بها، أما لو خالف أحد السنة في وقت فلا يقال له: هٰذه بدعة أو أنت مبتدع؛ ولكن يقال له: السنة كذا، فإذا التزم بها صار ملتزما ببدعة، إذا التزم بها يعني يكرّرها فإنها صارت حينئذ تضاهىٰ بها الطريقة الشرعية.

مثلا لو رأيت أحدا قال: كلمة مثلا التوسل بالذوات أسألك بجاه أبي بكر، اللّٰهمَّ أسألك بجاه عمر أو بجاه أحمد ابن حنبل أو إلىٰ آخره، فهنا هل هٰذا مبتدع أم لا؟

فنقول له: هٰذا غلِط، أنت مخطئ، وهٰذا الدعاء بالجاه بدعة الدعاء بالجاه بدعة الدعاء بالذات بدعة لأن الجاه لصاحبه وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ.

فالحكم عليه بهٰذا متىٰ يكون بالبدعة؟ إذا لازم؛ التزم به، كرّر، فهو يلازم هٰذا الشيء.

مثل الأشياء التي؛ ذكر معين في وقت معين هٰذا أتىٰ به مرة، مرة بعد الصلاة سلّم بعد الصلاة المفروضة ورفع يديه ودعا، رفع يديه ودعا.

هنا نقول: هٰذا خلاف السُّنّة، تقول: بدعة إذا كان صاحبها التزمها بعد كل صلاة يمارس هٰذا الفعل، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: الفرق بين البدعة ومخالفة السنة هو ضابط الالتزام. فإن التزم مخالفة السنة فهو من أهل البدع، وإن لم يلتزم فقد خالف السنة وأخطأ في ذلك فينكر عليه أو يدعىٰ إلىٰ آخر ذلك.

فإذن هٰذه المسألة ؛مسألة الفرق بين الكفر والكافر والفسق والفاسق والبدعة والمبتدع هٰذه المسألة مهمة.

وفي الجملة أوصيكم بأن هٰذه المسألة الذي ينبغي علىٰ طلاب العلم أن يعرفوا الكفر وشعبه، والشرك الأكبر والأصغر وشعبه، وأن يعرفوا الفسق والمفسِّقات، وأما الحكم علىٰ المعين فهو لأهل العلم، لك أن تحتاط لنفسك لكن الحكم عليه ليس إليك، فكما أنك ليست مخولا للفتوىٰ في مسائل الطهارة والصلاة والحج والبيع والشراء والنكاح والجنايات فلست مخوّلا في مسائل التكفير من باب أولىٰ فالنهي أشد، فلك أن تحتاط لدينك لكن ليس لك أن تحكم. فالحكم لابد أن يرجع إلىٰ أهله.

وإذا انضبطنا بهٰذا الضابط حصل تقارب بين الأفكار المختلفة في هٰذه المسألة العظيمة.

سؤال (٠٣): هل قراءة كتب العلم علىٰ هٰذه المنهجية تكفي أم لابد من الطلب عند العلماء؟

الجواب: الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في أول «الموافقات» جعل مقدمات بإحدىٰ عشرة أو اثنا عشرة مقدمة مهمة لطالب العلم أن يراجعه.

ومنها الفرق بين -ما حاصله في المقدمة- الفرق بين الكتاب والشيخ وساق فيه قول بعض العلماء: كان العلم في صدور الرجال -فالعلم لم يكن مدونا من أول الأمر- كان العلم في صدور الرجال فصار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال.

لاشك أنه لا يستغنىٰ بالعالم عن الكتاب، كما أن من قرأ الكتاب وصار شيخا به فقد أتىٰ ببلية، كما قال أحد علماء الحديث وأئمة السلف: من أعظم البلية تشيخ الصّحفية؛ يعني الذين يقرؤون الصحف والكتب، فالعلم في الكتب ولكن مفاتيح فهم الكتب بأيدي الرجال.

فإذن هٰذه المنهجية لا يُتصور أنها تخرج طالب علم بلا رجوع إلىٰ أهل العلم؛ بل لابد من طلب العلم علىٰ الأشياخ، ولابد من الجلوس عند الأشياخ كما جلس جبريل عليه السلام عند النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إذْ جاءه وهو جالس في أصحابه قال: فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه وجعل كفيه علىٰ فخذيه. من أدب طالب العلم عند العالم، فسأله.

فلا بد من شيخ من معلم ولا يفقه العلم بلا شيخ.

فأهل العلم انتقدوا علىٰ من لم يكن لهم أشياخ وأخذوا من الكتب انتقدوا عليه انتقادات كثيرة، ترىٰ منها ما انتقد الذهبي علىٰ ابن القطان الفاسي، وما انتقد العلماء علىٰ ابن حزم وانتقدوا علىٰ جملة من الناس الذين قلت مشايخهم أو انعدموا أو قرؤوا العلم وأخذوا عن قراءة فقط، ينفع ولكن يصبح الغلط كثيرا، لابد من المشايخ وبهم يفهم العلم، وأعظم ذلك قول الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1] وقال جل وعلا: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢].

مثلا في السنة يمكن -الأحاديث- تصلهم أخبار النبي ﷺ لكن لابد من المقابلة والأخذ علىٰ أهل العلم مباشرة.

هٰذا وأسأل الله الختام لي ولكم بالهدىٰ والثبات وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

(١) سورة: النحل الآية (٤٣)، الأنبياء الآية (٧).

منهج الإمام
محمد بن عبد الوهاب
في العقيدة

لفضيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث في فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يهدون من ضل إلىٰ الهدىٰ ويبصرون بكتاب الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وما أسوأ أثر الناس عليهم، ينفون عن دين الله تحريف الغالين وتأويل المبطلين ونزعات الجاهلين.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فيا أيها الإخوة في الله طلبة العلم ومن يحرص علىٰ كل خير، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

وأسأل الله جل جلاله أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا أبتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

كما أسأله سبحانه أن يجعلنا من حملة العلم ومحصليه حتىٰ يتوفانا الله جل وعلا إليه.

كما أرغب إليه جل جلاله أن يثبتنا علىٰ طريقة أهل السنة والجماعة أئمة السلف الصالح، ومن نهج نهجهم وسار علىٰ منوالهم إنه سبحانه سميع مجيب.

إن موضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه يمثّل لبنة في فهم هذه الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في نجد وشاع نورُها في تسديد أمر الدين في بلادٍ كثيرة في الجزيرة وفي غيرها.

وذلك لأن كثيرين في هٰذا الزمن من رغِبُوا عن العقيدة الصحيحة ومنهج السلف الصالح فيها.

وأيضا كثيرون في هذا الزمن من رغب في الدعوة السلفية وفي صفات السلف الصالح؛ لكنهم لم ينهجوا أئمة هذه الدعوة في دعوتهم وفي صِلاتهم وفيما يقررونه ويكتبون.

وأيضا تتضح أهمية هذا الموضوع أنّ الانتساب لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في هذا الزمن رغِب فيه غلاة؛ نسبوا أنفسهم إلىٰ هذه الدعوة، ولا يصحّ لهم هذا الشرف؛ لأنهم لم يأخذوا بكل منهج أئمة الدعوة في ذلك الذي اقتفوا به أثر السلف الصالح في ذلك؛ بل غلوا في ذلك وأخذوا جملا من كلامهم ونزّلوها علىٰ مرادات الأهواء.

وهناك أيضا طائفة أخرىٰ جفت وانتسبت إلىٰ دعوة السلف؛ لكنها تساهلت في أمر التوحيد والاعتقاد؛ بل في أمر الدين حتىٰ صاروا مفرّطين في انتسابهم لهذه الدعوة التي هي في الواقع دعوة إصلاحية في أمر ديننا.

هدىٰ الله جل وعلا إليها -يعني في تجديد أمر الدين- الإمام المصلح شيخ الإسلام أبا عبد الله وأبا علي محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المُشَرَّفِي التميمي المولود سنة (١١١٥هـ) والمتوفىٰ سنة (١٢٠٦هـ) في الدرعية.

وكلكم يعلم سيرة هذا الإمام، وطرفا كثيرا أو قليلا من مؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ؛ ولكن الشأن في أنّ منهج هذا الإمام لم يبسط للناس في التعرف علىٰ مفرداته؛ في كيفية تقريره لمسائل العلم في العقيدة أولا وفي

التوحيد، وفي مسائل الفقه والاختلاف، وفي الاستدلال، وأيضا في السير، وأيضا في مسائل العمل والسلوك والتربية، وأيضا في مسائل العلاقة مع ولاة الأمور وواجبات كل أحد بحسبه في ذلك.

ونحمد الله جل وعلا أن جعل الأكثرين في هذه البلاد وفي غيرها يحرصون علىٰ تعرف منهج السلف الصالح في مسائل العقيدة وفي المسائل التي ذكرنا، وعلىٰ طريقة أئمة السنة والجماعة في هذه المسائل، ولاشك أن هذا من المطالب المهمة؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ حذر وأنذر فقال: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**هي الجماعة**»، وفي رواية قال: «**هي من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، وأيضا حَذَرًا وخوفا من قول الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام]، وحذرا من قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾[هود].

ولهذا فإن الحريص علىٰ آخرته والحريص علىٰ النجاة لابد له أن يرجع إلىٰ ما كان عليه أئمة السلف الصالح فيأخذَه بلا غلو ولا جفاء، فيأخذه بلا شدة ولا ارتخاء؛ بل علىٰ نهج وسط فيه ظُهور الحق وفيه الرحمة بالخلق، كما كان علىٰ ذلك أئمتنا رحمهم الله تعالىٰ.

وأيضا تظهر أهمية هذا الموضوع في هذا الزمن في أن عمق العلم والنظر قلّ، غلب عليه العاطفة والحماس عند الأكثرين، فيُتَلَمَّس شيء من هدي أئمة السلف أو ما كان عليه أئمة الدعوة رحمهم الله تعالىٰ جميعا، فيقال: إن هذا هو منهج أئمة الدعوة، وهذا هو الذي قرره أئمة الدعوة، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ونحو ذلك، في مسائل قد يتقاصر الكثيرون حين يقررونها عن تَدَرُّس المنهج في تتبعه.

وهذا من الاستعجال ومن القضاء بغير علم، ومن المعلوم أن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاث فقاضيان في النار وقاضي في الجنة**»، والقضاء كما يكون في مسائل الخصومات، كذلك أعظم منه القضاء في المسائل العلمية والبت فيها، فإذا كان القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة فإن في المسائل العلمية تكون التبعة أكثر؛ لأن البينات والدلائل في المسألة الفردية -يعني فيما يقع من خصومة فردية- هذا هين أو هذا قليل، أما في المسائل العلمية فيحتاج إلىٰ جهد أكبر وجمع أكبر، لهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له علىٰ نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فإنما هي قطعة من النار فليأخذ أو ليدع**».

والقضاء في المسائل العلمية والنظر فيها يحتاج إلىٰ تفرس وإلىٰ تأمل، وخاصة إذا كان سيترتب علىٰ هذا النظر منهج، أو سيترتب عليه عمل، أو سيترتب عليه فِراق، أو سيترتب عليه دعوة، أو سيترتب عليه نسبة أشياء إلىٰ السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وإذا اختلفت الأمور واشتبهت فالواجب علىٰ العلماء وعلىٰ طلاب العلم أن يدعوا المشكوك فيه إلىٰ اليقين؛ لأن الله جل وعلا قال في محكم كتابه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾[آل عمران].

فتأمّل قول الله جل وعلا في هذه الآية العظيمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ فدلت الآية علىٰ أن الزيغ وُجد في القلوب أولا، ثم صار الاتباع للمتشابه، وليس المتشابه في نفسه سببا للزيغ؛ لكن الزيغ وجد لأسباب كثير ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، وأما الذين لا يوجد في قلوبهم زيغ ولا هوىٰ وإنما يحبون الحق ويبحثون عنه فإنهم يؤمنون بالمحكم ويعملون به ويردون المتشابه إلىٰ عالمه جل وعلا ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، وهذا هو الواجب في هذه المسائل.

لهذا نرىٰ في هذا الزمن كثر الكلام علىٰ منهج أئمة الدعوة هذا هو الذي يقرره أئمة الدعوة قرره الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذا هو منهج ابن تيمية هذا هو منهج ابن القيم، هذا منهج السلف، وكثير منها قضاء بغير علم كما يعرفه المتبصر في هذه المسائل.

والناس في ذلك ما بين غالٍ فيها وما بين جافٍ، وهذه الأمة وسط﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وكذلك وسط بين طرفي الغلو والتفريط.

إذا تبين هٰذا، فإن الإمام المصلح مجدد أمر الدين في زمانه محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كان مقتفيا لأثر من قبله؛ حتىٰ إنه لا يُعرف له في مسألة أنه تكلم فيها من غير سابق له من أئمة الإسلام، وإنما كان يتّبع من قبله من الأئمة وخاصة الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني رَحِمَهُ اللهُ المتوفىٰ ٢٤١هـ، والإمام ابن تيمية المتوفىٰ سنة ٧٢٨هـ والعلامة ابن القيم والحافظ الذهبي وابن كثير ونحو ذلك من العلماء الذين قرروا منهج السلف بوضوح.

فإذن هو في منهجه متّبع لأئمة الإسلام من أئمة السلف الصالح فمن بعدهم، ولم يكن في منهجه مبتدعا منهجا جديدا، لا في العقيدة ولا في العلم ولا في التعامل بأي نوع من التعامل.

لهذا إذا تكلمنا علىٰ منهجه في الواقع في تقرير العقيدة فإنه منهج للسلف الصالح؛ لكنه ظهر أكثر في كلام الإمام لأجل أنه صاحبه دعوة وجهاد ونشر الخير ومعاداة، وهذا ستظهر فيه -يعني هذا الواقع- تظهر فيه معالم المنهج أكثر؛ لأنه يحتاج إلىٰ تطبيق علىٰ بعض الوقائع.

ما هي العقيدة أو التوحيد الذي نبحث في منهجه فيه؟

العقيدة والتوحيد: علم يبحث في حق الله جل وعلا علىٰ عباده، وما يتصل بنعوت الرب جل وعلا وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأمور الغيبية، وهذا يدخل في أركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ.

والعقيدة والتوحيد بينهما تلازم؛ لكن بينهما فرق، وذلك أنّ العقيدة تشمل شرح أركان الإيمان هذه يعني ما يتصل بتوحيد الله جل وعلا والإيمان به بتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان ببقية أركان الإيمان الستة، وما يتصل بذلك مما خالف فيه أهل السنة والجماعة الفرق الضالة بأنواعها في

مسائل التلقي في مسائل التعامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة ولاة الأمور، وفي الموقف من زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين والصحابة إلىٰ آخر ذلك، وفي الأخلاق والسلوك التي يكون عليها أهل هذا الاعتقاد، كما قرره ابن تيمية في «الواسطية» حيث جعلها ثلاثة أقسام كما هو معلوم للدّارس.

أما التوحيد فهو أخص من العقيدة، ويُعنىٰ به تقرير حق الله جل وعلا علىٰ عباده، وهو ما يستحقه ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأعظم هذا وأفضله هو عبادة العبد للواحد الأحد وحده دونما سواه، وهو المسمىٰ بتوحيد العبادة.

والتوحيد من أهل العلم من قسمه إلىٰ ثلاثة أقسام في كلامه كالحافظ ابن جرير الطبري وكابن بطة الحنبلي وجماعات، وابن تيمية وابن القيم ومن سار علىٰ هذا النهج.

ومنهم من قسمه إلىٰ قسمين وهو توحيد في المعرفة والإثبات وتوحيد في القصد والطلب.

فالأول ثلاثة أقسام ألوهية وربوبية وأسماء وصفات.

والتقسيم الثاني **توحيد في المعرفة والإثبات** وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، **وتوحيد في القصد والطلب** وهو توحيد العبادة أو توحيد الإلهية.

وهذا القسم أعني توحيد القصد والطلب هو الذي شحذ همة الإمام المصلح رَحِمَهُ اللَّهُ في دعوته الإصلاحية في تجديد أمر الدين.

كذلك يدخل في العقيدة والتوحيد اتّباع النبي الكريم محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في اتباع سنته والحض عليه والنهي عن البدع ومحدثات الأمور.

إذا تبيّن هذا فما هي معالم هذا المنهج علىٰ الإجمال؟

أولا منهج الأئمة جميعا، ومنهم الإمام المصلح رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن العقيدة والتوحيد أمر متّصل بالغيب، فلا يقرر إلا بالنصوص، أو بما أجمع عليه السلف الصالح، يقرر بالكتاب وبالسنة، وبما أجمع عليه السلف الصالح؛ وذلك لأن أمور الغيب ليست كأمور الشهادة.

فمنهج التلقي في ذلك في تقرير العقيدة واضح، وهو أن العقيدة والتوحيد لا يقرر إلا بنص من القرآن أو من السنة أو مما أجمع عليه السلف أو فهمه الصحابة رضوان الله عليهم من النص من القرآن أو من السنة.

وحينئذ يكون تقرير هذا منطلقا من أن العقل لا مدخل له في أي مسألة من مسائل الاعتقاد والتوحيد والإيمان، وإنما هي مسألة تسليم بحت، العقل تابع للنقل في فهم دلالته وفي فهم ما دل عليه النص، أما النص فهو الذي يؤخذ منه تقرير الاعتقاد.

فإذن أول معلم من معالم المنهج: أنّ منهج السلف الصالح ومنهج أئمة الإسلام في تقرير العقيدة هي أنّه لا يصح أن تؤخذ العقيدة إلا من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن ما أجمع عليه السلف.

فحينئذ لا يكون الاستدلال بالعقل في مسائل الاعتقاد دليلا ولا منهجا، وحينئذ لا يكون الاستدلال بالوجه أو الاستحسان أو ما يظهر لفلان أو ما يستحسنه فلان من أنه له مدخل في ذلك.

وأيضا يبطل حينئذ أن تؤخذ مسألة من مسائل الاعتقاد من رجل تفرّد بها، حتىٰ ولو كان من أئمة الإسلام، أو كان ممن كان لهم الشأن من التابعين فمن بعدهم، وإنما تؤخذ مسائل الاعتقاد كمنهج ومسائل التوحيد من الأشياء المتفق عليها الظاهرة البينة التي دل عليها كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ وأجمع عليها العلماء، كذلك لا مدخل حينئذ فيها لتقرير العقيدة في نقل عن عالم حتىٰ ولو كان من أبرز أهل العلم؛ لأنه أتىٰ بكلمة لا يُعرف لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، وهذا مرجعه أن هذه المسائل الغيبية لا يدخلها قياس ولا يُنَظَّر عليها ولا تلحق بمثلها، وإنما هذه المسائل الغيبية يجب فيها التسليم لما دل عليه الدليل، دون نظر في عقل يُثبت شيئا أو يستحسنه أو يرفضه.

المخالفون لهذا المنهج ساروا في عدة طرق ومناهج، فمنهم الذين حكّموا العقل علىٰ النص وجعلوا في مسائل الاعتقاد العقل مقدَّمًا علىٰ الدليل؛ لأن العقل عندهم -كما يزعمون- قاطع وأما الدليل عندهم ليس بقاطع يعني قطعي الدلالة، -ليس قطعي الثبوت إنما القصد قطعي الدلالة- العقل عندهم قاطع وأما النص فإنما عندهم ليس بقاطع، فبذلك يحصل هذا وهذا.

يبطل حينئذ استدلال الناس بمسائل الاعتقاد بالمنامات أو بما يراه، أو يقول: جاءني شبه إلهام كما يدعيه قوم من الصوفية ونحوهم في إثبات أشياء أو نفي أشياء عن طريق المنامات وعن طريق الرؤىٰ وعن طريق الوَجد وعن طريق أشياء مشابهة لذلك.

أيضا يبطل في هذا سلوك أهل البدع في تقرير مذاهبهم من الخوارج ومن المرجئة والقدرية والمعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحو ذلك، ممن يُثبتون عقائدهم بالاستدلال ببعض الأدلة دون بعض، ولا يأخذون كل ما جاء في المسألة من الأدلة؛ ولكن يأخذون ببعض ويتركون بعضا، ولهم نصيب من قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، الواجب أن تؤخذ مسائل العقيدة من الكتاب والسنة في جميع ما رووا فيها؛ لأن مسائل العقيدة مسائل غيب، والغيب لا يدخله النسخ لأنه خبر لا يدخله النسخ ولا يدخله أيضا الإنساء وإنما ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦] مسائل العقيدة فيه محكمة، وإنما يقع التدرج ويقع أشياء من الأمور العملية لأن هذه أخبار متعلقة بالغيب.

وعلىٰ هذا كان منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتبه فتجد مثلا كتاب التوحيد تجد أول هذا الكتاب كتاب التوحيد وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات]، فلم يجعل حتىٰ خطبة لكتاب للكتاب التوحيد، الواحد يؤلف كتاب الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، هذا كتاب أردت فيه بيان توحيد..، لم يجعل هذا الإمام المصلح لم يجعل ولا كلمة في مقدمة كتابه؛ لأن لا أحد يدل علىٰ التوحيد أعظم من رب العالمين، فكان من تعظيم الله جل وعلا ومن الدلالة علىٰ أن المنهج في التوحيد أنه لا يُسبق كلام الله بكلام، ولا يسبق كلام رسوله ﷺ إلا بكلام الله جل وعلا وتقدس.

لهذا تجد أن «كتاب التوحيد» وهو في تقرير توحيد الإلهية وما يضاد توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية

وتوحيد الأسماء والصفات وما يتصل بذلك من مباحث كما هو معروف، هذا الكتاب ليس فيه إلا آية أو حديث، وأحيانا يأتي بكلام يوضّح معنىٰ كلمة أو جملة أو حكمٍ في الآية والحديث من نقل من بعض أهل العلم المعتبرين في ذلك.

وعلىٰ هذا جميع كتب الإمام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، عاب قوم الإمام رَحِمَهُ اللهُ فقالوا: إنه لا يطنب في التأليف معلوماته قليلة، لا يفصل لا يستطرد، وهذا في الواقع من المنهج؛ لأن الدعوة دعوة التوحيد، ليست هي دعوة لطلبة العلم، ليس علما خاصا بفئة من الناس يتعلمونها، التوحيد حق الله علىٰ العبيد، للجميع الصغير والكبير والمرأة والرجل وطالب العلم والبدوي والقريب والبعيد يأخذه، فإذا فصّل فيه وأطال فإن بعض طول الكلام ينسي بعضه بعضا، فلهذا كان يختصر جدا في تقرير التوحيد والعقيدة بالدليل من الكتاب والسنة ليكون المتلقي لهذا المنهج معه الدليل الواضح البين من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ وليس معه تفصيل كلام يذهب قوة الاستدلال.

ومعلوم أن كثرة البحوث التي نشأت في زمن القرن الثاني والثالث أَضعفت من أخذ العقيدة من مصدرها الكتاب والسنة، وكثر الخلاف فيها لأنه كثر الكلام.

واليوم نرىٰ لما كثر في تقرير العقيدة بتفصيل الكلام وتنويع الجمل حتىٰ عند العامة في المحاضرات وعند الناس لما كثر الكلام صار فيه هناك الآن إثارة للخلاف في مسائل.

أصبح بعض طلبة العلم يخوض بعض المسائل التي قررها الأئمة في التوحيد، يقول في بعضها خلاف، وهذه بعضها كذا ويذهب عن النص ودلالته يقول: ابن تيمية يقول: إن التوسل كذا أنه بدعة، ويقول: الشفاعة أنها بدعة وليست شركا، ويخرج الدلالة لقول فلان وقول فلان، وهذا في الحقيقة يخلّ بسلامة المنهج في أنّ النص إذا كان واضحا محكما واضح الدلالة بيّن الدلالة فإنه حينئذ يجب تقريره علىٰ هذا ونقله إلىٰ الناس وبيان ذلك.

المعلم الثاني من معالم هذا المنهج المبارك أنّ تقرير التوحيد والعقيدة بعامة هو أولىٰ الأولويات وأولىٰ المهمات، وذلك لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكمن أو لما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**» وفي رواية أخرىٰ عند البخاري في كتاب التوحيد «**فليكن أول ما تدعوهم إليه إلىٰ أن يوحدوا الله**» وعند مسلم في أول صحيحه: «**إلىٰ أن يعرفوا الله**» وهذا يدل علىٰ أن أولىٰ الأولويات في الدعوة هو أن يدعىٰ إلىٰ التوحيد.

والدعوة إلىٰ التوحيد لابد فيها من ترتيب للأولويات في داخله.

فإذن عندنا مسألتان في تفرد هذا المنهج:

الأولى: أن الدعوة إلىٰ توحيد الله جل وعلا في ألوهيته وعبادة الناس للواحد الأحد دونما سواه، أن هذا هو منهج هذا الإمام المصلح في دعوته.

فلم يبدأ دعوته بسلوكيات ولا بزهديات، ولم يبدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مسائل التي يقع فيها الناس من الذنوب العامة، ولم يبدأ دعوته بكذا وكذا، وإنما صبر وصبر سنين حتىٰ

يقرر توحيد العبادة وما يدل من حق الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته جل وعلا.

إذا تبين ذلك فإنّ التوحيد إذا كان هو أهم المهمات، والتوحيد والعقيدة أولا لو كانوا يعلمون، فإن مسائل التوحيد تختلف أيضا في ترتيب أولوياتها، لهذا تجد أن الإمام في دعوته وفيما يقرره وفي رسائله، ما يقرره في كتبه وفي رسائله تجد أنه لا يجعل المسائل المتصلة بالعقيدة والتوحيد في مرتبة واحدة؛ بل أخّر بعض المسائل حتىٰ اتضحت الدعوة وانتشرت، وبدأ بالمسائل العظيمة.

المسألة العظيمة الأولىٰ أن دعوة غير الله جل وعلا شرك، الاستغاثة بغير الله جل وعلا شرك، طلب المدد والحاجات من الأموات وشفاء الأمراض وجعل المخلوق له صفات الخالق أن هذا كفر وشرك.

وأخر بعض المسائل في مثل بعض مسائل تقرير الصفات والرد علىٰ الأشاعرة، في بعض مسائل التوسل أخرها، في بعض مسائل التبرك لم يوردها، وذلك بيّن في منهجه.

فإذن إذا قلنا: التوحيد أولا وهو أهم المهمات، فليس معنىٰ ذلك لأن يعطىٰ الناس كل مسائل التوحيد دفعة واحدة، يعطىٰ لقوم يجهلون الأصول وعندهم خلل في أصل التوحيد، عندهم وقوع في شركيات كبرىٰ، فنبحث معهم مسألة التبرك بالصالحين، أو التبرك بالماء أو بالسؤر أو التمسح ببعض الصالحين الأحياء أو بعض تأويل الصفات أو نحو ذلك، ليس الأمر هكذا.

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ دعوته بشيء عظيم واضح؛ لأن حجة الخصم فيه هي أضعف ما يكون، ولو ركّز علىٰ بعض المسائل التي فيها من الكلام ما فيها، من النقول عن العلماء مثل مسائل التبرك أو مسائل التوسل أو بعض مسائل تأويل الصفات أو نحو ذلك، لترك العلماء في وقته الذين ناهضوه وآذوه لتركوا الكلام في المسائل المهمة وركزوا علىٰ هذه المسائل ليطعنوا فيه أو ليردوا عليه، فكان من الحكمة أنه أخذ بسنة النبي ﷺ في أنه قرّر توحيد العبادة الأكبر.

تعلمون مثلا مسائل الحلف بغير الله جل وعلا ما جاء تحريم ذلك إلا في المدينة، أما في مكة ما كان تحريم ذلك، فكان الرجل يحلف بأبيه ويحلف بالكعبة ويحلف ببعض الأشياء يعني غير الآلهة، ولكنه لم يُنْهَ عنه بعد ذلك، قوله ما شاء الله وشئت هذا إنما نهي عنه في المدينة في قصة مع اليهود مع بعض أحبار اليهود حيث قالوا لبعض الصحابة: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «**قولوا ما شاء الله وحده**» هذا كان في المدينة، المسألة عقدية كانت متصلة بالتوحيد؛ لكن لم تقرر في هدي النبي ﷺ في مكة.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أخر الكلام عن كثير من هذه المسائل؛ بل إنه سئل عن بعض أشياء تنسب إليه استدل بها المعارضون فقال فيها: أقول سبحانك هذا بهتان عظيم. أنا ما قلت هذه الأشياء. التي تنسب إلي حتىٰ قيل عنه إنه يقول: لا أنكر التوسل بالصالحين وإنما أنكرت –هذا ثابت من كلامه– وإنما أنكرت ما أجمع العلماء عليه وهو دعوة غير الله معه.

وهذا من الحكمة لأن التوحيد أولا؛ لكن ليست كل مسائل التوحيد في نفس المرتبة، يقول التوحيد أولا، لا يفهم منها الشباب والذين يدعون إلىٰ منهج السلف الصالح أنك تأتي في كل مكان وفي كل بلد

وفي كل مجلس، تأتي بكل مسألة في ذهنك أنها من التوحيد وتعرضها علىٰ أساس أنها من المهمات والمطالب في الاعتقاد، لا، لابد أن ينزل هذا بحسب تمكّن الدعوة من النفوس وعدم تمكنها، إذا كنا في قوم وثنيين في بلد من البلاد، أو في قوم يكون عندهم تقديس الأضرحة وعبادة غير الله والنذر لها والذبح والاستغاثة بالأموات ونحو ذلك، ومسائل البدع ووسائل الشرك يؤخر الكلام عنها حتىٰ تتقرر هذه المسألة العظيمة؛ لأن الناس إذا كثر عليهم الكلام بعضه أنسىٰ بعضا، مثل ما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا. هذا صحيح.

فإذن منهج الإمام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن الدعوة إلىٰ التوحيد أولا؛ ولكن هناك أولويات في مسائل التوحيد والعقيدة لابد أن ترتّب، فليست كل المسائل في نفس المنزلة.

كذلك إذا تكلمنا كما سيأتي في السنة والبدعة ليست مسائل السنة والبدعة في مرتبة واحدة، بعضها أغلظ من بعض، فلابد من التدرج في هذا الأمر؛ لأجل قبول الناس للحق في ذلك؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنىٰ وجدها فهو أحق بها.

المعلم الثالث في منهج هذه الدعوة المباركة: أن الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ لم يفرّق في دعوته ما بين أصناف الناس، لم يجعل دعوته خاصة بالشباب، لم بجعل دعوته للأذكياء أو للنابغين، وإنما جعل دعوته لكل مكلّف؛ لأنها دعوة ليست لحزب وليست لسياسة وليست لغرض دنيوي، وإنما هي لتعبيد الناس لرب العالمين، فتارة تتوجه الدعوة إلىٰ شباب، تارة تتوجه الدعوة إلىٰ فئة، هذا لا يجوز لأن المقصود تعبيد الناس لرب العالمين.

فتخصيص الدعوة لطائفة من المكلفين دون طائفة والتركيز عليهم هذا ليس منهجا نبويا، وإنما الدعوة للجميع سيكون الشباب في الغالب هم الأكثر تقبلا لا لأجل تخصيصهم لكن لأجل أنهم هم الأكثر تقبلا كما قال جل وعلا: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس:٨٣]، وقال ابن كثير معنىٰ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يعني أممهم شابا لأن أكثر أتباع الأنبياء كانوا شبابا لا لأجل أن دعوة الأنبياء والمرسلين توجهت إلىٰ الشباب؛ ولكنهم الأسلم من جهة الأهواء في قبول الحق فإذا كانت الدعوة عامة فستقبلها في الغالب هذه الفئة أكثر من غيرها من الفئات لقلة الهوىٰ وفيهم في الغالب.

فكان من منهج الإمام رَحِمَهُ اللهُ في دعوته أن دعوته خاطبت أمراء القرىٰ في وقته، وخاطبت العلماء، وخاطبت العامة، وخاطبت الحضر، وخاطبت البادية، وخاطبت النساء والرجال.

فكان العلم يبث في النساء كما يبث في الرجال، وكان في الدرعية في ذلك الوقت كان هناك مكان يخصص للدروس -كما ذُكر- يحضره الرجال ويحضره النساء كل يوم في أواخر وقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

فكانت الدعوة عامة، كان الآراء والبادية توجه الدعوة لهم، وكان الكبار توجه الدعوة لهم، الأمراء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، العلماء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، حتىٰ إنه تودّد للعلماء

الذين يرىٰ أن فيهم خيرا.

ومن أمثلة ذلك رسالته المشهورة لعبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي أحد علماء الأحساء الأشاعرة في ذلك الوقت، وكتب إلىٰ الشيخ محمد عبد الله هذا، ينتقد عليه بعض المسائل فأجابه الإمام برسالة طويلة فيها منهج الأدب مع المخالف فكتب إليه يبين إليه الصواب في هذه المسائل بعبارة علمية هادئة، وقال فيها بعد الإجابة عن عدد من الأسئلة، ووالله إني لأدعو لك في صلاتي وأرجو أن تكون فاروقا في دين الله في آخر هذه الأمة كما كان عمر بن الخطاب ﵁ فاروقا لها في أولها، وذلك لما رأيت ين مجيئي إليك في الأحساء أنك كتبت علىٰ أول كتاب الإيمان في «صحيح البخاري» من أن الإيمان قول وعمل، كتبت عليه هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده، فسرني هذا منك لكونه يخالف المشايخ الذين أخذت عنهم. يعني بهم الأشاعرة، الذين يقولون إن الإيمان هو الاعتقاد والقول أو الاعتقاد وحده.

وهذا نوع من الخطاب فيه توجيه للدعوة وجمع، فإذن هو لم يستعدِ الناس علىٰ الدعوة، وإنما كانت الناس عادوا الدعوة لأنها لا توافق أغراضهم، وهذا مهم في منهج الدعوة في نشرها مثلا بعض الناس يذهبون إلىٰ بلد من البلاد يريدون الدعوة في أي مكان في أفريقيا أو في آسيا أو في الجزيرة أو أي مكان، ويرىٰ أشياء هو يقول هذا الحق أنا لن يهمني أمير ولن يهمني حاكم ولا يهمني عالم، هذا ليس بصحيح؛ لابد أن تضع الأمور في مواضعها، وأن تشرح الدعوة وتبين الدعوة، إذا عادوها لأجل أنها حقّ، فهذا أنت قد أبرأت ذمتك؛ لأن تكون العداوة حينئذ منهم لكراهتهم للحق؛ لكن أن تأتي تهجم مثلا الوالي أو تهجم العالم أو تسفه بهم أو ترد عليهم، فإنه حينئذ يكون مدخل للشيطان علىٰ قبول هذه الدعوة.

والإمام ﵀ تعالىٰ كن سهلا جدا مع العلماء ومع الأمراء حتىٰ أنهم قالوا له أخرج من البلد فخرج في قصته مع ابن معمر في العيينة، قال: لا أستطيع أنك تبقىٰ في البلد. فخرج منها فعوّضه الله جل وعلا خيرا مما ترك.

هذه مسألة مهمة في المنهج في أن الدعوة ليست خاصة، هي دعوة الإسلام عامة لكل المكلفين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾[الذاريات]، هي للجميع.

فإذن التخصيص ليس من سمات هذه الدعوة، السرية ليست من سمات الدعوة، الانغلاق ليس من سمات هذه الدعوة، الدعوة واضحة من أول يوم ومنتشرة، فلم يكن الشيخ ﵀ تعالىٰ يهيئ -مع شدة الناس في زمنه ومعاداة الأمراء والعلماء- لم يكن يهيئ الأمر بأمور سرية تمشي حتىٰ يريد التكثير إنما أوضح الحق من أول ما اعتقده بأسلوب حكيم وتدرج مُرضٍ يوافق السنة والكتاب.

المعلم الرابع في ذلك: أن ما سبق الدعوة من أشياء؛ من أقوال لعلماء، أو من سلوكيات للناس، أو من أناس ماتوا، فإن أئمة الدعوة رحمهم الله تعالىٰ سكتوا عن الماضي ولم يقدحوا في المعظمين للناس فيما مضىٰ، ما تجد أنه قدح في رؤساء الطرق؛ يعني في الماضين أما الذين في وقته واجههم، العايشين مثل تاج وشمسان ومجموعة والمويس وفلان وفلان من كان في وقته واجههم؛ لكن من سبق فإنه لم يتكلم عنهم

لماذا؟ لأنه تارة يأتي الداعية إلىٰ التوحيد ويظن أنه يصل إليه بإثبات فسق رجل يدعىٰ أنه من الصالحين، يتكلم له شخص في دعوة البدوي وسؤال البدوي والاستغاثة به أو نحو ذلك، تجده يقول: البدوي أصلا رجل فاسق، رجل كان لا يصلي كان وكان وكان، ليس هذا هو المقصود.

كان منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان لا يتكلم علىٰ سلوكيات من سبق في الجملة، لا يتكلم عنهم ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[البقرة]، ولكن كان يقرر التوحيد إذ هل ذاك الرجل كان كذا أو لم يكن كذا، فهذا ليس من شأنه والحكم علىٰ الأشخاص أو أن هذا فيه وما فيه، هذا يحجب الحق في الدعوة وهذه مسألة مهمة اليوم.

لأن مرة كان أحد الإخوة من أحد البلاد الأفريقية أتىٰ يسأل عن بعض المسائل وقال: نجد أن الدعاة إلىٰ السلفية وإلىٰ التوحيد عندنا يبدؤون ببيان أن المعظمين عند قومنا أنهم لم يكونوا صالحين، وأنهم كانوا فسقة، يتكلم علىٰ المرغني يقول كذا، ويتكلم علىٰ فلان يسبه يقول كذا هذا أوغر الصدور، صار الناس ما يسمعون الدليل، ما يسمعون الحق وإنما ينتصرون لهذا الذي يعظمونه.

وهذه جبلة الإنسان أنك إذا تركت الحق وطعنت في الشخص فإن الناس يتجهون إلىٰ من يعظمونه يدافعون عنه؛ لأنهم يكبرون في أنفسهم أن أحدا ينال منه، ولا ينظر قلت حقا أو قلت غير حق أو يناقشه بدليل لا ينظر، كيف تتكلم في فلان هذا رجل صالح يأتي يقولا لا ليس بصالح.

هذه قضية ليست بشرعية هو انتهىٰ وذهب إلىٰ ربه إن كان صالحا فله جزاء الحسنىٰ، وإن كان غير صالح فسيجد الجزاء عند الله.

المهم في الدعوة هو تبيين توحيد الله جل وعلا، وتبيين ما اشتملت عليه الأدلة من عبادة الله وحده دون ما سواه وترك الشرك ووسائل الشرك والبعد عن البدع والمحدثات.

فإذن كان من منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يكن يطعن في معظم الناس قبله حتىٰ إنك تجد أنه لم يتكلم في البوصيري، لم يتكلم في ابن الفارض، لم يتكلم في البدوي لم يتكلم في الكواز، لم يتكلم في العيدروس، لا تجد له كلام في هؤلاء، مع أنه ذكر أن ما اشتمل عليه كلامهم فيه وفيه؛ لكن هل هم صالحين أو كانوا كذا، هذا ليس من منهج الدعوة.

فإذن هذا دعا إلىٰ القبول، دعاها إلىٰ الانتشار لأنه ما تعرض لما تتعقب له النفوس بالباطل وهو الطعن في المقدمين.

حتىٰ أنه سئل مرة فقيل له: إنك تقول إن الناس منذ أربعمائة سنة ليسوا علىٰ شيء أو أنهم كفار فقال في جوابه: أقول سبحانك هذا بهتان عظيم.

حتىٰ لما أتت مسألة البحث في القبة الموجودة علىٰ حجرة النبي ﷺ التي في وسطها القبر قبر النبي ﷺ وكان يُنكر البناء علىٰ القبور، بناء القباب، القباب علىٰ قبور الصالحين يهدمها؛ لأنه لا يجوز ووسيلة من وسائل تعظيمها إلىٰ آخره، والنبي ﷺ بعث عليا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ألا يدع قبرا مشرفا إلا سواه، «**وألا تدع قبرا مشرفا إلا سويته**» المشرف يعني فيه علو.

ولما قالوا له: القبة التي علىٰ قبر النبي ﷺ إنك تقول: لو أقدر عليها لهدمتها. فقال: سبحانك هذا بهتان عظيم ولهذا أفتىٰ هو يعني من جهة عملية، وعلماء الدعوة والولاة من آل سعود من الدولة السعودية الأولىٰ إلىٰ أنها لا تتعرض بشيء، وذلك لأن هذا من مصلحة الدعوة، وأن لا يفضي إلىٰ ما هو أشد من رد التوحيد والتعرض إلىٰ أننا لا نحب النبي ﷺ ونتقصه؛ بل نهين النبي ﷺ إنما هذه وسيلة من وسائل الشرك، فيمنع الشرك وتمنع وسائله في أن يحصل شيء عند ذلك، والأمور تترك لرعاية المصالح والمفاسد في ذلك.

أيضا لما قيل له: إنك تكفر من عند قبة البدوي والكواز قال: أنا لا أكفر من عند قبة البدوي والكواز، لعدم وجود من ينبههم.

وهنا خاض قوم من المعاصرين خوضا سيئا في منهج الدعوة هل كان منهج الدعوة الشيخ محمد وأئمة الدعوة هل كانوا يعذرون بالجهل أو لا يعذرون بالجهل، ونحو ذلك من الألفاظ وهذه لم تكن أصلا عندهم بهذا اللفظ **نعذره بالجهل أو لا نعذره** وإنما كانت المسألة مرتبطة بأصل شرعي آخر وهي **هل بلغته الحجة أو لم تبلغه الحجة والحجة المناسبة وغير المناسبة.**

وهنا نستطرد فنقول لم يجعل أيضا علماء الدعوة في قيام الحجة وفهم الحجة لم يجعلوا المسألة واحدة؛ يعني أن كل مسائل التوحيد بنفس النسق، كلها بنفس الحجة، كلها بنفس البيان، لا، تختلف، ففيه مسائل أعظم من مسائل، في مسألة إقامة الحجة، قالوا أما الاستغاثة بغير الله فهي واضحة والحجة فيها بينة قاطعة، وهناك مسائل قد يقع في إقامة الحجة فيها نوع اشتباه، فتحتاج إلىٰ تكرار وبيان كمسألة الشفاعة.

فالمسألة إذن لا تستوي، فلابد أن ننزل الأشخاص، تنزل المسائل، أن تنزل في موضعها، وأن لا يتعرض لأشخاص مضوا وانتهوا، أما رؤوس الضلالة في زمنه فقد واجههم وفضحهم رؤوس الضلالة في زمنه، أما من مات وانتهىٰ وصار له معظمون إلىٰ آخره، فإن هذا يبين لهم الدعوة ولا يتعرض للأشخاصهم.

فهذه مسألة تحتاج إلىٰ تفرس وعناية؛ لأن الواقع فيها اليوم قد يخالف ما كانوا عليه.

المعلم الخامس من معالم منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير العقيدة: أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان يحمل العقيدة حملا كاملا علىٰ منهج السلف الصالح.

فحملها في أبواب أركان الإيمان توحيد الله ربوبيته أولهيته أسمائه وصفاته والإيمان بالكتاب وعدم تأويل الصفات وتقرير ما قرره السلف وعد الدخول في الغيبيات بما ينفي ذلك عن ظاهرها.

ودخل أيضا في مناهج فيما يسمىٰ يسميه بعضهم المنهج أو التعامل دخل فيه علىٰ نحو ما كان السلف الصالح.

وقرر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشره بالطريقة الشرعية علىٰ ما توجبه الشريعة دون غلو فيه ودون تفريط، وقرر طاعة ولاة الأمور في ذلك والسمع لهم والطاعة فيما لم يأمروا فيه بمعصية

والجهاد معهم ونصرة ذلك.

وقرر المنهج في التعامل مع المخالف من المشركين والمبتدعة.

فكان له في كل مسألة الكلام الأوفىٰ والتقرير البين، فتجد ليونته ورحمته في مسألة، وتجد قوته وشدته في مساكنة المشركين والنوم معهم، وتكثير سواد المشركين في أي مكان.

فنوع التعامل مشىٰ فيه علىٰ ما دلت عليه النصوص دون أهواء أو نظر إلىٰ ما لم يدل عليه الدليل، أو لم يكن عليه منهج السلف الصالح.

كذلك في مسائل السلوك والأخلاق بعض الدعوات لم تؤثّر العقيدة في سلوكها كانت العقيدة عندهم اسما..

نرجع إلىٰ المعلم الخامس وهو أثر العقيدة أو المنهج في الاعتقاد عند الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في تربية الناس من طلبة العلم ومن غيرهم؛ بل جميع الناس علىٰ السلوك الحسن والتعبد لله جل وعلا.

أقول: السلوك علىٰ المصطلح عند العلماء؛ يعنىٰ بالسلوك ما يعمله العبد في سلوكه مع ربه جل وعلا ومع الخلق.

هناك دعوات تهتم بالعقيدة؛ لكن تجد أن العقيدة لا تؤثر في أصحابها من جهة التعبد، فيكونون ضعيفين في التعبد حتىٰ في الواجبات، ربما كان إهمال أو في التطوعات من باب أولىٰ أو كان هناك تساهل في السلوك فيما يتعلق برحمة الخلق والتعامل معهم؛ مع الوالدين مع الأسرة مع الأبناء مع الزوجة مع مع إلىٰ آخره، وهذا خلاف أثر الاعتقاد الصحيح، لماذا؟

لأن حقيقة الاعتقاد أنه إيمان بالله وبكتبه وبالنبي محمد ﷺ وأنه إيمان باليوم الآخر، فمن كان عنده إيمان بالله وما يستحقه جل وعلا، وعنده إيمان بالنبي ﷺ وما جاء به، وعنده إيمان بالقرآن وتطبيق لذلك، وعنده إيمان باليوم الآخر وخوف من الله جل وعلا، فلا بد أن يؤثر هذا في سلوكه:

أولا حرصه علىٰ عبادته بربه جل وعلا.

وثانيا في حسن تعامله مع إخوانه والخَلق.

لهذا تجد أن العقيدة التي دعا إليها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت الناس في نجد بالذات نقلت الناس الذين كانوا قريبين من الدعوة إلىٰ أنهم كانوا أكثر تعبدا أكثر إعمارا للمساجد العمارة المعنوية والتبكير للصلوات والتواصي بالحق التواصي بالصبر، البذل كان طالب العلم من طلبة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول له: نريد أن تكون في منطقة كذا أبعد منطقة في القضاء أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو في الدعوة وما شابه ذلك فيذهب؛ لأن عندهم الرغبة العقيدة -يعني في تقريريها- لها سمتٌ يغلب علىٰ صاحبه في تعبده وفي سلوكه وفي أنواع تعامله وهذا مهم جدا اليوم في كل دعوة تدعو إلىٰ التوحيد.

أما أن يكون طائفة ممن يهتمون بالعقيدة أو يهتمون بالتوحيد أو نحو ذلك عندهم جفا في تعاملهم أو في سلوكهم، أو عندهم ضعف في التعبد وتفريط في حق الله جل وعلا، أو غشيان للذنوب والمعاصي ويقول: أنا أدعو للتوحيد وأدعو للعقيدة، فهذا لم يربَّ علىٰ العقيدة الصحيحة ولم يأخذها بحقها.

إذن فالذين يأخذون هذا المنهج ينقلون أنفسهم إلىٰ منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، والسلف الصالح كانوا أسلم الناس عقيدة، وكانوا أسلم الناس منهجا بأنواع التعامل، وكانوا أسلم الناس سلوكا، في السلوك والتعبد تركوا تفريط المفرطين وأيضا تركوا غلو الصوفية والذين تبتلوا إلىٰ آخره فخالفوا السنة، فإنما أخذوا بالنهج الوسط وهذا من ثمرات منهج تعليم العقيدة.

المعلم السادس في ذلك: هو أن تقرير التوحيد عند الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تقرير العقيدة كان ظاهرا أتم ظهور في الحض والدعوة إلىٰ الاتباع لسنة النبي ﷺ.

الاتباع للسنة من حيث الأخذ بها والاستدلال بها في العلميات، الاتباع للسنة من حيث العمل بها في العمليات، الاتباع للسنة بالرجوع بالهدي إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، فكان منهجه يعلمه العوام في المسائل المشتبهة التي تشتبه علىٰ كثير من العلماء، فيكون تقريره لها أسهل تقرير.

فيقول لقائل في مسائل مثلا في بعض البدع العامي ممن تربوا وأخذوا من هذه الدعوة، يسأل في مسألة مما يستحسنها الناس يقول: هل فعلها النبي ﷺ؟ هل فعلها الصحابة؟ فإذا قالوا: لا. إذن الجواب واضح ولا ندخل في تفصيلات مثل ما دخل فيها طائفة حتىٰ من الأذكياء والعلماء.

مثلا المولد العلماء بحثوا فيه أكثر من مائة بحث وفيه كُتب لكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رباهم باتباع السنة علىٰ كلمة واحدة، فعل النبي ﷺ أم لم يفعل؟ لم يفعل لا نفعل، وهذه الوجازة في الأسلوب للسنة سهلة وتقبلها الفطرة من أي فرد كان، إلا إذا أتت عليها معارضة؛ لكن تبقىٰ في الفطرة مؤثرة، ما فعلها النبي ﷺ.

مثل هذه الليلة ليلة النصف من شعبان طائفة من الناس يحيون هذه الليلة إما بحفلة وإما باجتماع علىٰ عبادة، وإما بشد الرحل إلىٰ مكان ليكون فيه كذا وكذا، ويخصصون هذه الليلة بقيام واجتماع وحفل ويخصون الخامس عشر أيضا بالصيام دون غيره، حتىٰ ولو كان يوم الجمعة فقط يخصون الخامس عشر بصيام، وهنا هذه بالمناسبة، هنا يسأل السائل فعل النبي ﷺ أم لم يفعل؟ إذا قال: فعل نفعل إذا قال: لا لم يفعل لكن هذا فيه..، يظهر لك أنه ليس فيها اتباع.

فإذن هنا منهج تعليم الناس للسنة والبدعة لم يتبع فيه رَحِمَهُ اللَّهُ المنهج المعقد في تعريف البدع وفي الأخذ بها، وإنما المسألة واضحة جدا فيما علّم الناس فيها.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «كشف الشبهات»: (والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين)، لماذا؟ لأنّ معه الحق القليل الواضح الذي لا يستطيع أن يجادل معه خصمه لكن يذهب إلىٰ بنيات الطريق فيضل في ذلك.

فمنهجه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في الدعوة إلىٰ الاتباع للسنة، في السنة التعلم والتعليم، نَجْد في ذلك الوقت كان لا يوجد فيها عند أحد في نَجْد قاطبة لا يوجد عند أحد نسخة كاملة من كتاب البخاري وإنما يوجد أجزاء جزء عند هذا وجزء عند هذا إلىٰ آخره قد لا يكون وجدت مكتملة إلا لمن رحل للشام

وجاء بنسخة مكتملة؛ لكن طلبة العلم لا يعرفونه، وإنما عندهم كتاب في مذهب ما، الحنبلي عنده كتاب في المذهب الحنبلي، والشافعي عنده كتاب في المذهب الشافعي إلىٰ آخره.

فأحيىٰ اتباع السنة والبحث عن اتباع الدليل والحرص علىٰ ذلك في المسائل العلمية وفي المسائل العملية ولكنه في ذلك لم يكن غاليا.

وبعض من أخذ بدعوته غَلا في مسألة الدليل وفي مسألة الاتباع حتىٰ خرج بها عن نهج السلف الصالح الوسط في هذه المسائل؛ حتىٰ أبطل أو حتىٰ هجّن الأخذ أصلا من كتب الفقه، قال: أصلا هذه الكتب كتب الفقه كتب باطلة وبلغ بهم إلىٰ أنه لا يؤخذ العلم إلا من كتب السنة ونحو ذلك مما خالفوا به منهج العلماء.

فإذن منهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير العقيدة والاهتمام بالسنة القولية والعملية، وتعليم الناس ذلك وفي العلميات أيضا حضّ الناس علىٰ الحرص علىٰ السنة تعلما، فشاعت كتب السنة في نَجْد وتعلّم الناس ذلك وشُرحت لهم كتب السنة بما لم يكن من قبل؛ لكن مع الاهتمام بكتب الفقه والاهتمام بما قرره العلماء دون غلو في ذلك.

في مسألة من المسائل سئل عنها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالىٰ جميعا وهي مسألة الحاج إذا رمىٰ جمرة العقبة وقصّر أو حلق ثم لم يطف ذلك اليوم طواف الإفاضة ذلك اليوم، هل يرجع علىٰ إحرامه أم أنه يتحلل ويبقىٰ متحللا حتىٰ يطوف ولو بعد عدة أيام.

هناك من أهل العلم من قال: يرجع إلىٰ إحرامه إذا مر عليه غروب الشمس ثم بعد الغروب ولم يطف يرجع يلبس الإحرام إلىٰ آخره، يرجع حرما كما كان.

سئل عنه عبد الله بن محمد وفيها دليل الذي هو حديث أم سلمة المعروف بسنن أبي داود فقال: هذا الحديث إسناده جيّد، وقد قواه فلان إلىٰ آخره؛ لكننا لم نتجاسر علىٰ العمل به؛ لأننا لا نعلم أحدا من الأئمة عمل به، لا يمكن شيء مسألة في السنة أنه لا يعمل بها لا الإمام أحمد ولا مالك ولا الشافعي ولا يعمل بها أبو حنيفة ولا يعمل بها سفيان ولا يعمل بها الأوزاعي ولا يعمل بها الليث ولا يعمل بها إسحاق.. فيه غرابة كيف سنة تمضي علىٰ الصحابة لا يعملون بها، والأئمة أيضا يقول الحديث نعم ثابت ظاهر إسناده الصحة، وفيه بحث في متنه هل هو شاذ أو منكر أو إلىٰ آخره معروف عند أهل العلم؛ لكن لم يعمل به أئمة الإسلام، فقال: لم نتجاسر عن العمل به.

وهذه المسألة مهمة اليوم في منهج اتباع السنة في الدليل، هل نستدل علىٰ مسألة بفهم نفهمه أو بشيء دل عليه الدليل لكن لم يعمل به أئمة الإسلام، نحن نتبع منهج السلف الصالح، نتبع أئمة الإسلام، فإذا أتىٰ في مسألة، نقول: الأئمة لم يعملوا بها إذن كيف نعمل بها أو في مسألة الأئمة علموا بها نقول هي بدعة وأئمة الإسلام عملوا بها.

لذلك لما أتىٰ الإمام المصلح في مسألة ختم القرآن دعاء الختم في الصلاة، نظر فيها فوجد أنّ أئمة الإسلام يقولون بها، ويفعلونها؛ سفيان ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ بل حض عليها وقال:

لا تجعل دعاء الختم في قنوت الوتر، اجعل لنا دعاءين دعاء الختم بعد الفراغ من القراءة، وابن تيمية وابن القيم يأتي قائل يقول لا، هذه بدعة.

إذن ماذا نفعل في صنيع الأئمة جميعا هناك من يغلو في الاتباع فيفسر الأشياء بحسب ما ظهر له حتىٰ ولو،،، يقول: أنا ما عندي، ولو الأئمة كلهم خالفوا المسألة اتباع لمنهج إذا كان هذا من طريقتهم، وأخذوا بذلك وقالوه، ومخالفتهم في ذلك خروج عن الصراط لماذا؟ لأنه لا يتصور في مسألة فيها ظهور أنها بدعة وخلاف السنة ويتتابع عليها أئمة الإسلام في قرون متعددة ولا يفعلون.

بخلاف البدع التي يعلمها أهل البدع فإن أئمة الإسلام ينكرونها حتىٰ ولو تتابع الناس عليها؛ لكن تتابعوا مع إنكار المنكر، وهنا تتابعوا مع عدم الإنكار، فدل هذا علىٰ أن لها اعتبارا، سيما أنه نص عليها من نص عليها من الأئمة، فتجد أنه لم ينكر هذه ومشىٰ فيها وعليها أئمة الدعوة كما تعلمون إلىٰ وقتنا الحاضر، وهكذا في مسائل أخر.

فإذن الأخذ بالدليل في هذه المسائل من منهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يؤخذ بالدليل في مسائل العقيدة؛ ولكن مسائل العقيدة لا مدخل فيها للعقليات، فإذا جاء نص من الكتاب أو من السنة فإنه هو الحجة في هذا الباب؛ لكن نأخذ فيه بفهم السلف الصالح، في بعض الأحاديث فيها ذكر لصفة من الصفات؛ لكن هل تطلق الصفة أولا تطلق، أو في آية هل تطلق الصفة أو لا تطلق، لابد ننظر في هدي السلف الصالح، ولا يأتي أحد يقول أنا أفهم من الدليل كذا، طيب فهم من سبق أين هو لابد أن يدعم الفهم بفهم من سبق من أئمة الإسلام؛ لأنه بالاتفاق كانوا علىٰ الحق المبين.

المعلم الأخير –الوقت يضيق عن تفاصيل ذلك– معالم منهجه في تقرير العقيدة، أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ومن سلك بعده في ذلك اعتنىٰ بالرد –الرد التفصيلي– علىٰ من خالف العقيدة في مسألة أو في أصل التوحيد والاعتقاد، ولأئمة الدعوة كما تعلمون الرّدود الكثيرة.

الرد علىٰ المخالف في مسائل التوحيد هذا فيه فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: إنكار المنكر.

الفائدة الثانية: في تقرير الحق وبيان المحجة وإقامة الحجة.

لهذا اهتموا أنه من يهاجم الدعوة دعوة الإسلام أو يعني دعوة التوحيد، ويبين مثلا؛ يحسن عبادة الأولياء أو يحسن الذهاب إلىٰ المشاهد أو الاستغاثة بالصالحين أو نحو ذلك؛ يعني من الأموات ردوا عليه، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وأئمة الدعوة أيضا ردوا علىٰ كل من خالف الدعوة في هٰذا.

ولكن الرد يكون بعلم وبحلم، والرد يكون بعلم وبحلم؛ لا يكون الرد خالٍ من العلم وفيه قوة في الألفاظ وتعدي، فيفهم منه القابل أنك لست قويا في الحجة، فإنما عندك نزاع وشدة في الكلام وإلىٰ آخره وتتهجم دون قوة في الحجة والبيان، فكانوا أقوياء في ردودهم والردود مهمة في تبيين الملة وتبيين الحق.

إذا تبينت هذه المعالم فنمر مرورا سريعا علىٰ بعض كتب الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ونأخذ أمثلة أو بيان معالم هذا المنهج في هذه الكتب.

أولا وأشهر الكتب «كتاب التوحيد» كتاب التوحيد ظاهر فيه المنهج:

أولا في تقرير التوحيد في الكتاب والسنة.

الثاني في إنه رعىٰ إجماع السلف حتىٰ أنه، لما أتت مسألة التمائم من القرآن قال: لما كانت التمائم من القرآن فقد إلىٰ آخره، فذكر فيها قد أخطأ فيها جماعة إلىٰ آخره وهنا رعىٰ ما اتفقوا عليه ورعىٰ أيضا ما اختلفوا فيه.

الثالث ننظر في «كتاب التوحيد» إلىٰ أنه قرر الأولويات فيما قرره في المسائل، بيّن أن أول ما يدعىٰ التوحيد، وأنه أهم من الفرائض، وبيّن كيف يعامل المخالف أيضا فيما ذكره في المسائل.

إذا أخذت كتاب «ثلاثة الأصول وأدلتها » مثلا، أو «الأصول الثلاثة»؛ يعني ثم كتابان كتاب سهل لتعليم العقيدة العامة ويسمىٰ الأصول الثلاثة أو ثلاثة الأصول والكتاب الكبير المعروف ثلاثة الأصول وأدلتها أو الأصول الثلاثة وأدلتها.

تجد أن هذا الكتاب مبني علىٰ شرح ما يهم المتعلم المبتدئ، في بيان واجب العلم وواجب العمل وواجب الدعوة وواجب الصبر وفي بيان أصول الدين الثلاثة معرفة العبد ربه ومعرفة العبد دينه ومعرفة العبد نبيه ﷺ، وأوضح ذلك باختصار كل مسألة بدليلها.

وهنا ننبه تنبيه في هذا الكتاب إلىٰ أن بعض الناس قالوا: إن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في أن قوله: إنه يؤخذ دين الإسلام بالأدلة أن هذا وافق فيه المعتزلة، كما قال بعض طلبة العلم عندنا. وهذا غلط كبير علىٰ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

المعتزلة ومن نحا نحوهم في المنهج العقلي، لا يصح عندهم الإسلام إلا بالدليل العقلي؛ يعني بمعنىٰ لابد أن يُثبت الدليل العقلي إما بالنظر عندهم أو يتحرىٰ إلىٰ آخره والدليل عندهم هنا النظر في الكونيات والنظر في النفس.

أما أئمة الإسلام وعلماء السلف فهنا ينظرون إلىٰ معرفة الإسلام إلىٰ دين الإسلام بالدليل الشرعي يعني من الكتاب والسنة. المعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم والأشاعرة عندهم الدليل العقلي أول واجب عندهم هو النظر أو الشك علىٰ أقوال عندهم في ذلك بمعنىٰ النظر في الملكوت حتىٰ تثبت بالعقل أنّ الله جل وعلا واحد في خلقه، وأنه هو الذي يعبد بالعقل؛ لكن عندنا ليس الأمر كذلك، وإنما هو بالدليل الشرعي؛ يعني أن يعرض الدليل علىٰ هذه المسألة.

لذلك مثلا إذا أتىٰ لمسألة من المسائل وأما النذر فدليله قول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧] مثلا، أو نحو ذلك ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠].

كتاب «فضل الإسلام» –كل كتب الشيخ يسيرة أوراقها قليلة لكن منهجها واضح وتصلح للجميع في التعرف علىٰ المنهج.

«فضل الإسلام» كتاب في منهج الاتباع، منهج السلوك، منهج العمل، منهج التسمية الموقف من البدع وذم البدع والابتداع وأهله حتىٰ في مسائل المسميات تكلم عنها رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في هذا الكتاب؛ لأجل

أن لا يظن الظان أنه يدعو إلىٰ أن يسمىٰ هو باسم خاص مثل ما فعل الظلمة سموا الشيخ وأتباعه بالوهابيين، هذه تسمية لا نقرها؛ لأننا إنما نتبع السلف الصالح، إذا جاءت المسألة من جهة العقيدة فنحن سلفيون نتبع السلف الصالح مع أهل السنة والجماعة، في مسألة الفروع نحن حنابلة حنبليون، أما إحداث هذه التسمية فهذا يُراد منه الصد عن الحق وتسميات باطلة لأن المقصود منها معروف.

جاء الشيخ في «كتاب فضل الإسلام» جاء الدليل من الكتاب أو السنة ثم بعض كلام السلف بعض كلام الصحابة في هذه المسائل.

إذا أخذت مثلا كتاب «مسائل الجاهلية» وجدت أنه رَحِمَهُ اللَّهُ عدد مسائل خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية. لماذا؟ لأن كما ذكر في أوله لأن الضد لا يعرف حسنه إلا بضده.

..... والضدُّ يظهر حسنَه الضدُّ

..... وبضدها تتبين الأشياء

وهذا صحيح لأنك تعلم بهذا الكتاب ما كان عليه أهل الجاهلية وما أمر به الله جل وعلا عن الكتاب أو جاء بالسنة لمخالفة أهل الجاهلية.

أولها في عبادة الله وحده دونما سواه وما كان عليه أهل الجاهلية في ذلك، في الاتباع في كل المسائل التي كانوا عليها سواء في التوحيد أو في مسائل العمل والسلوك.

فكان من منهجه في هذا الكتاب أنه قرر العقيدة طبعا بالكتاب والسنة؛ لكن قرر العقيدة بمعرفة الضد؛ لأنه كيف تتصور ما جاء في الإسلام إلا بمعرفة ما كان عليه أهل الجاهلية، وقد قال بعض السلف: إنما تُنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وإذا لم تعرف الجاهلية كيف كانت وكيف نقل النبي ﷺ الناس من الجاهلية إلىٰ الإسلام.

إذن لم تتعرف إلىٰ الأحوال المشابهة لأحوال الجاهلية وتظن أن كل شيء جائز في الإسلام، الذين علقوا الصور صور المعظمين، والذين عبدوا غير الله جل وعلا، وبنوا القباب علىٰ الكنائس علىٰ القبور وجعلوها معابد، هذا كان عليه أهل الجاهلية، فحذّر منها النبي ﷺ.

إذا أتىٰ أتٍ اليوم وقال: لا، هذا شيء طيب. إذا عرف التاريخ وما كان عليه وما يقابله فإنه حينئذ تتبين لك دلالات النصوص وكيف يوقع النص علىٰ الواقع أو كيف ينزّل النص علىٰ الواقع.

هذه كلمات موجزة في هذا الباب تفتح آفاق دعوية في فهم دعوة الإمام المصلح والمنهج إذ ذاك في تقرير هذه العقيدة والتوحيد، ولا شك أنّنا نرىٰ أن هذه الدعوة بفضل الله جل وعلا وبرحمته ومنته وعونه وأنها تنتشر وتنتشر، فاليوم لا نكاد مذهب لبلد وإلا وتجد فيه طائفة ينافحون عن هذه الدعوة ويدعون إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح ويقررونها في ذلك؛ لكن الواجب عليهم زيادة العلم وزيادة تعرف هدي العلماء وما كانوا يسيرون عليه في طريقة تقريرهم للتوحيد والعقيدة والعمل والسلوك، لنكون شبيهين أو مشابهين لمن سلفنا.

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

أسأل الله جل وعلا أن يرفع درجة الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب بأعلىٰ الجنان، وأن يجزيه عنا خير ما جزىٰ به مصلحا عن إصلاحه، وداعية عن دعوته.

كما أسأله سبحانه أن يوفق الجميع ممن يسيرون علىٰ منهاج هذه الدعوة إلىٰ تحري الحق والنظر فيه وعدم التسرع في ذلك، إنه سبحانه جواد كريم وهو بالإجابة جدير عليه توكلنا وإليه أنبنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

۞۞۞۞

كيف تقرأ

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المحاضرة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فإن موضوع هذا اللقاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وشيخ الإسلام له مؤلفات كثيرة، وكلام كثير علىٰ المسائل في الاعتقاد وفي الفقه وفي التأصيل وفي التفسير وفي شتىٰ العلوم الشرعية الأصيلة.

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتعالىٰ علىٰ مكانته عميق غزير كثير الفوائد جم العوائد؛ ولكن أكثر كلامه يحتاج إلىٰ تبصُّر ونظر، يحتاج إلىٰ من يكون عالمًا بالعلوم الشرعية أو طالب علم فيها حتىٰ يفهم مراده في كلامه.

ووُصف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه إذا تكلم ظُنَّ أنه لا يحسن إلا ذلك الفن، فإذا تكلم في الفقه فهو حامل رايته، وإذا تكلم في العقيدة فهو حامل رايتها، وإذا تكلم في التفسير فكأنه لا يحسن إلا التفسير، وهكذا في شتَّىٰ العلوم حتىٰ إنه قد حقق بعض مسائل نحوية ولغوية وكان قوله فيها هو الصواب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإذا ناظر أو تكلم مع أحد المتخصصين في فن من الفنون أفاده بأشياء لم تكن عنده، فإذا تكلم مع الفقهاء أفادهم بأشياء، وإذا تحدث مع المتكلمين أو الفلاسفة أو الصوفية أفادهم بأشياء لم تكن عندهم من العلوم، وهذا شيء مشهود له به.

وشيخ الإسلام ابن تيمية إمام أثَّر في العالم؛ أثر في المسلمين وجدد الدين فهو مجدد المائة السابعة، وذلك لأنه نصر عقيدة السلف الصالح بمفهومها العام، ونصر ما قرره أئمة السلف بعد أن اندثر كلامهم إلا عند قليل من الناس.

لهذا نقول: إن فهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبني علىٰ أشياء، وأن القارئ لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية يحتاج إلىٰ قراءة بعد العلم بهذه الأشياء، أما أن يكون قارئا لها وقارئا لكلامه كأنه يقرأ في صحيفة، أو كأنه يقرأ كلام مثقف، أو كأنه يقرأ كلام طالب علم عادي هذا يُحدث من اللبس والخلل ما رأينا بعضه.

فكلام شيخ الإسلام ابن تيمية تميَّز بمزايا:

<u>أولا</u>: أنه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يوجز الكلام في مسألة في موضع ويبسطها في موضع آخر، فتجده في بعض المواضع يقول: وقد بسطنا هذه المسألة في موضع آخر. ويكثر ذلك منه.

فإذن كلامه فيه اختصار الكلام علىٰ المسائل في موضع، وبسطها في موضع آخر، وما اختصر فيه يكون هو زبدة كلامه، وما طوَّل فيه يكون هو تفصيل كلامه والاستدلال له والتنظير له.

ثانيا: تميَّز كلامه بأنه ألَّف التآليف فيما يريد وخاصة في مسائل الاعتقاد، فجعل منها تواليف مختصرة، وجعل منها تواليف مطوَّلة، والمختصرة كما سيأتي هي ذريعة المطولة والوسيلة إليها، فمن لم يفهم المختصرات التي ألفها شيخ الإسلام فإنه لن يعيَ معاني المطولات.

فله في المختصرات: «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية»، وله في السلوك «التحفة العراقية»، وله في الكرامات «قاعدة في المعجزات والكرامات» إلىٰ آخره، هٰذه مختصرات يؤصل فيها الكلام، ويكون هو خلاصة ما عنده من العلم في ذلك، وأما المطولات فيبسط فيها القول ويذكر أقوال المخالفين ويذكر ما يحتاج إلىٰ ذكره من الردِّ عليهم.

الأمر الثالث: تميز كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه يؤصل ويستطرد؛ يعني تميز كلامه بتأصيل واستطراد:

فالتأصيل ما يذكر فيه أصل المسألة ويذكر فيه صورتها، ويذكر فيه الحكم عليها.

ثم يستطرد إما ناقلا للأقوال التي تؤيد كلامه، وإما ينقل النظائر التي تدل علىٰ أن قوله الذي ذكره صواب، وأنه هو الراجح، وأنه هو الذي لا يسوغ القول بغيره في بعض المسائل، وإما أن يكون استطر ببيان أقوال المخالفين في هذه المسألة والرد عليها.

فإذا أتىٰ طالب العلم ونظر إلىٰ تأصيله يقف عنده، ثم إذا نظر نظرة أخرىٰ ووجد بداية الاستطراد يضع هنا بداية الاستطراد حتىٰ يفرّق بين كلامه في التأصيل وكلامه في الاستطراد.

وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستطراد إنما هو -كما ذكرتُ- لأسباب قد يكون يذكر النظائر والكلام المستطرد لا يراد منه تأصيل المسألة وإنما يراد منه التدليل علىٰ صحة الأصل؛ إما بتقعيدٍ أو تنظير أو استدلال أو نُقُول أو برد علىٰ مخالف أو بيان ضعف حجة من خالف ذلك التأصيل.

لهذا ينتبه طالب العلم بأنه لا يأخذ كلامه دائما من المستطردات؛ بل يأخذها من التأصيلات؛ لأن الاستطراد قد يكون -كما ذكرتُ- عنىٰ به شيئا عرض فيه لبعض ما يريد من هذه المسألة التي استطرد إليها، كتنظيره لمسألة بمسألة.

مثلا خُذْ كتابه اقتضاء الصراط المستقيم تجد أنه يمكن أن يُلَخَّص في صفحات يعني في أربعين خمسين صفحة؛ لكنه يذكر المسألة ثم يستطرد كثيرا.

كذلك في أول «درء التعارض» تجد أنه رد بردود مختصرة، ثم بعد ذلك استطرد بأخذ الأوجه علىٰ إبطال قانون الرازي وأتباعه باستطرادات مختلفة تبين بطلانه إما من جهة التنظير أو النقول والرد عليها كما ذكرت.

فينتبه طالب العلم أنه إذا نظر في كلام شيخ الإسلام يفرق ما بين التأصيل والتنظير، ما بين التأصيل والاستطراد، ولا يأخذ المسألة دائمًا من الاستطراد.

أيضا من مميزات كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ: أن كلامه يكثر فيه المحكم والمتشابه عنده فيما يقرّر محكم، وتارة في كلامه إما في الاستطراد أو أحيانا في بعض التأصيل يكون من المتشابه.

ونعني بالمحكم ما يتَّضح معناه وبالمتشابه ما يحتمل المعنىٰ أو لا يتضح أو يكون مشكلا علىٰ أصول السلف؛ لأن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كان متابعًا للسلف الصالح لا يخرج عن أقوالهم، وخاصة أقوال أئمة

أهل الحديث كأحمد وباقي الأئمة، فهو قد يورد كلاما ينظر إليه العالم أو طالب العلم ويجده مشكلا وهذا يسمىٰ المتشابه؛ لأن المتشابه موجود في كلام أهل العلم، ويُحلُّ هذا المتشابه بالنظر في المواضع الآخر التي تكلَّم فيها عن هذه المسألة فيكون في الموضع الآخر إيضاح لهذا الموضع الذي اشتبه علىٰ الناظر.

فإذن هٰذه ينبغي التنبه لها وهي أنه في كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ محكما ومتشابها، وهٰذا إنما يعرفه أهل العلم، يعرف الكلام المؤصل الذي يوافق كلام السلف ويوافق كلامه هو في المختصرات كما سيأتي في التطبيق، وكلامه الذي يشتبه يحتمل أنه يريد به كذا ويحتمل أنه يريد به كذا، فنحمل كلامه علىٰ ما نعلمه من طريقته ومن تقريره ومن عقيدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النقطة الخامسة: من مميزات كلامه أنه يكثر النقول، ويسهب في النقل علىٰ أهل العلم، وهذا الإسهاب في النقل للتدليل علىٰ أن ما ذهب إليه ليس متفردا به أو ليس غريبا، كما أكثر من النقول في «الحموية»، وكما أكثر من النقول في مواضع في «درء التعارض»، وفي رده علىٰ الرازي إلىٰ آخر كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

السادس: أنه يكثر الاستدلال، وهذا من مزايا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أدلته التي يوردها كثيرة ومتنوعة، فتجد أنه:

يستدل بآيات القرآن استدلالا مستفيضا.

ويستدل بالسنن ويميز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المقبول منها وغير المقبول، وما أدرجه أئمة السنة قبله في تواليفهم وما لم يوردوه.

كذلك يستدل بالإجماع إذا وجد.

كذلك يستدل بالقياس.

يستدل بالتقعيد الفقهي.

يستدل بأقوال الصحابة فيما يريد تقريره.

يستدل بالتنظير.

وهذه أنواع من الأدلة معلومة في أصول الفقه.

السابع: كثرة استعماله لعلوم الآلة، فيكثر من استعمال أصول الفقه، يكثر من استخدام النحو في الموارد التي يحتاجها، يكثر من استخدام ما يحتاجه من كلام المناطقة وكلام المتكلمين فيما يريد تقريره أو ما يريد الرد فيه علىٰ المخالفين.

الأخيرة: أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستعمل مصطلحات أهل الفنون، ولكل فن مصطلح، وهذه التي يسميها العلماء اللغة العرفية.

فشيخ الإسلام إذا تكلم في مسألة فقهية استخدم كلام أهل الفقه؛ لغة الفقهاء.

وإذا تكلم في مسائل عقدية استخدم لغة ذلك العلم.

وإذا تكلم في مسائل أصولية استخدم لغة الأصوليين.

وإذا تكلم في مسائل لغوية أو نحوية استخدم لغة أهل ذلك الفن.

وإذا تكلم مع أهل السلوك والصوفية استخدم لغة أولئك.

فالناظر في كلامه إذا لم يكن له علم بعلوم الآلة وبمصطلحات أهل الفنون ربما خلَّط في الاصطلاحات، وربما جعل كلمة بمعنىٰ كلمة أخرىٰ، وكلّ كلمة لها معنىٰ لا تشركها فيه الكلمة الأخرىٰ.

فهناك فرق في الأوضاع العرفية اللغوية للكلمات علىٰ حسب استعمال أصحاب كل فن، وبين الاستخدام اللغوي؛ لأن العرف تخصيص والاصطلاح لا مشاحة فيه.

فإذا نظر الناظر في كلام شيخ الإسلام وقرأ كلامه وهو علىٰ غير معرفة بمراده بتلك الكلمات والاصطلاحات انتقل إلىٰ ذهنه أنه يريد من تلك المسألة أو من تلك الكلمات ما في ذهنه من معنىٰ تلك الكلمة، فيقع الخلط كما يقع في كلام عدد ممن ينقلون عن شيخ الإسلام ولا يفهمون مرامي كلامه.

فيستخدم كلمات ينبغي بل يجب أن تُفهم علىٰ مصطلحات أهل الفنون، لا تفهم علىٰ حسب ما يتبادر إلىٰ الذهن؛ لأن لغة العلم محكّمة، ويتميز أهل العلم فيما بينهم ويتفاضلون بمقدار استعمالهم للغة العلم، فكلما كان العالم أكثر استعمالا للغة العلم كلما كان قدرْه وتأصيله أرفع؛ لأن لغة العلم محكَّمة ولأنها تنفي التداخل.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ طبق ذلك كثيرا، فتجده يستخدم المصطلحات التي يستخدمها أهل العلوم.

فإذا كان ثم كلمة تحتمل أكثر من وجه أو ليس فيها ثَم اصطلاح متفق عليه بين الفئات تجد أنه يذكر أن هذه الكلمة مجملة، فهي إن فُسِّرت بكذا فتحتمل كذا وإن فسرت بكذا فتحتمل كذا، وينبغي حملها علىٰ المعنىٰ الصحيح، وخاصة في الكلمات التي يستخدمها المتكلمون ويستخدمها أتباع السلف الصالح، فيكون ثَم فرق بين استعمال هؤلاء واستعمال هؤلاء، أو بين الكلمات التي ربما أنها في مصطلح الحنفية مثلا من الفقهاء لها عرف خاص عندهم وعند غيرهم لها معنىٰ آخر.

وكذلك في الكلمات التي يكون المصطلح الحادث فيها عند أهل الفن مخالف لما كان في العرف الشرعي، لما كان قد جاء في الكتاب والسنة.

وهذا متنوع ويحتاج في بسطه والتمثيل عليه إلىٰ وقت أطول من هذا.

المقصود أن هذا الذي ذكرتُ من النُّقاط هذه من مميزات كلامه، فإذا نظر الناظر في كلامه ينبغي له أن يستحضر هذه المسائل، وأن يفرّق بين الواحدة والأخرىٰ، وأن يتنبّه إلىٰ ما أورده من ذلك فيفهم كلامه علىٰ نحو ما أراده، لا يفهم كلامه علىٰ ما في عقله وتصوُّره من التصورات؛ لأنه إذا فهمتَ كلامه علىٰ ما في ذهنك كنت محكّما لنفسك علىٰ شيخ الإسلام، وإنما يقبل الحكم منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ نفسه؛ لأنه هو الذي استعمل الكلام، وكلامه يُفهم عن طريقه لا عن طريق غيره.

وإذا أشكل شيء من ذلك من كلام شيخ الإسلام وأشكل بعض ما تميز كلامه مما ذكرت في مسألة أو في اصطلاح أو في استعمال أو في استدلال أو في مذهب نقضه أو في مذهب أيّده، وأشكل ذلك فإذا أردت

أن تعلم طريقته ومذهبه فترجع إلىٰ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن ابن القيم في كتبه يفصل كلام شيخ الإسلام، ويبيِّن ما فيه ويكثر الاستدلال له، ويوضحه إيضاحًا مفصلا.

ومن الكلمات المأثورة عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة أنه كان يقول: شيخ الإسلام ابن تيمية يأتي إلىٰ جدار الباطل فيلطمه حتىٰ يتهدّم، وأما ابن القيم فيأخذ هذا الجدار حجرا حجرا فيكسره إلىٰ أشلاء.

وهذا صحيح فإن شيخ الإسلام يرد بالأصول ويرد بالفروع وبالتنظير مرة واحدة، حتىٰ ترىٰ وصف من وصفه بأنه كالموج المتلاطم، أما ابن القيم فهو مرتب، يأتي: الوجه الأول، الوجه الثاني، الوجه الثالث، فيأخذ كل مسألة علىٰ حدا ويورد الكلام عليها مفصلة واضحة، أما شيخ الإسلام فهو يمُوجُ، ولهذا يقع الالتباس في فهم كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ولكلٍّ درجات.

كيف تستفيد أو تقرأ كتب شيخ الإسلام في العقيدة؟

شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما ذكرتُ لكم- جعل كلامه في الاعتقاد متنوعا، فمنها كتب مختصرة وهي أيضا علىٰ درجات في الاختصار، ومنها كتب مطولة، ومنها فتاوىٰ مختصرة، ومنها فتاوىٰ مطولة.

فطريق فهم كلامه أن تُضبط المختصرات.

فمن المختصرات «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية»، وهذه المؤلفات الثلاث مهمة في فهم كلام شيخ الإسلام وفهم مذهبه وطريقته وتقريره للمسائل.

فلابد لطالب العلم حتىٰ يفهم كلام شيخ الإسلام في المطولات وفي الفتاوىٰ -في الأجوبة المطولة- أن يستوعب هذه الثلاث استيعابا تاما، ولهذا كان أهل العلم يقرئون الطلاب هذه الثلاث المختصرات قبل أن يُقرأ عليهم في المطولات؛ لأن هذه المختصرات فيها تأصيل العلم العقدي الذي نصره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيها تأصيل أقواله التي نصر فيها مذهب السلف الصالح وعقيدة السلف الصالح ومنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ.

فلا بد من استيعاب «الواسطية» وفهمها لفظة لفظة، لابد من استيعاب «الحموية»، لابد من استيعاب «التدمرية».

فإذا استوعبت هذه علىٰ قد ما أتاك الله جل وعلا من الفهم ويسره لك، فإنك إذا قرأت بعد ذلك المطولات كردِّه علىٰ الرازي أو «درء التعارض» أو الأجوبة المطولة في الفتاوىٰ كشرح حديث النزول وغير ذلك فإنك تفهم الكلام؛ لأنه مبني علىٰ تأصيل سابق، أما أن تقرأ المطول من كلامه قبل المختصر هذا يحدث في النفس إلتباسا؛ لأنه لا يمكن أن تقيم أعلىٰ البناء إلا بإقامة أسفله، فإذا أقمت الأعلىٰ دون الأسفل كان إما علىٰ وشك تهدم أو لم يكن بناءً مستقيما.

لهذا شيخ الإسلام رتّب لكَ: فأعطاك «الواسطية»، ولما سئل عن الاعتقاد في الصفات كتب «الحموية» أطول منها، وكتب «التدمرية»، وهي مراتب: «الواسطية» هي الأولىٰ، «الحموية»، «التدمرية».

فإذا ضبطت «الواسطية» وهي تشمل معتقد السلف الصالح عامة؛ لكن ليس فيها ردود وليس فيها أقوالا للمخالفين، وإنما فيها الآيات والأحاديث في مسائل الصفات، وكذلك في مسائل الإيمان وفي

مسائل القدر، ثم الكلام علىٰ منهج أهل السنة والجماعة في إنكار المنكر، وفي مسائل الإمامة والصحابة، وزوجات النبي ﷺ، والكلام علىٰ بقية مسائل الاعتقاد العام.

«الحموية» فيها تفصيل أكثر، وذكر فيها نقول كثيرة عن أهل العلم من السلف في تأييد طريقة السلف، وما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، كذلك فيها تأصيل لمذاهب المخالفين، كتأصيل لمذهب الفلاسفة من قولهم بالتجهيل وأهل الوهم والتخييل، إلىٰ آخره من مما فيه تأصيل لكلامه في مصنفات أخر.

«التدمرية» فيها تقعيد للردود، وبيان لمسألة الشرع والقدر ومسائل الصفات، وتأصيل القواعد التي بها يرد علىٰ المخالفين، ونقض شبه أولئك من أصولها ومن جذورها.

فإذا أردت أن تفهم المطولات فلا يمكن ذلك مطلقا إلا بفهم المختصرات، يمكن أن تفهم بعض كلامه؛ لكن يشكل البعض الآخر، ويشكل البعض الآخر، حتىٰ تكثر المشكلات، والعلم إنما ينبني علىٰ تصور سليم من أول لحظة.

واحرص -كما أوصىٰ بذلك عدد من المشايخ- أن لا تُدخل ذهنك إلا الصورة الصحيحة للمسائل، سواء كان في العقيدة أو في الفقه، لا تدخل في ذهنك صورة مشوهة، لا تدخل في ذهنك صورة غير واضحة للمسألة، فإذا أدخلت صورة فهمتها من بعض الأوجه ولم تفهمها من بعض ربما أتت الحاجة إليها فلم تستفد منها، وربما أتت الحاجة إليها فقررتها علىٰ غير طريقة أهل العلم وعلىٰ غير طريقة شيخ الإسلام فيما ذكر.

إذن فلابد أن تتصور المسائل تصورًا أول ما ترد عليك، تحرص علىٰ أن لا تدخلها ذهنك إلا بوضوح، هذا بعد ذلك ننتقل منها إلىٰ غيرها، أما إذا جمعت شتات من المعلومات وشتات من المقروءات دون تأصيل لهذه المسائل، فإنها تلتبس عليك هذه المسائل، ويحصل كما نرىٰ ونسمع يحصل التباس، فبعضهم يجعل مسألة من مذهب السلف الصالح وليست من مذهبهم، نعم هو قرأها لكن ما قرأها بتأصيل، يذكر أن مسألة أن شيخ الإسلام يرىٰ فيها كذا ولكنه يفهمها علىٰ غير وجهها، يأخذها من المستطردات ما يأخذها من التأصيلات، يأخذها من الكلام المحتمل دون الكلام الواضح.

كلامه في الاعتقاد -شيخ الإسلام ابن تيمية- تارة يكون محتملا لا تأخذ منه تقرير المسألة كما يكون في الاستطرادات كثيرا، وتارة يكون واضحا جليا، وهذا الواضح والمحتمل إنما تفهمه إذا كنت قد أحكمت المختصرات التي ذكرت لك وهي «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية» تتضح لك مراداته بكلامه، بعد فهم مصطلحات العلوم ولغة أهل العلم كما ذكرته لك سالفا، هذا بالنسبة للاعتقاد.

وثَم قسم آخر للفقه والمسائل الفقهية أعرض له عرضا موجزا في الدقيقتين التي بقيت.

فكلام شيخ الإسلام في الفقهيات ليس سهلًا، وتقريره في مسائل الفروع والفقه ليس سهلا؛ وذلك لأنه جمع في ذهنه أقوال أهل العلم المختلفة، جمع في ذهنه أقوال السلف وأقوال الأئمة المتبوعين رحم الله الجميع، وجمع في ذهنه الأدلة لهؤلاء وهؤلاء.

ولهذا نقول: تميز كلام شيخ الإسلام في الفقهيات بالذات بتصوير المسائل، وبكثرة الاستدلال عليها، وبتنظيرها فقهيا، وبكثرة التعليل بالقواعد الفقهية، وبذكر الجمع والفرق وهو فن من الفنون القواعد الفقهية، وبالتعليل بمقاصد الشريعة وبالرجوع إلىٰ الأصول من جهة المقاصد التي كانت في زمن النبي ﷺ، ومقصد الشارع من الأحكام كما هو قاعدته في المعاملات ونظريته في البيع.. إلىٰ آخر ذلك، كذلك يكثر من الترجيح فيما يذكر.

وهو في كل ذلك متبع لمذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فإن شيخ الإسلام في أصوله وفي تصويره للمسائل حنبلي المذهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فتفهم كلامه بعد فهم كلام أهل المذهب.

ولهذا إذا أردت أن تتصور مسألة فقهية تحدث عنها شيخ الإسلام في العبادات أو في المعاملات أو في الأمور الاجتماعية أو في الحدود والجنايات أو في السياسة الشرعية إلىٰ آخره، تقرأ قبل ذلك كلام الحنابلة في مختصراتهم، أو اقرأ كلام أبي محمد الموفق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المغني»، فإنك ترىٰ في كلامه ما يؤصل لك المسألة ويصورها لك، ثم بعد ذلك إذا قرأت كلام شيخ الإسلام يكون التصور قد سبق كلامه؛ لأنه هو يعرض للخلاف مباشرة، ويعرض للأقوال مباشرة، ويذكر الأدلة وهذه لابد من مقدمة لها، والمقدمة أن ترعىٰ كتب الحنابلة من جهة التصوير ومن جهة التقعيد والأقوال المختلفة والردود عليها من كتبهم، بعد ذلك ترىٰ كلام شيخ الإسلام.

لهذا ترىٰ أنه يذكر الروايات ويذكر الأقوال عن الإمام أحمد وهذه مستفادة من كتب الحنابلة.

هذه كلمات مختصرة في مزايا أو ميزات كلام شيخ الإسلام ورعايتها ينبني عليها إن شاء الله الفهم الصائب لكلام شيخ الإسلام، والوقت قصير والموضوع يحتاج إلىٰ جلسات طويلة.

لكن أسأل الله جل وعلا أن ينفع بهذا القليل وأن يبارك لي ولكم في العلم والعمل.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المحاضرة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فهذه الكلمة صلة لكلمة سبقت في الفصل الماضي حول خصائص كلام شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ وجه العموم، وفي العقيدة علىٰ وجه الخصوص.

وقد ذكرنا فيما مضىٰ أنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تميَّز كلاه بمزايا منها ثَمانٌ مهمة وقد مرت، وتلك الثَّمان تنطبق علىٰ كلامه في العقيدة وعلىٰ كلامه في مسائل الفقه وعلىٰ كلامه في مسائل التفسير وغير ذلك.

وحديثُنا اليوم عن موضوع عنون له بـ:

كيف تقرأ مباحث شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية؟

وكلام شيخ الإسلام في الفقه ليس موجودا في مصنف معروف له؛ يعني أنه لم يؤلف مؤلفا في الفقه استوعب فيه مسائل الفقه حتىٰ يكون هذا الكلام دراسة لما كتبه في ذلك المصنَّف، وإنما كان كلامه في الفقهيات مبعثرا إما علىٰ شكل بحوث في بعض مؤلفاته، وإما علىٰ صورة فتاوىٰ أجاب بها المستفتين، وإما علىٰ شكل قواعد أوردها أو نقول نقلت عنه عن طريق تلامذته ونحو ذلك.

ولهذا نقول: إن الناظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبغي له أن يكون مستحضرا مزايا كلام شيخ الإسلام التي سلفت، وأن يتنبه أيضا لما سيأتي من خصائص لكلامه في الفقهيات رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

شيخ الإسلام كما هو معلوم أحد المجتهدين الكبار، وأُطلق عليه أنه مجتهد مطلق، وهو في الحقيقة جمع بين أنواع الاجتهاد فهو:

مجتهد مطلق يعني غير مقيد بمذهب من المذاهب.

وكذلك هو مجتهد في المذهب؛ يعني في المذهب الحنبلي الذي درسه وتتلمذ له أو لحياته.

وهو مجتهد أيضا في التخريج في المذهب.

وهو مجتهد أيضا في الفتوىٰ.

وهذه أنواع من طبقات المجتهدين، فالمجتهد تارة يكون مجتهدا مطلقا وهو أعلاها، وتارة يكون مجتهدا في المذهب، وتارة يكون مجتهدا في التخريج، وتارة يكون مجتهدا في الفتوىٰ.

وفوق ذلك كله أن يكون مجتهدا مستقلا كالأئمة الأربعة رحمهم الله ونحوهم كابن حزم الذين اجتهدوا في الأصول وفي الفروع، ونعني بالأصول نعني أصول الفقه والكلام علىٰ الرجال يعني لا يقلدون غيرهم في الحكم علىٰ أي وسيلة من وسائل إثبات الحكم الشرعي.

لهذا شيخ الإسلام كان مجتهدا في هذه جميعا، وهذه لها أثر إذا استحضرتها في رعاية كلامه ومواقع حججه وبيناته.

مزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في الفقه:

أولا: إذا صوَّر المسائل فإنه يصورها في الغالب علىٰ مبنىٰ تصوير الحنابلة رحمهم الله لتلك المسائل، فإنه درس المذهب الحنبلي وتتلمذ له وقرأه وحفظ منه ما حفظ، وتصويره للمسائل إذا عَرَضَها مبني علىٰ تصوير الحنابلة رحمهم الله، وهذا يعني أن فهم كلامه في الفقهيات لابد أن يُقَدِّم الناظر فيه لنفسه بالنظر كتب الحنابلة حتىٰ يكون تصوير المسألة واضحا، حتىٰ تكون صورة المسألة في ذهنه مطابقة لما سيصفه شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن الأخطاء في ذلك أن من الناس من يأخذ صورة المسألة وطريقة عرضها من بعض كتب الحديث مثلا أعني شروح الأحاديث أو من بعض كتب الشافعية كالمجموع أو من بعض كتب المذاهب الأخر كالمحلىٰ أو نحو ذلك، ثم ينظر في كلام عالم كشيخ الإسلام ابن تيمية فيحصل له خلل يقل أو يكثر في صورة المسألة في الذهن، وإذا خلَّت صورة المسألة في الذهن لاشك أنه ما يكون بعد ذلك من الاستدلال والتعليل سيكون في التصور ناقصا.

المزية الثانية: من مزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ انه تميز في كلامه الفقهي بسعة إطلاعه علىٰ مذاهب الناس، فهو واسع الإطلاع في المذهب الحنبلي، فهو يورد الروايات عن الإمام أحمد روايتين وثلاث وربما أكثر في بعض المسائل، ويورد الأقوال في المذهب أيضا بأسماء أصحابها، ويورد أحيانا أقوال الأئمة الآخرين بقية الأئمة الأربعة واختلاف الأقوال عنهم، وكذلك يستحضر أو هو واسع الإطلاع في معرفة مذاهب السلف في المسائل.

ولهذا تميز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ باستحضار الأقوال في المسألة حتىٰ إنه يستوعب ما قيل فيها، فلا يتكلم في المسألة إلا بعد أن يعرف المذاهب فيها، وهذا يورده بكثرة.

فطالب العلم إذا انتبه لهذه الخصلة عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لا يشتت ذهنه؛ لأن كثرة إيراد المسائل كثرة إيراد أصحاب الأقوال لتلك المسائل هذه قد تشتت الذهن، وطالب العلم يهتم حين قراءة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بصورة المسألة قبل معرفة الخلاف، ثم معرفة الخلاف العالي فيها في المذهب؛ لأنه هو الذي درستموه وتصوره أقرب، ثم بعد ذلك ينتقل إلىٰ الخلاف بين الإمام أحمد والأئمة الآخرين، ثم إلىٰ خلاف السلف في ذلك أو خلاف الأئمة المتبوعين الذين اندثرت مذاهبهم كالليث والأوزاعي إلىٰ آخر ذلك.

إذن شيخ الإسلام لسعة علمه يخلط هذه جميعا، وخلطها لاشك أنها من أسباب كونه مجتهدا مطلقا اطلع علىٰ كلام الناس وتوسع فيه؛ لكن كثرة نقل الخلاف والأقوال ينبغي لطالب العلم أن يلحظها حتىٰ لا يتشتت ذهنه حين قراءة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الفقه.

المزية الثالثة: من مزايا كلامه في الفقهيات كثرة استدلال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالنصوص؛ أعني بالقرآن والسنة، والقرآن يعني بالقراءات، والسنة يعني بمختلِف الروايات، وهذا ظاهر بين وهو يورد الحجج من الكتاب والسنة، وإذا عرض من الأدلة من السنة فإنه يدخل فيها بالكلام علىٰ صحة الأحاديث وعلىٰ الرجال، وهذا في تارات ينفرد به؛ يعني يكون نظره فيه نظر مجتهد استقل بالحكم علىٰ الحديث واستقل

بالاجتهاد في الرجل في بعض الأحيان، وإذا نقل كلام الأئمة في التصحيح والتضعيف اختار منه، وإذا نقل كلام علماء الجرح والتعديل أيضا رجَّح ما يظهر له.

وهذا يعني أن كلامه في ذلك قد يكون موافَقا عليه عند غيره من الأئمة وقد لا يكون موافقا عليه، فطالب العلم إذا نظر في دليل مسألة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ينبغي له أن ينظر إلىٰ كلام الأئمة الآخرين في هذه حتىٰ يظهر له كيف اجتهد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الحديث حتىٰ وصفه بهذا الوصف من الحسن أو الصحة أو الضعف إلىٰ غير ذلك.

وشيخ الإسلام يضعف كثيرا بالنظر إلىٰ المتن، فهو ينظر إلىٰ المتون بقوة ما أدركه من العلم نظر مجتهد، فيضعف ويصحح بالنظر إلىٰ المتن، ولو كان الإسناد ضعيفا، ولو كان الإسناد صحيحا، فربما كان من الأسانيد ما هو ضعيف وحسَّن الحديث لمتنه، وربما كان من الأسانيد ما هو صحيح وضعف الحديث أيضا لمتنه، والعكس كذلك ربما كان من الأسانيد ما هو ضعيف وصحح الحديث لمتنه، وهذه قوة نظر مجتهد مطلق.

وهكذا كان الأئمة أحمد والشافعي ومالك وأبو حنيفة وغيرهم يفعلون من قوة إدراكهم لقواعد الشرع ومعرفتهم بمقاصد الشارع.

المزية الرابعة: في كلامه في الفقهيات أنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ظهر في كلامه تطبيق أصول الفقه، فهو حين يتكلم علىٰ ويورد أدلتها يستنبط، وهذا الاستنباط يوافق القواعد المعروفة في علم أصول الفقه.

ومن المعلوم أن علم أصول الفقه مبني علىٰ أربعة أركان:

- الحكم.
- والدليل.
- والاستدلال.
- والمستدل.

وشيخ الإسلام يخلط هذه جميعا ويستحضرها استحضارا واحدا، فتارة تجد أنه في المسألة الواحدة يأتيها من جهة النظر في الحكم، ومن جهة النظر في الاستدلال، ومن جهة النظر في الركن الأخير وما فيه من قواعد الترجيح، إلىٰ غير ذلك.

فمن لم يدرك أصول الفقه فإنه يكون نظره في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ضعيفا، وهذا ظاهر في أن من الناس من لم يتصور أدلة شيخ الإسلام ابن تيمية، وربما استدل بدليل أورده شيخ الإسلام ابن تيمية ولم يدرك موقع الاستدلال، أورد الدليل لكن ما وجه الاستدلال؟ لم يدرك ذلك، وذلك لأن معرفة الاستدلال مبني علىٰ وسيلة وهي علم أصول الفقه إذْ الاستدلال هو الركن الثالث من أركان أصول الفقه، وهذا يحتاج إلىٰ دقة نظر في المطالع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في أصول الفقه.

وهو في أصول الفقه ليس مقلدا تماما وإنما له اجتهادات في مسائل من أصول الفقه، لم يجتهد في كل المسائل كاجتهاد الأئمة المستقلين أحمد والشافعي ومالك إلىٰ آخر أولئك؛ ولكنه له اجتهاد في بعض

المسائل مدون اجتهاده في «المسودة في أصول الفقه»، فمن المسائل ما يوافق فيها مذهب الحنفية، ومن المسائل ما يوافق فيها مذهب الشافعية؛ يعني في أصول الفقه، وإن أكثر اتباعه في مسائل أصول الفقه لكلام أئمة الحنابلة رحمهم الله تعالىٰ.

المزية الخامسة: كثرة إيراده للنظائر، وهذا علم مهم أعني به علم النظائر في الفقه؛ لأن المسائل الفقهية إذا تواردت وصارت نظائرها كثيرة قويت المسألة وقوي تأصيلها، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يورد النظائر ويكثر منها فيما أسميناه في المحاضرة السالفة بالاستطراد، فإنه إذا أصل مسألة يبدأ بذكر النظائر لهذه المسألة التي يريد منها أن يبيِّن أن هذه المسألة موافقة لنظائر كثيرة جاء الشرع بالتَّوافق في الحكم فيها مع المسألة الأصلية التي عرض لها.

وهذا لاشك أنه من علوم المجتهدين؛ لكن ليس كلٌّ يدرك معنىٰ هذه النظائر التي يوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه.

المزية السادسة: من وزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ التعليل بمقاصد الشريعة، وهذا مما انفرد به شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوىٰ فإنه أكثر جدا من التعليل بمقاصد الشريعة، نعم كان العز بن عبد السلام الصوفي الأشعري كان كثير الإيراد لذلك؛ أعني لإيراد الفتاوىٰ بناء علىٰ المقاصد، وله فيها مؤلفات من «القواعد الكبرىٰ» و«القواعد الصغرىٰ» وغير ذلك؛ لكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تميَّز بعرض مقاصد الشريعة علىٰ أصول السلف، وهذه لم يسبق إليها علىٰ نحو ما أورد في فتاويه وفي بحوثه.

واعتنىٰ في مقاصد الشريعة بتصنيف الفروع علىٰ المقاصد، مقاصد الشريعة لها أقسام منها مقاصد راجعة إلىٰ المكلف، ومنها مقاصد راجعة إلىٰ أحكام العبادات، منها مقاصد راجعة إلىٰ أحكام المعاملات، ومنها مقاصد راجعة إلىٰ الأحكام العامة السياسة والسياسة الشرعية وغير ذلك.

شيخ الإسلام صنف الفروع بناء علىٰ المقاصد، وهذه لاشك تحتاج إلىٰ نظر من هضم أدلة الشرع والمسائل والتحقيق فيها حتىٰ يستطيع أن يُلحق كل مسألة بمقاصدها في الشرع.

وهذه ينبغي لطلاب العلم أن يهتموا بها؛ لأن المسائل الفقهية -أعني حكم المسائل الفقهية- هذا ينبني علىٰ مقاصد الشريعة، شيخ الإسلام كثيرا ما يذكر أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وهذا ينبني عليه كل الأحكام الفقهية، فإذا نظر في مسألة لم ينظر إليها من جهة الدليل فقط إذا تنازع المسألة عدة أدلة، وإنما ينظر إليها مع ذلك بهذه الأمور التي ذكرنا من أصول الفقه والنظائر والمقاصد والقواعد الفقهية وما سيأتي.

إذن فمقاصد الشريعة من العلوم المهمة ومن أخطاء الناظر في كلام شيخ الإسلام الفقهي أنه إنما يهتم حين النظر للدليل من النص، وهذا لاشك أنه ضعف فقهي راجع إلىٰ عدم معرفة العلم علىٰ حقه، وإنما الناظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبغي له أن يدرك ما تنبني عليه الأحكام، والأحكام لا تنبني فقط علىٰ الدليل من الكتاب والسنة، وإنما تنبني علىٰ أشياء كثيرة معروفة عند المحققين من أهل العلم، فمن لم يهتمَّ بكل مسألة يوردها شيخ الإسلام ابن تيمية -أعني من هذه المسائل التي أوردها الثَّمان- فإنه ربما نظر إلىٰ المسألة بغير النظر الذي تستحقه.

المزية السابعة في كلامه: التعليل بالقواعد الفقهية، شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كثير التعليل فيما يورده في المسائل الفقهية بالقواعد، وسواء كانت القواعد العامة المتفق عليها بين المذاهب أم القواعد الخاصة في المذهب الحنبلي، أو في غيره من المذاهب، فهو يكثر التعليل، والقواعد الفقهية بها يتم فهم المسائل الفقهية علىٰ نسق واحد؛ لأن القواعد تجمع المسائل بحيث لا يكون ثمة تناقض بين هذه المسألة وتلك المسألة.

ومن عجائب من يقرؤون كلام شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهي أن منهم من يرجح تارة كلام شيخ الإسلام في مسألة ويرجح كلام غيره في مسألة أخرىٰ، وهذا عند الناظر في الفقه نظر مجتهد متعمق لا يُقبل البتة؛ لأنه يجد أن الترجيح كان بناء علىٰ نظر في المسألة بانفرادها، وهذا ليس نظر مجتهد وليس نظر عالم؛ بل العالم إذا نظر في مسألة بالنظر في الأدلة وباعتبار ما جاء فيها فإنه إذا نظر في مسألة أخرىٰ لا يخلي نظره من كل المسائل التي تلحق بالقاعدة التي تندرج تحتها هذه المسألة التي يريد أن يجتهد فيها.

ولهذا شيخ الإسلام لا تجد في فتاويه ولا في اختياراته تناقضا بين المسائل.

كذلك المذاهب تجد مثلا المذهب الحنبلي في اختياراته لا تجد يعني فيما عليه المتأخرون لا تجد تناقضا كذلك المذهب الشافعي كذلك المذهب الحنفي؛ لأنهم يبنون علمهم علىٰ القواعد، تارة يكون في المسألة دليل ضعيف لكن يقوي هذا القول أنه مندرج تحت قاعدة لو قلنا بهذا الدليل فيها لانخرمت القاعدة في نظائر أخرىٰ، وهذا يسبب التناقض، ومن المعلوم أن الشريعة لا تكون متناقضة في الأحكام المتماثلة كما قررها شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدة وابن القيم، فإنهم قرروا أن الشريعة لا تفرق بين متماثلين ولا تساوي بين مفترقين.

وهذا مما ينبغي أن يهتم به طالب العلم كثيرا في الاستفادة من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في الفقه، فإن من طلبة العلم من ينظر في المسألة بمجردها، ينظر الأدلة ويقول هذا الدليل صحيح هذا الحديث إسناده صحيح ومعنىٰ ذلك يأخذ بالحكم في المسألة، وإذا نظر في مسألة أخرىٰ نظر إليها من جهة الأدلة فقط دون بقية ما يستدل به في المسألة.

وإذا تأملت كلامه وجدت أن أخذه بتلك المسألة بذلك القول يناقض أخذه في المسألة الأخرىٰ بالقول الآخر؛ لأن هذا مبني علىٰ قاعدة وهذا مبني علىٰ قاعدة فيتصادم المأخذان، وهذا عيب لاشك عند للناظر في الفقه؛ لكن لأجل ضعف العلم بالفقه والضعف في علوم الشريعة جميعا في هذا الزمان لا يحس الناس -أعني الخاصة؛ طلبة العلم- لا يحسون بهذا التناقض وهذا من الضعف الذي ينبغي تداركه بالتأمل في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وكيف أنه في مسألة يختار قولا وفي مسألة أخرىٰ يختار القول الموافق لذلك القول، وهذا له كلاه آخر يطول.

المزية الثامنة: من مزايا كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يطبِّق في كلامه الفقهي ما يسمىٰ عند المجتهدين بعلم الجمع والفرق؛ لأن المسائل مجتمعة ومتفرقة فالمسائل المجتمعة يلحق بالمسألة المنظور فيها الحكم الذي أُعْطِيَتْهُ المسألة الأخرىٰ التي تقرر الحكم فيها الدليل، فإذا أتىٰ المجتهد فينظر في المسألة بما يجمعها مع المسائل الأخرىٰ التي اتضح دليلها أو التي اتفق العلماء عليها ونحو ذلك.

كذلك في الفرق وهو المسائل المشتبهة صورة ولكنها تختلف حكما هذا مما اعتنىٰ به شيخ الإسلام، فلا تجد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفرق بين المجتمِعات ولا يجمع بين المفارِقات في المسائل الفقهية.

هذه خصائص عامة لكلام شيخ الإسلام لابد من رعايتها والنظر فيها حتىٰ تتنمَّىٰ عند طالب العلم ملكة النظر في المسائل الفقهية، وحتىٰ يتدرج في تربية نفسه علميا في إدراك لكلام أهل العلم الفقهي، والناس في هذا الزمن -أعني في الفقه- أخذوا فيه بثوب واسع ولكن التحقيق فيه علىٰ طريقة المتقدمين قليل قليل.

الفقرة الثانية من كلامنا:

إذا قرأت كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة من المسائل:

فأولا ينبغي إذا أردت المسألة التي تقرأ لشيخ الإسلام فيها أن تراجع كتب المذهب الحنبلي حتىٰ يتم تصور المسألة علىٰ الصواب، فأولا تراجع كتب المذهب تتصور المسألة تصورا، فإذا تصورت المسألة ومأخذ المسألة وضابطها في الباب الذي ورد.

وبعد ذلك ترجع إلىٰ كرم شيخ الإسلام وتقرأ فإذا قرأت كلام شيخ الإسلام بطوله، ميزت بحسب تطبيق الدرس السابق أو المحاضرة السابقة في كلامه في الاستطراد وفي التأصيل والتفريع إلىٰ آخره، تذكر خلاصة لرأي شيخ الإسلام بعد قراءة المبحث كاملا، هذه الخلاصة التي تستنتجها؛ لأن من كلام شيخ الإسلام ما تجد أنك لا تخلص معه لرأي واضح؛ لكن إذا نظرت وتأملت ربما خلصت في مسائل كثيرة برأي.

إذا خلصت إلىٰ هذا الرأي تراجع في المرحلة الثالثة كلام تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية وما ذكروه من اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وأعني بهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن ابن القيم كتبه مشهورة كـ«زاد المعاد» و«إعلام الموقعين» إلىٰ آخرها، وأما ابن مفلح فإنه يذكر كثيرا في كتابه «الفروع» وفي كتابه «الآداب الشرعية» يذكر رأي شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: قال شيخنا، أو قاله شيخنا، وهذا يعني أن هذه المسألة التي أوردها صاحب الفروع أنها هي قول شيخ الإسلام ابن تيمية الذي خلص إليه وعرفه تلامذته عنه رحمهم الله تعالىٰ، كذلك هناك كتب خاصة ذكرت اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية كـ«الاختيارات» وكـ«مختصر الفتاوىٰ» وفي «الإنصاف» أيضا للمرداوي يذكر فيه كثير من المسائل اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي لفظ الاختيار ما يشعر بأنه يختار من أقوال غيره، وهذا يكفي في أنه لا يتفرد بقول من الأقوال فيما اختار، إذا قلنا اختار شيخ الإسلام يقتضي قول القائل اختار أن هناك أقوالا اختار منها، وهذا واقع وصحيح فإن هذه الاختيارات مبنية علىٰ معرفته وعلمه بأقوال من سبقه من أهل العلم في تلك المسائل، فإنه ليس لشيخ الإسلام مسألة خرق فيها الإجماع البتة؛ بل ما من مسألة إلا وقد سُبق إلىٰ القول فيها إما سبقه الجمهور أو سبقه كثير أو سبقه قلة، المهم أنه لا يخترع المسائل اختراعا وإنما يتابع من قبله ولا يتدرج في مسألة بقول لم يسبق إليه.

بعد ذلك تأتي إلىٰ مراجعة الكلام مرة أخرىٰ حتىٰ يتَّفق مع خلاصة الرأي الذي ذكره ابن القيم وابن مفلح وصاحب الاختيارات، يتفق لك كلام شيخ الإسلام، فتبدأ من البداية -هذه آخر مرحلة- وأنت تتصور الحكم الذي خلص إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، بعد ذلك إذا بدأت تعرف كيف يذهب ويجيء ويتموج في إيراد الأدلة وإيراد التعليلات والقواعد والمقاصد حتىٰ يكون عند طالب العلم:

أولا: فهم لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثانيا: معرفة ودُربة لكيف تعالج المسائل الفقهية.

المسألة الأخيرة إذا اختلفت الفتاوىٰ والنقول عن شيخ الإسلام، فمثلا تجد في الفتاوىٰ «مجموع الفتاوىٰ» التي جمعها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة، تجد أنه ربما وجدت فتويين متناقضتين، يعني إحداهما علىٰ قول وإحداهما علىٰ قول آخر، هذا إذا عرفت المتقدم من المتأخر فإن كلام شيخ الإسلام المعتمد هو المتأخر من الفتويين المتأخر زمانا لا موضعا في الفتاوىٰ؛ المتأخر زمانا، وإذا لم تدرك وهو الأكثر فإنك ترجع إلىٰ الكتب التي أسلفتُ لك فيما ذكره ابن القيم وابن مفلح وصاحب الاختيارات يكون هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وهذا خلاصة لهذا المبحث المهم وهو الذي عُنون له بـ:

كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة.

ولاشك أن هذا يعطيك لفتة في أن العلم ينبغي أن يؤخذ بحقه، وأن يؤخذ بجد، ولا يؤخذ بالأماني، فإن العلم صارعه الشباب والصغار؛ ولكن العلم في السابق لا يصارعه إلا الرِّجال الفحول، وهذا من نكد الزمان وأهله، لٰكِن ينبغي لطلبة العلم الحريصين أن يكونوا علىٰ بينة مما ذكرنا وأن يسعوا في أخذ العلم كما أخذه العلماء السالفون، فإنه بذلك تقوىٰ الملكة وتبرأ ذمة المرء في النظر في نصوص الشريعة، فإن التجرؤ علىٰ النظر في نصوص الشريعة دون استعداد ودون أخذ للمسألة بحقها هذا لاشك أنه يجر المرء إلىٰ الإثم؛ لأنه يقول علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ ما لا يعلم؛ لأنه ليس عنده وسائل العلم.

أسأل الله لي ولكم أن يشرح صدورنا وأن يوفقنا وأن يلهمنا القول والعمل والصواب فيهما.

و صلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.